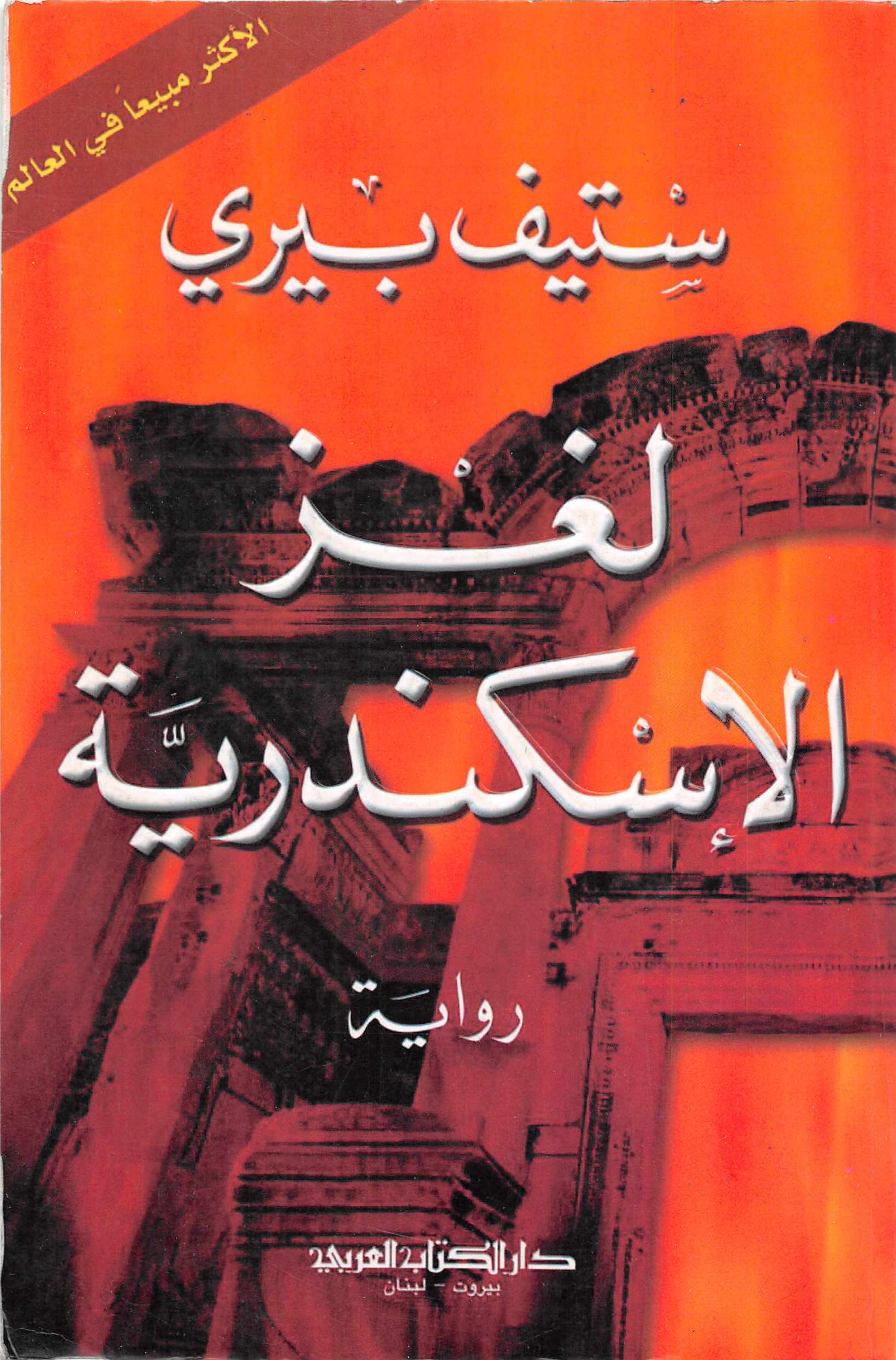

الأكثر مبيعاً في العالم
ستيف بيري
لغز الإسكندرية
رواية
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



تقاعد كوتون مالون من عمله في المخابرات ليعيش حياة هادئة كتاجر للكتب النادرة. لكن صفو حياته تعكّر عندما تلقّى رسالة مجهولة المصدر عبر بريده الإلكتروني كتب فيها: "لديك شيء أريده. أنت الوحيد الذي يعرف كيفية الوصول إليه. أمامك 72 ساعة للحصول عليه، وإن لم أتلقَّ اتصالاً منك، ستفقد ابنك". تؤكد زوجته السابقة أن التهديد حقيقي وأن ابنهما المراهق قد خطف فعلاً. وعندما تحترق مكتبته بالكامل في كوبنهاغن، يتّضح أن الضالعين يسعون وراء مكتبة الإسكندرية المفقودة.

كانت مكتبة الإسكندرية مهد الأفكار التاريخية والفلسفية والأدبية والعلمية والدينية، لاحتوائها على مجموعة من المعارف القديمة المهمة جداً. وقد اختفت هذه المكتبة قبل نحو 1500 عام، ولم يتمّ العثور على أي أثر لهذا الكنز الأدبي. ومنذ ذلك الحين والبحّاثة وصيّادو الثروات يتحيّنون الفرصة للوصول إلى عطاياها السخية من حكمة ومعرفة.

وها هو تكتّل احتكاري من أثرياء العالم الذين يتمتّعون بنفوذ قوي يسعى بشكل يائس ومتهوّر إلى اختراق الجدران المقدّسة للمكتبة. ومالون وحده يملك المعلومات التي هم بحاجة إليها. ويراهن هؤلاء على الحصول على مستند قديم وخطير لا يبدّل مصير الشرق الأوسط فحسب بل يهزّ أيضاً استقرار العالم.

يجوب مالون الكرة الأرضية ملاحقاً من قاتل مرتزق بحثاً عن إجابات، ويوصله بحثه إلى إنكلترا والبرتغال، وحتى إلى أعلى المستويات في الحكومة الأميركية. وسيكون لنتائج رحلته في عمق صحراء سيناء أصداء وانعكاسات عالمية...


9 789953 277998

لغــز
الإسكنـدريـّة

سِتيف بيري

لغز الإسكندريَّة

رواية

ترجمة

حسان بستاني

دار الكتاب العربي

بيروت – لبنان

لغز الإسكندرية

ISBN: 978-9953-27-799-8

Authorized Translation from the English Language Edition:

The Alexandria Link

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص.ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 2200 1107 لبنان
Tel (961 1) 800811-862905 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
Our Web site dar-alkitab-alarabi.com موقعنا على الوب
academiainternational.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

المقدمة

فلسطين

نيسان/ أبريل 1948

نفد صبر جورج حدّاد وهو يرمق الرجل المقيَّد إلى الكرسي بنظرات غاضبة. وعلى غراره، كان السجين يملك ملامح رجل سوريّ أو لبنانيّ ببشرته السمراء، وأنفه الأعقف، وعينَيه البنّيّتَين الغائرتَين. ولكن هناك أمراً ما في شأن هذا الرجل لم يعجب حدّاد بكل بساطة.

"سأطرح السؤال مرّة أخرى واحدة فقط. من أنت؟"

كان جنود حدّاد قد ألقوا القبض على الغريب قبل ثلاث ساعات من بزوغ الفجر بينما كان يسير بمفرده وهو أعزل. وكان ذلك بمثابة عمل أخرق من قِبَله. فمنذ أن قرّر البريطانيّون في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي تقسيم فلسطين إلى دولتَين، إحداهما عربيّة والثانية يهوديّة، احتدمت الحرب بين الجانبَين. ومع ذلك، فقد دخل هذا الإنسان الطائش مباشَرةً إلى موقع عربي دون إبداء أي مقاومة، ولم يقل شيئاً منذ اللحظة التي جرى فيها تقييده إلى الكرسي.

"هل سمعَتني أيها المعتوه؟ سألتك من تكون." وكان حدّاد يتكلم بالعربيّة، ومن الواضح أن الرجل قد فهم عليه بوضوح.

"أنا حارس."

لم يعنِ له الجواب شيئاً. "ماذا تقصد؟"

"نحن حُماة المعرفة."

لم يكن حدّاد في مزاج يسمح له بحلّ الألغاز. ففي اليوم السابق بالضبط،

هاجمت المنظمة اليهوديّة السرّيّة قرية مجاورة. وسيق أربعون فلسطينيّاً، رجالاً ونساء، إلى مقلع للحجارة وقُتلوا رمياً بالرصاص؛ هذا ما كان عليه الحال. فقد كان العرب يُقتَلون عَمداً ويُطرَدون، وتُصادَر الأرض التي ظلت عائلاتهم تشغلها طيلة ستمئة عام: إنها النّكبة. *وكان من الضروري أن يكون حدّاد في الخارج يقاتل العدوّ، لا أن يستمع بدلاً من ذلك إلى هذا الهراء.*

"كلّنا حُماة للمعرفة،" قال بوضوح. "وطريقتي في حماية المعرفة هي من خلال إزالة كل صهيوني يمكنني العثور عليه عن وجه الأرض."

"ولهذا السبب أتيت، فالحرب غير ضروريّة."

كان هذا الرجل مخبولاً. "هل أنت أعمى؟ اليهود يتدفّقون إلى هذا المكان، ويعملون على سحقنا. الحرب هي كل ما تبقّى لنا."

"إنك تستخفّ بعزيمة اليهود. لقد تمكّنوا من النجاة طيلة قرون من الزمن وسيستمرّون بذلك."

"هذه الأرض لنا، وسوف ننتصر."

"هناك أمور أكثر قوة من الرصاص يمكنها تحقيق النصر لك."

"هذا صحيح، هناك القنابل، ولدينا الكثير منها. سنسحق كلّ واحد منكم أيها الصهاينة السارقون."

"لست صهيونيّاً."

جاء هذا الإعلان بنبرة هادئة، ومن ثمّ صمت الرجل. أدرك حدّاد أنه بحاجة إلى إنهاء هذا الاستجواب، فلا وقت لديه لبلوغ طرق مسدودة في نهاية المطاف.

"جئت من المكتبة لأتكلّم إلى كمال حدّاد"، قال الرجل أخيراً.

فاستحال غيظ حدّاد ارتباكاً، وقال: "إنه والدي."

"قيل لي إنه كان يُقيم في هذه القرية."

وكان والد حدّاد أكاديمياً يحمل شهادة جامعيّة في التاريخ الفلسطيني ويدرّس في كلّيّة القدس. وكان رجلاً عظيماً بصوته وضحكته، وبجسده وقلبه، وكان قد لعب في الآونة الأخيرة دور الرسول بين العرب والبريطانيّين، محاولاً وقف الهجرة اليهوديّة الكبيرة وتجنّب *النكبة. ولكن مساعيه باءت بالفشل.*

"والدي متوَفٌ."

وللمرّة الأولى، لمح قلقاً في عينَيّ السجين الخالية من أي تعبير، فقال هذا الأخير: "لم أكن أعلم ذلك."

استرجع حدّاد ذكرى والده، وكان يرغب في نسيانها إلى الأبد. "منذ أسبوعين، وضع فوّهة البندقيّة في فمه وفجّر مؤخّرة رأسه. وترك ملاحظة تقول إنه لا يُطيق مشاهدة وطنه يحلّ به الدمار. واعتبر نفسه مسؤولاً عن عدم وضع حدٍّ لتدفّق الصهاينة."

ثم حمل حدّاد المسدّس ووضع فوّهته بالقرب من وجه 'الحارس.' "ما حاجتك إلى والدي؟"

"إنه الشخص الذي يجب أن أنقل معلوماتي إليه. إنه المدعوّ."

فاستشاط حدّاد غضباً. "عمَّ تتكلّم؟"

"كان والدك رجلاً أهلاً للاحترام. وكان مثقّفاً ومؤهّلاً للإسهام في معرفتنا. لهذا السبب أتيت، لكي أدعوه للمشاركة."

وكان صوت الرجل الهادئ قد وقع على مسامع حدّاد مثل الماء الذي يُسكَب على اللهب. "المشاركة في ماذا؟"

فهزّ 'الحارس' رأسه. "هذا أمرٌ يخصّه فقط."

"إنه ميت."

"ممّا يعني أنه سيتم اختيار مدعوٍّ آخر."

ما هو الأمر الغامض الذي كان يتحدّث عنه هذا الرجل؟ كان حدّاد قد قبض على العديد من الأسرى اليهود، فعذّبهم لمعرفة كل ما يمكنه معرفته منهم، ثم أطلق النار على من تبقّى منهم. قبل النكبة، *كان حدّاد مزارعاً يُعنى بشجر الزيتون، وقد أغوته الدراسات الأكاديميّة، على غرار والده، ورغب في متابعة دروس إضافيّة. ولكن الأمر بات مستحيلاً في ظل تلك الظروف. فقد كان يتمّ تأسيس دولة إسرائيل من خلال نحت حدودها في الأرض العربيّة القديمة، ويبدو أن العالم قد عوَّض على اليهود تعرّضهم للمحرقة، وكل ذلك على حساب شعب فلسطين.*

وضع حدّاد فوّهة المسدّس بين عينَي الرجل. "لقد جعلتُ نفسي للتوّ المدعوّ. هاتِ ما عندك من معلومات."

وبدت عينا الرجل كأنهما تخترقانه، واعتراه لبرهة من الزمن شعور غريب بالاضطراب. ومن الواضح أن هذا الرسول كان قد واجه مآزق في السابق، فأُعجب حدّاد بشجاعته.

"إنك تخوض حرباً غير ضروريّة ضد عدوّ مضلَّل،" قال الرجل.

"ما الذي تتحدّث عنه بحق الله؟"

"تلك المعلومات تخصّ المدعوّ التالي."

كان الوقت يناهز منتصف فترة الصباح، وكان حدّاد بحاجة إلى النوم. فقد أمل في معرفة هويّة بعض أعضاء المنظمة اليهوديّة السريّة من هذا السجين، وربما أيضاً هويّة الوحوش الذين ذبحوا أولئك الأشخاص في اليوم السابق. وكان الملاعين البريطانيّون يزوّدون الصهاينة بالبنادق والدبّابات. ولسنوات خلت، كانوا يعتبرون امتلاك العرب أسلحة أمراً غير قانوني، ممّا شكّل للعرب عائقاً كبيراً. صحيح أن العرب كانوا أكثر عدداً، ولكن اليهود كانوا أفضل استعداداً، وكان حدّاد يخشى من أن تكون حصيلة هذه الحرب الاعتراف بشرعيّة دولة إسرائيل.

وعاد إلى التحديق بتعبيرٍ قاسٍ لا يلين في عينَين لم تكفّا عن النظر في عينَيه، وعلِم أن سجينه مستعدّ للموت. وكان القتل قد أصبح أكثر سهولة بالنسبة إليه طوال الشهرَين السابقَين. فقد ساعدت الوحشيّة اليهوديّة على إراحة ما تبقّى له من ضمير. لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره فقط، ولكن قلبه كان متحجِّراً.

إنَّ الحرب هي الحرب.

ولذا، فقد ضغط على الزّناد.

القسم
الأول



الفصل الأول

كوبنهاغن، الدانمارك

الثلاثاء، 4 تشرين الأول/ أكتوبر، الزمن الحاضر

الساعة 1:45 صباحاً

كان كوتون مالون يحدِّق مباشرة في صميم المتاعب. فقد كانت زوجته السابقة تقف خارج باب مكتبته الأمامي المفتوح، وكانت آخر من كان يرغب في رؤيته. وسرعان ما لاحظ ذُعراً في عينَيها المتعَبتَين، فتذكّر القرع المتكرّر الذي أيقظه قبل دقائق قليلة، وفكّر بابنه على الفور.

"أين غاري؟" سألها على الفور.

"أيها الأحمق، لقد أخذوه بسببك، لقد أخذوه." واندفعت إلى الأمام وانهالت بقبضتَي يدَيها المطبقتَين على كاهلَيه. "أيها الأحمق البائس." فأمسك بقبضتَيها وأوقف هجومها فيما كانت وهي تحدّق فيه باكيةً. "لقد هجرتكَ بسبب ذلك، ظننت أن هذا النوع من الأمور قد انتهى."

"من أخذ غاري؟" وكانت الإجابة عن سؤاله مزيداً من النحيب. ولكنه بقي ممسكاً بذراعَيها. "بام، أصغي إليّ. من أخذ غاري؟"

فحدّقت به. "كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟"

"ماذا تفعلين هنا؟ لمَ لم تذهبي إلى الشُرطة؟"

"لأنهم طلبوا مني الاّ أفعل ذلك. لقد قالوا لي إن أنا ذهبت إلى أي مكان قريب من الشرطة، فسيموت غاري. قالوا إنهم سيعرفون ذلك، وقد صدّقتهم."

"من هم 'هولاء'؟"

ثم انتزعت ذراعَيها بقوة من بين يدَي زوجها، وفي وجهها فيض من الغضب. "لست أدري. كل ما قالوه لي هو الانتظار ليومَين، ومن ثمّ القدوم إلى هنا وإعطاؤك هذا." ثم بحثت في الحقيبة المعلّقة على كتفها وأخرجت منها هاتفاً. واستمرّت الدموع بالانهمار على خدّيها. "قالوا إنّ عليك الدخول إلى شبكة الحاسوب وفتح بريدك الإلكتروني."

هل ما سمعه صحيح؟ *الدخول إلى شبكة الحاسوب وفتح بريدك الإلكتروني؟*

فتح جهاز الهاتف بنقرة من إصبعه وتحقّق من نطاق التردّد المتوفر فيه. هناك ما يكفي من الميغاهرتز للتمكّن من الاتصال بكافة أنحاء العالم. وكان هذا الأمر مدعاة للدهشة والاستغراب. وفجاةً شعر بانه معرَّض للخطر. كانت ساحة هوبرو بلادس هادئة، ففي هذه الساعة المتأخّرة من الليل لا أحد يجول في ساحة المدينة.

وأخذت تنتابه أحاسيس منبِّهة.

"ادخلي،" وجذبها بقوة إلى داخل المتجر وأقفل الباب، ولم يكن قد أشعل أيّ نور بعد.

"ما الأمر؟" سألت بصوت متقطّع يعتريه الخوف.

فأدار وجهه نحوها. "لا أدري، يا بام. أخبريني انت. من الواضح أن ابننا قد خطفه أشخاص لا يعلم من هم إلا الله، وقد انتظرتِ يومَين قبل أن تقولي أي شيء عن الموضوع؟ الم تُدركي أنه أمرٌ جنوني؟"

"لم أكن أريد تعريض حياته للخطر."

"وهل أنا أعرّضها للخطر؟ هل قمتُ بذلك يوماً، وكيف؟"

"بالنظر إلى ما أنت عليه،" قالت بنبرةٍ باردة. فتذكّر على الفور لماذا لم يعُد يُقيم معها.

وطرأت على باله فكرة. وتذكّر أنها لم تزُر الدانمارك أبداً. "كيف عثرتِ عليّ؟"

"هم أخبروني بمكانك."

"من هم 'هؤلاء' بحق الجحيم؟"

"لست أدري، يا كوتون. كانا رجلَين، وكان أحدهما يتولّى الكلام. كان طويل القامة، داكن الشعر، ومسطّح الوجه."

"أميركي؟"

"كيف لي أن أعلم؟"

"كيف كان يتكلّم؟"

وبدت أنها سيطرت على نفسها. "لا، ليسا أميركيَّين. كانت لهجتهما مختلفة، كانا أوروبيَّين."

فأومأ بالهاتف. "ماذا يُفترَض بي أن أفعل بهذا الشيء؟"

"قال أن تفتح بريدك الإلكتروني وسيتمّ شرح الأمر."

وألقت نظرة سريعة من حولها، وبعصبيّة، إلى ما يشبه الرفوف في الظلال. "الطابق العلوي، صحيح؟"

لا بدّ أن غاري قد أخبرها بأن والده يُقيم فوق المتجر، ولكنه لم يفعل ذلك دون شك. فهما منذ تقاعده من وزارة العدل ومغادرته جورجيا العام السابق لم يتكلما معاً إلا مرة واحدة، وكان ذلك قبل شهرَين من تقاعده، في آب/ أغسطس، عندما اصطحب غاري إلى المنزل بعد زيارتهما الصيفيّة. عندها قالت له ببرودة إن غاري ليس ابنه الشرعي بل كان نتاج علاقة غراميّة عمرها ستة عشر عاماً ردّاً على خيانته الزوجيّة. ومنذ ذلك الحين وهو في نزاع مع هذا الأمر، ولم يكن قد تمكّن بعد من اتخاذ قرار حاسم في هذا الشأن. إلا أن أمراً واحداً قرّر القيام به في ذلك الوقت: لم يكن ينوي التكلّم مع بام مالون مرة أخرى. وكل ما كان ضرورياً قوله كان يقال بينه وبين غاري سرّاً.

ولكن يبدو أن الأمور قد تغيّرت.

"نعم،" قال، "الطابق العلوي."

دخلا شقّته، وجلس إلى مكتبه، وشغّل حاسوبه المحمول وأخذ ينتظر انطلاق عمل البرامج. كانت بام قد سيطرت أخيراً على أحاسيسها وانفعالاتها، ولطالما كانت كذلك. فقد كانت طباعها كالأمواج: ارتفاعات محلّقة وانخفاضات غائرة. كانت محامية،

مثله، ولكن بينما كان يعمل لصالح الحكومة، كانت تشارك في محاكماتٍ تتناول استثمارات ضخمة مرتبطة بالشركات الـ 500 الأكثر ثراءً في العالم كما توردها مجلّة 'فورتشون'، والتي يمكنها أن تدفع لها أجوراً مذهلة. وعندما التحقت في بادئ الأمر بكلّيّة الحقوق، ظنّ أن القرار هو انعكاس لما كان يفكّر به، أي طريقة لتشاطر الحياة معاً. وقد علِم مؤخّراً أن هذا القرار كان وسيلة لها لتحقيق حياة مستقلّة.

هكذا كانت بام.

وبات الحاسوب المحمول جاهزاً، ففتح بريده الإلكتروني.

ولكنه وجده فارغاً.

"لا يوجد فيه أي شيء."

فاندفعت بام نحوه. "ماذا تعني؟ قال أن تفتح بريدك الإلكتروني."

"كان ذلك منذ يومَين. وبالمناسبة، كيف وصلتِ إلى هنا؟"

"كان معهما تذكرة سفر سبق أن اشترياها."

لم يكن قادراً على تصديق ما يسمع. "هل أنت مجنونة؟ فما فعلتِه هو أنك منحتهما أفضليّة التقدّم علينا بيومَين."

"ألا تظنّ أنّني أعلم ذلك؟" صاحت قائلة. ثم أضافت: "تظن أنّني حمقاء تماماً؟ لقد أخبراني أنهما كانا يتنصّتان على أرقام هاتفي وأني كنت تحت المراقَبة. وإذا خالفت تعليماتهما، ولو قليلاً، يموت غاري. وقد عرضوا عليّ صورة له." وتحرّكت مشاعرها وانهمرت الدموع من عينيها مجدّداً. "عيناه... آه، عيناه." ولم تعد قادرة على أن تتمالك نفسها من جديد، "كان خائفاً جداً."

أخذ صدره يهتز جرّاء خفقات قلبه المتسارعة ويكتوي صدغاه تأثّراً. وكان قد خلّف وراءه عمداً حياةً تحمل مخاطر يوميّة بهدف بلوغ شيءٍ جديد. فهل تعقّبته تلك الحياة وها هي تنال منه للتوّ؟ وأمسك حافة المكتب. لن يكون الاستسلام لليأس لصالح أيّ منهما. فإذا كان الخاطفون، أيّاً كانوا، يريدون غاري مَيتاً، لكان في عِداد الأموات. لا، كان غاري أداة للمساومة، وهذه طريقة على ما يبدو للفت انتباهه المركّز على أمورٍ أخرى.

فجأة، أصدر الحاسوب المحمول إشارة صوتيّة.

فحدّق بنظره إلى الزاوية السفليّة اليمنى للشاشة وكان مكتوباً فيها: إنك تتلقى بريداً. ثم رأى إشارة 'تتلقّى بريداً'. ورأى من ثم 'تحيّة' تظهر في خانة 'المرسِل' وعبارة 'حياة ابنك' في خانة موضوع الرسالة. فحرّك المؤشر وفتح البريد الإلكتروني.

'لديك شيء أريده: لغز الإسكندريّة. لقد خبّأته وأنت الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يعرف مكانه. اذهب واحصل عليه، وأمامك 72 ساعة. وعندما تحصل عليه، اضغط على الزرّ رقم 2 في الهاتف. وإذا لم أتلقَّ منك خبراً بعد انتهاء مهلة الـ 72 ساعة، ستغدو بلا ابن. وإذا حاولت التلاعب معي، سيخسر ابنك عضواً حيوياً من جسده. 72 ساعة. اعثر عليه وسنُجري المقايضة'.

كانت بام تقف وراءه. "ما هو لغز الإسكندريّة؟"

لم يقل شيئاً، والأحرى أنه لم يكن قادراً على ذلك. وكان فعلاً الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يعلم بالأمر، وقد وعد بعدم البوح به.

"أيّاً يكن موجِّه تلك الرسالة فهو يعرف كل شيء عن الموضوع. ما هو؟"

حدّق بالشاشة وعلم أنه لا يوجد أي وسيلة لتتبّع الرسالة. فقد كان المرسل مثله يعلم بالتأكيد كيفيّة استخدام الثقوب السوداء - وهي عبارة عن حواسيب مخدّمة تتولّى مهمّة توجيه رسائل البريد الإلكتروني عشوائيّاً من خلال متاهة إلكترونيّة. ليس من المستحيل تتبّعها، ولكنها عملية صعبة للغاية.

وقف مالون ومرّر يده على شعره. كان قد نوى أن يقص شعره في اليوم السابق. فحرّك كتفَيه مستعيداً نشاطه، وأخذ نفساً عميقاً لمرّاتٍ قليلة. وكان قد ارتدى في وقتٍ مُبكِر، وعلى عجل، بنطال جينز وقميصاً ذا أكمام طويلة أبقاه مفتوحاً على الصدر، كاشفاً عن قميص رماديّ داخلي. فشعر فجأةً بالقشعريرة بسبب الخوف.

"تبّاً، يا كوتون -"

"بام، اسكتي. عليّ أن أفكّر. أنت لا تساعدينني بهذه الطريقة."

"أنا لا أساعد؟ بربك -"

ورنّ الهاتف الخلويّ. فاندفعت بام مسرعة نحوه، ولكنه اعترض طريقها وقال: "دعيه."

"ماذا تعني؟ قد يكون غاري."

"كوني واقعيّة."

والتقط الهاتف بعد الرّنة الثالثة وضغط على زرّ 'التكلّم'.

"لقد تطلّبك الأمر وقتاً طويلاً"، قال الصوت النكوري في أُننه، وأردف قائلاً بنبرة هولنديّة: "ورجاءً، لا تقل لي *'إذا أذيت ذلك الفتى سأقوم بقتلك'* أيها الشجاع. كلانا لا يملك الوقت. وقد سبق للساعات الإثنتين والسبعين الممنوحة لك أن بدأت."

بقي مالون صامتاً، ولكنه تذكّر أمراً ما كان قد تعلّمه منذ زمنٍ بعيد. لا تدَع الفريق الآخر أبداً يحدّد شروط المقايضة. "لا يُخيفني تهديدك. لن أذهب إلى أي مكان."

"إنك تجازف كثيراً بحياة ابنك."

"أريد أولاً أن أرى غاري، وأكلّمه، ثمّ أذهب."

"ألقِ نظرة إلى الخارج."

فأسرع إلى النافذة. وكانت ساحة هويرو بلادس تحته ما تزال هادئة، باستثناء شخصَين واقفَين على الجانب المقابل من المساحة الواسعة المرصوفة بالحصى.

وكان هذان الشخصان يحملان أسلحة على أكتافهما: قاذفات قنابل.

"لا أعتقد ذلك، عليك تبديل سلوكك،" قال الصوت في أُذُنه.

وعلى الفور أُطلقت في الظلام قذيفتان تنبعث منهما ألسنة اللهب واخترقتا النوافذ القائمة تحته.

ثم انفجرتا معاً.

الفصل الثاني

فيينا، النمسا

الساعة 2:12 صباحاً

كان شاغل الكرسي الأزرق يراقب نزول شخصَين من إحدى السيارات تحت رواقٍ مُضاء للعربات. لم تكن السيّارة من النوع الفخم (ليموزين) أو أي شيء يوحي بالتفاخر علناً، بل كانت مجرد سيارة أوروبيّة عادية ذات لون غير برّاق، ما يعتبر مشهداً مألوفاً على الطرقات النمساويّة المزدحمة. إنها وسائل النقل المثاليّة لتجنُّب لفت انتباه الإرهابيّين، والمجرمين، والشرطة، والمراسلين الصحفيّين الفضوليّين. ثم وصلت سيارة أخرى وأنزلت ركّابها، ثم اختفت عن الأنظار بين الأشجار المظلِمة في قطعة أرض مرصوفة. وبعد دقائق قليلة ظهرت سيارتان أخريان وغادر شاغل الكرسي الأزرق غرفة نومه في الطابق الثاني مُكتفياً بما شاهد، ونزل إلى الطابق الأرضي.

كان هذا اللقاء معقوداً في المكان المعهود:

خمس كنباتٍ مذهَّبة مستقيمة الظهر موضوعة بشكل حلقة واسعة فوق سجادة هنغاريّة. وكانت الكراسي متشابهة باستثناء واحدة وُضع على ظهرها المزوَّد بمساند وشاح ملَكي أزرق. وبجانب كل كرسي طاولة مذهَّبة تحمل مصباحاً برونزياً، وإضمامة ورق للكتابة، وجرساً من الكريستال. وإلى يسار الحلقة نار مستعرة داخل مدفأة حجريّة، يتراقص نورها عشوائياً على امتداد الجدران التي تصل إلى السقف.

وكان يشغل كل كرسي رجل.

وقد صُنِّف هؤلاء الرجال وفقاً للأقدميّة وبترتيب تنازلي. وكان رجلان ما زالا يحتفظان بشعرهما وعافيتهما، في حين كانت رؤوس ثلاثة منهم صلعاء وأجسادهم موهنة. وكانوا كلّهم تقريباً في عامهم السبعين على الأقل ويرتدون بدلات رزينة، فيما ظلّت معاطفهم الداكنة اللون وقبّعاتهم الرماديّة معلّقة على جانب واحدٍ من رفوف نحاسيّة. ووراء كلٍّ منهم كان يقف شخص آخر أصغر سنّاً - إنه خليفة شاغل الكرسي الموجود للاستماع والتعلّم وليس للتكلم. وكانت القواعد ثابتة على الدوام: خمسة كراسٍ، وأربعة ملازمين، وشاغل الكرسي الأزرق هو المسؤول.

"أعتذر بسبب هذه الساعة المتأخّرة من الليل، ولكن بلغتني بعض المعلومات المقلقة منذ ساعات قليلة." كان صوت شاغل الكرسي الأزرق متكلّفاً وضعيفاً. "قد تكون مغامرتنا الأخيرة في خطر."

"خطر الانكشاف؟" سأل شاغل الكرسي الثاني.

"ربما."

قال شاغل الكرسي الثالث: "هل يمكن إيجاد حلّ للمشكلة؟"

"أظنّ ذلك. ولكن علينا أن نتصرّف على الفور."

"لقد حذّرتُ من عدم التدخّل في هذا الموضوع،" قال شاغل الكرسي الثاني منكّراً بصرامة، وهازّاً رأسه. "كان من المفترَض أن نترك الأمور لكي تأخذ مجراها الطبيعي."

ووافق شاغل الكرسي الثالث كما سبق له أن فعل في اللقاء السابق. "قد تكون هذه إشارة بوجوب ترك الأمور تأخذ مجراها بشكلٍ كافٍ فحسب. يمكن قول الكثير في شأن التسلسل الطبيعي للأمور."

فهزّ شاغل الكرسي الأزرق رأسه. "كان تصويتنا الأخير مناقضاً لهذا السياق. لقد اتُّخذ القرار، ولذا يجب علينا التمسّك به." وتوقّف عن الكلام مؤقّتاً. "يتطلّب الظرف الكثير من الانتباه."

" يستلزم إنجاز المهمة شيئاً من اللباقة والمهارة،" قال شاغل الكرسي الثالث. "من شأن الانتباه المُفرِط إحباط الهدف. إذا كنا عازمين على المضيّ قُدُماً، أوصي إذاً بمنح *داي كلاون در ادلر* السلطة الكاملة للتصرّف."

'مخالب النسر'.

أومأ آخران برأسَيهما موافقَين.

"سبق لي أن قمت بنلك،" قال شاغل الكرسي الأزرق. "لقد دعوت إلى هذا الاجتماع لأن أسلوبي الأحادي الذي أتّبع منذ مدّة طويلة بحاجة إلى المصادقة عليه."

تمّ التصويت ورُفِعت الأيدي.

أربعة أصوات في مقابل صوت واحد، صُدِّق.

كان شاغل الكرسي الأزرق مسروراً.

الفصل الثالث

كوبنهاغن

اهتزّ مبنى مالون كزلزال واجتاحته موجة من الحرارة عبرت بيت السُلّم. فأسرع نحو بام واندفعا معاً تحت سجّادة رثّة تغطّي الأرض الخشبيّة. وبينما كان يحميها بجسده، هزّ انفجار آخر أساسات المبنى واندفع من جرائه مزيد من ألسنة اللهب.

فأخذ يحدّق عبر باب المدخل.

كانت النار محتدمة في الأسفل.

والدخان يتصاعد متماوجاً في سحابة تزداد اسوداداً.

وقف على قدمَيه وأسرع إلى النافذة. كان الرجلان قد غادرا المكان، وكانت ألسنة اللهب تنير عتمة الليل. فأدرك ما الذي حدث. لقد أشعلا الطوابق السفليّة، ولم تكن الخطة تقضي بقتلهما.

"ماذا يجري؟" صاحت بام.

فتجاهلها ورفع زجاج النافذة. وكان الدخان يملأ المنزل بسرعة.

"أسرعي،" قال لها، وسارع إلى غرفة النوم.

مدّ يده تحت السرير وسحب بقوة جعبة الظّهر التي يُبقيها جاهزة على الدوام، حتى أثناء تقاعده، كما كان يفعل طيلة اثنَي عشر عاماً عندما كان عميلاً في منظمة ماجيلان بيليت. وكان يوجد في داخل الحقيبة جواز سفره، وألف يورو، وهويّة احتياطيّة، ومجموعة من الثياب، ومسدس بيريتا مع ذخيرته. كان صديقه المتنفّذ هنريك ثورفالدسن قد استعاد المسدّس مؤخّراً من الشرطة الدانماركيّة التي صادرته من مالون عندما تورّط مع فرسان الهيكل منذ أشهر قليلة.

فعلّق الحقيبة في كتفه وانتعل زوج أحذية رياضية. لا وقت لربط الشريط، فالدخان يلتهم غرفة النوم. ثم فتح النافذتَين معاً، ما يساعد على التنفّس.

"إبقي هنا،" قال لها.

ثم حبس نفَسَه وخبّ في السير وصولاً إلى بيت السلّم، وكان بإمكانه رؤية الطوابق الأربعة في الأسفل. فالطابق الأرضي يحتوي على مكتبته، والطابقان الثاني والثالث مخصَّصان للتخزين، وتقوم شقّته في الطابق الرابع. كان الطابقان الأول والثالث مشتعلَين، فلفحت الحرارة وجهه وأجبرته على الانسحاب. لا شك في أن القنابل التي ألقيت على منزله حارقة.

واندفع مسرعاً إلى غرفة النوم.

"لا يمكن الخروج عبر السلالم. لقد تعمّدا ذلك."

كانت بام مجتمعة على بعضها البعض قرب النافذة تبذل الجهد للتنفّس وهي تسعل. فمرّ بقربها مُسرعاً وأخرج رأسه. كانت غرفة نومه تقع في زاوية المنزل، والمبنى المجاور الذي يأوي صائغ مجوهرات ومتجراً للملابس أدنى من منزله بطابق واحد، وله سطح مستوٍ ويحدّه جدار منخفض من الآجرّ، وكان تاريخه يعود إلى القرن السابع عشر. فألقى نظرة سريعة عليه. كان يمتدّ فوق نوافذه إفريز بحجم أكبر من المعتاد، ناتئ إلى الخارج، وقائم على امتداد واجهة المبنى وجانبه.

لا بدّ من أن أحدهم قام باستدعاء فرق الإطفاء والإنقاذ، ولكنه لم يكن ينوي انتظار السُّلّم.

بدأ سعال بام يزداد حدّة، وكان هو أيضاً يشعر باضطرابٍ في التنفس. فأدار رأسها. "انظري هناك،" قال، مشيراً إلى الإفريز. "أمسكي به بإحكام وحرّكي نفسك إلى جانب المبنى. يمكنك النزول من هناك إلى السطح المجاور."

فاتّسعت عيناها. "هل أنت مجنون؟ نحن على ارتفاع أربعة طوابق."

"بام، هذا المبنى قد ينفجر في أيه لحظة. يوجد فيه أنابيب للغاز الطبيعي. وتلك القنابل مصمّمة لإشعال حريق. لم يُطلقا قنبلة داخل هذا الطابق لأنهما يريداننا أن نخرج."

لم يكن يبدو عليها أنها تستوعب ما يقول.

"علينا المغادرة قبل وصول الشرطة وفرقة الإنقاذ إلى هنا."

"يمكنهم المساعدة."

"هل تريدين أن تقضي الساعات الثمانية التالية وأنت تجيبين على أسئلة؟ ليس أمامنا سوى اثنتَين وسبعين ساعة."

وبدا أنها فهمت طريقته في التفكير للتوّ وحدّقت بالإفريز. "لا أقدر، يا كوتون." وللمرّة الأولى، لم يكن في صوتها أي حدّة.

"غاري بحاجة إلينا، علينا الذهاب. راقبيني ومن ثمّ افعلي بالتحديد ما أقوم به."

ثم علّق جعبة الظَّهر بكتفه، وخرج عبر النافذة بطريقة متلوّية. وأمسك الإفريز بإحكام، وكان الحجر غير المصقول ساخناً ولكنه رقيق بما يكفي لدرجة أن أصابعه كانت تمسك به بشكل جيد. فتدلّى بواسطة ذراعَيه واتجه بجهد يداً فوق يد نحو الزاوية. وتقدّم خطواتٍ قليلة، والتفّ حول الزاوية، وهبط على السطح المستوي المجاور.

وعاد مُسرعاً إلى الجهة الأماميّة من المبنى وألقى نظرة متفحّصة إلى الأعلى. كانت بام ما تزال أمام النافذة. "أسرعي، افعلي تماماً مثلما فعلت."

فتردّدت.

ولكن انفجاراً حدث في الطابق الثالث فانهمر الزجاج المتطاير من النوافذ على ساحة بلادس، واستعرت ألسنة اللهب. تراجعت بام إلى الداخل، وهذا خطأ كبير. وبعد ثانية، ظهر رأسها وسعلت سعالاً متقطّعاً، جافّاً وشديداً.

"عليك النزول الآن،" قال لها بصوت عال.

وبدا أخيراً أنها سلّمت بالأمر. ومثلما فعل، لوت جسدها للخروج من النافذة وأمسكت بالإفريز بإحكام. فحرّكت جسمها إلى الخارج وتدلّت بذراعَيها.

رأى أن عينَيها مغلقتان. "لا تنظري إلى الأسفل. فقط حرّكي يدَيك الواحدة تلوَ الأخرى."

ففعلت ذلك. وبقي عليها القيام بثماني خطوات على الإفريز لتصل إلى المكان الذي يقف فيه. وكانت تُبلي بلاءً حسناً، يداً فوق الأخرى. في ذلك الوقت، رأى أشخاصاً في الساحة، في الأسفل. لقد عاد الرجلان حاملَين البنادق هذه المرة.

فاستلّ جعبة الظهر، وأدخل إحدى يدَيه فيها وأخرج مسدّسه البيريتا، وأطلق النار مرّتَين على الشخصَين اللذَين يبعدان عنه خمسين قدَماً. فتردّد صدى الطلقات بقوّة على جدران المباني المحاذية للساحة.

"لمَ تُطلق النار؟" سألت بام.

"استمرّي بالتقدّم."

ثم أطلق طلقة أخرى تبعثر على أثرها الرجلان في الأسفل.

وبلغت بام الزاوية، فألقى نظرة سريعة عليها. "التفّي حولها وجرّي نفسك في اتجاهي."

وبحث في الظلمة ولكنه لم يرَ الرجلَين المسلّحَين. وكانت بام تتقدّم بلباقة، ممسكةً الإفريز بيد، ومتلمّسة باليد الأخرى مكاناً مناسباً للإمساك به.

وعندها، أفلتت يدها.

وسقطت.

فبسط يده، وكان ما يزال ملتقطاً مسدّسه، وتمكّن من الإمساك بها. ولكنهما سقطا معاً على السطح، وكانت تتنفّس بصعوبة، وهو كذلك.

عندئذٍ رنّ الهاتف الخلويّ.

فزحف نحو جعبة الظُّهر والتقط الهاتف وفتحه بنقرة من إصبعه.

"هل تستمتع بذلك؟" سأل الصوت نفسه الذي تحدّث عبر الهاتف من قَبل.

"هل هناك ما يدعو لتفجير متجري؟"

"أنت من قال إنك لن تغادر."

"أريد التحدّث إلى غاري."

"أنا الذي أضع القواعد. لقد انقضى حتى الآن ستّ وثلاثون دقيقة من ساعاتك الإثنتَين والسبعين. لو كنت مكانك لواصلت التحرّك. حياة ابنك متوقفة عليك."

وأقفل الخط.

كانت صفّارات الإنذار تقترب. فالتقط جعبة الظُّهر ووقف على قدَمَيه منتصباً. "علينا الذهاب."

"من كان ذلك؟"

"مشكلتنا."

"من كان ذلك؟"

واعتراه غضبٌ شديدٌ مفاجئ. "ليس لدي أي فكرة."

"ما الذي يريده؟"

"شيءٌ لا يمكنني إعطاؤه إيّاه."

"ماذا تعني 'لا يمكنك'؟ حياة غاري تتوقّف عليه. انظر من حولك، لقد فجّر متجرك."

"عجباً، يا بام، لم أكن لأعرف ذلك لو لم تُلفتي انتباهي."

واستدار ليغادر.

فأمسكت به وقالت: "إلى أين نحن ذاهبان؟"

"للحصول على إجابات."

الفصل الرابع

كان 'دومينيك سابر' يقف في الطرف الشرقي لساحة هوبرو بلادس يشاهد مكتبة كوتون مالون وهي تحترق. وكانت شاحنات الإطفاء ذات اللون الأصفر الفلوري قد أخذت أمكنتها وبدأت تقذف الماء داخل النوافذ الملأى بألسنة اللهب.

كانت الأمور حتى الآن تسير سيراً حسناً، وكان مالون على أهبة الاستعداد.

"لقد نزلا من المبنى المجاور،" قال الصوت عبر سمّاعة جهاز سابر اللاسلكي.

"أين ذهبا؟" همس في الميكروفون المثبّت في طيّة صدر سترته.

"إلى سيارة مالون."

يبدو أن كل شيء يسير كما هو مخطّط له.

وكان رجال الإطفاء يعبرون الساحة، جارّين معهم مزيداً من خراطيم المياه، وعازمين كما يبدو على منع انتشار ألسنة اللهب. وكانت النار تبدو وكأنها تستمتع بما تلتهم، والكتب النادرة تحترق بحماسة. وعمّا قريب، سيتحول منزل مالون إلى كومة من الرماد.

"هل يسير كل شيء على ما يُرام؟" سأل الرجل الواقف بقربه، وهو أحد الهولنديَّين اللذَين كان قد استأجرهما.

"لقد تحقّقت من الأمر بنفسي؛ مستعدّان للذهاب."

كان قد جرى كثير من التخطيط لبلوغ ما كان على وشك أن يحدث. لم يكن سابر واثقاً حتى من أن النجاح مضمون ـ فالهدف غير ملموس ومحيِّر ـ ولكن إذا كان الأثر الذي يقتفيه يؤدّي إلى مكان ما، فمن المفترض أن يكون على أهبة الاستعداد له.

ومع ذلك، فإن كل شيء متوقّف على مالون.

كان اسمه الحقيقي هارولد إيرل، ولم يكن في المعلومات المتوافرة عنه أي شرح يفيد بمصدر اللقب كوتون. كان في الثامنة والأربعين من عمره وأكبر سنّاً من سابر بأحد عشر عاماً. ومع ذلك، فقد كان أميركياً مثله، مولوداً في جورجيا. كانت والدته جنوبية المولد، ووالده رجلاً عسكرياً برتبة رائد في البحرية غرقت غواصته عندما كان مالون في العاشرة من عمره. ومن المثير للاهتمام أن مالون سار على خطى والده، فانتسب إلى الأكاديمية البحرية ومدرسة الطيران، ومن ثمّ بدّل اتجاهاته بشكل مفاجئ وحاز في النهاية على إجازة جامعية في القانون. كانت الحكومة قد سدّدت التكاليف الدراسية، لذا، تمّ تحويله إلى دائرة ممثّل النيابة العامة في المحكمة العسكرية حيث أمضى تسع سنوات. وكان قد بدّل اتجاهاته أيضاً قبل خمسة عشر عاماً، وانتقل إلى وزارة العدل ومنظمة ماجيلان بيليت التي شُكّلت حديثاً آنذاك، متولّياً بعض التحقيقات الأميركية الدوليّة الأكثر حساسيّة.

وبقي هناك حتى العام السابق حينما تقاعد في وقتٍ مُبكر برتبة رائد، وغادر أميركا منتقلاً إلى كوبنهاغن حيث اشترى متجراً للكتب النادرة.

هل هي أزمة منتصف العمر؟ وهل يعاني من مشاكل مع الحكومة؟

لم يكن سابر جازماً.

ومن ثمّ كان طلاقه، وهذا ما قد درسه سابر بعناية. من كان يعلم؟ فقد بدا مالون لغزاً. وبالرغم من كونه مُحبّاً للكتب بشكلٍ راسخ، لم يكن هناك شيءٌ في ما قرأه سابر عن سِيَره السيكولوجية يفسّر كل التبدّلات الجَذريّة في حياته.

ولم تُثبت الأنباء السارّة الأخرى إلا كفاءة خصمه.

كان مالون يتقن بشكلٍ معقول عدة لغات، غير مُدمن على أي شيء ولا يخشى أي شيء، وكان ميالاً إلى تحفيز الذات وتكريس وقته وجهده بشكلٍ هاجسي ودائم. أنعم عليه الله بذاكرة قويّة ودقيقة للصور المرئيّة كان سابر يحسده عليها. وكان كفوءاً، ومتمرساً، ولبيباً، ومختلفاً كل الاختلاف عن الحمقى الذين استخدمهم سابر: أربعة هولنديين قليلي الفطنة، غير أخلاقيين، ويفتقرون إلى الانضباط.

بقي سابر متوارياً عن الانظار فيما بدأت ساحة هوبرو بلادس تكتظّ بالناس

الذين يراقبون رجال الإطفاء وهم يقومون بعملهم. وكان هواء الليل يقرص وجهه؛ يبدو أن الخريف في الدانمارك ليس إلا مقدمة سريعة للشتاء. فدسّ قبضتا يدَيه المكوَّرتَين في جيبَي سترته.

كان إحراق كل ما عمل كوتون مالون في السنة الماضية لإنجازه أمراً ضرورياً. وليس في ذلك أي شيء شخصي، بل مجرّد أعمال فحسب. وإذا لم يعطه مالون ما يريده بالضبط، فإنه سيقتل الفتى بلا تردّد.

أخذ الهولندي الذي أجرى الاتصالات بمالون، والواقف إلى جانب سابر، يسعل، ولكنه بقي واقفاً بقربه صامتاً. وكان في ذلك يتقيد بإحدى القواعد المتشدّدة التي فرضها عليه سابر منذ البداية: لا تتكلم إلا متى وجّه إليك الكلام. ولم يكن سابر يملك الوقت أو الرغبة في التحادث.

ثم أخذ يراقب المشهد لدقائق عدة أخرى. وأخيراً، همس في الميكروفون المثبَّت في طيّة صدر سترته، "ليبقَ كل واحدٍ يقظاً. نعلم إلى أين توجّها، وتعرفون ما الذي يجب عليكم فعله."

الفصل الخامس

الساعة 4:00 صباحاً

أوقف مالون سيارته أمام مدخل كريستيانغيد، وهو منزل 'هنريك ثورفالدسن' القائم على الساحل الشرقي لجزيرة زيلاند الدانماركية المجاورة لبحر أورساند. وكان قد اجتاز مسافة عشرين ميلاً من كوبنهاغن في اتجاه الشمال بسيارة مازدا من الطراز الحديث كان يوقفها على بُعد ثلاثة أبنية من مكتبته بالقرب من حيّ كريستيانبورغ سلوت.

وكان مالون بعد أن تلمّس مع بام طريق النزول من السطح إلى الأسفل، شاهد رجال الإطفاء يكافحون ألسنة اللهب الهادرة التي طالت كل مكانٍ من المبنى. فأدرك أن كتبه قد احترقت وأن الحرارة والدخان سيُلحقان أضراراً لا يمكن إصلاحها بآخر ما تبقّى منها، هذا إن لم تكن النار قد أتت عليها. وأخذ يراقب مسرح الحدث، ويقاوم غضباً متزايداً، محاولاً ممارسة ما تعلّمه منذ مدةٍ طويلة: 'لا تُبغض عدوّك أبداً'. فالبغض يُعمي البصيرة ويحول دون إطلاق أحكام صائبة. لا، لم يكن بحاجة إلى البغض، بل كان بحاجةٍ إلى التفكير.

ولكن بام كانت تصعّب عليه الأمور.

"من يعيش هنا؟" سألته.

"صديق."

وكانت أثناء الطريق تحاول أن تتلمّس منه المعلوماتٍ باستمرار، ولكنه لم يزوّدها إلا بالقليل منها، فازدادت غَيظاً. وقبل أن يعقد اتفاقاً معها، كان بحاجة إلى الاتصال بشخص آخر.

كان المنزل المعتم اللون نموذجاً أصلياً من الفن المعماري الباروكي الدانماركي: ثلاثة طوابق مبنيّة بالآجرّ المغلَّف بحجر رملي يعلوها سطح من النحاس المقوَّس بطريقة ظريفة، إذ يميل أحد الجناحَين نحو الداخل، فيما يواجه الآخر البحر. وكان قد بنى هذا المنزل منذ ثلاثمئة عام أحد أفراد عائلة ثورفالدسن بعد تحويل أطنان من التُرب الذي لا قيمة له، وبشكلٍ مفيد، إلى وقودٍ لإنتاج الزجاج. وتولى عددٌ من أفراد العائلة صيانته طوال تلك القرون، وحوّلوا في النهاية أدلغيد غلاسفاركر برمزه المميَّز المؤلَّف من دائرتَين مع خطّ تحتهما إلى أول مصنعٍ للزجاج في الدانمارك. وكان الممثّل الحالي للعائلة، هنريك ثورفالدسن، وهو الرجل المسؤول عن مالون أثناء إقامته في الدانمارك، رئيس مجموعة هذه الشركات الحديثة.

تقدّم مالون بخطواتٍ واسعة نحو الباب الأمامي المتين. وأعلن مزيجٌ من الأجراس التي تنكّر بكنيسة كوبنهاغن في أوج الظهيرة عن حضوره. وضغط على الزر ثانيةً، وبعد ذلك قرع الباب. فالتمع ضوءٌ من إحدى النوافذ العليا، ومن ثم ضوءٌ آخر. وبعد لحظات، سمع صوت فك الأقفال ثم فُتح الباب. وبالرغم من أن الرجل المحدّق به كان نائماً بالتأكيد، فقد كان شعره النحاسي ممشَّطاً، وعلى وجهه أمارات تهذيب ينمّ عن أخلاقٍ رفيعة، ورداؤه القطني مفتوحٌ عن الصدر ومتغضّن.

إنه جسبر، كبير خدَم أسرة ثورفالدسن.

"أيقظه حالاً،" قال مالون باللهجة الدانماركية.

"وما هو هدف هذا التصرُّف الراديكالي في الرابعة صباحاً؟"

"انظر إليّ." وكان مالون مغطّى بالعرق، والوسخ المتراكم، والسُّخام. "هل ما تراه هامٌّ بما يكفي؟"

"أميل إلى الاعتقاد بأنه هام."

"سوف ننتظره في المكتب. وأنا بحاجةٍ إلى حاسوبه."

بحث مالون أوّلاً في بريده الإلكتروني الدانماركي ليعرف ما إذا كان قد وُجّه إليه المزيد من الرسائل، ولكنه لم يجد شيئاً. ثم دخل إلى حاسوب وكالة ماجيلان بيليت المحمي من الدخول غير المسموح به بواسطة كلمة مرور زوّدته بها رئيسته السابقة 'ستيفاني نيل.' وبالرغم من كونه متقاعداً ولم يعد مُدرَجاً على جدول رواتب وزارة العدل، فقد وفّرت له خطاً مباشَراً للاتصال في مقابل خدمة قدّمها لها مؤخَّراً في فرنسا. ومع فارق الوقت - إذ إن الساعة في أتلانتا لم تكن قد تجاوزت العاشرة من مساء يوم الاثنين - فقد علِم أن رسالته تتّجه إليها مباشَرةً.

رفع بصره عن الحاسوب رامقاً ثورفالدسن بنظرة سريعة بينما كان هذا الأخير يدخل الغرفة مجرجِراً خطاه. ويبدو أن الدانماركي الهرم قد تروّى في ارتداء ملابسه. فقد كانت بِنية جسمه القصيرة والمحدودبة، والتي نتجت عن عمود فِقري رفض الاستقامة منذ زمنٍ بعيد، مخبّاة تحت طيّات كنزة صوفيّة أكبر حجماً من المعتاد وبلون اليقطين. وكان شعره الفضيّ الكثيف مُلقى إلى جانب واحد بصورة متشابكة، وحاجباه عريضَين أشعثَين. وكانت تحيط بجانبَي فمه وجبينه خطوط عميقة، وتوحي بشرته المائلة إلى الصفرة بامتناعه عن التعرض للشمس، وهو أمر كان يعلم مالون به نظراً إلى أن الدانماركي لم يكن يتجرّأ على الخروج. وفي قارّةٍ حيث الثروة المزمنة تعني البلايين، كان اسم ثورفالدسن على رأس كل القوائم التي تذكر فيها أسماء الأكثر ثراء.

"ماذا يجري؟" سأل ثورفالدسن.

"هنريك، هذه بام، زوجتي السابقة."

فارتسمت على فمه ابتسامة سريعة. "سُررت بلقائك."

"لا وقت لدينا لهذا،" قالت متجاهلةً مضيفها. "من الضروري التحدث بشأن غاري."

وقف ثورفالدسن قُبالة مالون. "إنك تبدو مروَّعاً يا كوتون، وهي تبدو قلقة."

"قلقة؟" قالت بام. "لقد خرجت للتوّ من مبنى يحترق، وولدي مفقود، وأنا مرهَقة من السفر، ولم أتناول الطعام منذ يومين."

"سأُعدّ لكما بعض الطعام،" قال ثورفالدسن بصوت لا تتبدل وتيرته وكأن هذا النوع من الأمور يحدث كل ليلة.

"لا أريد طعاماً. أريد البحث في أمر ابني غاري."

أطلع مالون ثورفالدسن عما حدث في كوبنهاغن، ثم قال، "أخشى أن المبنى قد بات غير صالح للاستخدام."

"هذا آخر ما يُقلقنا."

لاحظ مالون طريقة اختيار ثورفالدسن للكلمات وابتسم إلى حدّ ما، وكان يحب تلك الميزة في شخصيته، وكأن الدانماركي يقول له 'لا يهمنّك أي أمر'.

كانت بام تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بعصبية شديدة. وقد لاحظ مالون أنها فقدت بضعة كيلوغرامات من وزنها منذ أن تحدّثا معاً آخر مرة. فقد كان يعهدها نحيلة، ذات شعر طويل مائل إلى الحُمرة، دون أن يقتّم الزمن اللون الشاحب لبشرتها النمِشة. كانت ملابسها بالية كأعصابها، عِلماً بأنها ما زالت تحتفظ عموماً بالطلعة البهيّة نفسها التي كانت عليها منذ سنوات عندما تزوّج بها بعد انضمامه إلى النيابة العامة في المحكمة العسكرية. هذا ما كانت عليه بام: مظهرها الخارجي رائع، ولكن باطنها هو المشكلة. حتى أن عينيها الزرقاوين المحمرّتين من البكاء أفلحتا في تلك الظروف في التعبير عن غضب شديد بارد. لقد كانت امرأة ذكية ومحنّكة، ولكنها كانت في الوقت نفسه مشوّشة العقل، مذهولة، غاضبة، وخائفة. وبرأيه أن أياً من هذه الصفات ليس حسناً.

"ماذا تنتظر؟" قالت بعصبيّة.

وألقى نظرة سريعة على شاشة الحاسوب. لا زال الدخول إلى حاسوب خدمة ماجيلان بيليت غير مسموح له. ولكن بما أنه لم يعُد موظفاً في وزارة العدل، فقد حُوِّل طلبه بالتأكيد إلى ستيفاني مباشَرةً للموافقة عليه. وكان يعلم بأنها ما إن ترى اسم المتصل حتى تؤمِّن له الدخول.

"هل هذا ما اعتدتَ القيام به؟" سألته. "أناس يحاولون إضرام النار في منزلك، وإطلاق نار من المسدسات. هل هذا ما كنت تقوم به؟ هل ترى إلى أين أوصلنا الأمر؟ هل تدرك إلى أي حد وصلت بنا الأمور؟"

"سيدة مالون،" قال هنريك.

"لا تنادِني بهذا الاسم،" قالت مقاطِعةً، وبحدّة. "كان يُفترَض بي تبديل ذلك الاسم. ولقد حثني الحسّ السليم على القيام بهذا الأمر عند الطلاق. ولكن لا، لم أرغب في أن يكون اسمي مختلفاً عن اسم غاري. ولا يمكنني قول أمور مقيتة عن والده العزيز. ولا مجرّد كلمة. لا، يا كوتون، أنت الرجل، أنت مَلِك في عينَي ذلك الفتى. إنه الموقف الأكثر مدعاة للمقت الذي مررت به في حياتي."

كانت تريد المشاجرة، وكان يتمنّى إلى حدٍّ ما لو أنه يملك الوقت لتلبية رغبتها.

وأصدر الحاسوب إشارة صوتية، وتحوّلت الشاشة إلى صفحة الدخول إلى وكالة بيليت.

فأدخل كلمة السر، وبعد لحظة فُتح خط اتصال ثنائي الاتجاه، وظهرت كلمتا

KNIGHTS TEMPLAR (أي فرسان الهيكل). وكانتا بمثابة مقدمة ستيفاني المشفَّرة. فكتب ABBEY DES FONTAINES، وهو المكان الذي وجد فيه مع ستيفاني، منذ أشهر قليلة، على ما تبقّى من ذلك الدير الذي يعود للقرون الوسطى. وبعد ثوانٍ قليلة، ظهرت عبارة 'ما الأمر، يا كوتون'؟

وأدخل بإيجاز ما سبق أن حدث. فأجابت:

"نواجه خرقاً هنا. منذ شهرين، تمّ الدخول إلى الملفات".

"هل ترغبين في شرح ذلك الأمر؟"

"ليس الآن. أردنا أن نبقيه سرّاً. يجب أن أدقق في بعض الأمور. إبقَ في مكانك وسأعود إليك بعد وقتٍ قصير. أين أنت؟"

"في منزل الدانماركي المفضّل لديك".

"بلّغه محبّتي."

ثم سمع ضحكة هنريك المكبوتة، وكان يعلم أن ستيفاني وهنريك، وعلى غرار الدّين منفصلَين، يتحمّلان بعضهما البعض إكراماً له.

"هل سنجلس هنا فقط وننتظر؟" قالت بام. وكان كلاهما يقرآن ما يظهر على الشاشة من فوق كتف مالون.

"هذا ما سنقوم به بالضبط."

فاندفعت نحو الباب. "يمكنك القيام بذلك. أما أنا فسأقوم بأمرٍ ما."

"مثل ماذا؟" سألها.

"سأقصد الشرطة."

فتحت الباب بقوة، وكان جسبر يقف في الرواق قاطعاً عليها الطريق. فحدّقت بام بكبير الخدَم وقالت له. "ابتعد عن طريقي."

لكن جسبر بقي ثابتاً في مكانه.

فاستدارت ورمقت هنريك بنظرات غاضبة. "قل لخادمك أن يتنحّى جانباً وإلا أزحته بنفسي."

"على الرحب والسعة، حاولي ذلك،" قال ثورفالدسن.

كان مالون سعيداً لأن هنريك استبق ردة فعلها غير الحكيمة. "بام، إن الحسرة تملأ قلبي مثلك تماماً، ولكن لا يمكن للشرطة القيام بأي شيء. نحن نتعامل مع محترف يتقدّمنا بيومين على الأقل. أحتاج إلى معلومات لكي أقوم بما هو أفضل لغاري."

"لم تذرف أي دمعة ولم يصدر عنك أي ما يعبّر عن دهشتك. ولم تُبدِ أي شيء على الإطلاق، كما حالك على الدوام."

فامتعض من ذلك الكلام، سيّما وأنه صادرٌ عن امرأةٍ أعلمته منذ شهرَين فقط، وبهدوء، أنه لم يكن والد ابنهما. وكان قد انتهى إلى الاستنتاج بأن إبداء المشاعر لا يعني شيئاً مقارَنةً بما يشعر به حيال غاري؛ فالفتى كان وما يزال وسيبقى ابنه دائماً. ولكن الكذبة أحدثت فارقاً كبيراً في طريقة تفكيره حيال زوجته السابقة. امتلأ غضباً وقال لها: "لقد سبق لكِ إن أفسدت كل شيء. كان يُفترَض بك الاتصال بي لحظة حدوث الأمر. أنت ذكيّة فاشلة، كان يُفترَض بك إيجاد طريقة للاتصال بي أو بستيفاني. فهي هناك في أتلانتا. ولكن بدلاً من ذلك، منحت هؤلاء الأشخاص يومين. لا أملك الوقت أو النشاط لمواجهتك ومواجهتهم. إجلسي واخرسي."

فوقفت بلا حراك وبصمت، مستغرقةً في التفكير. واستسلمت في النهاية وجلست مُنْهَكة على أريكة جلدية.

بعدئذ أقفل جسبر الباب بلطف وبقي في الخارج.

"قل لي أمراً واحداً،" قالت بام، وعيناها مسمّرتان بالأرض، ووجهها متصلّب كالرخام.

وكان مالون يعلم ماذا كانت تريد أن تعرف. "لمَ لا يمكنني أن أعطيه ما يريد؟ ليس الأمر بهذه البساطة."

"حياة فتى معرَّضة للخطر."

"ليس مجرّد فتى، يا بام. إنه ابننا."

لم تُجِب. ولعلّها أدركت في النهاية أنه مُحِق. وقبل القيام بأي عمل، كانوا بحاجةٍ إلى معلومات. فمالون يواجه المماطلة والتسويف تماماً في اليوم الذي تلى امتحانات كلّيّة القانون، أو عندما طالب بنقله من القوة البحرية إلى وكالة ماجيلان بيليت، أو عندما دخل مكتب ستيفاني نيل بخطى واسعة وسريعة واستقال من عمله.

انتظار، وتمنٍّ، ورغبة، وجميعها ممزوج بعدم المعرفة.

لذا، فقد كان يتساءل أيضاً عمّا كانت تفعله ستيفاني.

الفصل السادس

واشنطن العاصمة

الإثنين، 3 تشرين الأول/ اكتوبر

الساعة 10:30 مساءً

كانت ستيفاني نيل سعيدة لأنها بمفردها. وكان وجهها مكفهراً من القلق، ولم تكن تحب أن يراها أحد مهمومة، ولا سيّما مَن هُم أعلى رتبةً منها. وقليلاً ما كانت تسمح لنفسها بالتأثر بما يحدث من أمور ميدانية، ولكن خطف غاري مالون قد أصابها في الصميم. وكانت في العاصمة في عمل وقد أنهت للتوّ لقاء على العشاء مع مستشار الأمن القومي في ساعة متأخرة من الليل. فقد كان الكونغرس الذي يتخذ منحى الاعتدال بشكل متزايد يقترح إدخال تعديلات على عددٍ من القوانين الصادرة بعد أحداث 9 أيلول/سبتمبر. وكان التأييد يزداد للسماح بإلغاء تدابير احتياطية تفترض قيام الوكالات والبرامج الحكومية بمراجعتها دورياً بهدف الإبقاء عليها، ولذلك كانت الحكومة مقبلة على وقوع صِدام. وفي اليوم السابق، كان عددٌ من المسؤولين ذوي المراتب العليا قد قاموا بجوْلات الأحد متنقّلين بين برامج المقابلات التلفزيونية والإذاعية للتنديد بالمنتقدين، ونشرت الصحف الصباحية كذلك رواياتٍ نقلها إليها الجهاز الدعائي في الإدارة. وكانت قد استُدعيت من أتلانتا للمساعدة في اليوم التالي على محاولة التأثير في أعضاء مجلس الشيوخ الرئيسيين، وما اجتماع المساء سوى عمل تحضيري كانت ستيفاني تعلم أنه طريقة لإبلاغ كل شخص بما تنوي قوله بالتحديد.

كانت تكره السياسة.

وكانت قد عملت لدى ثلاثة رؤساء خلال تولّيها منصباً في وزارة العدل. ولكن

الإدارة القائمة كانت الأكثر صعوبة في الاسترضاء بلا شك. كان الرئيس المنتمي إلى اليمين الوسط، والذي ينجرف يوماً بعد يوم إلى مكانٍ أبعد في اتجاه اليمين المتطرف، قد فاز بولايته الثانية وقد بقي له ثلاث سنوات في منصبه. ولذا كان يفكّر أن يخلد اسمه التاريخ، وهل يوجد إحياء لذكراه أفضل من عبارة *'الرجل الذي سحق الإرهاب'*؟

لم تكن كل هذه الأمور تعني لها شيئاً.

فالرؤساء يأتون ويذهبون.

وبما أن التدابير الاحتياطية الخاصة المناهضة للإرهاب التي تتعرّض لخطر الإلغاء كانت قد أثبتت فائدتها بالفعل، فقد أكّدت لمستشار الأمن القومي بأنها ستكون فتاةً مطيعة في الصباح وتقول كل الأمور المناسبة في الكابيتول هيل.

ولكن كان ذلك قبل اختطاف ابن كوتون مالون.



رنّ الهاتف في مكتب ثورفالدسن بصوت عالٍ، الأمر الذي أثار أعصاب مالون.

أجاب هنريك على الاتصال. "يسعدني اتصالك، يا ستيفاني، ولك محبّتي أيضاً." وكان الدنماركي يبتسم بظُرفه المعهود. "أجل. كوتون موجود."

أمسك مالون الهاتف وقال: "تحدّثي إليّ."

"في تاريخ قريب من عيد العمّال، لاحظنا وجود خرق في النظام كان قد حدث قبل ذلك بكثير. فقد تمكّن أحدهم من الدخول إلى الملفات السرية، وبصفة خاصة أحد هذه الملفات."

كان يعرف هويّة الملف. "هل تُدركين أنك عرّضتِ ابني للخطر بتكتّمك عن تلك المعلومات؟"

وساد الصمت الطرف الآخر من الخط.

"بالله عليك أجيبيني."

"لا يمكنني ذلك، يا كوتون، وأنت تعرف السبب. أخبرني فقط ماذا ستفعل."

كان يعلم ما يعنيه الاستفسار في الواقع. هل سيُعطي المتّصل عبر جهاز الهاتف الخلوي لغز الإسكندرية؟ "لمَ لا يُفترَض بي ذلك؟"

"أنت الوحيد الذي يمكنه الإجابة على ذلك السؤال."

"ما جدوى تعريض حياة ابني للخطر؟ أنا بحاجة إلى فهم القصة بكاملها، أي ما لم يتمّ إطلاعي عليه قبل خمس سنوات."

"أنا بحاجة لمعرفة ذلك أيضاً،" قالت ستيفاني. "لم أزوَّد إلا بالقليل من المعلومات."

كان قد سمع تلك الكلمات قبلاً. "لا تعبثي معي، فلست في مزاجٍ ملائم."

"أني صادقة تماماً هذه المرة. لم يخبروني بشيء. لقد طلبت الإذن بدخول موقع الانترنت ووافقت على ذلك. لقد اتصلتُ بالمدّعي العام، وبالتالي سوف أحصل على إجابات."

"كيف كان بإمكان شخص ما أن يعلم بأمر اللغز؟ فكل تلك المسألة كانت سرّيّة وعلى مستوياتٍ عُليا. هكذا كان الاتفاق."

"سؤال ممتاز."

"لم تقولي بعد لِمَ لم تخبريني بشأن الخرق."

"لا، يا كوتون، لم أخبرك."

"ألم يخطر ببالكِ أنني كنت الشخص الوحيد على الأرض الذي يعلم بشأن ذلك اللغز؟ ألم يكن بإمكانك طلب رقم الهاتف؟"

"كيف لي أن أستبق كل هذه الأمور؟"

"لأن لك خبرة عشرين عاماً، ولأنك لست مغفّلة، ولأننا صديقان، ولأن غباءك قد يكلّفني حياة ابني."

وكان قلقه يتدفق سيلاً جارفاً من العتاب.

ولاحظ كيف أن كلماته صدمت بام، وأمل في ألا تنفجر غضباً.

"أدرك ذلك، يا كوتون."

ولم يكن ينوي التوقف عن توبيخها. "يا إلهي، أشعر بأنني أفضل الآن."

"سأعالج هذا الأمر هنا، ولكن لا يمكنني أن أعدكَ بشيء. لديّ عميل في السويد يمكنه القدوم إلى الدانمارك بحلول منتصف الصباح. سوف يخبرك بكل شيء."

"أين ومتى؟"

"لقد اقترح أخدود كرونبورغ سلوت، في الحادية عشرة صباحاً."

كان يعرف المكان. فهو ليس بعيداً، وقائماً على لسان ساحلي من أرض جرداء، ويُشرف على أورساند. والمعروف أن شكسبير كان قد خلّد القلعة الضخمة عندما عرض هناك مسرحية هاملت وذلك المكان المنتجع السياحي الأكثر شعبية في اسكندينافيا.

"لقد اقترح قاعة الرقص. أفترض أنك تعرف كل هذه الأماكن؟"

"سأكون هناك."

"كوتون، سأبذل كل ما بوسعي للمساعدة."

"هذا أقل ما يمكنك القيام به، لنأمل ذلك."

وأقفل الخط.

الفصل السابع

واشنطن، العاصمة

الثلاثاء، 4 تشرين الأول/ أكتوبر

الساعة 4:00 صباحاً

دخلت ستيفاني إلى منزل أو. برنت غرين، المدّعي العام في الولايات المتحدة، وكانت إحدى السيارات قد أقلّتها للتوّ إلى جورجتاون. وسبق لها أن اتصلت هاتفياً بغرين قبل منتصف الليل وطلبت مقابلته وجهاً لوجه، مُخبرةً إيّاه بإيجاز ما حدث. وكان بحاجة إلى قليلٍ من الوقت للاستقصاء، ولم يكن لديها خيارٌ آخر سوى الموافقة.

كان غرين ينتظر في مكتبه.

وكان قد عمل مع الرئيس طيلة مدة ولايته الأولى، وهو أحد أعضاء الحكومة القلائل الذين وافقوا على الاستمرار معه في ولايته الثانية. كان مناصراً شعبياً لقضايا المسيحيين المحافظين، ومُجازاً من نيو إنغلند دون أن يكون اسمه مرتبطاً بأي فضيحة، وقد أظهر نشاطاً جدّياً في هذا الوقت المُبكر من اليوم. كان شعره ولحيته الصغيرة المشذّبة مُهندمَين بدقّة وممشّطَين بسلاسة، وجسمه النحيف مكسوًا ببِزلة رسمية مقلّمة. وكان قد انتُخب عضواً في الكونغرس لست دورات، وكان يشغل منصب حاكم ولاية فرمونت عندما اختاره الرئيس لتولّي منصبه الحالي في وزارة العدل. وقد جعلته كلماته الصريحة وأسلوبه المباشَر ذا شعبية في أوساط جانبَي الجناح السياسي، ولكن شخصيته غير الوديّة حالت على ما يبدو دون ارتقائه إلى مناصب أعلى من مدّعٍ عام على الصعيد الوطني.

أما ستيفاني فلم تدخل يوماً منزل غرين، وكانت تتوقع منه طابعاً كئيباً لا

يمكن تخيّله، وجوّاً خليقاً بالرجل نفسه. ولكن، بدلاً من ذلك، كانت الغرف دافئة ومريحة: فيها الكثير من لون الأصفر البرتقالي، واللون الرمادي المائل إلى البنّي، والألوان الخضراء الباهتة، والألوان الكستنائية والبرتقالية؛ كل ذلك وفقاً لنسق همنغواي، بحسب ما أعلنته إحدى القنوات التلفزيونية المتخصّصة بعرض قطع الأثاث.

"هذه المسألة غير عادية، حتى بالنسبة إليك يا ستيفاني،" قال غرين وهو يستقبلها. "هل من معلومات أخرى عن مالون؟"

"كان في فترة راحة قبل ذهابه إلى كرونبورغ. ومع فارق الوقت، يُفترَض به أن يكون في طريقه إلى هناك الآن."

طلب منها الجلوس. "يبدو أن هذا الأمر يتفاقم."

"برنت، كنا قد تحدّثنا عن هذا الموضوع في السابق. هناك شخصٌ ذو مرتبة عالية في القيادات العليا دخل إلى قاعدة البيانات السرية. ونحن نعرف أن هناك ملفات حول لغز الإسكندرية قد تمّ نسخها."

"إن إف. بي. آي. تحقّق في الموضوع."

"هذه مزحة. فالمدير مقرَّب جداً من الرئيس، ولا خطر على أي شخص في البيت الأبيض إذا كان متورّطاً."

"إنك لا زلت تنبضين بالحياة كالعادة ولكنك دقيقة. ولسوء الحظ، فهذا هو الإجراء الوحيد المتوفر لنا."

"يمكننا إمعان النظر فيه."

"قد لا يؤدّي هذا الأمر إلا إلى المشاكل."

"أنا معتادة عليها."

فابتسم غرين. "هذا ما أنتِ عليه." وتوقف قليلاً وتابع: "أتساءل عن مقدار ما تعرفينه فعلاً عن ذلك اللغز؟"

"عندما أقحمتُ كوتون في ذلك الأمر المثير منذ خمس سنوات، كنت مدركة أنني لست بحاجة إلى معرفة المزيد. وهذا أمر عادي. فأنا أتعاطى مع الكثير من الأمور المماثلة، لذا لا أقلق بشأنها. ولكنني الآن بحاجة إلى معرفة المزيد عنه."

وارتسم على وجه غرين مقدارٌ من القلق. "قد أكون على وشك انتهاك قوانين فيدرالية لا تُحصى، ولكني موافق. فقد حان الوقت لتعرفي."



كان مالون يحدّق عبر التلة الصخرية في أخدود كرونبورغ. ذات يوم، كانت المدافع في هذا المكان مصوّبة إلى السفن الأجنبية التي تجتاز المضائق الضيّقة إلى البلطيق ومنه، وكانت رسوم المرور التي يتم جمعها تملأ الخزينة الدانماركية. أما الآن فقد أصبحت الجدران السمراء المائل إلى الصُفرة مُعتِمة إزاء سماءٍ زرقاء صافية. لم تعُد قلعة، بل مجرّد بناء يعود لعصر النهضة الإسكندينافية يزخر بأبراج ثُمانيّة الأضلاع، وقمم مستدَقّة، وأسطح نحاسية خضراء تُذكّر بهولندا أكثر منها بالدانمارك. وكان ذلك الأمر مفهوماً بالنسبة لمالون لأنه يعلم أن هولندياً من القرن السادس عشر له دور فعّال في تصميم هذا القصر. وكان يحبّ هذا المكان، وقد تكون المواقع العامة الأماكن الفُضلى التي يكون فيها المرء متخفياً. وكان قد استخدم العديد منها في السنوات التي عمل فيها مع وكالة بيليت.

كان قد قاد السيارة إلى الشمال من كريستيانغيد مدة خمس عشرة دقيقة فقط. فأملاك ثورفالدسن تقع في منتصف الطريق بين كوبنهاغن وهلسينغور، وهي مدينة ذات ميناء ناشط بجوار الأخدود. في السابق كان مالون قد زار كرونبورغ وهلسينغور، وجال في الشواطئ القريبة بحثاً عن الكهرمان أو العنبر؛ وكان ذلك بالنسبة له طريقة مريحة لقضاء فترة بعد الظهر من نهار أحد. أما زيارته للمكان نفسه هذا اليوم فهي مختلفة. فقد كان متوتّر الأعصاب، مستعدّاً للقتال.

"ماذا ننتظر؟" سألت بام، ووجهها جامدٌ كالقناع.

كان مُجبَراً على اصطحابها معه، بعد أن أبدت إصراراً تاماً وهددت بإثارة مزيد من المشاكل إذا أبقاها هناك. وكان قادراً على فهم تمنّعها عن الانتظار ببساطة مع ثورفالدسن. فالتوتر والرتابة أمران يبعثان على فقدان الأعصاب.

"لقد قال رجلنا الساعة الحادية عشرة،" قال ملاحظاً.

"لقد أضعنا ما يكفي من الوقت."

"لا شيء ممّا قمنا به يعتبر إضاعة للوقت."

كان بعد إنهاء حديثه مع ستيفاني، قد تمكّن من النوم لساعاتٍ قليلة. فبقاؤه نصف مستيقظ لن يُجدي غاري نَفعاً. وكان قد بدّل ثيابه أيضاً بالثياب الاحتياطية الموجودة في جعبة الظهر، أما ثياب بام فقد نظّفها جسبر. وكانا قد تناولا فطوراً خفيفاً.

وهكذا فقد بات مستعدّاً.

فتحقّق من ساعت وكانت تشير إلى 10:20 صباحاً.

كانت السيارات قد بدأت تملأ المواقف. وعما قريب سوف تصل الحافلات. فالكل يريد رؤية قلعة هاملت.

فلم يكن قادراً إلا أن يكون على هذا المستوى من الحذَر.

"هيًا بنا."

"اللغز"، قال غرين. "هو شخص يُدعى جورج حدّاد. وهو باحث فلسطيني في علوم الكتاب المقدّس."

كانت ستيفاني تعرف الاسم. وكان حدّاد قد تعرّف إلى مالون شخصياً منذ خمس سنوات وطلب مساعدته منه بالتحديد.

"ماذا تساوي حياة غاري مالون؟"

"فقدان مكتبة الإسكندرية."

"لا بد أنك تمزح."

هزّ غرين رأسه مؤكّداً الأمر. "لقد ظنّ حدّاد أنه استطاع أن يحدّد مكانها."

"كيف يمكن أن يكون لذلك أي صلة بالوقت الحاضر؟"

"في الواقع، قد يكون لذلك صلة بالفعل. فقد كانت تلك المكتبة أكبر مركز للمعارف على وجه الأرض. وقد دامت على حالها ستمائة عام حتى أواسط القرن السابع عندما تم العبَث بمحتوياتها وضاع معظم ما فيها. نصف مليون من اللفافات الورقية القديمة، والمخطوطات، والخرائط ـ كانت المكتبة تحتفظ بنسخة من كل شيء. وحتى هذا اليوم؟ لم يعثر أحد على أي قُصاصة منها."

"ولكن حدّاد وجدها؟"

"هذا ما ألمح إليه. لقد كان يعمل على نظريّة تتعلّق بالكتاب المقدّس. لا أدري ما هي، ولكن برهان نظريّته موجود كما يزعم داخل المكتبة المفقودة."

"كيف عرف ذلك؟"

"مرة ثانيةً، لا أعرف، يا ستيفاني. ولكن منذ خمس سنوات، عندما تقدّم مواطنونا في الضفة الغربية وسيناء والقدس بطلبات سليمة النيّة للحصول على تأشيرات، والوصول إلى المحفوظات، والقيام بحفريات آثارية، ثارت ثائرة الإسرائيليين. عندئذٍ طلب حدّاد مساعدة مالون."

"في مهمّة دون سابق معرفة، وهو أمر لم أحبّذه."

وتعني كلمة 'دون سابق معرفة' أنه طُلِب من مالون حماية حدّاد دون طرح أي أسئلة. وتذكّرت أن مالون لم يستسغ الشرط أيضاً.

" كان حدّاد لا يثق إلا بمالون،" قال غرين. "لذلك خبّأه كوتون في نهاية المطاف، وهو الشخص الوحيد في الوقت الحاضر الذي يعرف مكان وجود حدّاد. وعلى ما يبدو فإن الإدارة لم تمانع في إخفاء حدّاد ما دامت تراقب الطريق المؤدّية إليه."

"لأي سبب؟"

هزّ غرين رأسه. "لا معنى لذلك إلى حد ما. على أي حال، هناك تلميح إلى ما قد تتمّ المخاطَرة به."

وكانت تستمع إليه.

"في أحد التقارير التي اطلعتُ عليها، كُتِب في الحاشية 'سفر *التكوين 13: 14–17* 'هل تعرفينه؟"

"لست مطلعة كثيراً على كتابي المقدّس."

"*قال الرب لأبرام، إرفع عينَيك، انظر من المكان الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن كل الأرض التي تراها لك أُعطيها لك ولنسلك إلى الأبد.*"

وهذا ما لم تكن تجهله. إنّه العهد الذي حمل اليهود منذ دهور على المطالبة بأرض الميعاد انطلاقاً من الكتاب المقدّس.

"انتقل أبرام بخيامه وجاء فأقام في بلّوط مَمْرا وبنى هناك مذبحاً للرّب،" قال غرين. "مَمْرا كلمة عبريّة ـ الضفة الغربية في الوقت الحاضر ـ وهي الأرض التي منحها الله لليهود. وأصبح أبرام إبراهيم. وهذا المقطع من الكتاب المقدّس هو في صميم كل الخلافات الحاصلة في الشرق الأوسط."

وهذا ما لم تكن تجهله. فالنزاع في الشرق الأوسط بين اليهود والعرب لم يكن معركةً سياسية، كما كان يعتبر الكثيرون. بل كان بدلاً من ذلك خلافاً لا ينتهي حول وعد الرّب.

"وهناك واقعة أخرى مثيرة للاهتمام،" قال غرين. "فبعد وقت قصير من قيام مالون بإخفاء حدّاد، قامت إحدى الدول العربية بجرف بلداتٍ بأكملها وإزالتها من الخريطة. استمرّ التدمير ثلاثة أسابيع، وتم نقل الناس إلى مكان آخر، وهُدمت مبانٍ، ولم يتبقَّ أي أثر لتلك البلدات. هذا المكان هو بالطبع جزءٌ مجهول من البلد، ولذلك لم يكن هناك أي تغطية صحافية، ولم يُلفَت الانتباه إليه."

"لِمَ يفعلون ذلك؟ يبدو أن في الأمر تطرّفاً حتى بالنسبة لهؤلاء العرب."

"لم يقدّم أحد تفسيراً مقنعاً، ولكنهم شرعوا في الأمر بتعمّد تام."

"لا بد من معرفة المزيد، يا برنت. ولا بد أن يعرف كوتون ما يجري، فهناك قرار لا بد له من اتخاذه."

"لقد بحثتُ الأمر مع مستشار الأمن القومي منذ ساعة. ومن المذهل أن ما يعرفه أقل ممّا أعرفه عن هذا الموضوع. لقد سمع باللغز ولكنه اقترح عليّ أن أتحدّث إلى شخص آخر."

وكانت ستيفاني تعلم من هو ذلك الشخص. "لاري دالي."

كان لورنس دالي قد شغل منصب نائب مستشار الأمن القومي، وكان مقرَّباً من الرئيس ومن نائب الرئيس. لم يظهر دالي أبداً في برامج المقابلات السياسية التي تجري صباح الأحد. كما أنه لم يُشاهَد على محطة سي إن إن أو محطة فوكس نيوز. كان وسيطاً نافذا من وراء الكواليس، وقناة اتصال بين ذوي المراتب العليا من مسؤولي البيت وبقيّة الوسط السياسي. ولكن كانت هناك مشكلة.

"لا أثق بذلك الرجل،" قالت ستيفاني.

ويبدو أن غرين أدرك أمراً آخر توحي به نبرة صوتها، ولكنه لم يقل شيئاً، مكتفياً بالتحديق بها بعينَين كئيبتَين نافذتَين.

"ليس لنا أي سلطة على مالون،" قالت موضحة. "سيقوم بما ينبغي عليه القيام به. وهو الآن بالذات يستشيط غضباً."

"كوتون رجل محترف."

"يختلف الأمر عندما يكون أحد أفراد عائلتك في خطر." وكانت تتكلم انطلاقاً من خبرتها، سيّما وأنها كانت في الآونة الأخيرة تصارع أشباحاً من ماضيها الخاص.

"إنه الوحيد الذي يعرف مكان جورج حدّاد،" قال غرين. "إنه يملك كل الأوراق."

"ولهذا السبب بالتحديد يمارسون الضغط عليه."

أبقى غرين نظره مثبّتاً عليها.

وكانت تعلم أن حَيرتها قد تحوّلت بالتأكيد إلى ارتياب كان بادياً في عينَيها، ولم يكن بإمكانها إخفاؤه.

"أخبريني، يا ستيفاني، لمَ لا تثقين بي؟"

الفصل الثامن

مقاطعة أكسفورد، إنكلترا

الساعة 9:00 صباحاً

كان جورج حدّاد يقف مع الحشد يستمع إلى الخبراء، وهو يعلم أنهم مخطئون. لم يكن الحدث أكثر من كونه وسيلة لاستقطاب انتباه وسائل الإعلام لكلٍّ من مُتحف توماس باينبريدج ولمحلّلي الشيفرة التابعين لبلتشلي بارك الذين لم يتم إغداق الثناء والمديح عليهم. صحيح أن هؤلاء الرجال والنساء غير البارزين قد عملوا بسرّيّةٍ تامة خلال الحرب العالمية الثانية، وتمكّنوا في النهاية من حلّ الشيفرة الألمانية 'أنيغما' التي يعسر فهمها وعجّلوا في إنهاء الحرب. ولكن لسوء الحظ فإن قصتهم لم ترو بالكامل، إلا بعد وفاة بعضهم وبلوغ بعضهم الآخر سنّاً متقدمة أفقدتهم أي اهتمام بالأمر. كان بإمكان حدّاد أن يدرك ما يشعرون به من إحباط. فقد كان هو أيضاً طاعناً في السنّ يناهز عمر الثمانين، وعضواً في مجمع عِلمي. وكان أيضاً عمل بسرّيّة ذات مرة. كما أنه أظهر كذلك الهاماً عظيماً.

كذلك فإنه لم يعُد يُعرَف باسم جورج حدّاد. فقد استخدم في الواقع أسماء مستعارة عديدة لم يكن بإمكانه أن يتذكّرها كلّها. ثم توارى عن الأنظار طيلة خمس سنوات بسرّيّةٍ تامة. من جهة، كان هذا الأمر مناسباً له، ولكن الصمت أرهق أعصابه من جهة ثانية. وكان يحمد الله على أن رجلاً واحداً فقط كان يعلم أنه لا زال حيًّا، وكان يثق بذلك الشخص بصورةٍ مُطلَقة.

وفي الواقع، كان يدين له بحياته.

كان خروجه إلى العلن في ذلك اليوم ينطوي على مخاطرة، ولكنه أراد أن

يسمع ما يقوله من يسمون أنفسهم خبراء. وكان قد قرأ عن البرنامج في صحيفة 'التايمز' وأُعجب بالبريطانيين الذين يستشفون الأحداث التي تحظى باهتمام الإعلام؛ فقد كان المشهد مُتقَناً كفيلم سينمائي أُنتج في هوليود: كثير من الوجوه الباسمة والبذلات، والعديد من آلات التصوير والمسجّلات. لذلك قرر أن يبقى وراء العدسات، الأمر الذي لم يكن صعباً أبداً نظراً إلى أن انتباه الحاضرين كان مركّزاً على النصب التاريخي المعروض.

وكان ثمانية من الخبراء ينتشرون في الحدائق المُحيطة بالقصر والتي قام الإيرل توماس باينبريدج بإقامتها في العام 1784. وكان حدّاد يعرف قصة العائلة. فقد اشترى آل باينبريدج العقار في بادئ الأمر، وكان محجوباً عن الأنظار في العام 1624 في وادٍ في مقاطعة اكسفورد (اكسفوردشاير)، ومُحاطاً بغابات من شجر الزّان. وبنوا في وسط العقار الذي تبلغ مساحته ستمئة فدّان قصراً فخماً وضخماً من الطراز اليعقوبي. وبقي أفراد من عائلة باينبريدج محتفظين بالقصر حتى العام 1848 عندما اكتسب الملك حق مِلكيّته بهدف جمع الضرائب، وافتتحت الملكة فيكتوريا القصر والأرض المُلحَقة به وجعلته متحفاً. ومنذ ذلك الحين، يؤمّ الزائرون المكان لمشاهدة أثاث ذلك العصر وإلقاء نظرة سريعة على حياة الرفاهيّة والتنعّم التي كانت سائدة في القرون الماضية. وكانت مكتبة القصر، بأثاثها الذي يطغى عليه طابع القرن الثامن عشر، إحدى أفضل المكتبات قاطبةً. ولكن في السنوات الأخيرة، كان معظم الناس يزورون هذا الأثر التاريخي لأن باينبريدج هول يحتوي على لُغز، ولأن سائحي القرن العشرين يحبّون الأسرار.

أخذ حدّاد يحدق بمحور عجلة من الرخام الأبيض.

وكان في أعلاها كما يعرف، لوحة *رعاة أركاديا 2*، وهي لوحة غير هامّة رسمها نيكولا بوسّان عام 1649، وهي الصورة المعكوسة للوحته السابقة *رعاة أركاديا*. وكان هذا المشهد الريفي يظهر امرأة تقوم بالحراسة وثلاثة رعاة مجتمعين حول بلاطة ضريح يُشيرون بأصابعهم إلى حروفٍ منقوشة عليها *ET IN ARCADA EGO*. وكان حدّاد يعرف ترجمة هذه العبارة وهي 'وفي أركاديا أنا' كلمات غامضة لا تحمل الكثير من المعنى. وكان يلوح تحت تلك الصورة تحدٍّ آخر هو عبارة عن حروف عشوائية نُقشت بترتيب معيَّن.

D O.U.O.S.V.A.V.V M

كان حدّاد يعلم أن بعض المنتمين إلى العصر الحديث من المؤمنين بنظرية

المؤامرة كانوا قد عملوا على نلك المزيج من الحروف طيلة سنوات، بعد أن كان قد اكتشفها قبل عقد من الزمن مراسل لصحيفة 'الغارديان' كان يقوم بزيارة للمتحف.

"أتوجه لجميع الحاضرين هنا اليوم،" قال رجل طويل القامة. مهيب الطلعة، يقف أمام الميكروفونات، "نرحب بكم هنا في باينبريدج هول. لعلنا سنعرف الآن معنى الرسالة، أيّاً تكن، التي خلّفها وراءه توماس باينبريدج في هذا الأثر التاريخي قبل أكثر من مئتَي عام."

كان حدّاد يعرف أن المتكلّم هو القيّم على المتحف. وكان يقف إلى جانبَي المدير شخصان: رجل وامرأة مسنّان كان قد رأى صورتَيهما في صحيفة 'الصانداي تايمز'. كان الاثنان محلّلَين سابقَين للشيفرة يعملان لصالح بلتشلي بارك، وقد فُوِّضا بدراسة الاحتمالات وحلّ أي شيفرة يعتقد أن الأثر التاريخي يحتوي عليها. وكان الإجماع العام على ما يبدو أن هذا الأثر التاريخي هو شيفرة.

ماذا يمكن *أن* يكون غير *نلك*؟ سأل العديدون.

كان حدّاد يستمع إلى القيّم وهو يشرح كيف تم نشر إعلان يتعلّق بالأثر التاريخي، وكيف أن مجموعة متنوِّعة من المتخصصين في فك الشيفرة، واللاهوتيّين، واللغويّين، والمؤرّخين. قد أعطوا 130 حلاً لها.

"كان بعضها غريباً تماماً،" قال القيّم، "يأتي على نكر أجسام طائرة مجهولة، والكأس المقدَّسة، ونوستراداموس. بالطبع، لم تأتِ هذه الحلول الخاصة إلا بدليل داعم محدود، إذا وُجِد، وسرعان ما أُسقطت من الحسبان بسرعة. وظنّ قليل من المشاركين أن الحروف هي جِناس تصحيفي، ولكن الكلمات التي تمّ جمعها لم تكن ذات معنى كبير."

وهذا أمرٌ كان بإمكان حدّاد فهمه كذلك.

"ثم تقدم عسكري أميركي سابق متخصص في فك الشيفرة بحلّ واعد. فقام بتشغيل اثنتَين وثمانين مصفوفة لحل الشيفرات واستخرج في النهاية الأحرف *SEJ* من التعاقب. فإذا قلبت هذه الأحرف تصبح *JES*. ثم اعتمد شبكة مربّعات مماثلة لتلك المستخدَمة في رَصف الشوارع، "استخرج عبارة *Jesus H defy*. وقد ظنّ مستشارونا في بلتشلي بارك أنها رسالة تُنكر الطبيعة الإلهيّة للمسيح. هذا الحل يدل على مقدرة عقلية على الأقل، ولكنه محيّر."

ابتسم حدّاد لسماع هذا الهُراء. فقد كان توماس باينبريدج رجلاً متديّناً بإخلاص، ولم يكن ليُنكر المسيح.

ثم تقدّمت السيّدة المُسنّة الواقفة بجانب القيّم نحو المنصّة. وكان شعرها فضّيّ اللون وترتدي بذلة زرقاء باهتة، وقالت بلهجة شجيّة:

"هذا الأثر التاريخي هو فرصة عظيمة لنا. عندما كنت أعمل وآخرين في بلتشلي، واجهتنا تحدّيات عديدة من الشيفرة الألمانية؛ فقد كانت صعبة. ولكن إذا كان بإمكان العقل البشري وضع تصوّر لشيفرة ما، فهو قادر أيضاً على حلّها. فالحروف هنا أكثر تعقيداً. وهي شخصية، ممّا يجعل تفسيرها صعباً. وأولئك الذين استمروا بدراسة الحلول المئة والثلاثين الممكنة لهذا اللُّغز لم يتمكنوا من التوصّل إلى إجماع واضح بشأنها. فقد كنا منقسمين حيالها كسائر الناس. ولكن احتمالاً واحداً ممكناً كان ذا معنى." ثم استدارت وأشارت إلى الأثر التاريخي القائم وراءها. "أعتقد أنه تعليق يعبّر عن حالة حُب."

وتوقّفت مؤقّتاً استعداداً كما يبدو لقول الكلمات:

"OUOSVAVV ترمز إلى *Optimae Uxoris Optimae Sororis Viduus Amantissimus Vovit Virtutibus*، وهي تعني تقريباً 'أرمل مُحِبّ مكرِّس لأفضل الزوجات وأفضل الشقيقات'. إنها ليست ترجمة دقيقة، فقد تعني *Sororis* باللاتينية الكلاسيكية 'رفيقات' وكذلك 'شقيقات.' وكلمة *vir*، أي زوج، هي في هذه الحالة أفضل من *viduus*، أي أرمل. ولكن المعنى واضح."

ثم سأل أحد المراسلين الصحافيين عن معنى الحرفَين D وM الموجودين إلى يسار ويمين سلسلة الحروف الثمانية الرئيسية.

"بسيط جداً،" قالت. "*Dis Manibus* هي عبارة رومانية تعني: لآلهة العالم السُفلي، الجحيم' وهي مماثلة لتعبيرنا 'أرقد بسلام'. وستجدون تلك الحروف على معظم بلاطات الأضرحة الرومانية.

كانت تبدو راضيةً تماماً عن نفسها. فأراد حدّاد أن يطرح بضعة أسئلة استفسارية حول الموضوع من شأنها فضح وهمها الفكري، ولكنه لم يقُل شيئاً. بل راح يراقب ببساطة الشخصَين المتمرّسَين التابعَين لبلتشلي بارك وهما يقفان لالتقاط الصور أمام الأثر التاريخي مع إحدى الآلات الألمانية لحلّ الألغاز، التي استُعين بها لهذه المناسبة، كثير من الابتسامات، والأسئلة، وتعليقات الثناء.

كان توماس باينبريدج رجلاً لامعاً في الواقع. ولكنه لسوء الحظ لم يكن أبداً قادراً على نقل أفكاره بشكل فعّال، لذا ذبلت براعته وتلاشت في النهاية دون الحصول على أي تقدير. فقد بدا شخصاً متعصّباً بالنسبة إلى ذهنيّة القرن الثامن عشر. ولكنه كان يبدو نبياً بالنسبة إلى حدّاد. كان باينبريدج يعرف شيئاً ما بالتأكيد. فالأثر التاريخي الغريب القائم أمامه، إضافةً إلى الصورة المعكوسة للوحة غامضة وتشكيلة غير منتظمة من عشرة حروف، لا بد أنها كانت موجودة لسبب من الأسباب وهذا شيء كان يعرفه حدّاد. ليس عبارة حبّ، ولا شيفرة، ولا رسالة. بل شيء مختلف تماماً:

إنه خارطة.

الفصل التاسع

كرونبورغ سلوت

الساعة 10:20 قبل الظهر

دفع مالون عنه وعن بام رسم الدخول إلى القصر والبالغ ستين كروناً ثم سارا وراء مجموعة من الزوّار كانوا قد نزلوا من إحدى الحافلات الثلاث.

في الداخل، طالعهم معرض الصور الفوتوغرافية التي تعطي لمحات من مسرحيات *هاملت العديدة*. وبدأ يفكّر بغرابة الأقدار في هذا المكان. فقد تناولت رواية هاملت ابناً يثأر لوالده، وإذ به والداً يناضل في سبيل ابنه. وشعر بأن قلبه مدمّي بسبب غياب غاري. فقد كان غير راغب أبداً في تعريضه للخطر، كما أنه وفّق على الدوام بين العمل والمنزل طوال مدة عمله لدى وكالة بيليت على امتداد اثني عشر عاماً. وها هو ابنه قد بات أسيراً بعد عام من تركه العمل.

"أهذا ما اعتدتَ القيام به كل الوقت؟" سألت بام.

"جزء منه فقط."

"كيف كنت تعيش على هذا النحو؟ قلبي منقبض، وما زلت أرتعد من الليلة الماضية."

"ستعتادين الأمر." وكان يعني ما يقول رغم أنه تعِب منذ وقت طويل من الأكاذيب، وأنصاف الحقائق، والأمور المستبعَدة، والخونة.

"كنت بحاجة إلى هذه الفترة من النشاط والحركة، أليس كذلك؟"

كان جسمه مُثقَلاً بالتعَب، ولم يكن في مزاج ملائم لشجار عائلي. "لا، يا بام، لم أكن بحاجة إلى ذلك. ولكن هذه طبيعة عملي."

"أناني. هذا ما كنتَ عليه دائماً."

"وأنت لم تكوني سوى شعاع من أشعّة الشمس، الزوجة الداعمة التي تقف إلى جانب زوجها والتي حملت من رجل آخر، وبات لها ابن، وحملتني على الاعتقاد طيلة خمسة عشر عاماً بأنه ابني."

"لستُ فخورة بما قمت به، ولكننا لا نعرف عدد 'نسائك' اللواتي حملن منك، أليس كذلك؟"

توقّف عن السَّير، لأنه كان لا بد من وضع حدّ لهذا النقاش. "إن لم تسكتي فستتسبّبين بمقتل غاري. أنا أمله الوحيد، وإنّ حملي على فقدان اتّزاني لن يُجدي نَفعاً في الوقت الحاضر."

أشعلت هذه الحقيقة ومضة آنيّة من التفهّم في عينَيها القاسيتَين، نكرته باللحظة التي شعرت فيها بالحب للمرة الأولى. وتمنّى لو أن تلك اللحظة تطول، ولكن سرعان ما تلاشت نظراتها الأُنثوية، كما كانت الحال على الدوام، وعادت عيناها باردتين تحملقان به مجدّداً.

"تقدّم أمامي،" قالت له.

ودخلا قاعة الرقص.

كانت قاعة مستطيلة الشكل تمتدّ مسافة مئتَي قدَم. وكانت النوافذ قائمة على امتداد جانبَيها في فتحات عميقة تُظهر سماكة الجدران، وكان الضوء المائل يُلقي بسحره على أرض شبيهة برقعة الداما. وكان يتنقل في أرجائها حوالى عشرة زائرين ويتأملون بإعجاب اللوحات الزيتيّة الضخمة المعلّقة بشكلٍ متفرّق على الجدران ذات اللون الأصفر الباهت، وفيها مشاهد عن ساحات معارك بصفة رئيسية.

في الطرف البعيد من القاعة، شاهد مالون أمام المدفأة رجلاً قصير القامة، نحيلاً، ذا شعرٍ بنّي مائل إلى الحُمرة. فتذكّره عندما كان يعمل في وكالة ماجيلان بيليت؛ إنه لي دورانت. وكان قد تحدّث إلى دورانت لدقائق قليلة في أتلانتا. عندما رآه العميل توارى عبر أحد المداخل.

عبر مالون وبام القاعة.

ثم مرّا عبر مجموعة من الغرف المزيّنة بأثاث متفرّق يعود لعصر النهضة الأوروبية، وبمطرّزات جداريّة. بقي دورانت متقدّماً مالون بمسافة عشرين متراً. ثم رآه مالون يتوقف.

فدخل مع بام إلى غرفة تُعرف باسم 'الغرفة الركينة' التي تحتوي على مطرّزات جدارية تزيّن جدراناً بيضاء عاديّة. وكان عدد قليل من قطع الأثاث موضوع بشكلٍ متفرّق على أرض من البلاط المربّع الأسود والأبيض.

صافح مالون دورانت وعرّفه إلى بام. "أخبرني بما يحدث."

"قالت لي ستيفاني أن أوجز الأمر لك وليس لها."

"بقدر عدم رغبتي في وجودها هنا، فهي موجودة، لذا لا داعي لأن تقلق."

وبدا أن دورانت يفكّر في الوضع مليّاً، ثم قال، "طُلب منّي أن أفعل كل ما تَطلبه."

"سررت لمعرفتي بأن ستيفاني مُجامِلة إلى هذا الحد."

"لندخل في صلب الموضوع،" قالت بام. "أمامنا مهلة زمنية محدّدة."

فهزّ مالون رأسه. "لا تكترث لها، أخبرني بما يحدث."

"لقد تمكنوا من الدخول إلى ملفاتنا السرية. لا دليل على وجود تسلّل أو اقتحام لجدران الحماية، لذا من المفترَض أن العملية تمت من خلال كلمة مرور. وكانت هذه الكلمة تغيَّر في فترات زمنية منتظمة، ولكن هناك عدة مئات من الأشخاص الذين يسمح لهم بالدخول."

"هل هناك أدلّة تشير إلى حاسوب معيَّن؟"

"لا شيء. ولا بصمات في البيانات، ممّا يدلّ على أن الذين قاموا بذلك الأمر كانوا يعرفون ماذا يفعلون."

"أفترض أن شخصاً ما يحقّق في الموضوع."

فهزّ دورانت رأسه مؤكّداً الأمر. "الـ إف. بي. آي، ولكن لا شيء حتى الآن. لقد تمّت مراجعة حوالى عشرة ملفات، وكان أحدها متعلق بملف 'لغز الإسكندرية'."

ربما كان ذلك باعتقاد مالون يفسر سبب امتناع ستيفاني عن إعلامه بالأمر على الفور. فقد كانت هناك احتمالات أخرى.

"إليك الجزء المثير للاهتمام. الإسرائيليون مستنفَرون في الوقت الحاضر، ولا سيّما في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة. وقد أبلغتنا مصادرنا عن تسلّمهم معلومات يوم أمس من مُخبِرين فلسطينيين موجودين في الضفة الغربية."

"ما علاقة هذا الأمر بالموضوع؟"

"لقد ذكرت كلمات 'لغز الإسكندرية'."

"ما مدى اطلاعك على الموضوع؟"

"أطلعني أحد مصادري عليه منذ ساعة. حتى أنني لم أتقدّم بتقرير كامل بعد لستيفاني."

"كيف يمكن لأيّ من هذه الأمور المساعدة؟" سألت بام.

فقال مالون لدورانت:" أحتاج إلى معرفة المزيد."

"لقد طرحت عليك سؤالاً،" قالت بام بصوت مرتفع.

وكان سؤالها بمثابة وضع حدٍّ لتهذيبه. "وأنا طلبت منك أن تدَعيني أهتمّ بالموضوع."

"ليست لديك أية نية بإعطائهم أي شيء، أليس كذلك؟" واتّقدت عيناها غضباً وبدت مستعدّة للانقضاض عليه.

"أنوي أن أستعيد غاري."

"هل تنوي المخاطرة بحياته؟ وكل ذلك بسبب حماية ملف لعين؟"

في تلك اللحظة دخلت مجموعة من الزائرين إلى الغرفة تتدلّى على صدورهم آلات التصوير. فلاحظ أن لدى بام حكمة التزام الصمت، وكان ممتنّاً لهذه المقاطعة. لا شك في أن هناك خطأ ما في سلوكها. ولا بد له أن يتخلّص منها مباشرة بعد مغادرته كرونبورغ، حتى وإن كلفه الأمر الإقفال عليها في إحدى غرف منزل ثورفالدسن الريفي.

ثم خرج الزائرون.

فالتفت إلى دورانت وقال، "أخبرني المزيد عن ـ"

ولكن دويًّا أجفله ثمّ انفجرت الكاميرا المعلّقة في سقف إحدى زوايا الغرفة

في شرارات متطايرة. وتلى ذلك صوت دويِّين آخرَين. فترنّح دورانت نحو الخلف فيما كان الدم يخرج من ثقوب مفتوحة في قميصه الزيتونيَ اللون.

وسُمعت طلقة ثالثة انهار دورانت على أثرها على الأرض. فانحنى مالون.

كان هناك يقف على بُعد عشرين قدماً منه رجل يحمل سلاحاً من طراز غلوك. فأدخل مالون ذراعه اليمنى تحت سترته محاولاً العثور على سلاحه الخاص.

"لا حاجة لذلك،" قال الرجل بهدوء، ورمى المسدّس.

التقط مالون المسدس وقبض على أخمصه بإحكام ووضع إصبعه على الزناد، ثم صوّب، وضغط، ولكن لم يصدر سوى طقطقة.

فضغط مالون مرّةً ثانية على الزناد. وتكرّرت الطقطقة.

فابتسم الرجل. "هل ظننت أني سأعطيك إياه محشواً."

ثمّ ولّى مطلق النار من الغرفة هارباً.

الفصل العاشر

واشنطن العاصمة
الساعة 4:40 صباحاً

فكّرت ستيفاني مليّاً بالسؤال الذي طرحه برنت غرين عليها - *لمَ لا تثقين بي؟* - وقرّرت أن تكون صريحة مع رئيسها.

"الكل في الإدارة يريدون رحيلي. لمَ لا أزال هنا، لست أدري. لذا لا أثق بأحد في الوقت الحاضر."

هزّ غرين رأسه متفهّماً ارتيابها.

"لقد دخل أحدهم تلك الملفات بواسطة كلمة مرور،" أضافت قائلة. "ومن المؤكّد أنهم اطّلعوا على عشرة منها أو أكثر، ولكن كِلينا يعرف الملف الذي يسعون وراءه. وقليل منا فقط على علم بسرّ لغز الإسكندرية. حتى أنني لا أعرف التفاصيل - باستثناء أننا نواجه الكثير من المتاعب بسبب شيءٍ ما لا معنى له كما يبدو. كثير من الأسئلة، ولا أجوبة. هيّا، يا برنت، لسنا لا أنت ولا أنا في الواقع شخصَين غبيَّين، فلمَ يفترض بي أن أثق بك الآن؟"

"لنكن واضحين،" قال غرين. "لست عدوّك. ولو كنت كذلك لما كنّا بصدد إجراء هذا الحديث."

"لديّ أصدقاء في هذه المهنة قالوا لي ذلك مرّاتٍ عدّة دون أن يعنوا أي كلمة ممّا قالوه."

"هذا شأن الخوَنة."

فقرّرت اختباره أكثر فأكثر. "ألا تظن أنه ينبغي علينا إشراك مزيدٍ من الأشخاص في هذه القضيّة؟"

"إف. بي. آي. تتولّى المهمّة."

"برنت، نحن نعمل في الظلام. يجب أن نعرف كل ما يعرفه جورج حدّاد."

"إذاً، لقد حان الوقت لمعالجة المسألة مع لاري دالي في البيت الأبيض. فأي طريقٍ نسلكها ستؤدّي إليه مباشَرةً. بإمكاننا أيضاً الذهاب إلى المصدر."

فوافقت.

إثر ذلك اتّجه غرين نحو الهاتف.



سمع مالون الشخص الذي كان اغتال لي دورانت للتوّ يصرخ قائلاً إن هناك شخصاً يحمل سلاحاً أطلق النار على أحدهم.

وكان مسدس الغلوك ما زال بحوزة مالون.

"هل هو ميت؟" قالت بام مُدمدِمة.

سؤال ينمّ عن غباء، ولكن البقاء في المكان وفي اليد سلاح الجريمة أمر أكثر غباء. "هيّا بنا."

"لا يمكننا تركه فحسب."

"لقد مات."

أخذت الهستيريا تملأ عينَيها، فتذكّر المرة الأولى التي شاهد فيها شخصاً ما يموت، لذا قال لها، "لم يكن يُفترَض بكِ رؤية هذا المشهد، ولكن علينا أن نذهب."

خارج الغرفة كان صدى اندفاع أعقاب أقدامٍ يتردد على الأرض. إنهم عناصر جهاز الأمن كما افترض. فأمسك يد بام بإحكام وعبرا الطرف الثاني للغرفة الركنية.

أخذا يهرولان مارَّين بمزيدٍ من الغرف المُضاءة بنور الصباح الضعيف. ثم لاحظ وجود المزيد من الكاميرات وكان يعلم أن عليه أن يتجنّبها. فوضع الغلوك في جَيب سترته وأخرج مسدسه البيريتا. ثم دخلا غرفة تُعرَف باسم 'غرفة الملكة'.

كان يسمع أصواتاً صادرة منَ الناحية الخلفيّة يبدو أنهم عثروا على الجثة. وكان هناك مزيد من الصياح ووقع أقدام تقترب منهما.

كانت غرفة الملكة عبارة عن شقّة تحتوي على ثلاثة مداخل تؤدّي إلى خارجها، أحدها إلى درج يتّجه للأعلى، والثاني إلى درج يتّجه للأسفل، والثالث باب كبير يفتح على غرفة أخرى. ولا يوجد كاميرات للمراقبة. أمعن نظره بمحتويات الغرفة محاولاً اتخاذ قرار بما سيفعل. وكانت هناك خزانة كبيرة ومرتفعة أمام الجدار الخارجي. فقرّر أن يلعب على الاحتمالات.

أسرع نحو الخزانة وفتح بسرعة المقبضَين الحديديَّين لبابها المزدوج. كان الداخل واسعاً وفارغاً، وكان كبيراً بما يكفي ليتّسع لهما معاً، فأومأ لبام. وعلى الفور قدمت نحوه دون تعليق.

"ادخلي،" قال لها هامساً.

وقبل أن يدخل، فتح بابَي الدَّرَج المؤدّيَين إلى الخارج. ثمّ دخل إلى الخزانة وأغلق مصراعَيها بهدوء آملاً في أن يفترض ملاحقوهما أنهما نزلا، أو صعدا، أو عادا إلى داخل القصر.

كانت ستيفاني تستمع إلى برنت غرين يوجز للاري دالي ما قد حدث. لم يكن بإمكانها الكف عن التساؤل عما إذا كان الرجل الصلف في الطرف الآخر من الهاتف لا يعرف كافة التفاصيل فحسب بل المزيد منها أيضاً.

"'لغز الإسكندرية'، أمر مألوف لدي،" قال دالي عبر مِجهار الهاتف.

"هل ترغب في إخبارنا؟" سأل غرين.

"ليتني أقدر. إنه سرّيّ."

"حتى بالنسبة إلى المدّعي العام ورئيس إحدى وكالات استخباراتنا النخبويّة؟"

"إنها مُتاحة لمجموعة مختارة من الأشخاص فقط. آسف، ليس أيّ منكما مؤهّلاً لذلك."

"إذاً، كيف تمكّن شخصٌ آخر من اختراق الملف؟" سألت ستيفاني.

"ألم تتخيّلي ذلك بعد؟"

"ربما تخيّلت."

وساد الصمت في الغرفة. فقد تلقّى دالي رسالتها كما يبدو.

"لست أنا."

"هل كنتَ لتقول غير ذلك؟" سألته.

"احترسي لما تقولين."

فتجاهلت التحذير. "سوف يقوم مالون بإعطائهم اللغز. لن يجازف بحياة ابنه."

"إذاً لا بد من منعه عن القيام بذلك،" قال دالي. "لن نتخلّى عن اللغز لأي شخص."

فهمت قصده. "إنّك تريده لنفسك، أليس كذلك؟"

"تماماً."

لم يكن بإمكانها أن تصدّق ما تسمع. "قد تكون حياة الفتى على المحك."

"ليست مشكلتي،" قال دالي بصراحة.

لقد كان الاتصال بدالي خطأً، وكان بإمكانها التيقّن من أن غرين أدرك تلك الحقيقة أيضاً.

"لاري،" قال غرين. "دعنا نساعد مالون على الخروج من هذا المأزق. لا تجعل مهمّته أكثر صعوبة."

"برنت، إنها مسألة متعلقة بالأمن القومي، لا مسألة رأفة."

"من المثير جداً،" قالت ستيفاني، "ألا تكون قلِقاً البتّة حيال تمكن أحد الأشخاص من الدخول إلى ملفاتنا السرية ومعرفته كل شيء عن 'لغز الإسكندرية' - وهي مسألة متعلقة أمن قومي كما تُزعَم."

"لقد أبلغتِ عن ذلك الخرق منذ أكثر من شهر، والـ إف. بي. آي. تعالج الوضع. ماذا ستفعلين حيال هذا الأمر، ستيفاني؟"

"لقد طُلب منّي ألا أفعل شيئاً. ماذا فعلت أنت، يا لاري؟"

وسُمع صوت تنهّد عبر مِجهار الهاتف. "أنك حقاً شوكة في خاصرتنا."

"ولكنها تعمل لصالحي،" قال غرين موضحاً.

"إليك رأيي،" قالت ستيفاني. "أياً يكن هذا اللغز، فهو يتلائم بطريقةٍ ما مع السياسة الخارجية التي وضعتم تصوّراً لها أنتم عباقرة البيت الأبيض. أنكم في الواقع تستسيغون افتضاح أمر الملفات وحصول أحدهم على هذه المعلومات؛ ممّا يعني أنكم ستسمحون لهم بالقيام بعملكم الدنيء."

"أحياناً، يا ستيفاني، قد يكون الأعداء أصدقاء." ثم تحوّل صوت دالي إلى همس. "وبالعكس."

شعرت بغصّة في حَلقها. لقد بات ارتيابها أمراً واقعاً. "سوف تضحّي بابن مالون من أجل أن يخلّد التاريخ اسم رئيسك؟"

"لست الذي بدأ بذلك،" أجاب دالي. "ولكنني أنوي استغلاله."

"ليس إن تمكَّنتُ من الحؤول دون ذلك،" قالت.

"إذا تدخَّلت في الأمر فسوف تُطرَدين. ليس من قِبَلكَ، يا برنت، بل من قِبَل الرئيس نفسه."

"قد يتحوّل هذا الأمر إلى مشكلة،" قال غرين.

ولمست تهديداً في لهجته.

"أفهم من ذاك أنك ستقف إلى جانبها؟" سأل دالي.

"بلا رَيب."

وعلمت أنه تهديد لا يمكن لدالي أن يتجاهله. وكانت الإدارة تتّبع إجراء لمراقبة أعمال غرين بوصفه مدّعياً عاماً. ولكنه إذا استقال أو طُرد، فسيكون هذا الأمر مدار جدل واسع في البيت الأبيض.

لم يصدر أي صوت عن مِجهار الهاتف. فتخيّلت دالي جالساً أمام مكتبه، مُربَكاً بالمأزق الذي يواجهه.

"سأكون في منزلك في غضون ثلاثين دقيقة."

"لمَ يجب أن نلتقي؟" سأل غرين.

"أؤكّد لك أن الأمر جدير باهتمامك."

وأُقفل الخَط.



بقي مالون واقفاً في الخزانة يستمع إلى الخطى المتسارعة المتّجهة إلى داخل غرفة الملكة. وكانت بام قابعة بجانبه، أقرب مسافة بينهما منذ سنوات. وكانت تفوح منها رائحة مألوفة كالفانيلا العطِرة أعادت إليه بعض الذّكريات الممزوجة بالفرح والألم الشديدين. غريب كيف أن الروائح تثير الذكريات.

كان مسدس البيريتا ما يزال بيده، وأمل في ألا يُضطرّ لاستخدامه. ولكنه لم يكن راغباً أبداً في أن يتمّ إلقاء القبض عليه، سيّما وأن غاري بحاجة إليه. ومن المؤكّد أن أحد أسباب قتل دورانت إبعاده عنه، والسبب الآخر هو منعه من تلقّي أي معلومات مفيدة منه. ولكنه تساءل كيف أن أحداً علِم بأمر اللقاء. وعلى حدّ علمه فإن أحداً لم يتبعهما من كريستيانغيد، وهو أمرٌ كان واثقاً منه. ممّا يعني أن خطوط ثورفالدسن الهاتفية مراقَبة، وأن ذهابه المباشر إلى كريستيانغيد كان معروفاً سلفاً.

لم يكن بإمكانه رؤية بام، ولكنه شعر بانزعاجها. وبالنظر إلى كل الحميميّة التي تشاطراها ذات مرة، فهما الآن غريبان ليس إلا. وأعداء ربما.

أخذت الأصوات في الخارج تقطع حبل أفكاره. وغدت الخطى أكثر خفوتاً، ومن ثم تلاشت في الصمت. فانتظر وإصبعه على الزناد، والعرق يتصبّب من راحتَي يدَيه وكان هناك مزيدٌ من الصمت.

ولكن لا سبيل لرؤية أي شيء دون فتح مصراعَي الخزانة وإحداث طقطقة، وهو أمرٌ كارثي فيما لو أن الشخص ما زال ما في الغرفة.

ولكن لم يكن بإمكانه البقاء هناك إلى الأبد.

ففتح الخزانة بهدوء وإصبعه على زناد المسدس.

كانت غرفة الملكة فارغة.

فحرّك شفتيه لافظاً الكلمات التالية لتنزل عبر الدَّرَج دون إصدار صوت. واندفعا عبر الباب الكبير، ونزلا دَرَجاً دائرياً مثبّتاً بالجدار الخارجي للقصر. وعندما بلغا الطابق الأرضي، وصلا إلى باب معدني أملاً في ألا يكون مُقفلاً.

ولكن كان بالإمكان فتح المزلاج.

وخرجا إلى صباح مُشرق وبحر من العشب البرّاق يمتد من جدران القصر حتى البحر وتنتشر فيه طيور البجع. ولاحت السويد في الأفق على بُعد ثلاثة أميال عبر مياه البحر البنّيّة المائلة إلى اللون الرمادي.

فوضع مسدس البيريتا تحت سترته.

"لا بد أن نخرج من هنا،" قال لها. "ولكن ببطء. لا تلفتي الانتباه."

كان مدركاً أنها ما زالت منزعجة من حادثة القتل، لذا قال لها، "ستراودك الذِكرى مراراً وتكراراً، ولكنها ستزول."

"اهتمامك مؤثّر." وعادت إلى صوتها ثانيةً نبرة مهدِّدة.

"إذاً فكّري مليّاً في بالموضوع. من المحتمَل ألا يكون الشخص الأخير الذي يلقى حتفه قبل الانتهاء من هذه المسألة."

وسار أمامها على امتداد الأسوار المُشرفة على المَضيق. كان هناك قليل من الزائرين الذين يجوبون المكان. فوصلا إلى موقع يُعرف بـ"فلاغ باتيري" حيث كانت المدافع القديمة منصوبة، وحيث كان شكسبير قد سمح لهاملت بلقاء شبح والده. كان هناك جدار شاهق يطل على البحر، فرمى مسدّس الغلوك في المياه المتموّجة.

وكان زعيق صفارات الإنذار يسمع وراء المكان. فاتجها ببطء إلى المدخل الرئيسي. ورأيا الأضواء الوامضة ومزيد من عناصر الشرطة يهرعون إلى المكان، فقرّرا الانتظار قبل الاستمرار بالتقدّم. من غير المحتمَل أن يكون أحدهم يمتلك مواصفاتهما، ولكنه شك في أن يكون مُطلِق النار قد لازم المكان لتزويد الشرطة بها. وكانت فكرة مالون ألا يتعرض للاعتقال. لذا، اختلط بالحشد. وما لبث أن رأى مُطلِق النار.

كان يقف على بُعد ثلاثين ياردا ويتجه نحو البوّابة الرئيسية، سائراً الهُوَيْنى، متجنّباً لفت الانتباه أيضاً.

وشاهدته بام أيضاً. "هذا هو الرجل."

"أعلم."

وانطلق إلى الأمام.

"لن تقوم بذلك،" قالت.

"لا يمكنك منعي."

الفصل الحادي عشر

فيينا، النمسا

الساعة 11:20 قبل الظهر

كان شاغل الكرسي الأزرق يتساءل عما إذا كانت الحَلْقة قد ألزمت نفسها بالمسار الملائم. فطيلة ثماني سنوات، كان داي كلاون در أدلر، مخالب النسر، قد نفَّذ المهام الموكَلة إليه على أكمل وجه. صحيح أنهم استخدموه بشكلٍ جماعي، ولكنه كان يعمل مباشَرةً تحت إشراف شاغل الكرسي الأزرق، ممّا يعني أنه كان يعرف دومينيك سابر بشكلٍ أفضل بكثير من الآخرين.

كان سابر أميركي المولد والنشأة، وكان شخصاً من الطراز الأول بالنسبة إلى الحَلْقة. فقد كانوا قبل ذلك يستخدمون الأوروبيين على الدوام، عِلماً أن شخصاً من جنوب أفريقيا قد خدمهم ذات مرة بشكلٍ جيّد. ولم يتمّ اختيار كلّ من هؤلاء الرجال، بمن فيهم سابر، انطلاقاً من قدراته الشخصية، بل أيضاً بسبب مظهره الخارجي المعتدل. فقد كانوا كلّهم متوسّطي الطول والوزن وسمات الوجه. والميزة الوحيدة الملحوظة لدى سابر هي آثار بثِرات الظاهرة على وجهه. كان شعر سابر الأسود مقصوصاً بشكلٍ مرتّب، وممشّطاً على الدوام مع مقدار قليل من الزيت يُضفي عليه لمعاناً. كانت شُعَيرات قاسية تغطّي خدَّيه في غالب الأحيان لا لإخفاء النُدوب بل لاسترضاء أولئك المحيطين به أيضاً، وهو أمرٌ كان شاغل الكرسي الأزرق على عِلم به.

كان سابر يحتفظ بنظرة مسترخية ويرتدي ملابس بحجم أكبر من مقاسه عادةً تحجب جسمه النحيل الأوصال، القوي العضلات.

وانطلاقاً من سيرة سابر السيكولوجية الذاتيّة قبل استخدامه، علِم شاغل

الكرسي الأزرق أن هناك شيئاً ما في شخصيّته يدعو إلى التمرّد على السلطة، وهو أمرٌ يروق للأميركيين. ولكن تلك السيرة الذاتيّة نفسها تُظهر أيضاً أن سابر يُنجز المهمّة على الدوام إذا ما تمّ إطلاعه على النتيجة المطلوبة وتُرك يعمل على سجيّته.

وهذا ما كان يهمّ.

ولم يكن بإمكان شاغل الكرسي الأزرق وشاغلي الكراسي القلق في شأن كيفية إتمام مَهمّة ما، بل ببلوغ النتيجة المطلوبة. لذا كان ارتباطهم بسابر مُثمراً. ومع ذلك، فإن رجلاً لا يتمتّع بالأخلاق ولا يحترم السلطة يستحق المراقبة.

ولا سيّما عندما تكون المخاطر مرتفعة.

كما هي الحال الآن.

لذلك، مدّ شاغل الكرسي الأزرق يده إلى الهاتف وطلب رقماً.



أجاب سابر على هاتفه الخلوي آملاً في أن يكون الاتصال من رجله في كرونبورغ سلوت. ولكن بدلاً من ذلك، كان الصوت المتكلّف على الطرف الآخر من الخط صوت مُستخدِمه.

"كيف تلقّى السيد مالون ترحيبك الأوّلي؟" سأل شاغل الكرسي الأزرق.

"لقد تدبّر أمره جيّداً. وقد خرج هو وزوجته السابقة من النافذة زحفاً."

"كما توقّعتَ أنت. ولكن أتساءل، هل نلفت انتباهاً غير ضروري؟"

"أكثر ممّا كنت أتصوّر، ولكنه ضروري. وقد اقتضى الأمر استخدام القوة، وهكذا كان عليه أن يُدرك أنه لا يملك زمام الأمور. ولكنني سأكون أكثر احتراساً من الآن فصاعداً."

"لا تتردّد في ذلك، فلسنا بحاجة إلى تدخّل السلطات أكثر ممّا ينبغي." وتوقّف مؤقّتاً. "أقلّه عند الحدّ الذي بلغه الوضع حتى الآن."

كان سابر قد استقرّ في منزل مستأجَر في الناحية الشمالية من كوبنهاغن على بُعد عدة أبنية سكنيّة من أمالينبورغ، وهو القصر الملَكي القائم على شاطئ البحر. وكان قد جلب غاري مالون من جورجيا إلى هذا المكان مدّعياً أن والده في

خطر، وهو أمر صدّقه الفتى بفضل بطاقة تعريف مزوّرة من وكالة ماجيلان بيليت كان قد أظهرها سابر له.

"كيف حال الفتى؟" سأل شاغل الكرسي الأزرق.

"كان قلِقاً، ولكنه يعتقد أنها عملية تقوم بها الحكومة الأميركية. لذا، فهو هادئ، حتى الآن."

وكانوا قد زرعوا الرعب في نفس بام مالون بواسطة صورة لابنها. وكان الشاب قد تعاون معهم في هذا الأمر أيضاً، ظنّاً منه بأنهم يُعِدّون له أوراقاً ثبوتية لدواعٍ أمنيّة.

"أليس الفتى قريباً جداً من مالون؟"

"لم يكن ليذهب طَوعاً إلى أي مكان آخر. إنه يعلم أن والده في الجِوار."

"أُدرك أنك تسيطر على الوضع. ولكن كن حذِراً، فقد يفاجئك مالون."

"لهذا السبب نحتفظ بابنه. فهو لن يعرّض حياته للخطر."

"نحن بحاجة إلى لغز الإسكندرية."

"سيقودنا مالون إليه مباشَرةً."

ولكن لم يكن سابر قد ورده بعد اتصال من رجله في كرونبورغ. ولكي تسير الأمور كما يُرام، كان لا بد لعميله أن يلتزم بدقّة بالتوجيهات التي زُوِّد بها.

"لا بد أن نصل إلى حلّ لهذه المسألة في الأيام القليلة القادمة."

"وهو كذلك."

"وفقاً لما أخبرتني به سابقاً،" قال شاغل الكرسي الأزرق، "فإن مالون شخص لا يمكن التحكّم بنواياه. هل أنت واثق من أنه سيحافظ على اندفاعه بالطريقة الملائمة؟"

"لا تقلق لذلك. فقد تمّ تحفيزه حتى الآن وفقاً لما تقتضيه الحاجة وبشكل كافٍ."



خرج مالون من فناء كرونبورغ سلوت واستطاع أن يحدّد مكان طريده الذي كان يمشي الهُوَينى متّجهاً إلى داخل هلسينغور. وكان يحب ساحة سوق المدينة، والممرّات الظريفة بين الأشجار، والمباني المصنوعة من الخشب والآجرّ. ولكن أيّاً من عناصر عصر النهضة تلك لم تعُد ذات أهميّة.

كان هناك مزيد من صفارات الإنذار تزعق في البعيد.

كان يعلم أن جرائم القتل نادرة في الدانمارك. ونظراً إلى أن هذه الجريمة حصلت داخل موقع تاريخي وطني، فإنها ستكون بالتأكيد مادة إخبارية دسِمة. كان بحاجةٍ إلى إعلام ستيفاني بأن أحد عملائها لقِي حتفه، ولكن لم يكن يملك الوقت لذلك. وافترض أن دورانت كان يتنقّل مستخدماً اسمه الخاص - هو أمر درج عليه عملاء بيليت - لذا، فما إن تكتشف السلطات المحليّة أن ضحيّتها يعمل لصالح الحكومة الأميركية حتى يتمّ الاتصال بالأشخاص المناسبين. يا لخيبته! ولكنه كان قد تعلّم منذ أمد بعيد ألاّ يتحسّر على أمور لا يد له فيها.

فخفّض من سرعة خطاه وجنب بام إلى جانبه. "يجب أن نبقى خلفه. إنه غير متنبّه لنا، ولكنه قادر على مشاهدتنا."

وعبرا الشارع، وأخذا يسيران بمحاذاة صفّ من المباني الجميلة المواجهة لمجاز ضيّق قُبالة البحر. كان مطلِق النار يتقدمهم على بُعد مئة قدم، وشاهده مالون يستدير عند إحدى الزوايا.

فبلغا الزاوية نفسها وتفحّصا المكان من حولهما. كان الرجل يشق طريقه في درب ضيّق مخصّص للمشاة فقط تحدّه المتاجر والمطاعم من الجانبَين. وكان الناس يجوبون المكان بغير انتظام، لذا قرّر المجازفة باللحاق به. وتبعاه.

"ماذا نفعل؟" سألت بام.

"الأمر الوحيد الذي نستطيع القيام به."

"لمَ لا تُعطيهم ما يريدون بالضبط؟"

"الأمر ليس بهذه البساطة."

"إنه كذلك بالتأكيد."

وأبقى نظره إلى الأمام. "شكراً للنصيحة."

"أنت عنيد."

"أُحبك أيضاً. أما وقد حدّدنا مشاعرنا حيال بعضنا البعض، دعينا نركّز على ما نقوم به."

واستدار هدفهما إلى اليمين وتوارى عن الأنظار. فأسرع مالون وألقى نظرة عند الزاوية ورأى مطلِق النار يقترب من سيارة فولفو كوبيه متّسخة. فأمِل في ألا يكون مغادراً لأنه لا مجال للّحاق به نظراً إلى أن سيارتهما بعيدة جداً. ثم شاهد الرجل يفتح الباب لجهة السائق ويرمي شيئاً ما في داخل السيارة. وبعد ذلك أغلق الباب وعاد أدراجه باتجاههما.

فاندفعا إلى داخل متجر للملابس في اللحظة نفسها التي مر مطلِق النار أمامهما، سالكاً الاتجاه الذي قدِما منه. تسلّل مالون إلى باب المتجر وشاهد الرجل يدخل إلى مقهى.

"ماذا يفعل؟" سألت بام.

"ينتظر خمود حالة الاضطراب. لا تستعجلي الأمور. فقط اجلسي وتمالكي أعصابك. سنغادر لاحقاً."

"هذا جنون. لقد قتل رجلاً."

"ولا نعرف شيئاً سوى ذلك."

"لماذا قتله بأيّ حال؟"

"ليثير أعصابنا ويسكت أي مصدر للمعلومات. هناك كثير من الأسباب."

" عمل مثير للاشمئزاز."

"لِمَ استقلتُ باعتقادك؟" وكان قد قرر أن يستفيد من فترة الانتظار هذه لصالحه. "اذهبي وأحضري السيارة إلى هناك." وأشار إلى طريق مشجَّر بالقرب من محطة القطار عند شاطئ البحر. "أوقفي السيارة هناك وانتظريني. فعندما يغادر، سيكون عليه سلوك ذلك الاتجاه. إنه الطريق الوحيد للخروج من المدينة."

ثم أعطاها المفاتيح، وللحظة شعر بأنه يستعيد ذكريات ماضية لظرفٍ مماثل كان قد سلّمها فيه مفاتيح السيارة. ثم أخذ يفكر في السنوات الخوالي، وكيف كان انتظارها له مع غازي في المنزل بعد إنجاز مهمة ما يحمل إليه مقداراً من العزاء.

لقد كانا على وفاق تامّ بمقدار ما كان أيّ منهما غير راغب في الإقرار بذلك. وتنكّر بسمتها ولمستها. ولكن لسوء الحظ، فإن كذِبها حيال غاري يلقي بظلال الشك على كل تلك المُتَع. وحمله ذلك على التساؤل عمّا إذا كانت حياتهما معاً ضرباً من ضروب الوهم.

وبدت أنها تشعر بأفكاره، ورقّت نظراتها وغدت بام التي عرفها قبل أن تبدّلهما الأمور السيّئة. عندها قال لها، "سأعثر على غاري، أُقسم لك. سيكون بخير."

وكان يرغب في الواقع بأن تستجيب، ولكنها لم تقُل شيئاً.

وكان صمتها لاذعاً.

فقرّر الابتعاد.

الفصل الثاني عشر

مقاطعة أكسفورد، إنكلترا

الساعة 10:30 قبل الظهر

دخل جورج حدّاد إلى باينبريدج هول. وقد كان طيلة السنوات الثلاث السابقة زائراً دؤوباً منذ اللحظة التي أقنع فيها نفسه بأن الجواب عن معضلته يكمن داخل هذه الجدران.

كان المنزل تُحفة من البلاط الرُّخامي، والمطرَّزات الجداريّة لمورتلايك، والزخرفات الوافرة الألوان. ويعود تاريخ الدَّرَج الرئيسي بدرابزينه الزَّهري المنقوش بإتقان إلى زمن تشارلز الثاني. أما السقوف المصنوعة من الجَصّ فتعود إلى ستينيّات القرن السابع عشر. وكان الأثاث واللوحات من القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر. وباختصار فكل شيء كان نموذجاً رائعاً عن الطراز الريفي الإنكليزي.

ولكنه كان أكثر من ذلك أيضاً. فقد كان أُحجية. تماماً كمحور العجلة التاريخي في الحديقة حيث كان رجال الصحافة مجتمعين يستمعون إلى من يسمون أنفسهم خبراء، من أمثال توماس باينبريدج نفسه، وهو الإيرل الإنكليزي غير المعروف الذي كان قد عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكان حدّاد يعرف تاريخ العائلة. فقد ولد باينبريدج لعالم الامتيازات الحَصريّة والتوقعات الكبيرة. كان والده سيّد أكسفوردشاير (مقاطعة أكسفورد)، ولذلك فقد ورث مقامه في المجتمع نقلاً من جيل إلى جيل ومن تقاليد العائلة. وقد تجنّب توماس باينبريدج الخدمة العسكرية التقليدية وركّز اهتمامه على العلوم النظَرية - وبصفة رئيسية التاريخ واللغات وعلم الآثار. وعند وفاة والده، ورث عنه لقب الإيرل

وأمضى عقوداً متنقّلاً في أرجاء العالم. وكان أحد الغربيّين الأوائل الذين عملوا بشكل وثيق على استكشاف مصر، والأرض المقدّسة، وشبه الجزيرة العربية، موثّقاً خبراته في سلسلة من المجلات الدَوريّة المنشورة.

درس اللغة العِبريّة القديمة بمفرده، وهي اللغة التي كتب فيها العهد القديم في الأصل. وكان ذلك بمثابة إنجاز حقيقي باعتبار أن اللغة المحلّيّة كانت شفوية ومؤلّفة من حروف ساكنة، ولم يعُد استخدامها شائعاً منذ حوالى القرن السادس قبل الميلاد. ووضع كتاباً نُشِر عام 1767 تحدّى فيه الترجمات المعروفة للعهد القديم، مُبدياً ارتيابه حيال جزء كبير من المعارف التقليدية المعتمَدة في عصره، وقضى بعدها الجزء الأخير من حياته مدافعاً عن نظرياته، ومات ميتة مريرة، محطَّم الفؤاد، بعد أن تبدّدت ثروة العائلة.

كان حدّاد يعرف الكتاب جيداً، إذ إنه درس كل صفحة منه بالتفصيل. فهو يروي بالتفصيل المشاكل التي واجهها باينبريدج. فحدّاد نفسه كان قد واجه أيضاً تحدّيات المعارف التقليدية، وكانت العواقب كارثية بالنسبة إليه.

كان حدّاد يستمتع بزيارة المنزل، ولكن ما يدعو للحزن أن معظم الأثاث الأصلي كان قد استولى عليه الدائنون منذ زمن بعيد، بما في ذلك مكتبة باينبريدج المثيرة للإعجاب. ولم يتمّ العثور على بعض الأثاث إلا في السنوات الخمسين السابقة. وبقيت الكتب في غالبيّتها الكبرى مفقودة بسبب انتقالها من هواة جَمع الكتب إلى البائعين ومن ثمّ إلى القُمامة، وكان هذا مصير الكثير من المعارف الإنسانية المدوَّنة كما يبدو. ولكن حدّاد كان قادراً على تحديد أماكن عدد قليل من الكتب إذ قضى وقته يبحث في العدد الكبير من مكتبات الكتب النادرة الموزَّعة في كافة أنحاء لندن.

كما بحث في الإنترنت أيضاً. يا له من كنز مدهش. كم كانوا ليستفيدوا من شبكة المعلومات الفوريّة تلك في فلسطين قبل ستين عاماً.

كان قد فكّر مؤخَّراً كثيراً بالعام 1948.

وكان ذلك عندما حمل بندقية وقتل يهوداً إبّان في فلسطين النكبة. ولطالما أدهشه تعجرف الجيل الحالي نظراً للتضحيات التي بذلها الأسلاف؛ فقد نُفي ثمان مئة ألف عربي. وكان في التاسعة عشرة من عمره عندما قاتل في صفوف المقاومة الفلسطينية - وكان أحد قادتها الميدانيين - ولكن كل شيء ذهب سُدىً. فقد انتصر الصهاينة، وهُزِم العرب، وطُرد الفلسطينيون من بلادهم.

ولكن الذكرى بقيت.

وكان حدّاد قد حاول النسيان. لا بل أراد النسيان حقاً، ولكن للقتل عواقب بالرغم من ذلك. ولكنه حظِي بفرصة للنَّدم. فقد أصبح أكاديمياً، وتخلّى عن العنف، واعتنق المسيحية، ولكن أيّاً من هذه الأمور لم تحرّره من الألم الذي يعتريه. كان يرى وجوه الأموات باستمرار، ولا سيّما واحداً منهم، ذلك الذي دعا نفسه 'حارساً'.

'أنت تخوض حرباً غير ضروريّة ضد عدوّ مضلِّل'.

كانت تلك الكلمات قد انطبعت في ذاكرته في ذلك اليوم من شهر نيسان/ أبريل من العام 1948، ولا شك في أن تأثيرها فيه قد غير حياته إلى الأبد.

نحن حُماة المعرفة. نحن من المكتبة'.

تلك الملاحظة رسمت مسار حياته.

وبقي يمشي الهُوَيْنى في أرجاء المنزل، يشاهد التماثيل النصفيّة، واللوحات، والمنحوتات، والأشكال الجذّابة الغريبة، والرموز الغامضة. ثم سار قُبالة مجموعة من الوافدين الجدد، ودخل أخيراً غرفة الرسم حيث امتزجت كل رَزانة العصور القديمة بجاذبيّةٍ وظَرفٍ أنثويَّين في مكتبة الكلّيّة. وأخذ يركّز اهتمامه بالرفوف التي عُرضت عليها ذات مرة معارف عصور عديدة، وباللوحات التي تُذكّر بأشخاص كانوا قد أضفوا، بصفة خاصة، شكلاً محدَّداً على مسار التاريخ.

كان توماس باينبريدج أحد المدعوين، على غرار والد حدّاد تماماً. ولكن 'الحارس' كان قد وصل إلى فلسطين متأخّراً أسبوعَين لتوجيه الدعوة، وكانت رصاصة من مسدس حدّاد قد أسكتت الرسول.

أجفلته الذكرى؛ إنّه تهوّر الشباب.

وكان قد مرّ ستون عاماً، وها هو حدّاد يرى العالم الآن من خلال عينَين أكثر صَبراً. ولو أن تلك العينَين نفسيهما حدّقتا بالحارس في نيسان/ أبريل 1948 فلربما عثر حينذاك على ما يسعى إليه.

ولعله لم يعثر عليه.

لا بدّ أن يستحق المرء الدعوة كما يبدو. ولكن كيف؟

وأخذ يبحث بنظرات مدقِّقة في أرجاء الغرفة.

لا شك أن الجواب موجود هنا.

الفصل الثالث عشر

واشنطن العاصمة

الساعة 5:45 صباحاً

كانت ستيفاني تراقب ما يجري عندما رمى لاري دالي بثِقله على إحدى الكراسي المريحة في مكتب برنت غرين. وكان نائب مستشار الأمن القومي يحترم كلامه لأنه وصل في غضون نصف ساعة.

"مكان لطيف،" قال دالي لغرين.

"إنه منزلي."

"أنت دائماً رجل الكلمات الواضحة والبسيطة، أليس كذلك؟"

"الكلمات، كالأصدقاء، يُفترَض اختيارها بعناية."

ثم اختفت بسمة دالي الوِدّيّة. "كنت آمل في ألا نبدأ بتضييق الخناق على بعضنا البعض خلال هذه الفترة الوجيزة."

كانت ستيفاني قلقة. "لتكن هذه الزيارة جديرة بالعناء، كما قلتَ على الهاتف."

وضغط دالي بيدَيه على مسندَي الذراعَين. "آمل في أن تكوني أنتِ أيضاً منطقية."

"الأمر متوقّف على التطورات،" أجابته.

مرّر دالي يده على شعره الرمادي القصير. وكانت نظراته المحبَّبة تعكس

صدقاً صِبيانياً، وهي قادرة على بَعث الثقة في النفوس بسهولة، لذا حرِصت ستيفاني على البقاء متيقظة؛ فسألته.

"أفترض أنك ما تزال غير راغب في إطلاعنا على ماهيّة اللغز؟" سألت.

"لا أريد في الواقع أن أُتّهم بانتهاك قانون الأمن القومي."

"منذ متى كان خرق القوانين يُزعجك؟"

"منذ الآن."

"إذاً، ماذا تفعل هنا؟"

"ما مقدار ما تعرفين؟" سأل دالي. "ولا تقولي لي بأنك لا تعرفين شيئاً لأن ظنّي سيخيب بكما فعلاً."

وكرّر غرين المعلومة الصغيرة التي كان قد رواها عن جورج حدّاد.

فهزّ دالي رأسه موافقاً. "جُنّ جنون الإسرائيليين من حدّاد. وبعد ذلك، تدخّل العرب، وهذا ما قد تسبّب بصدمة لنا. فهم لا يكترثون عادة بأي شيء متعلّق بالكتاب المقدس."

"ألهذا السبب أرسلت مالون سرّاً إلى ذلك المستنقّع منذ خمس سنوات؟" سألته.

"أعتقد أن هذا الأمر من مسؤوليّاتك."

وتذكّرت كيف أن الوضع كان قد تدهور ."ماذا عن الانفجار؟"

"حدث ذلك عندما سدّد رجل حقير ضربة لهاوٍ."

وكانت سيارة مفخّخة قد دمّرت مقهى في القدس كان حدّاد ومالون في داخله.

"ذلك الانفجار كان يستهدف حدّاد،" قال دالي. "بالطبع لم يكن مالون يعلم بالأمر لأن المهمّة كانت سرية. ولكنه تمكّن بالفعل من إخراج الرجل سليماً."

"كم أننا محظوظون،" قال غرين متهكّماً.

"لا تُلقِ الاتهامات جِزاماً. فنحن لم نقتل أحداً. أن آخر شيء نريده هو موت حدّاد."

وكان غضب ستيفاني في ارتفاع مطّرد. "لقد عرّضتَ حياة مالون للخطر."

"إنه محترف. ولا يتناقض ذلك مع مسؤولياته."

"أنا لا أرسل عملائي في مهامّ انتحاريّة."

"كوني واقعية، يا ستيفاني. المشكلة مع الشرق الأوسط هي أن اليد اليسرى لا تعرف أبداً ماذا تفعل اليد اليمنى. ما حدث أمر نموذجي. لقد اختار المقاتلون الفلسطينيون المقهى غير المناسب ليس إلا."

"أم لعلّ الأمر ليست كذلك،" قال غرين. "فربما اختار الإسرائيليون أو العرب المقهى المناسب؟"

فابتسم دالي. "إنك تتحسّن في هذا الأمر. ولهذا السبب بالتحديد وافقنا على شروط حدّاد."

"إذاً، أخبرنا لماذا تكون الحكومة الأميركية مضطرة للعثور على مكتبة الإسكندرية المفقودة؟"

صفّق دالي بنعومة وقال: "برافو، أحسنت، يا برنت. لقد اعتبرتُ أن مصادرك ستنقل ذلك النبأ السارّ إن هي علمت بشأن حدّاد."

"أجب عن سؤاله،" قالت ستيفاني.

"أحياناً يتمّ الاحتفاظ بالأشياء الهامة في الأماكن الأكثر غرابة."

"هذا ليس بجواب."

"هذا كل ما ستحصلان عليه."

"إنك متآمر مع كل ما يدور هناك،" قالت جازمة.

"لا، لست كذلك. ولكنني لا أُنكر وجود آخرين في الإدارة مهتمّين باستخدام هذا الأمر كونه الطريق الأسرع لإيجاد حلّ لمشكلة ما."

"ما هي المشكلة؟" سأل غرين.

"إسرائيل. مجموعة من المثاليين المتعجرفين ممّن لا يريدون الإصغاء إلى أي كلمة يقولها أي شخص. هكذا، فلدى سقوط شخص ما، يرسلون دبّابات أو طوّافات حربيّة لسحق أي شخص أو أي شيء، وكل ذلك باسم الأمن. ماذا حدث قبل أشهر قليلة؟ لقد بدأوا بقصف قطاع غزة، وضلّت إحدى قذائفهم طريقها وقتلت عائلة بأكملها كانت في نُزهة على الشاطئ. ماذا يقولون؟ نحن آسفون.

الأمر مُحزن للغاية." وهزّ دالي رأسه. "أُبدوا القليل من المرونة، بعض الحلول الوسط، وإذاك يمكن تحقيق الأمور. لا، فهذه هي طريقتهم وليس هناك من طريقة بديلة أخرى."

وكانت ستيفاني قد علمت مؤخَّراً أن العالم العربي كان أكثر تكيّفاً من إسرائيل - نتيجة لما حدث في العراق، بالتأكيد، حيث تمّ إثبات الحزم الأميركي بشكل مباشر. وكان التعاطف العالمي مع الفلسطينيين قد نما باطّراد، وقد غذّاه تبدّل في القيادة، واتخاذ سياسات المواجهة العسكرية منحى معتدلاً، وحماقة المتشدّدين الإسرائيليين. وتذكّرت ما جاء في التقارير الإخبارية أن الناجي الوحيد من تلك العائلة على الشاطئ، وهي فتاة صغيرة، كانت تنوح أمام مشهد والدها المقتول. إنه أمر ينمّ عن تسلّط. ولكنها تساءلت عمّا يمكن القيام به في الواقع. "كيف يخططون للقيام بأي شيء حيال إسرائيل؟" ومن ثمّ توصّلت إلى جواب. "إنكم بحاجة إلى اللغز للقيام بذلك؟"

فلم يقل دالي شيئاً.

"ومالون هو الشخص الوحيد الذي يعرف مكانه،" قالت موضحة.

"إنها مشكلة، ولكن ليست من النوع الذي لا يمكن تذليله."

"لقد أردتَ من مالون أن يتصرّف. ولكنك لم تكن تعلم كيف تحمله على القيام بذلك."

"لا أُنكر أنها مسألة فرصة مؤاتية."

"يا لك من شخص خبيث،" قالت له من غير تردّد.

"انظري، يا ستيفاني. لقد أراد حدّاد أن يتوارى عن الأنظار، وكان يثق بمالون. ظنّ الإسرائيليون والعرب أن حدّاد قُتِل بالانفجار. لذلك فعلنا ما أراده الرجل، ومن ثمّ تراجعنا عن الفكرة برمّتها، وانتقلنا إلى أمور أخرى. أما الآن فقد عاد اهتمام الجميع بالموضوع من جديد ونريد حدّاد."

لم تكن ترغب في منحه أي فرصة لإثبات صحة وجهة نظره. "ماذا عن أي شخص آخر قد يليه؟"

"سوف أعامله كما يعامله أي سياسي آخر."

فاكفهرّ وجه غرين غضباً. "هل ستقوم بعقد صفقة؟"

"إنها الطريقة التي يتّبعها العالم."

وكان عليها معرفة المزيد. "ما الذي يمكن العثور عليه في مستندات عمرها ألفا عام؟ هذا إذا افترضنا أن هذه المخطوطات قد نجت، وهو أمر بعيد الاحتمال."

ورمقها دالي بنظرة جانبية، فأدركت أنه استطاع أن يمنعها مع غرين من التدخل. وبالتالي فقد يعمد إلى إلهائهما.

"النسخة اليونانية للعهد القديم."

ووجدت أنه من الصعوبة بمكان إخفاء حَيرتها.

" لست خبيراً" قال دالي، "ولكن انطلاقاً ممّا قيل لي، فقد قام علماء في مكتبة الإسكندرية بترجمة المخطوطات العبريّة، عهدنا القديم، إلى اللغة اليونانية، وذلك قبل بضع مئات من السنين من ميلاد المسيح. لا شك في أنه إنجاز كبير في تلك الحقبة من الزمن. وتلك الترجمة هي كل ما نعرف عن النص العبري الأصلي، وقد اختفت منذ ذلك الوقت. وقد ادّعى حدّاد أن هناك عيوباً جوهرية في هذه الترجمة وكل الترجمات الأخرى التي تلتها. وقال إن الأخطاء قد بدّلت كل شيء وهو قادر على إثبات ذلك."

"وما علاقة ذلك بالموضوع؟" سألت. "كيف يمكن لهذا الأمر تغيير أي شيء؟"

"لا يمكنني البَوح بأكثر من ذلك."

"لا يمكنك أم لا تريد؟"

"في هذه الحالة، لا فرق."

"تذكّر عهده *الأبدي*" همس غرين، "ذلك الذي أقامه مدى الأجيال، العهد بينه وبين أبرام، وقَسَمه لإسحاق. ثمّ أكد عهده ليعقوب بإكثار نسله وإعطائه الأرض التي هو نائم عليها غرباً وشَرقاً وشَمالاً وجَنوباً، ولإسرائيل عهداً أبدياً إذ قال، 'لك ولنسلك من بَعدك أعطيك أرض كَنعان مِلكاً مؤبَّداً'."

ولاحظت أن الكلمات أثارت مشاعر الرجل بغير تصنّع.

"وعد هام،" قال غرين. "أحد الوعود الكثيرة في العهد القديم."

"إذاً إنك تدرك سبب اهتمامنا؟"

فهزّ غرين رأسه موافقاً. "أفهم النقطة الأساسية، ولكنني أتساءل عن مدى القدرة على إثبات صحتها."

لم تفهم ذلك الأمر كذلك، ولكنها أرادت أن تعلم، "ماذا ستفعل يا لاري؟ تطارد الأشباح؟ هذا أمر جنوني."

"أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك."

وبسرعة، أصبحت المعاني الضمنية واقعية. لقد كان مالون مُصيباً بتعنيفها. وكان يُفترَض بها إطلاعه على الخَرق على الفور. وها هو ابنه الآن في خطر بفضل الحكومة الأميركية الراغبة في التضحية بالفتى.

"ستيفاني،" قال دالي، "هذه النظرة. ليست غريبة عني ما الذي تخطّطين له؟"

لا سبيل لإخبار هذا الشيطان بأي شيء. لذا فقد تحمّلت ذلّ الموقف، وابتسمت وقالت، "ما تريده بالتحديد، يا لاري. لا شيء البتّة."

الفصل الرابع عشر

كوبنهاغن

الساعة 12:15 ظهراً

كان دومينيك سابر يعرف أن الساعة التالية ستكون حاسمة. وكان قد شاهد على محطات التلفزة في كوبنهاغن تقريراً عن إطلاق نار في كرونبورغ سلوت، ممّا يعني أن مالون وزوجته السابقة يتقدّمان. وكان قد بلغته في النهاية أخبار الرجل الذي أرسله إلى القصر، وكان سعيداً باتّباعه الأوامر.

تحقّق من ساعته، وانتقل بعد ذلك من غرفة الجلوس الأمامية إلى غرفة النوم الخلفية حيث كان غاري مالون محتجَزاً. كانوا قد تمكنوا من الحصول على الفتى في المدرسة، مستخدمين أوراقاً ثبوتية رسمية وأسلوباً واقعياً في الكلام، وكل ذلك باسم الحكومة الأميركية على حد زعمهم. وفي غضون ساعتَين، كانوا قد غادروا أتلانتا في رحلة طيران مستأجَرة. وتمّت مفاتحة بام مالون بالموضوع وهم في طريقهم إلى هناك وأخبروها بما يتوجّب عليها القيام به بالتحديد. وكانت كل التقارير تصفها بأنها امرأة صعبة، ولكن صورة ابنها والأفكار التي راودتها بإمكانية إلحاق الضرر به ضمنت قيامها بما يريدون بالضبط.

فتح سابر باب غرفة النوم وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه. "يريدون منا أن نُعلِمك بأننا استلمنا معلومات عن أبيك."

كان الفتى جاثماً بالقرب من النافذة يقرأ كتاباً. وكان في اليوم السابق، قد طلب العديد من الكتب فقام سابر بتأمينها له. والتمع الوجه الصغير لدى سماعه الأخبار المتعلّقة بوالده. "هل هو بخير؟"

"إنه يُبلي بلاءً حسناً، وهو ممتن لوجودك معنا. وأمك بصحبته أيضاً."

"هل أمي هنا؟"

"لقد قام فريق آخر بإحضارها."

"إنها سابقة. فهي لم تأتِ إلى هنا من قَبل." وتوقّف الفتى قليلاً ثم قال: "هي وأبي لا ينسجمان معاً."

وبصفته عالماً بتاريخ مالون الزّوجي، فقد حاول أن يستشفّ أمراً ما. "لماذا؟"

"بسبب الطلاق. فهما لا يُقيمان معاً منذ مدة طويلة."

"هل الأمر صعب الاحتمال بالنسبة إليك؟"

بدا أن غاري يفكّر بالاستفسار ملياً. وكان طويل القامة بالنسبة لعمره، هزيلاً، وله شعر خرّوبيّ اللون. أما كوتون مالون فكان مُلفتاً للنظر بسبب مظهره المختلف: بشرة بيضاء، وعضلات مفتولة، وشعر خفيف. وعَبَثاً حاول سابر العثور على أي من ملامح الوالد في وجه الفتى.

"من الأفضل لو أنهما بقيا معاً. ولكنني أتفهم سبب عدم قيامهما بذلك."

"من الجيد أنك تتفهم الوضع. فأنت فتى متّزن."

وابتسم غاري. "هذا ما يقوله أبي على الدوام. هل تعرفه؟"

"آه، أجل. لقد عملنا معاً لسنوات."

"ماذا يجري هنا؟ لماذا أنا في خطر؟"

"لا يمكنني التحدّث عن الأمر. ولكن بعض الأشخاص الأشرار استهدفوا أبيك وسيقومون بملاحقتك أنت وأمك، ولذا تدخّلنا لحمايتك." وكان بإمكانه التيقّن من أن الشرح الذي قدمه لم يبدُ مُقنعاً تماماً.

"ولكن أبي لم يعُد يعمل لصالح الحكومة."

"لسوء الحظ، فإن أعداءه لا يأبهون بذلك. إنهم يريدون تعذيبه فحسب."

"إنه أمرٌ شديد الغرابة حقاً."

وارتسمت على وجهه بسمة متكلّفة. "أخشى أنه جزء من الأعمال."

"هل لديك أولاد؟"

واستغرب اهتمام الفتى بالموضوع. "لا، لم أتزوّج أبداً."

"تبدو رجلاً لطيفاً."

"شكراً. أقوم بواجبي فحسب." ثم بدّل طبقة صوته وقال،" هل تقوم بتمارين رياضية؟"

"أمارس لعبة البيسبول. على أي حال، فقد توقّفت الدورة لفترة قصيرة. ولكنني لا أمانع في رمي بعض الكرات."

"الأمر صعب في الدانمارك. فالبيسبول ليست الهواية الوطنية هنا."

"لقد زرت البلد في الصيفَين الماضيَين، وقد أحببته فعلاً."

"أي في الوقت التي تمضيه مع أبيك؟"

هزّ غاري رأسه موافقاً. "إنها الفرصة الوحيدة تقريباً التي نكون فيها معاً. ولكن لا بأس، فأنا مسرور لأنه يعيش هنا. فهذا الأمر يُسعده."

وفكّر ثانيةً بإمكانية استشفاف أمرٍ ما، "هل يسعدك هذا الأمر؟"

"أحياناً. وفي أحيان أخرى أتمنّى أن يكون أكثر قُرباً منّي."

"ألم تفكر أبداً بالإقامة معه؟"

وارتسم القلق على وجه الفتى. "من شأن هذا الأمر أن يقتل أمي. فهي لا تريدني أن أفعل ذلك."

"أحياناً تكون مضطراً للقيام بما يتوجّب عليك القيام به."

"لقد فكّرت في هذا الموضوع."

فابتسم ابتسامة عريضة. "لا تُجهد نفسك بالتفكير، وحاول ألا تكون منزعجاً."

"أشتاق إلى أمي وأبي. آمل في أن يكونا بخير."

لقد سمع من الفتى ما يكفي. وقد هدّأ ذلك من رَوع الفتى. والمفروض انه لن يتسبّب بأي مشكلة، أقلّه في الساعة التالية، وهو كل ما كان سابر بحاجة إليه.

وبعد ذلك، لن تهمّه الحال الذي سيكون عليه غاري مالون.

لذلك اتجه نحو الباب وقال، "لا تقلق، إني متأكد من أن كل شيء سينتهي قريباً."



وقف مالون في شوارع هلسينغور يراقب المقهى. وكان سَيل منتظم من الزبائن يتدفّق دخولاً وخروجاً. كان الشخص المستهدَف جالساً إلى طاولة بالقرب من النافذة يحتسي قدحاً من القهوة. وافترض أن بام تنتظره في السيارة المتوقفة في محطة القطار. فعندما قام هذا الرجل بخطوته، لم يكن أمامهما إلا فرصة واحدة. وإذا كان أعداؤه في مكان ما في الجوار، وهو أمر كان واثقاً منه تماماً، فقد تكون هذه الطريق هي الوحيدة المؤدّية إليهم.

وكان ظهور بام في الدانمارك قد أزعجه سبب له بعض الارتباك. ولطالما كان لها هذا التأثير فيه. فقد كان الحب والاحترام رابطهما ذات مرة، أو على الأقل هذا ما كان يظنّه، أما الآن فغاري هو الذي يقرّبهما من بعضهما البعض.

واستعاد في ذهنه ما كانت قد قالت له في آب حيال غاري:

"بعد سنوات من الكذب عليّ، تريدني أن أكون عادلة؟

أنت بنفسك لم تكن قديساً منذ سنوات، يا كوتون."

"وقد جعلتِ حياتي جحيماً مستديماً بسبب ذلك."

وهزّت كتفيها. "كنت أقوم بأعمال طائشة وبلا تحفّظ، ولم أكن أظن أنك تمانع. هذا ما كنت أعتقده."

"لقد أخبرتكِ بكل شيء."

"لا، يا كوتون. لقد أخذتك على حين غرّة."

"ولكنك جعلتيني أظن أن غاري ابني."

"إنه كذلك من مختلف النواحي باستثناء رابط الدم."

"أهذا هو تفسيرك المنطقي للأمر؟"

"لا يجدر بي إطلاعك على الأمر. ظننت فقط أنه يُفترَض بك معرفة الحقيقة. كان يُفترَض بي أن أخبرك بالأمر في ذلك العام الماضي عندما انفصلنا."

"كيف تعرفين أنه ليس ابني؟"

"كوتون، أجْرِ اختبارات. لا يهمّني الأمر. إعلم فقط أنك لست والد غاري. تصرّف بالمعلومات كما يحلو لك."

"هل يعلم ذلك؟"

"بالطبع لا. هذا الأمر بينك وبينه. لن يسمعه مني أبداً."

وكان ما يزال يشعر بالغضب الذي كان يحتاجه بينما احتفظت بام بهدوئها. فقد كانا مختلفَين، ممّا قد يفسّر أيضاً سبب انفصالهما عن بعض. وكان قد فقد والده في سنٍّ مُبكِرة، فاعتنت به والدته التي كانت تحبّه حبّاً جَمّاً. أما طفولة بام فكان يشوبها الاضطراب. وكانت والدتها امرأة متقلّبة ذات عواطف متضاربة وتدير مركزاً للرعاية النهارية. وكانت قد بدّدت مدّخرات العائلة مرّتَين لا مرّة واحدة، وكان المنجّمون نقطة ضعفها، ولم يكن بإمكانها أبداً الإفلات من تأثيرهم، فكانت تُنصِت إليهم بشغف وهم يخبرونها بما ترغب في سماعه بالضبط. وكان والد بام يعيش حالة من الاضطراب أيضاً، وكان شخصاً تجرفه الأهواء ويهتمّ بالطائرات التي تسير لاسلكياً أكثر من اهتمامه بزوجته وأولاده الثلاثة. وكان قد عمل طيلة أربعين عاماً في مصنع لقرون الأيس كريم، موظَّفاً يتقاضى راتباً دون أن يتخطى أبداً منصب مدير متوسط المستوى. هكذا كان حَموه - إخلاص ممزوج بشعور كاذب بالقناعة - إلى أن توقف قلبه في النهاية وبعد ان اعتاد تدخين ثلاث علب من السجائر حتى يوم وفاته.

وكانت بام قد عرفت القليل مّن الحب والشعور بالأمان عندما التقيا. ونظراً إلى كونها شحيحة العواطف ولكن متطلّبة لحبّ عظيم، فقد كانت على الدوام تعطي أقل بكثير ممّا تطلب. والإشارة إلى تلك الحقيقة لم تكن تؤدّي إلا إلى الغضب. وما الخطأ الذي ارتكبه مالون مع نساء أخريات في وقت مُبكر من زواجهما إلا إثبات لوجهة نظرها ليس إلا، وهي أن لا شيء ولا أحد يمكن الاعتماد عليه.

لا الأمهات، ولا الآباء، ولا الأشقاء والشقيقات، ولا الأزواج.

فالكل قد فشلوا.

وهي أيضاً.

لأنها حملت طفلاً غير شرعي دون أن تخبر زوجها بأنه ليس الوالد. وقد بدا الأمر وكأنها ما زالت تدفع ثمن ذلك الفشل.

وكان ينبغي على مالون أن يظهر بعض الاعتدال، ولكن الأمر لم يكن ممكناً من طرف واحد سيّما وأنها لم تكن راغبة في تأدية قسطها من الاعتدال ـ ليس بعد على الأقل.

توارى مُطلق النار عن النافذة.

فركّز مالون انتباهه مجدَّداً على المقهى.

وشاهد الرجل يخرج من المبنى ويتّجه نحو سيارته المتوقّفة، ويصعد فيها، ويغادر. فترك موقعه، وانطلق بأقصى سرعة عبر الطريق المشجَّر ورأى بام.

فعبر الشارع وقفز إلى المقعد بجانبها وقال لها: "أديري المحرّك كوني مستعدة."

"أنا؟ لمَ لا تقود أنت؟"

"لا وقت لذلك. ها هو قادم."

ورأى سيارة الفولفو تنعطف في اتجاه الطريق العام الموازي للشاطئ، ومرّت بهما مُسرعة.

"هيا انطلقي،" قال لها بإلحاح.

فانطلقت وراء السيارة.



دخل جورج حدّاد شقّته في لندن. وكانت الرحلة إلى باينبريدج هول قد ولّدت لديه إحباطه المعتاد، لذا فقد تجاهل حاسوبه الذي كان يشير إلى وجود رسائل بريد إلكترونية غير مقروءة، وجلس إلى طاولة المطبخ.

كان قد بقي خاملاً طوال خمس سنوات، يعلم ولا يعلم، يفهم ولكن مشوَّش العقل في الوقت نفسه.

فهزّ رأسه.

يا له من مأزق.

ألقى نظرة سريعة من حوله. لقد فقدت الشقة سحرها المهدّئ والمطهّر. من

الواضح أن الوقت قد حان، وعلى أشخاص آخرين أن يعرفوا ذلك. كان مَديناً بذلك الإيحاء لكل شخص دمّرته النكبة وسُرقت أرضه وتمّ الاستيلاء على ممتلكاته. وكان يدين بذلك إلى اليهود.

فلكل شخص الحق بمعرفة الحقيقة.

ولكن لا يبدو أن، المحاولة الأولى التي قام بها منذ أشهر قد نجحت.

لهذا السبب، استخدم هاتفه مجدَّداً في اليوم السابق.

وها هي المرة الثالثة التي يطلب فيها رقماً دولياً.



كان مالون يراقب الطريق أمامه بينما كانت بام تقود بسرعة على الطريق العام الساحلي نحو الجنوب في اتجاه كوبنهاغن. كانت الفولفو تسبقهما بمسافة نصف ميل. وكان قد سمح لعدة سيارات بتجاوزهما لكي يشكل فاصلاً بينهما وبين سائق الفولفو، ولكنه حذَّرها أكثر من مرة من ألا تبتعد كثيراً عن السيارة الملاحَقة.

"لست عميلة سرية،" قالت بام وعيناها مسمَّرتان إلى الأمام. "لم أقم بهذا العمل أبداً من قبل."

"ألم يعلّموك هذا الأمر في مدرسة الحقوق؟"

"لا، يا كوتون. علّموك هذا الأمر في كليّة التجسّس."

"حبّذا لو كان هناك مدرسة للتجسّس. لسوء الحظ، كان عليّ التعلّم في سياق مهنتي."

وزادت الفولفو من سرعتها، فتساءل عما إذا كان قد تمّ اكتشافهما. ولكنه رأى بعد ذلك السيارة تتجاوز سيارة أخرى ليس إلّا. ولاحظ أن بام بدأت تحافظ على نفس سرعة الرجل الملاحَق. "لا تفعلي ذلك. إذا كان يراقب، فهذه خدعة لمعرفة ما إذا كان ملاحَقاً. يمكنني رؤيته، لذا ابقَي حيث أنت."

"كنت أعلم أن تدريب وزارة العدل سيعطي نتائج طيّبة."

إنّها خفة في الكلام، ولكنها نادراً ما تلجأ إليها. غير أنه قدّر جهدها وأمِل في أن يؤتي هذا الأمر ثماره. فلا بدّ أن يكون غاري في الجوار، وكل ما هو بحاجة إليه فرصة واحدة لتخليصه.

وبلغا ضواحي العاصمة، وغدت حركة المرور بطيئة. كانا متخلّفَين عن الرجل الملاحَق بأربع سيارات عندما سلكت الفولفو طريقاً فرعياً عبر تشارلوتنلاند سلوتسبارك، ودخلت شمال كوبنهاغن، فتوجهت جنوباً إلى داخل المدينة. وقبل القصر الملَكي مباشَرةً، استدارت الفولفو غرباً وشقّت طريقها في درب يؤدّي إلى داخل ضاحية سكنية.

"احترسي،" قال لها. "من السهل اكتشاف وجودنا هنا. ابقي بعيدة."

زادت بام المسافة التي تفصلها عن الفولفو. وكان هذا الجزء من البلدة مألوفاً لمالون. فمنطقة الروزنبورغ سلوت حيث تعرض مجوهرات التاج الدانماركي تكمن على بعد بضعة أبنية سكنيّة، والحدائق النباتيّة في الجوار.

"إنه يتوجّه إلى مكان محدَّد،" قال لها. "كل هذه المنازل متشابهة، لذا عليك معرفة وجهة سيرك."

وبعد انعطافتين، سلكت الفولفو طريقاً مشجَّراً. فطلب منها التوقف عند ركن الطريق، وأخذ يراقب رجله وهو يسلك طريقاً مؤدّياً إلى أحد المنازل.

"تقدّمي إلى جانب الطريق بمحاذاة الحاجز الحجري،" قال مومِئاً إليها.

وفيما كانت توقف السيارة، تناول مسدس البيريتا وفتح الباب. "ابقَي هنا، وأنا جادّ في ذلك. قد يتّخذ الأمر طابعاً عنيفاً، ولا أستطيع العثور على غاري والعناية بك في آن معاً."

"هل تظن أنه موجود هنا؟"

"ثمّة احتمال كبير."

وأمِل في أن تقتنع بذلك بسهولة.

"حسناً، سأنتظر هنا."

وهمّ بالخروج فأمسكت بذراعه. كانت قبضتها مُحكَمة ولكن غير عدائية. فاجتاحته عاطفة مؤثِّرة.

والتفت إلى وجهها والخوف يملأ عينَيها.

"إذا كان موجوداً هناك، أعِده لي سالماً."

الفصل الخامس عشر

واشنطن العاصمة

الساعة 7:20 صباحاً

كانت ستيفاني سعيدة لمغادرة لاري دالي. فقد كانت محبّتها للرجل تقلّ أكثر فأكثر كلما اجتمعا.

"ما رأيك؟" سألها غرين.

"ثمّة أمر واحد واضح. ليس لدالي أي فكرة عن لغز الإسكندرية. لديه معلومات عن جورج حدّاد فقط، ويأمل في أن يكون الرجل على عِلم بشيء ما."

"لمَ تقولين ذلك؟"

"لو كان يعلم لما أضاع وقته معنا."

"إنه بحاجة إلى مالون للعثور على حدّاد."

"ولكن من يقول إنه بحاجة إلى حدّاد للوصول إلى شيء ما؟ لو كانت الملفات السريّة كاملة لما أضاع الوقت مع حدّاد، ولاستخدم عدداً قليلاً من الأشخاص الشديدي الذكاء، واكتشف أمراً ما، وانطلق من المعلومات التي جمعها." وهزّت رأسها. "دالي مخادع تافه، وقد خدعنا للتوّ. إنه يحتاج إلى كوتون للعثور على حدّاد لأنه لا يعرف مكان اللغز. وهو يأمل أن يمتلك حدّاد كل الأجوبة."

جلس غرين في كرسيّه بقلق لا يمكن إخفاؤه. وكانت قد بدأت تظنّ أنها أساءت الحكم على هذا القادم من نيوإنغلند. فقد وقف بجانبها ضد دالي، حتى إنه صرّح بوضوح أنه سيستقيل إذا قام البيت الأبيض بطردها.

"السياسة عمل كريه،" همهم غرين. "والرئيس بطة عرجاء. فهو يؤخّر برنامج عمله بالحيلة، وقد بدأ الوقت ينفذ منّا. إنه بالتأكيد يبحث عمّا يخلّد به اسمه، عن مكان له في كتب التاريخ، ويبدو أن رجالاً مثل دالي يجدون أنه من الواجب عليهم تأمين هذا التخليد. أوافقك الرأي، إنه يبحث. ولكن ما لا أعرفه هو الفائدة التي قد يجنيها من أي من هذه الأمور."

"من المُقنع بما يكفي كما يبدو أن العرب والإسرائيليين عملوا على الأمر قبل خمس سنوات."

"وهو أمر ذو مغزى. فالإسرائيليون غير ميّالين إلى المِزاجيّة والتقلّب. هناك أمر ما يجعلهم يريدون حدّاد مَيتاً."

"كوتون في وَرطة،" قالت. "ابنه في خطر ولن يحصل على أي مساعدة منا. والواقع أننا سوف نكتفي رسمياً بعدم التدخل والمراقبة، ومن ثمّ نستغلّه."

"أظن أن دالي يقلّل من قَدْر خصومه. لقد تمّ التخطيط للأمر بإتقان."

فوافقت. "هذه هي مشكلة موظفي الحكومة. يظنون أن كل شيء قابل للتفاوض."

اهتزّ الهاتف النقّال في جيب ستيفاني فجفلت للأمر. وكانت قد طلبت عدم إزعاجها ما لم يكن الأمر حيوياً. فأجابت على الاتصال، واستمعت لفترة وجيزة، ومن ثمّ أقفلت الخطّ.

"لقد فقدت عميلاً للتوّ. إنه الرجل الذي أرسلتُه لمقابلة مالون. لقد قُتل في قصر كرونبورغ."

بقي غرين صامتاً.

وبدت أمارات التأثّر في عينَيها. "كان دورانت متزوجاً وله أولاد."

"أي معلومات عن مالون؟"

فهزّت رأسها بالنّفي. "لم يتلقّوا أي اتصال منه."

"ربما كنت على حق في بادئ الأمر. لعلّه كان يُفترَض بنا إشراك وكالات أخرى؟"

وجفّ حَلقها. "لم يكن الأمر لينجح. يجب معالجة الأمر بطريقة أخرى."

وجلس غرين بلا حراك، وشفتاه متغضّنتان، وعيناه لا تتحرّكان، وكأنه يعرف ما الذي يجب القيام به.

"إني أنوي مساعدة كوتون،" قالت.

"وما الذي يمكنك القيام به؟ لستِ عميلة ميدانية."

وتذكرت كيف أن مالون قال لها الأمر نفسه في فرنسا منذ مدة غير بعيدة، ولكنها كانت قد تدبّرت أمرها بشكل جيّد وكافٍ. "سوف أحصل على مساعدتي الخاصة من أشخاص يمكنني الوثوق بهم. لديّ الكثير من الأصدقاء الذين يدينون لي بخدمات."

"يمكنني المساعدة أيضاً."

"لا أريد توريطك في الأمر."

"ولكنني متورّط."

"لا شيء يمكنك القيام به،" قالت.

"قد تتفاجئين."

"وما الذي قد يفعله دالي عندئذٍ؟ ليس لدينا أية فكرة عن هويّة حلفائه. ومن الأفضل أن أتولّى هذا الأمر بهدوء. لا تتدخل في الموضوع."

لم يرتسم على وجه غرين أي تعبير. "ماذا عن العرض الموجَز هذا الصباح في الكابيتول هيل؟"

"سأتولى الأمر. بهذه الطريقة يُفترَض بدالي أن يكون مطيَّب الخاطر."

"سأمنحك أي غطاء يمكنني توفيره."

بانت الابتسامة على طرفي فمها. "أتدري، قد تكون هذه أفضل الساعات القليلة التي قضيناها معاً."

"آسف لأننا لم نقضِ معاً مزيداً من هذا الوقت."

"وأنا أيضاً،" قالت. "ولكن هناك صديق بحاجة إليّ."

الفصل السادس عشر

غادر مالون السيارة واقترب خِلسةً من المنزل حيث كانت سيارة الفولفو متوقّفة. لم يكن بإمكانه الاقتراب من الجهة الأمامية - فالنوافذ عديدة، والتغطية قليلة - لذا انعطف سالكاً مجازاً مُعشَوشباً ملاصقاً للمنزل المجاور واقترب من الجهة الخلفية للمنزل. كانت المساكن في هذه الناحية من كوبنهاغن مماثلة للضاحية التي يسكن فيها في أتلانتا - أزقّة ضيّقة ظَليلة بين مساكن صغيرة من القرميد مُحاطة بفِناءات صغيرة أيضاً من الجهتَين الأمامية والخلفية.

أخفى مسدس البيريتا، واستخدم أوراق الشجر ليخفي تقدّمه المستمر. لم يرَ أحداً حتى تلك اللحظة. وكان يفصل بين فناء وآخر سياج من الشُجَيرات التي تعلو حتى الكتف. فتحرّك بعناية إلى حيث يمكنه النظر من فوق السياج، ورأى باباً خلفياً يؤدّي إلى داخل المنزل الذي توارى فيه مُطلق النار. وقبل أن يتخذ قراراً بشأن الوُجهة التي سيأخذها، فُتح الباب الخلفي بشدة وظهر رجلان.

إنهما مُطلق النار في كرونبورغ ورجل آخر قصير القامة ثخينها، ودون عُنُق تقريباً.

كان الرجلان يتحدّثان، ثم سارا نحو الجهة الأمامية للمنزل. فامتثل لغرائزه وانطلق من مخبئه، ودخل الفِناء عبر فُتحة في السياج. واندفع مسرعاً وبلغ الباب الخلفي، وانسلّ إلى الداخل ومسدسه في يده.

كان البيت المؤلّف من طابق واحد هادئاً: غرفتا نوم، وحجرة صغيرة قذرة، ومطبخ، وحمّام. وكان باب إحدى غرفتَي النوم مُقفلاً. ألقى نظرة سريعة على الغرف وكانت كلّها فارغة. ثم اقترب من الباب المُقفَل، وأمسك بالمِقبض بيده اليسرى،

ومسدسه بيده اليمنى، وإصبعه على الزناد. فبرم المِقبض بهدوء، ومن ثمّ فتح الباب بدفعة واحدة.

ورأى غاري.

كان الفتى جالساً يقرأ في كرسي بجانب النافذة. ألقى ابنه نظرة سريعة فوق الصفحات مُجفَلاً، وأشرق وجهه عندما أدرك من كان هناك.

وشعر مالون أيضاً بجذَل عارم.

"أبي." عندئذٍ رأى غاري المسدس وقال، "ماذا يجري؟"

"لا يمكنني أن أشرح لك، ولكن علينا الذهاب."

"قالوا لي إنك تواجه مشكلة. هل أولئك الرجال هم الذين يحاولون إيذائي وإيذاء والدتي هنا؟"

فهزّ برأسه مؤكّداً الأمر وقد اعتراه الذُعر. "إنهم هنا، علينا الذهاب."

وقف غاري، ولم يكن بإمكان مالون تمالك نفسه، فعانق ابنه بقوة. كان هذا الولد ابنه ـ من مختلَف النواحي. واللعنة على بام.

ثم قال له: "إبقَ خلفي وافعل ما أطلبه منك بالضبط، مفهوم؟"

"هل سنواجه مشكلة؟"

"آمل ألّا يكون الأمر كذلك."

ثم عاد أدراجه إلى الباب الخلفي ونظر ملياً إلى الخارج. كان الفِناء فارغاً، ولا يتطلّب الأمر سوى دقيقة واحدة ليتمكّنا من الفرار. فخرج غاري يسير في أثره. وكانت الفُتحة في السياج تبعد عنهما مسافة خمسين قدَماً. فتحرّك بعناية وغاري أمامه، وبعد ذلك شاهد الرجلَين يتجهان نحو الشارع. فاندفع مباشَرةً نحو الفِناء المجاور، ومسدّسه في متناول يده. وبقي منتبهاً لمحيطهما، مُجيزاً لغاري السير في المقدمة. ومرّا عبر الفُتحة.

"يا لإمكانية التنبّؤ بالأمور!"

ثم انعطف وجمُد في مكانه. كان الرجل القصير العُنُق يقف أمامهما على مسافة عشرين قدَماً، وبام في قبضته، وسلاح من طراز غلوك مزوَّد بكاتم للصوت مصوّب بإحكام إلى عُنُقها. وكان مُطلق النار في كرونبورغ واقفاً بعيداً عنهما موجّهاً مسدسه نحو مالون مباشَرةً.

"لقد عثرت على زوجتك السابقة تجوب المكان،" قال الشخص القصير العُنُق بلُكنة هولندية. "أفترض أنك طلبت منها البقاء في السيارة؟"

فحدّق ببام، وكانت عيناها تلتمس الصّفح منه.

"غاري،" قالت دون أن تكون قادرة على التحرك.

"أمي."

ولاحظ مالون اليأس في صوتَيهما. فأعاد وضع غاري خلفه.

"لنرَ كيف قمتَ بالأمر يا مالون. لقد تتبّعت أثر رَجُلي من القصر هناك إلى المدينة، وانتظرته إلى أن غادر ومن ثمّ تبعتَه، ظانّاً أن فتاك موجود هنا."

وكان هذا الصوت هو نفسه الذي تحدّث إليه في الهاتف النقّال مساء أمس. "وقد ثبت في النهاية أن كل شيء يسير على ما يُرام."

وبقي الرجل الآخر بلا حراك. وانتاب مالون شعور مُزعج؛ لقد تمّ استدراجه.

"أَخرِجْ مخزن الخرطوش من ذاك البيريتا وارمه بعيداً."

تردّد مالون، ولكنه قرّر أن لا خيار له. فقام بما طُلِب منه.

"والآن فلنقايض. سأعطيك زوجتك السابقة وتعطيني الفتى."

"ماذا لو قلت لك احتفظْ بزوجتي السابقة؟"

فضحك الرجل في سرّه. "أنا واثق من أنك لا ترغب في أن يشاهد ابنك كيف أقوم بتفجير دماغ والدته، وهذا ما سأقوم به بالتحديد لأنني لا أريدها في الواقع."

واتّسعت عينا بام بسبب الاحتمالات المطروحة لدرجة أنها باتت تتصرّف بحماقة.

"أبي، ماذا يجري؟" سأل غاري.

"يا بُني، سيكون عليك الذهاب معه ـ"

"لا،" صاحت بام. "لا تفعل."

"سيقتلك،" قال مالون موضحاً.

كان إصبع الشخص القصير العُنق مثبت بإحكام على زناد مسدس الغلوك،

وكان مالون يأمل في أن تلزم بام الهدوء. فحدّق بغاري. "عليك القيام بذلك لأجل أمك، ولكنني سأعود لأجلك. أقسم لك. يمكنك الاعتماد على ذلك." وعانق الفتى ثانيةً. "أحبك، كن متماسكاً لأجلي. هل اتفقنا؟"

هزّ غاري رأسه موافقاً، وتردّد لبرهة من الزمن، ثم خطا بعد ذلك نحو الرجل القصير العنق. وقام هذا الأخير بإفلات بام من قبضته، فعانقت غاري على الفَور وبدأت بالبكاء.

"هل أنت بخير؟" سألته.

"أنا بخير."

"دعني أبقى معه،" قالت. "لن أتسبَّب لكم بأي مشاكل. بإمكان كوتون العثور على كل ما تريدون، وسنكون مطيعين. أعِدكم بذلك."

"اصمتي،" قال لها الشخص القصير العنق.

"أقسم أني لن أسبب لكم أي مشكلة."

فرفع السلاح نحو جبينها. "اذهبي إلى هناك واصمتي."

"لا تضغطي عليه،" قال لها مالون.

فضمّت غاري مرة أخرى وتراجعت إلى الوراء.

فضحك الشخص القصير العنق في سرّه. "خيار جيد."

وكان مالون يحدّق في وجه عدوّه.

وفجأة مال سلاح الرجل إلى اليمين وانطلقت من ماسورته ثلاث رصاصات بلا صوت اخترقت مُطلق النار في كرونبورغ. فتمايلت الجثة، ومن ثمّ سقطت واصطدم عمودها الفقري أولاً بالأرض.

غطّت بام فمها بيدها. "يا إلهي."

ورأى مالون نظرة المصدوم على وجه غاري. لا يُفترَض إجبار فتى في الخامسة عشرة من عمره على مشاهدة ذلك الذي حدث.

"لقد قام بما طلبتُ منه القيام به بالضبط. ولكنني كنت أعلم أنك تلاحقه، أما هو فلا. وقد أخبرني في الواقع أنه لم يكن ملاحَقاً. لا وقت لديّ للأغبياء. كانت هذه

المناورة الصغيرة ضرورية لإزالة كل تظاهر بالشجاعة لديك. والآن اذهب وأحضر ما أريد." ثم صوّب الشخص القصير العُنُق مسدس الغلوك إلى رأس غاري. "يجب أن نغادر دون أي تدخل منك."

"كل الرصاصات في مسدّسي رُميت بعيداً."

وكان يراقب غاري. ومن المثير للاهتمام أنه لم تكن تبدو على وجه الفتى أي ملامح للقلق. لا ذُعر، ولا خوف، فقط عزم وتصميم.

همَّ الشخص القصير العنق بالمغادرة مع غاري.

أبقى مالون المسدس عند جنبه وذهنه مشوَّش باحتمالات عدة. فابنه ليس إلا على بُعد سنتيمترات قليلة من غلوك مسدس محشو. وكان يعلم أنه إذا ذهب غاري فلن يبق له من خيار سوى تسليمه اللغز. وكان قد تجنّب ذلك الخيار البغيض طيلة اليوم لأن من شأن هذا الأمر خلق مجموعة كاملة من المعضلات. وكان الشخص القصير العنق قد استبق بوضوح ما سيقوم به منذ البداية، عالماً أنهم سيبلغون هذه المرحلة.

فبدا أن دمه قد تحول إلى جليد وانتابه شعور مُزعج، غير مريح. ولكن مألوف.

فأبقى حركاته طبيعية؛ هكذا كانت القاعدة. كانت مهنته السابقة قائمة على اقتناص الفُرَص وتقدير الأرجحيات. وكان النجاح على الدوام عاملاً ناتجاً من قسمة الأرجحيات على المخاطر. لقد تعرّضت حياته لخطر شديد عدة مرات، وقد فاقت المخاطر الأرجحيات في ثلاث حالات انتهى فيها إلى المستشفى. أما هذه الحالة فمختلفة؛ لأن ابنه على المحك. حمداً لله لأن كل الأرجحيات كانت هذه المرة لصالحه.

واقترب الشخص القصير العنق وغاري من فُتحة السياج.

"لو سمحت،" قال مالون.

فاستدار الشخص القصير العنق، وأطلق مالون النار من مسدسه البيريتا فأصابت الرصاصة صدر الرجل. وبدا أنه لم يعلم بالضبط ما الذي حدث، لأن وجهه كان مزيجاً من الحَيرة والألم. وفي النهاية، بدأ الدم يسيل من زاويتي فمه واستسلمت عيناه.

فسقط كالشجرة التي تسقط تحت ضربات فأس، وانتفض للحظة من الزمن، ومن ثمّ توقف عن الحركة.

أسرعت بام إلى غاري وغمرته بذراعَيها.

وأخفض مالون المسدس في يده.



كان سابر يراقب عندما أطلق كوتون مالون يطلق النار على عميله الراحل. وكان واقفاً في المطبخ المنزل المواجه للجهة الخلفية من المسكن الذي احتُجز فيه غاري مالون في الأيام الثلاثة السابقة. وعندما استأجر ذلك المكان، استأجر هذا المنزل أيضاً.

فابتسم.

كان مالون ذكياً، ولكن عميله لم يكن يتمتع بالكفاءة. ذلك أن رمي مخزن السلاح يفرغ المسدس من جميع الرصاصات باستثناء تلك الموجودة في حجرة النار. وأي عميل جيد مثل مالون يُبقي دائماً رصاصة في حجرة نار المسدس. وتذكر الأيام التي كان يتدرَّب خلالها مع القوات الخاصة في الجيش عندما أطلق أحد المجنَّدين النار على ساقه بعد إفراغ خزّان مسدسه كما افترض، ناسياً الطلقة النارية المحشوة.

وكان قد أمِل في أن ينال مالون بطريقة ما من أفضل من قام باستخدامهم هكذا كانت تقضي الفكرة. وقد سنحت الفرصة المؤاتية عندما شاهد بام مالون تتّجه إلى المنزل، فاتصل بمرؤوسه بواسطة جهاز اللاسلكي وأخبره كيف يستفيد من عدم اكتراثها لكي يجعل الفكرة أكثر وضوحاً لمالون، ويحمله على إطلاق النار على عميله.

وحمد الله، لأن مالون ضمن له أن الدُّفعة لن يتمّ تسديدها أبداً، ممّا يعني أيضاً أنه لم يبق أحد على قَيد الحياة يربط سابر بأي أمر. والأفضل من ذلك أن مالون استعاد ابنه، ويُفترَض بهذا الأمر تهدئة الغرائز الأكثر خطورة لعدوّه.

ولكن ذلك لا يعني أن محاولته قد باءت بالفشل.

إطلاقاً. وفي الواقع، فقد بات قادراً في النهاية على أن يبدأ الآن.

القسم الثاني



الفصل السابع عشر

الاربعاء، 5 تشرين الأول/ أكتوبر

فيينا، النمسا

الساعة 1:30 بعد الظهر

ضغط سابر على الفرامل أمام البوابة وقفز مسرعاً من نافذة باب السائق. لم يُبرز أي بطاقة تعريف، ولكن الحارس لوّح له على الفَور. ويقع القصر المنبسط على بُعد ثلاثين ميلاً جنوب غرب وسط المدينة وسط غابات تُعرَف بغابة فيينا. وهو قصر بناه الأرستقراطيون ويعود تاريخه إلى ثلاثة عقود يضمّ بين جدرانه التي تحمل الطابع الباروكي الأخّاذ بلونها الأصفر القاتم خمساً وسبعين غرفة تعلو كلاً منها مسنمات من صفائح الأردُواز الألبيّ مثلّثة الشكل وشديدة الانحدار.

كانت الشمس الساطعة تلقي بأشعتها بالقرب من الزجاج الأمامي المغشّى لسيارة الأودي، ولاحظ سابر أن الطريق الأسفلتيّة ومواقف السيارات الجانبية كانت كلها فارغة. كان هناك فقط حرّاس عند البوابة الأمامية وعدد قليل من الحراس المتجوّلين يجوبون الممرات ويعكّرون صَفو المكان الهادئ.

من الواضح أن الحديث سيكون خاصاً.

وأوقف سيارته تحت مدخل مسقوف في فترة بعد ظهر لطيفة دافئة ودخل باب القصر. ثم زرّر على الفَور سترته التي كان يرتديها، وسلك درباً مرصوفة بالحصى في اتجاه شماترلينغ هاوس، وهو عبارة عن مُكتنَف من الحديد وزجاج يقع على بُعد مئة ياردة جنوب القصر الرئيسي. وكانت جدرانه المطليّة بلون أخضر غير مزخرَف تحمل على امتدادها مئات الألواح من الزجاج الهنغاري، بحيث يتناغم

الهيكل المَهيب العائد للقرن التاسع عشر بسهولة مع المحيط المشجَّر. وفي الداخل، كانت التربة المحليّة المعزَّزة بالفيتامينات تغذّي مجموعة متنوّعة من النباتات الغريبة، ولكن المبنى استمدّ اسمه ـ شماتر ـ من آلاف الفراشات التي تطوف الأرجاء بحرّيّة.

وفتح باباً خشبياً مخلَّعاً ودخل إلى ردهة ترابية. كانت إحدى الستائر الجلديّة تُبقي الهواء ساخناً ورطباً في الداخل. فشقَّ طريقه عبرها. وكانت الفراشات تتراقص في الهواء على وقع أنغام موسيقى ناعمة تعزفها الآلات. إنها موسيقى باخ إن لم يكن مخطئاً. وكان العديد من النباتات مُزهراً، والمكان الهادئ في تباين رائع مع صور الخريف الكئيبة التي يمكن مشاهدة خطوطها العامة عبر الزجاج المكسوّ بالبخار.

كان مالك المبنى، شاغل الكرسي الأزرق، جالساً وسط أوراق النباتات. وكان يتسم بوجه رجل يعمل كثيراً وينام قليلاً ولا يكترث للطعام. كان الرجل المسنّ يرتدي بذلة من التويد فوق كنزة صوفية محبوكة، وهي ملابس غير مُريحة برأي سابر، ولكنه قال في نفسه إن الكائنات التي لا تمتلك أحاسيس تحتاج إلى الكثير من الدِفء.

فخلع سترته واقترب من كرسيّ خشبيّ شاغر.

"غوتن مورغن (*أي صباح الخير*)، هير سابر."

فجلس وعبّر عن امتنانه للترحيب. وكانت الألمانية لغتهم في ذلك اليوم كما يبدو.

"النباتات، يا دومينيك. لم يسبق لي أن سألت، ولكن ما مدى معلوماتك عنها؟"

"لا أعرف سوى فقط أنها تُنتج الأكسجين من ثاني أكسيد الكربون."

ابتسم الرجل المسنّ. "ألا تظنّ أنها تقوم بأمور أكثر بكثير من ذلك؟ ماذا عن اللون، والدِفء، والجمال؟"

وألقى نظرة سريعة على الغابة المَطيرة المزروعة، وأخذ يراقب الفراشات، ويستمع إلى الموسيقى الهادئة. لم يكن يهتمّ أبداً بمَبحث الجمال المهدّئ، ولكنه كان على عِلم بما هو أكثر من التعبير عن تلك الفكرة، لذا قال ببساطة، "إنها موجودة في مكانها."

"هل تعرف الكثير عن الفراشات؟"

وكان يوجد في حضن الرجل المُسنّ طبق من الخزَف الصيني. يحتوي على قليل من الموز المهترىء وكانت بعض الحشرات تخفق أجنحتها الملونة بألوان الياقوت والقرمزي والعاجي وتلتهم الطعام.

"الرائحة تجتذبها." وكان الرجل المسنّ يلاطف أجنحة إحداها. "إنها كائنات جميلة حقاً. أحجار كريمة طائرة انطلقت في الحياة بوابل من الألوان. من المؤسف أنها تعيش أسابيع قليلة فقط قبل انضمامها إلى السلسلة الغذائية."

ثم وصلت إلى المأدبة أربع فراشات ذات لون ذهبي مائل إلى الخُضرة.

"هذا الصنف نادر تماماً: *Papilio dardanus* ـ إنه ذيل السنونو الساحر. إني أستورد يرَقاتها من أفريقيا بصفة خاصة."

كان سابر يكره الحشرات الصغيرة، ولكنه حاول أن يبدو مهتمّاً فراح ينتظر انتهاء هذا الحديث.

أخيراً، سأله الرجل المسنّ، "هل سارت الأمور بشكل جيد في كوبنهاغن؟"

"مالون في طريقه للعثور على اللغز."

"كما توقّعتَ تماماً. كيف عرفتَ ذلك؟"

"لم يكن أمامه أي خَيار. إنه بحاجة إلى الكشف عن اللغز لحماية ابنه، ولكي لا يكون عُرضة للأذى. من السهل قراءة أفكار رجل من هذا النوع."

"قد يُدرك أنه تمّ التلاعب به."

"أنا واثق من ذلك، ولكنه يفكّر بغير تصنّع، وفي النهاية تمكّن من السيطرة. أشك في أنه يفترض أنني أردت أن يكون أولئك الرجال من الأموات."

باتت على وجه الرجل المُسنّ مسحةٌ من المرح. "إنك تستمتع بهذه اللعبة، أليس كذلك؟"

"إنها تُشبع الرغبات في بعض جوانبها." وتوقّف لبرهة قليلة من الزمن وأضاف، "لدى ممارستها بطريقة صحيحة."

ثم انضمّ عدد قليل آخر من الفراشات إلى تلك التي كانت على الطبق.

"الأمر في الواقع يشبه هذه الكائنات الثمينة إلى حدّ بعيد،" قال شاغل الكرسي الأزرق. "فهي تلتهم الطعام بشراهة، يجتنبها إغراء الطعام السهل." ثم أخذت أصابعه المعقّدة تشد على إحدى الفراشات من جناحَيها، فلما حاولت الافلات انتزعت من ساقاها الدقيقتان ومنفسها القاتم اللون. "بإمكاني أن أقتل هذه العيّنة بسهولة. يا لقساوة هذا الأمر؟"

وأطلق شاغل الكرسي الأزرق الفراشة المحتجزة، فرفرفت بجناحَيها ذات اللون البرتقالي والأصفر ومن ثمّ انطلقت في الهواء.

"ولكن بإمكاني إفلاتها بالسهولة نفسها فحسب." وأخذ الرجل المُسنّ يركّز نظره عليه بعينَين مليئتَين بالإثارة. "يجب أن تستخدم غرائز مالون لصالحنا."

"ذلك هو المخطط."

"ما الذي ستفعله بعد العثور على اللغز؟" سأل شاغل الكرسي الأزرق.

"يتوقف الأمر على الظروف."

"سيكون من الضروري قتل مالون."

"يمكنني تدبّر الأمر."

رمقه الرجل المُسنّ بنظرة. "قد يشكّل تحدّياً لنا"

"أنا حاضر لذلك."

"هناك مشكلة."

وكان قد تساءل عن سبب استدعائه للعودة إلى فيينا.

"الإسرائيليون مستنفَرون. يبدو أن جورج حدّاد أجرى اتصالاً آخر بالضفة الغربية، وقد أبلغ الجواسيس اليهود الموجودون داخل السلطة الفلسطينية عن اتصاله إلى تل أبيب. إنهم يعلمون أنه حيّ، وافترض أنهم يعرفون مكانه أيضاً."

كان ذلك بمثابة مشكلة في الواقع.

"إن شاغلي الكراسي مُدركون لإمكانية افتضاح المسألة، وكانوا قد صادقوا على السلطة التي منحتك إياها لمعالجة المسألة بالطريقة التي تجدها مناسبة."

هذا ما كان يخطط للقيام به بأية حال.

"للإسرائيليين كما تعلم حوافز مختلفة عن حوافزنا إلى حدّ كبير. إننا نريد اللغز، وهم يريدون القضاء عليه."

فهزّ سابر رأسه موافقاً. "لقد قتلوا جماعتهم بالقنابل في ذلك المقهى لقتل حدّاد ليس إلّا."

"اليهود مشكلة،" أعلن شاغل الكرسي الأزرق بهدوء. "ولطالما كان التعامل معهم صعباً. فالاختلاف وصعوبة المِراس ينتج عنهما اعتداد مُطلَق بالنفس."

فقرّر سابر عدم الردّ على هذا التعليق.

"ننوي المساعدة على إنهاء المشكلة اليهودية."

"لم أكن مُدركاً لوجود مشكلة."

"ليس بالنسبة إلينا، بل بالنسبة إلى أصدقائنا العرب. لذا عليك أن تقطع الطريق على مبادرات الإسرائيليين. لا يمكننا السماح لهم بالتدخل."

"إذاً، يجب أن أغادر."

"إلى أين ذهب مالون؟"

"إلى لندن."

بقي شاغل الكرسي الأزرق صامتاً، واهتمامه منصب على الحشرات التي تتطاير في حضنه. أخيراً، طرد الفراشات بعيداً وقال: "في طريقك إلى لندن، عليك التوقف في مكان ما."

"هل هناك وقت لذلك؟"

"لا خيار لنا. هناك مصدر آخر داخل الحكومة الإسرائيلية لديه معلومات يريد نقلها إليك شخصياً على أن يتمّ الدفع له لقاء ذلك."

"أليس الجميع يريد مالاً لقاء خدمات؟"

"إنه في ألمانيا. يُفترَض أن لا يتطلّب الأمر وقتاً طويلاً. استخدم إحدى الطائرات النفّاثة التابعة للشركة. قيل لي إن هذا الرجل مهمل في عمله. لقد كُشف أمره دون أن يُدرك ذلك. يجب أن تصفّي حسابنا معه."

ففهم المقصود.

"ولا حاجة للقول إنه سيكون هناك آخرون يراقبون. أرجو أن تجعل العرض حادثاً لا يُنسى. يجب أن يفهم الإسرائيليون أنها قضيّة نراهن عليها إلى حدّ كبير." ثم بدّل الرجل المُسنّ الكرسيّ الخشبي، وأمال خنجره الصغير الذي حصل عليه من أحد جواسيسه السابقين في اتجاه الطبَق. "أنت على عِلم كذلك بما يحدث نهاية هذا الأسبوع؟"

"بالطبع."

"إني بحاجة إلى المِلف المالي لأحد الأفراد قبل يوم الجمعة. هل يمكن إنجاز الأمر؟"

وكان يعلم الإجابة الصحيحة رغم أنه يكن يملك الوقت لذلك أيضاً. "بالتأكيد."

وبعد ذلك أطلعه شاغل الكرسي الأزرق على الإسم الذي يجب التحرّي عنه، ومن ثمّ قال، "يجب أن تسلّم المعلومات هنا. في تلك الأثناء، أُبذل قُصارى جهدك."

الفصل الثامن عشر

واشنطن العاصمة

الساعة 7:30 صباحاً

قرّرت ستيفاني أن تبقى في العاصمة. فاللاعبون الرئيسيون موجودون كلهم هنا، وإذا كان عليها مساعدة مالون فإنها ستكون بحاجة إلى أن تكون قريبة من كلّ منهم. اتصلت بأتلانتا وبمقرّ قيادة وكالة ماجيلان بيليت بواسطة حاسوبها المحمول والهاتف النقّال، وها هم ثلاثة عملاء تابعون لها في طريقهم إلى الدانمارك. وكان هناك اثنان آخران موجودين في لندن، وعميل منفرد متجهاً إلى واشنطن. وسوف تكون غرفتها في الفندق مركز قيادة في الوقت الحاضر.

كانت قد انتظرت طيلة الدقائق العشرين السابقة، وعندما رنّ الهاتف على المكتب في النهاية، ابتسمت. إن إحدى ميزات ثورفالدسن هي دقة مواعيده. رفعت سمّاعة الهاتف. "أجل، يا هنريك."

"واثقة جداً بأنني المتّصل؟"

"في الوقت المحدَّد."

"التأخر عمل فَظّ."

"لم أكن قادرة على التوصل إلى تسوية. ما هي معلوماتك؟"

"ما يكفي لمعرفة أننا نواجه مشكلة."

كان ثورفالدسن قد أرسل في اليوم السابق سريّة من المحققين لتتبّع تحركات رجلَين أطلق مالون النار عليهما. وبما أن أحدهما قتل عميلاً فدرالياً،

فقد كانت ستيفاني قادرة أيضاً على تجنيد المساعدة من الانتربول الأوروبي يوروبول.

"هل سمعتِ يوماً بـ'جماعة الجِزّة الذهبية'؟"

"إنّها إحدى التكتلات الاقتصادية في أوروبا. أنا مطّلعة عليه."

"أحتاج إلى الاتصال بحاسوبك المحمول بواسطة الإنترنت."

"عنواني على الإنترنت سرّي،" قالت بشكل غير جِدّي.

"أؤكد لك أن كل الأنونات التي أحتاج إليها تصبح مُتاحة لي بسبب ما أملك من معلومات."

فأطلعته على العنوان الذي يخوّله توجيه رسائل إلكترونية. وبعد دقيقة من الوقت، ظهرت على شاشتها خمس صوَر، ثلاث منها لوجوه أشخاص، وفي اثنتَين منها يظهر شخصان بكامل قامتهم. وكان الرجال الخمسة في العقد الثامن من العمر، وجوهم كصور الكاريكاتور، مليئة بالزوايا المُعتِمة، غير ودّيّة وخالية من التعبير، ولكل منهم مظهر متصنّع في اتّباع الموضة - إنه السلوك الأرستقراطي للرجال النين اعتادوا القيام بما يشاؤون.

"لقد أُعيد تشكيل جماعة الجِزّة الذهبية في أواخر الأربعينيات بعد التأميم الشيوعي للصناعة النمساوية. وتمّ تنظيمها في فيينا واقتصرت عضويّتها في بادئ الأمر على مجموعة مختارة من الصناعيين والمموّلين. وفي الخمسينيات تنوّع المنتسبون إليها فضمّت إلى صفوفها أقطاب الصناعة والتعدين إضافةً إلى مزيد من المموّلين."

ثم حرّكت المؤشر في اتجاه أيقونة موقع تدوين المنكرات والملاحظات، وهي على صورة فقاعة، ونقرت مفتاح الفأرة. "ماذا تعني بكلمة، أُعيد تشكيلها؟"

"الإسم مستمَدّ من جماعة فرنسية أنشأها في القرون الوسطى فيليب، دُوق بوغاندي في عام 1430. ولكن مجموعة النبلاء تلك لم تدُم سوى عقود قليلة من الزمن. وعلى مرّ القرون ظهرت نماذج عديدة منها، وما زالت جمعية 'الجِزّة الذهبية' موجودة في النمسا. ولكن التكتّل الاقتصادي الذي يحمل الإسم نفسه هو الذي يشكل تهديداً."

وتسمّرت عيناها على الشاشة، وراحت ذاكرتها تستوعب الوجوه القاسية.

"مجموعة مثيرة للاهتمام،" قال ثورفالدسن. "قواعد صارمة لتطبيق القوانين تسيطر على أعمال الجماعة. وتقتصر عضويّتها على واحد وسبعين عضواً. وتتولى شؤونها حلقة من خمسة رؤساء. والمدعو شاغل الكرسي الأزرق وهو الذي يرأس الحلقة والجماعة. ويرتدي هؤلاء الأشخاص ملابس قِرمزيّة اللون وتتدلّى من أعناقهم ميداليات ذهبيّة اللون صُنعت من الفولاذ المحمّى بالنار والصوّان ونُقِشت عليها ألسنة لهب تحيط بجِزّة ذهبية. أمر مثير للاهتمام."

فوافقته على ذلك.

"يجب أن تفهمي الصور الخمس الظاهرة على شاشتك. الوجه في أعلى اليسار يعود للصناعي النمساوي، ألفرد هرمن. الذي يشغل حالياً الكرسي الأزرق. وهو بليونير كبير، وصاحب مصانع فولاذ أوروبية، ومناجم أفريقية، ومزارع لاستخراج المطاط في الشرق الأقصى، وله اهتمامات مصرفية في كافة أنحاء العالم."

ثم قدّم ثورفالدسن شروحات عن الأربعة الآخرين. وكان أحدهم يملك أسهماً نافذة في مصرف 'في آر إن' المنتشر على نطاق واسع في النمسا وألمانيا وسويسرا وهولندا، وشركات سيارات وشركات أدوية. ويهيمن شخص آخر على أسواق السندات المالية الأوروبية وعلى المؤسسات الاستثمارية التي تدير استثمارات العديد من دول الاتحاد الأوروبي. ويملك رجل ثالث شركتَين فرنسيّتَين بالكامل وشركة بلجيكية تتصدّر قائمة منتجي الطائرات في العالم خارج الولايات المتحدة. والأخير يدّعي أنه 'ملك الإسمنت'، وشركاته هي المنتجة الرائدة لهذه المادة في مختلف أنحاء أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط.

"إنها مجموعة هائلة،" قالت.

"هذا أقل ما يمكن القول عنها. ويتشاطر الرؤساء صفة مميَّزة هي أنهم آريّون - غير يهود - وطالما كانوا كذلك، ويهيمن الأعضاء الألمان والسويسريون والنمساويون على الجماعة. يُنتخَب الرؤساء من مجموع الأعضاء، ويتولّون هذا المنصب مدى الحياة. وفي الوقت نفسه، يتمّ اختيار شخص مُلازم لكلّ منهم يمكنه الحلول مكانه على الفَور وخلافته عند الوفاة. ويُنتخب شاغل الكرسي الأزرق من قِبَل شاغلي الكراسي الأربعة الأخرى، ويتولّى هذا المنصب كذلك مدى الحياة."

"جهنّميون بشكل مؤثّر."

"إنهم فخورون بالأمر. يلتقي مجموع الأعضاء بأكملهم مرّتَين في السنة في جمعية رسمية، وذلك في أواخر الربيع وقبل فصل الشتاء مباشَرةً، في عقار تبلغ مساحته أربعمئة فدّان يملكه الفرد هرمن ويقع خارج فيينا. ويقوم الرؤساء أو اللجان القائمة بإدارة الأعمال خلال بقيّة العام. وهناك مستشار، وأمين صندوق، وأمين سر، إضافةً إلى هيئة مسؤولين مسانِدة تعمل خارج قصر هرمن. وتعتمد المنظمة أسلوباً انسيابياً متعمَّداً. لا وجود لإعاقات برلمانية غير ضرورية."

وكانت تدوّن على عجَل ملاحظات على موقع تدوين الملاحظات.

"لا يُسمَح لشاغل الكرسي الأزرق بالتصويت في إطار الحَلقة أو الجمعية على السواء متى كان هناك تعادل في الأصوات. فالعدد الفردي للأعضاء الواحد والسبعين وخمسة رؤساء يوفّرون هذه الإمكانية."

كان عليها أن تبدي إعجابها بجهود ثورفالدسن الاستقصائية. "أخبرني عن مجموع الأعضاء."

"إنهم في غالبيّتهم أوروبيون باستثناء أربعة أميركيين، وكنديَّين، وثلاثة آسيويين، وبرازيليّ واحد، وأسترالي واحد، من ضمن الأعضاء الواحد والسبعين الحاليين. وهم رجال ونساء اختاروا اختلاط الجنسَين منذ عقود. وتبديل الأعضاء عَرَضي، ولكن هناك لائحة انتظار تضمن المحافظة على العدد واحد وسبعين على الدوام."

وكانت فضوليّة. "لماذا مقرّ قيادتها في النمسا؟"

"للسبب نفسه الذي يحمل العديدين منا على وضع أموالهم هناك. هناك بند واضح وصريح في الدستور الوطني يمنع انتهاك سرّيّة المصارف. فيصعب إذاك تتبّع سير الأموال. والجماعة مموَّلة بشكل جيد. ويُفرَض على الأعضاء بالتساوي مساهمات ماليّة تُضاف إلى ميزانية مخطَّط لها بلغت العام الماضي مئة وخمسين مليون يورو."

"وعلام يُنفقون هذا النوع من المداخيل؟"

"على ما سعى إليه الناس منذ قرون: النفوذ السياسي الذي يستهدف بصفة رئيسية جهود الاتحاد الأوروبي لجعل العملة مركزيّة وتخفيض عوائق التبادل التجاري. كذلك، فإن اتضاح مصير أوروبا الشرقية يثير اهتمامهم أيضاً. فإعادة بناء البنية التحتية في جمهورية التشيك، وسلوفاكيا، والمجر، ورومانيا، وبولندا تشكل

ميدان أعمال ضخم. ومن خلال بعض المساهمات في ميادين تمّ اختيارها بعناية، حصل الأعضاء على أكثر من حصّتهم العادلة من العقود."

"ومع ذلك، يا هنريك، لا يمكن إنفاق مئة وخمسين مليون يورو على عقود تضمن استمرارية الأعمال فحسب، وعلى رشوة السياسيين."

"أنت مُحِقّة. هناك هدف أكبر لعمل الجماعة."

لكن صبرها ينفد. "أنا أنتظر."

"الشرق الأوسط. إنه أولويتهم الكبرى."

"تُرى، كيف تعرف كل هذه الأمور؟"

وساد الصمت على الطرف الآخر من الخط الهاتفي.

وانتظرت.

"أنا عضو فيها."

الفصل التاسع عشر

لندن

الساعة 12:30 ظهراً

عبر مالون مع بام درج الطائرة التابعة للخطوط الجويّة البريطانية. وكانا قد أمضيا الليلة في كريستيانغيد، وسافرا بعد ذلك معاً من كوبنهاغن إلى إنكلترا التي كانت محطةً بالنسبة إلى بام في طريق عودتها إلى جورجيا، الوُجهة النهائية لمالون. وبقي غاري مع ثورفالدسن، وكان قد تعرف إلى الرجل الدانماركي منذ فصلَي الصيف السابقَين اللذَين قضاهما في الدانمارك. كان مالون يعتبر كريستيانغيد المكان الأكثر أماناً لغاري إلى أن يتمكّن من تحديد ما يجري بالضبط. وكتدبير إضافي استخدم ثورفالدسن فريقاً لتأمين حماية خاصة والقيام بدوريات في مختلف أنحاء المنزل. ولم تكن بام سعيدة بالقرار المتّخَذ، فتجادلا. وفي النهاية، فهمت الحكمة من الأمر نظراً إلى ما كان قد حدث في أتلانتا. فبعد انتهاء الأزمة، كانت بحاجة إلى العودة لاستئناف عملها. وكانت قد رحلت بسرعة دون إعلام شركتها. والمغادرة بدون غاري لم تكن ما كانت قد رغبت فيه، ولكنها أقرّت آخر الأمر بأن مالون قادر على حمايته بشكل أفضل ممّا قامت به على الإطلاق.

"آمل في أني ما زلت أحتفظ بوظيفتي،" قالت.

"أتصوّر أن ساعاتك التي قضيتِها في العمل كافية للصّفح عنك. هل ستخبرينهم بما حدث؟"

"سوف أكون مضطرة لذلك."

"لا باس. أخبريهم بما أنت مضطرة إلى إخبارهم به."

"لمَ تواظب على الاهتمام باللغز؟" قالت. "لمَ لا تتركه وشأنه؟"

ولاحظ أنها تخلّصت من قسم كبير من اكتئابها بعد النّوم. وكانت قد اعتذرت له مراراً بسبب ما جرى في اليوم السابق دون أن يُبالي بالأمر. فلم يكن راغباً بالفعل في التحدث معها، وبفضل تأخّرهما بشراء تذاكر السفر لم تُتَح لهما الفرصة للجلوس جَنباً إلى جَنب على متن الطائرة، وكان ذلك أمراً جيداً. فما زالت هناك أمور في شأن غاري بحاجة إلى المناقشة، أمور غير مُرضية، ولكن الوقت لم يكن مناسباً في ظل هذه الظروف.

"إنها الطريقة الوحيدة للتأكد من أن الأمر لن يحدث ثانية،" قال. "إذا لم أكن الشخص الوحيد الذي يعلم بشأن اللغز، فلن أعود هدَفاً بعد ذلك. وبالمناسبة، لن تكوني وغاري هدَفاً كذلك."

"ما الذي تخطط القيام به؟" سألت بام.

لم يكن يعلم حقاً، ولذا قال، "سأقرّر عندما أصل إلى هناك."

ثم شقّا طريقهما عبر حشد كبير من الناس في اتجاه مبنى المطار، وكان صمتهما ووقع خطواتهما الملحوظة الذي ينمّ عن استغراق في التفكير يشير إلى أنهما غير راغبَين في الانفصال عن بعضهما البعض. واستيقظت مجدَّداً المشاعر الخامدة التي ألِفَها طيلة اثنتَي عشرة سنة من عمله كعميل في وزارة العدل. فقد ارتاب في أمر ما على متن الطائرة: رجل يجلس أمامه بثلاثة صفوف في الجهة المقابلة للمقصورة. شخص طويل القامة نحيل، أسمر البشرة، خدّاه داكنان بسبب شُعيرات ذقنه النامية. وقد صعد على متن الطائرة في كوبنهاغن، وفيه شيء استرعى انتباه مالون. فهو لم يقُم بأي تصرّف ينمّ عن إمكانية تسبّبه بمشكلة ما. ولكن ورغم أن الرجل نزل قبلهما من الطائرة قبلهما، إلا انه الآن أصبح وراءهما.

وبدا وكان في الأمر مشكلة.

"لقد أطلقتَ النار على ذلك الرجل في الأمس دون ذرّة من ندم،" قالت بام. "أمر مخيف، يا كوتون."

"كانت سلامة غاري على المحك."

"هل هذا ما اعتدتَ القيام به؟"

"دائماً."

"لم أعُد أحتمل مشهد الموت."

وهو كذلك.

واستمرا بالسير. كان متأكداً من أنها تفكر، وكان يعرف دائماً متى كانت تسترسل في التفكير.

"لم أذكر الأمر بالأمس بسبب كل ما جرى،" قالت، "ولكن يوجد في حياتي رجل آخر."

كان مسروراً، ولكنه تساءل عن سبب إخباره بذلك. "لقد مرّ وقت طويل منذ أن كنا مهتمّين بأمور بعضنا البعض."

"أعرف ذلك، ولكنه شخص مميّز." ثم رفعت ذراعها وكشفت عن مِعصمها. "لقد أعطاني هذه الساعة."

وبدت فخورة بها، لذا جاراها قائلاً، "ساعة تاغ هيور، لا بأس."

"قلت في نفسي ذلك أيضاً. لقد أثّر فيّ كثيراً."

"هل يعاملك جيداً؟"

فهزّت رأسها مؤكِّدةً الأمر. "أستمتع بوقتي معه."

لم يعرف ماذا يقول.

"أذكر الأمر فقط لأُعلمكَ بأنه قد حان الوقت ربما لكي تعقد صلحاً."

ودخلا مبنى المطار المكتظّ بالناس، وحان وقت الافتراق.

"هل تمانع إذا رافقتك قليلاً؟" سألت. "فطائرتي لن تغادر إلى أتلانتا إلا بعد سبع ساعات."

كان في الواقع يتدرّب على الوَداع، عازِماً على تأديته برباطة جأش ودون اكتراث. "ليست فكرة جيدة. يجب أن أبقى بمفردي." ولم يكن عليه قول ما يفكر كلاهما به، ولا سيما بعد الذي جرى يوم أمس.

فهزّت برأسها موافقة. "أفهم ذلك. ظننت فقط أنها قد تكون مناسبة جيدة لقضاء فترة بعد الظهر."

وكان فضولياً. "لمَ ترغبين بالمجيء؟ ظننت أنك تريدين الخروج من كل هذه المسألة؟"

"كدتُ أُقتَل بسبب ذلك اللغز، لذا أنا فضولية. وعلاوةً على ذلك، ماذا سأفعل في هذا المطار؟"

كان مضطراً للتسليم بأنها تبدو رائعة - أصغر منه سنّاً بخمس سنوات، ولكنها بدت أصغر من سنّها. وكانت ملامحها شبيهة جداً بملامح بام السابقة العاجزة عن تدبّر أمورها، والمستقلة، والتي تروق له في آن، وكانت بالنسبة إليه طائشة. كانت قسَمات وجهها المنمّش وعيناها الزرقاوان تُحيي فيه ذكريات طالما حاول جاهداً كَبتها، ولا سيّما منذ أن اكتشف أمر أُبوّة غاري في آب/ أغسطس.

مضى على زواجه ببام فترة طويلة وتشاطرا معا الحياة بحُلوها ومرّها. وها هو الآن في الثامنة والأربعين من عمره، مطلَّق منذ أكثر من عام، ومنفصل عن زوجته منذ ست سنوات تقريباً.

ربما حان الوقت لتخطّي الأمر. فما حدث قد حدث، كما أنه لم يكن هو أيضاً مَلاكاً.

ولكن عقد السلام بينهما أمر قد يحتاج إلى بعض الوقت، لذا قال لها ببساطة، "عودي إلى أتلانتا وابقَي بعيدة عن المشاكل، اتفقنا؟"

فابتسمت. "بإمكاني أن أقول الشيء نفسه لك."

"ذلك أمر مستحيل بالنسبة إليّ. لكنني واثق من أن الرجل الجديد في حياتك سيكون راغباً في أن يجدك في المنزل."

"ما زلنا بحاجة إلى التحدث معاً، يا كوتون. لقد تجنّب كلانا الموضوع."

"سنفعل، ولكن بعد الانتهاء من كل ذلك. ما رأيك بهدنة حتى ذلك الوقت؟"

فبدت أنها راغبة في السلام أيضاً. "حسناً."

"سأُعلمك بمسار الأمور، ولا تقلقي بشأن غاري. سيهتمّ هنريك به، وسيكون تحت رعايته. لديك رقم الهاتف، لذا اتصلي به متى شئت."

ثم لوّح لها مَسروراً تعكس ابتسامته العريضة مدى سروره، واتجه بعد ذلك نحو أبواب الخروج من المبنى لكي يستقلال سيارة أجرة. لم يكن قد حمل معه

حقيبة، لذا فهو سيقوم لاحقاً بشراء بعض الحاجيات بما يتلاءم ومدة بقائه، وكل ذلك بعد العثور على اللغز.

ولكن قبل مغادرة المبنى، كان بحاجة إلى التحقُّق من أمر ما عند أبواب الخروج، اقترب من مكتب الاستعلامات وأخرج خارطة للمدينة من محفظته. واستدار عرَضاً وأخذ يدرسها بطريقة تمكّنه من استراق النظر على سَيل الناس المتدفّقين عبر المبنى الواسع.

وكان يتوقّع أن يكون سترينغ بِين منتظراً مغادرته، هذا إذا كان يتعقّبه بالفعل.

ولكن بدلاً من ذلك، كانَ الشخص يقتفي أثر بام.

لقد بات الآن قلِقاً.

ألقى الخارطة على المكتب وعبر مبنى المطار. وكانت بام قد دخلت إلى إحدى المقاهي العديدة، عازمةً كما يبدو على قضاء الوقت في تناول وجبة طعام أو ارتشاف القهوة. وكان سترينغ بِين قد اتخذ موقعاً له في متجر في السوق الحرة حيث يمكنه مراقبة المقهى بوضوح.

أمر مثير للاهتمام. فبحسب الظاهر، لم يكن مالون هو المستهدَف في ذلك اليوم.

فدخل المقهى أيضاً. وكانت بام جالسة في مقصورة، فسار نحوها. وبدت المفاجأة العارمة على وجهها. "ماذا تفعل هنا؟"

"لقد غيّرت رأيي. لمَ لا تأتين معي؟"

"أرغب في ذلك فعلاً."

"بشرط واحد."

"أعلم، أن أبقي فمي مُطبَقاً."



استعادت ستيفاني في ذهنها كلمات ثورفالدسن، ومن ثمّ سألت بهدوء، "أنت عضو في جماعة الجِزّة الذهبية؟"

"طيلة ثلاثين عاماً. لطالما اعتقدت أن لا طريقة أفضل من المال والنفوذ في تعاطي الناس مع بعضهم البعض. هذا ما نقوم به في معظم الأحيان ـ"

"عندما لا تنتقم من السياسيين أو تدفع الرشوات للحصول على عقود."

"كفى يا ستيفاني. أنت تعرفين الأسلوب المتبع في العالم. أنا لا أضع القوانين، بل أستعين بها فقط في الزمان والمكان المناسبَين."

"أخبرني بما تعرف، يا هنريك. ورجاءً بدون مُزاح."

"لقد تعقَّب المحققون الذين يعملون لدي الرجلَين المقتولين منذ يوم أمس إلى أمستردام. كان لأحدهما صديقة أخبرتنا بأن عشيقها يعمل بانتظام لصالح رجل آخر. وقد تمكّنت ذات مرة من رؤيته، وانطلاقاً من الوصف الذي قدّمته أعتقد أنه سبق لي أن رأيته أيضاً."

وانتظرت لمعرفة المزيد.

"أمر مثير للاهتمام. منذ عدة سنوات، وأثناء احتفال رسمي للجماعة، سمعت القليل عن مكتبة الإسكندرية المفقودة. وهذه المسألة تستحوذ على عقل شاغل الكرسي الأزرق، ألفرد هرمن."

"هل تعرف السبب؟"

"يظنّ أن بمقدورنا أن نتعلّم الكثير من الأقدمين."

هذا ما كانت تشكّ به، ولكنها كانت بحاجة إلى معرفة المزيد، "ما هي العلاقة بين الرجلَين المقتولين والجماعة؟"

"الرجل الذي وصفته المرأة كان حاضراً في احتفال الجماعة الرسمي، وهو ليس عضواً بل موظّفاً. لم تسمع اسمه ولكن صديقها استخدم ذات مرة عبارة سمعتها من قَبل أيضاً: *داي كلاون در أدلر*."

وترجمت العبارة بصمت: مخالب النسر. "هل ستخبرني المزيد؟"

"ما رأيك عندما أكون واثقاً من الأمر؟"

وبالعودةً إلى حزيران/ يونيو عندما التقت ثورفالدسن للمرة الأولى، فإنه لم يكن خَدوماً لهذه الدرجة ممّا أوقد حالة النزاع القائمة بينهما. ولكنها كانت قد تعلّمت منذ ذاك الحين ألا تقلّل من قَدْر الدانماركي. "حسناً. قلتَ إن الاهتمام الرئيسي للجماعة هو الشرق الأوسط. ماذا تعني بذلك؟"

"أقدّر لك عدم إصرارك."

"دعوتَني للتعاون معك في وقت سابق. ولكنك لم تكن راغباً في إخباري على أية حال."

ضحك ثورفالدسن في سره. "نحن متشابهان كثيراً."

"هذا ما يخيفني الآن."

"ليس الأمر بهذا السوء. ولكن إجابةً عن سؤالك حول الشرق الأوسط، فالعالم العربي هو الوحيد الذي يحترم القوة لسوء الحظ. غير أن العرب لا يعرفون كيفية عقد الصفقات وهم يملكون الكثير ليقايضوا عليه، ولا سيّما النفط."

لم تكن قادرة على مخالفة ذلك الاستنتاج.

"من هو العدوّ الأول للعرب؟" سأل ثورفالدسن. "أميركا؟ لا، إسرائيل. تلك هي الشوكة في خاصرتهم. إنها موجودة هناك، وسط عالمهم تماماً. دولة يهودية تمّ اقتطاعها عام 1948 عندما جرى تشريد حوالى مليون عربي بالقوة. صحيح أن اليهود عانوا أيضاً. ولكن الأرض التي ادّعى الفلسطينيون والمصريون والأردنيون واللبنانيون والسوريون ملكيّتها طيلة قرون سلّمها العالم لليهود. فقد وهم يدعونها *النكبة* أي الكارثة."

"واندلعت الحرب مباشَرةً،" قالت ستيفاني. "الأولى بين حروب عديدة."

"وانتصرت إسرائيل في جميع هذه الحروب على هذه الدول. وتشبّث الإسرائيليون بأرضهم طيلة السنوات الستين الماضية، كل ذلك لأن الله قال لإبراهيم بأن هذه الأرض أرضه."

فتذكرت المقطع الذي ذكره برنت غرين. '*قال الرب لأبرام، ارفع عينَيك انظر من المكان الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن كل الأرض التي تراها لك أُعطيها ولنسلك إلى الأبد*'.

"إن وعد الله لإبراهيم هو أحد أسباب إعطاء فلسطين لليهود،" قال هنريك. "موطنهم السلَفيّ كما يُزعَم، والذي أورثهم الله إيّاه بنفسه. من يمكنه مخالفتهم في ذلك؟"

"بحّاثة فلسطيني واحد على الأقل وأنا أعرف من هو."

"لقد أخبرني كوتون بأمر جورج حدّاد والمكتبة."

"لم يكن يُفترَض به ذلك."

"لا أظنّ أنه يأبه للقواعد في الوقت الراهن، ولستِ أحد الأشخاص المفضَّلين لديه الآن كذلك."

كانت تستحق تلك الملاحظة.

"أخبرتني مصادري في واشنطن أن البيت الأبيض يريد العثور على حدّاد. وأفترض أنك على عِلم بذلك."

لم يسمع منها جواباً.

"لم أكن أتصوّر أنك قد تؤكّدين أو تُنكرين ذلك الأمر. ولكن أمراً ما يحدث هنا، يا ستيفاني، حدث جوهري. الأشخاص النافذون لا يُضيعون وقتهم عادةً على أمور سخيفة."

فوافقته على ذلك.

"يمكنك أن تقتلي الناس، وتدبّي الذعر في نفوسهم كل يوم، وهذا لن يحلّ المشكلة. ولكن عندما تملكين ما يريده عدوّك أيضاً، أو لا يريد أن يمتلكه أي شخص آخر، تملكين إذاك قدرة حقيقية. أعرف جماعة الجِزّة الذهبية. النفوذ هو ما يسعى إليه الفرد هرمن والجماعة."

"وماذا سيفعلون به؟"

"إذا كان يصيب إسرائيل في الصميم كما هو مُفترَض، فسيعقد العالم العربي إذاك صفقة للحصول عليه. كل واحد في الجماعة متمسّك بالمكسب الذي يعود عليه من العلاقات الوديّة مع العرب. فسعر النفط وحده كافٍ لاسترعاء انتباهم، ولكن أسواقاً جديدة لسلعهم وخدماتهم هي بمثابة الجائزة الأكبر. من يدري؟ فقد تُبدي الدولة اليهودية ارتيابها من المعلومات فيتمّ تسكين كمّ كبير من الجراح المفتوحة. ودفاع أميركا الدائم عن إسرائيل مُكلِف. كم مرة حدث ذلك؟ تطالب دولة عربية بضرورة تدمير إسرائيل، فتقوم الأمم المتحدة بالتدخّل لإيجاد حل، وما تلبث الولايات المتحدة أن تشجب الأمر. ويصبح الكل غاضباً ويتمّ التلويح باستعمال القوة. ومن ثمّ يتعيّن توزيع الامتيازات والدولارات لتلطيف المِزاجات. تخيّلي كم إن العالم وأميركا سيكونون أكثر مُجامَلة لو انتفت الحاجة إلى استرضائهم."

قد يكون هذا الأمر الذي يسعى وراءه لاري دالي لتخليد ذكر الرئيس. ولكنها كانت مضطرة للقول: "ما الذي يمكن أن يكون بهذه القدرة والنفوذ؟"

"لا أعلم. ولكننا قرأنا، أنت وأنا، منذ أشهر قليلة مستنداً قديماً بدّل كل شيء بشكل جوهري. أمر ما حول التساوي في النفوذ هنا أيضاً."

وكان مُحِقاً، ولكن الواقع هو أن "كوتون يحتاج إلى هذه المعلومات."

"سيحصل عليها، ولكن علينا أولاً معرفة القصة بأكملها."

"وكيف تخطط للقيام بذلك؟"

"ينعقد الاجتماع الشتوي للجماعة في نهاية هذا الأسبوع. لم أكن أنوي الذهاب، ولكنني بدّلت رأيي."

الفصل العشرون

لندن

الساعة 1:20 بعد الظهر

نزل مالون من سيارة الأجرة وأخذ يتأمّل الشارع الهادئ. كان فيه كثير من الواجهات المسنّمة والأعمدة المضلّعة، والعَتَبات المليئة بالأزهار. وكان كل من المنازل البديعة ذات الطابع الجيورجي يبدو وكأنه مسكن وادِع يعود للأزمنة القديمة، ومكان يُؤوي بصورة طبيعيّة أشخاصاً مولَعين بالقراءة وأكاديميين. يُفترَض بجورج حدّاد أن يكون في المنزل.

"هل يسكن هنا؟" سألت بام.

"آمل ذلك. لم أتلقَّ أي اتصال منه منذ عام تقريباً. ولكنه العنوان الذي أُعطيَ لي منذ ثلاث سنوات."

كانت فترة بعد الظهر باردة وجافة. وكان قد قرأ في وقت سابق في صحيفة *التايمز* أن إنكلترا ما تزال تشهد جفافاً خريفياً غير عادي. لم يكن سترينغ بين قد تبعهما من هيثرو، ولكن لعل هناك شخصاً آخر قد تولى المهمّة لأنه من الواضح أن الرجل كان على اتصال بآخرين. ومع ذلك لم يلمح أي سيارة أجرة أخرى. من الغريب أن بام ما زالت معه، ولكنه يستحق الشعور بالارتباك. فهو الذي قد ألحّ عليها لكي ترافقه.

صعدا الرواق ودخلا المبنى. وتخلّف قليلاً في الردهة، بعيداً عن الأنظار، مراقباً الشارع.

ولكن لم تظهر أي سيارة أو أي شخص.

صدر عن جرس الشقة الواقعة في الطابق الثالث رنين متحفّظ. كان الرجل نو البشرة السمراء المائلة إلى الصُّفرة الذي فتح الباب قصير القامة، جريئاً، ذا شعر أبيض رمادي، ووجه مربّع الشكل. فزخرت عيناه البنيّتان بالحياة عندما رأى ضيفه، ولكن مالون لاحظ إثارة فوريّة مكبوتة المشاعر في الابتسامة العريضة المرحّبة.

"كوتون، يا للمفاجأة. كنت أفكر بك ذلك اليوم."

تصافحا بحرارة وقدّم مالون بام إليه. ودعاهما حدّاد للدخول. وكان ضوء النهار خافتاً بسبب الستارات المصنوعة من القماش المخرَّم الثخين، وبسرعة استوعب مالون طراز الديكور الذي بدا عن قصد جَمعاً بين عناصر عالمية متنافرة - كان هناك بيانو، وعدد من الطاولات الجانبية، وكراسٍ بذراعَين، ومصابيح مزخرَفة بغطاء من نسيج حريري مغضّن، وطاولة من خشب السنديان عليها حاسوب مغمور بالكتب والأوراق.

لوّح حدّاد بذراعه وكأنه يعانق الأشياء المبعثَرة. "إنه عالمي، يا كوتون."

كان على الجدران خرائط معلّقة بطريقة مبعثَرة، وكانت كثيرة جداً لدرجة أن الجدار الأخضر الباهت يكاد لا يُرى. ألقى مالون نظرة مدقِّقة عليها، منقِّباً في محتوياتها، ولاحظ أنها تعود للأرض المقدَّسة، وصحراء سيناء، ويتراوح تاريخ وضعها بين الزمن الحديث والقديم. وكان بعضها نُسَخاً مصوَّرة، والأخرى أصليّة، ولكنها كانت مثيرة للاهتمام.

"مزيد ممّا يستحوذ على عقلي،" قال حدّاد.

وبعد تبادل أنيس لحديث وجيز، قرّر مالون التطرّق للموضوع. "لقد تبدّلت الأمور. لذلك تجدني هنا." ثم شرح له ما الذي حدث في اليوم السابق.

"هل ابنك بخير؟" سأل حدّاد.

"إنه بخير. قبل خمس سنوات لم أطرح أي سؤال لأن الأمر كان جزءاً من عملي. لم يعُد الأمر كذلك، لذا أريد معرفة ما الذي يجري."

"لقد أنقذتَ حياتي."

"ممّا يخوّلني معرفة الحقيقة."

اقتادهما حدّاد إلى المطبخ حيث جلسوا إلى طاولة بيضاويّة الشكل. لم يكن الهواء الدافئ متلائماً مع رائحة النبيذ والتبغ. "الأمر معقَّد، يا كوتون. أنا شخصياً لم أفهمه إلا قبل سنوات قليلة."

"جورج، أنا بحاجة إلى معرفته الآن."

وكان هناك انسجام مشوب بالقلق بينهما. فالصداقات القديمة قد تصاب بالضُّمور. وقد يتبدّل الناس. وما كان محطّ تقدير بين شخصَين بات مصدراً لعدم الارتياح. ولكن مالون كان يعلم أن حدّاد يثق به ويريد هو أيضاً مبادلته الثقة. وأخيراً تكلّم الرجل الأكبر سنّاً، وأخذ مالون يستمع إلى حدّاد يخبره عن العام 1948 عندما قاتل في صفوف المقاومة الفلسطينية وكان ما يزال في التاسعة عشرة من عمره، محاولاً وقف الاجتياح الصهيوني.

"لقد أطلقت النار على الكثير من الرجال"، قال حدّاد. "ولكن هناك شخصاً واحداً لن أنساه أبداً. لقد جاء لرؤية والدي. ولسوء الحظ، كانت تلك الروح المبارَكة قد قتلت نفسها. اعتقلنا هذا الرجل ظنّاً منّا بانه صهيوني. كنت شاباً يملأ الحقد قلبه، عديم الصَّبْر، وقال كلاماً لا معنى له. لذا، أطلقت النار عليه وأرديته." واغرورقت عينا حدّاد بالدموع. "كان 'حارساً' وقد قتلته دون أن أعلم أي شيء منه." وتوقّف الفلسطيني مؤقّتاً عن الكلام ثم استطرد: "ومن ثمّ، وبعد حوالى خمسين سنة، وبشكل لا يصدَّق، زارني حارس آخر."

بدا مالون يتساءل عن مغزى هذه الرواية.

"حضر إلى منزلي، ووقف في الظلام، وقال الشيء نفسه الذي قاله الرجل الأول عام 1948."

'أنا حارس'

هل سمع حدّاد بشكل صحيح؟ وبدا السؤال السؤال في عقله على الفَور. "من المكتبة؟ هل أتلقّى دعوة؟"

"كيف تعلم ذلك؟"

ثم أخبر الرجل ماذا حدث منذ زمن بعيد. وكان حدّاد يحاول تقييم ضيفه. كان نحيفاً ولكن قوياً مع شعر أسود بلون الفحم، وشاربين ثخينين، وبشرة لفحتها الشمس تليق بنسيج ملابس جلديّة مائلة إلى السُّمرة. كان أنيق المظهر ويرتدي ثياباً ملائمة غير صارخة. لم يكن مختلفاً عن الرسول الأول.

جلس الرجل الأصغر سنّاً صامتاً، وقرّر حدّاد أنه سيكون هذه المرة صبوراً. وأخيراً قال الحارس: "درسنا كتاباتك وبحوثك المنشورة. إن معرفتك بالنص القديم

للكتاب المقدس مثيرة للإعجاب مثلما هي قدرتك على ترجمة النسخة العبريّة الأصلية. وحججك التي تناولت الترجمات المعترف بها مُقنعة."

فقدّر الإطراء حق قَدْره. وكانت تلك الإطراءات قليلة ومتباعدة في الضفة الغربية.

"نحن عُصبة قديمة. منذ زمن طويل، أنقذ الحراس الأوّلون قسماً كبيراً من مكتبة الإسكندرية من الدمار. مجهود كبير. ومن حين لآخر، كنا نوجّه دعوة لأولئك الذين يمكنهم الاستفادة منها، مثلك."

وطرأت أسئلة عديدة على ذهنه، ولكنه سأل، "الحارس الذي أطلقتُ النار عليه قال إن الحرب التي كنّا نخوض رداً على الاجتياح آنذاك لم تكن ضرورية، وأن هناك أموراً أقوى من الرصاص. ماذا كان يعني؟"

"لا عِلم لي بالأمر. من الواضح أن والدك لم يتمكّن من دخول المكتبة، لذا فهو لم يستفد أبداً من معرفتنا كما أننا لم نستفد من معرفته. ونأمل في ألا تُهمِل الأمر."

"ماذا تعني بأنه لم يتمكّن من دخول المكتبة؟"

"لكي تمتلك حق استخدام المكتبة، عليك أن تثبت قدراتك من خلال 'ضالّة البطل' المنشودة." ثم أبرز الرجل مغلّفاً. "قم بتفسير هذه الكلمات بحكمة وسوف أراك عند المدخل حيث سأتشرف بالسماح لك بدخول المكتبة."

وقبل الرزمة. "أنا رجل مُسنّ. كيف لي أن أتحمّل رحلة طويلة؟"

"سوف تجد القوة."

"لمَ يُفترَض بي القيام بذلك؟"

"لأنك ستجد الإجابات في المكتبة."

"كان خطأي أنني أخبرت السلطات الفلسطينية عن الزيارة،" قال حدّاد. "ولكنني مع ذلك كنت أقول الحقيقة. لم أتمكّن من القيام بالرحلة. وعندما قدّمت تقريراً بما حدث، ظننت أنني كنت أتكلم مع أصدقاء في الضفة الغربية. ولكن جواسيس إسرائيل سمعوا كل شيء، وما واجهته بعد ذلك هو أننا، أنت وأنا، كنا في ذلك المقهى عندما انفجر."

وتذكر مالون ذلك اليوم، وهو أحد الأيام الأكثر رُعباً في حياته. فقد تمكن بالكاد من إنقاذ نفسه وإنقاذ حدّاد.

"ماذا كنت تفعل هناك؟" سألته بام والقلق بادٍ في صوتها.

"كنت تعرّفت إلى جورج منذ سنوات. وكنا نتشاطر اهتماماً بالكتب، ولا سيّما الكتاب المقدّس." وأشار إلى حدّاد. "هذا الرجل هو أحد الخبراء في العالم. لقد استمتعت بحدة ذكائه."

"لم اكن أعلم أبداً أنك مهتمّ بالأمر،" قالت بام.

"حسب الظاهر، كان هناك الكثير من الأمور الخاصة بكل منّا لم يكن أحدنا الآخر على عِلم بها." ولاحظ أنها فهمت المعنى الحقيقي، لذا ترك تلك الحقيقة معلّقة وقال: "عندما شعر جورج بوجود مشكلة ما ولم يثق بالفلسطينيين، طلب مساعدتي. فأرسلتني ستيفاني لمعرفة ما يجري. وبعد حادثة التفجير، أراد جورج التواري عن الأنظار. وافترض الجميع أنه مات في الانفجار. لذا عمدت إلى إخفائه."

"واسمه الرمزي لغز الإسكندرية،" قالت بام.

"من الواضح أن شخصاً عرف بأمري،" قال حدّاد مؤكداً.

هزّ مالون رأسه موافقاً. "لقد تمّ اختراق ملفات الحاسوب، ولكن لا ذكر للمنطقة التي تعيش فيها. أنا الوحيد الذي يعرف مكان إقامتك. لهذا السبب سعوا وراء غاري."

"أنا آسف فعلاً لذلك. لَما رغبت أبداً بتعريض حياة ابنك للخطر."

"إذاً أخبرني، يا جورج، لمَ يريد الناس موتك؟"

"عندما زارني الحارس، كنت أعمل على نظرية مرتبطة بالعهد القديم. وكنت قد نشرت في السابق عدة أبحاث عن حالة ذلك النص المقدّس آنذاك، ولكنني كنت أُعِدّ أمراً إضافياً."

وازدادت الخطوط عند زوايا عينَي حدّاد عُمقاً، وكان مالون يراقب صديقه وهو يكافح في مواجهة أفكاره.

"يميل المسيحيون إلى التركيز على العهد الجديد،" قال حدّاد. "ويستخدم اليهود العهد القديم. وأستطيع القول إن معظم المسيحيين يملكون فهماً قليلاً للعهد القديم، غير مدركين أن العهد الجديد هو إتمام لنبوءات العهد القديم. ولكن العهد القديم هام، وهناك العديد من التناقضات في ذلك النص تحمل المرء على الارتياب في الرسالة التي يحملها."

كان مالون قد سمع حدّاد يتكلّم عن الموضوع في وقت سابق، ولكنه شعر هذه المرة بإلحاح جديد.

"الامثلة كثيرة. يعرض سفر التكوين لروايتَين متعارضتَين عن الخَلق. وقد ذُكرت فيه سُلالتان مختلفتان لذُرّيّة آدم. وجاء بعد ذلك الطوفان، وطلب الربّ من نوح أخذ سبعةً سبعة من البهائم الطاهرة واثنَين من البهائم غير الطاهرة. وقد ذُكر في مكان آخر من سفر التكوين أن الله طلب من نوح أخذ زوج واحد من كل من البهائم الطاهرة وغير الطاهرة. وفي إحدى الآيات، يُطلق نوح غُراباً للبحث عن أرض، ولكنه لم يُطلق سوى ريشة في آية أخرى. حتى إن المدة التي استغرقها الطوفان متناقضة. أربعون يوماً وليلة أو ثلاث مئة وسبعون يوم وليلة؟ فالعددان مستخدَمان. ناهيك عن عشرات الأمور التي يعبَّر عنها بطريقتَين مختلفتَين أو بثلاث طرق مختلفة في الرواية، كالأسماء المستخدَمة في وصف الربّ. فهو تارةً يَهْوه وطَوراً إلوهيم. ألا تظن أنه *يُفترَض باسم الربّ أن يكون متطابقاً على الأقل*؟"

وعاد مالون بالذاكرة إلى الوراء بضعة أشهر عندما كان في فرنسا حيث سمع تذمّرات مماثلة حول الأناجيل الأربعة للعهد الجديد.

"معظم البحّاثة يوافقون الآن على أن العهد القديم وضعته مجموعة كبيرة من الكتّاب على مدى فترة طويلة جداً من الزمن،" قال حدّاد. "تركيب بارع من مصادر متنوّعة وضعها مجمّعون وكتبة ومدوّنون. هذا الاستنتاج واضح تماماً وليس جديداً. وكان فيلسوف إسباني في القرن الثاني عشر أوّل من ذكر أن المقطع في سفر التكوين 6:12، في *ذلك الزمان والكنعانيون حينئذٍ في الأرض* ـ لا يمكن أن يكون قد كتبه موسى. فكيف يكون موسى واضع الكتب الخمسة في حين أن الكتاب الأخير يصف بالتفصيل وقت وظروف وفاته بالتحديد؟

"هذا بالإضافة إلى كثير من الكلام الجانبي الأدبي. فلدى استخدام أسماء الأماكن القديمة مثلاً، يذكر النص أن تلك الأماكن ما تزال موجودة حتى يومنا هذا. فهذا الأمر يشير تماماً *التأثيرات* اللاحقة المتعلقة بوضع النص في إطار معيَّن، وتوسيعه، وتزيينه."

فقال مالون، "وكلما وُضعت إحدى هذه الترجمات فُقِد المزيد من المعنى الأصلي."

"لا شك في ذلك. والتخمين الأفضل هو أن العهد القديم وُضع بين عامَي

1000 و586 قبل المسيح. ووُضعت المؤلَّفات التالية حوالى العام 500 و400 قبل المسيح. وقد يكون إصلاح النص قد تم في العام 300 قبل المسيح. لا أحد يعرف بالتحديد. كل ما نعرفه أن العهد القديم هو مجموعة من كتابات متفرّقة ووضعت في ظروف تاريخية وسياسية مختلفة، وتعبّر عن وجهات نظر دينية مختلفة."

"أقدّر كل ذلك،" قال مالون مفكّراً ثانيةً بتناقضات العهد الجديد التي سمع بها في فرنسا. "صدّقني، أقدّر ذلك. ولكن أيّاً من هذه الأمور ليس ثورياً سواءً اعتقد الناس أن العهد القديم هو كلمة الربّ، أم اعتقدوا أنه مجموعة من القصص القديمة."

"ولكن ماذا لو أن الكلمات قد حُرِّفت لدرجة أن الرسالة الأصليّة لم تعد موجودة؟ ماذا لو أن العهد القديم، كما نعهده، ليس العهد القديم الأصلي، وأنه لم يكن كذلك أبداً؟ في هذه الحالة، قد يبدّل هذا الأمر أموراً عديدة."

"كلّي آذان صاغية."

"هذا ما يُعجبني فيك،" قال حدّاد مبتسماً. "إنك تصغي جيداً."

كان بإمكان مالون الاستنتاج من التعبير الذي بدا على وجه بام أنها لا توافق على ذلك بالضرورة، ولكنها التزمت بالصمت إيفاءً بوعدها.

"لقد تكلّمنا أنت وأنا عن هذا الموضوع في السابق،" قال حدّاد. "فالعهد القديم مختلف بشكل جوهري عن العهد الجديد. والمسيحيون يفسّرون نص العهد الجديد حَرْفياً لدرجة أنهم يعتبرونه تاريخاً. ولكن قصص الملوك، والخروج، والاستيلاء على أرض كنعان ليست من التاريخ. إنها تعبير خلّاق عن إصلاح ديني جرى في مكان يُدعى يَهوذا منذ زمن بعيد. وقد أُقرّ بوجود بعض الحقيقة في جوهر الروايات، ولكنها قصص أكثر منها واقعاً وإلى حدّ بعيد.

"وقايين وهابيل هما خير مثال على ذلك. في زمن تلك الرواية كان هناك أربعة أشخاص فقط على الأرض: آدم، وحوّاء، وقايين، وهابيل. ولكن سفر التكوين 17:4 يقول 'وعرف قايين *امرأته* فحملت'. فمن أين أتت المرأة؟ هل كانت حوّاء؟ والدته؟ ألا يجدر التركيز على ذلك؟ وبعد ذلك، ولدى تعداد سلالة آدم، يقول سفر الخروج 5 إن مَهلائيل عاش ثمانمئة وخمس وتسعين سنة، ويارَد ثمانمئة سنة، وأَخنوخ ثلاثمئة وخمس وستين سنة. أما إبراهيم فكان على ما يُظَنّ في عامه المئة عندما ولدت سارة إسحق، وكانت في التسعين من عمرها."

"ما من أحد يفسّر ذلك الهُراء حرفياً،" قالت بام.

"اليهود المتفانون يسلّمون بالعكس."

"وماذا تقول أنت يا جورج؟" سأل مالون.

"العهد القديم، كما نعلم حالياً، هو نتاج عدة ترجمات. لم تعُد تُستَخدم اللغة العبريّة الذي وُضع فيها النص الأصلي منذ حوالى العام 500 قبل المسيح. ولذلك، ولكي نفهم العهد القديم، يجب علينا إمّا قبول الترجمات اليهودية التقليدية أو الاستعانة باللغات المحليّة الحديثة المتحدّرة من تلك اللغة العبريّة المفقودة. ولا يمكننا استعمال الطريقة الأولى لأن البحّاثة اليهود الذين ترجموا النص أصلاً بين عامَي 500 و900 قبل المسيح، أي بعد ألف عام أو أكثر من كتابته للمرة الأولى، لم يكونوا على معرفة حتى بالعبرية القديمة، لذا بنوا ترجماتهم على تخمينات. والعهد القديم الذي يُجلّه العديدون كونه كلمة الربّ ليس سوى ترجمة اعتباطية."

"جورج، لقد ناقشنا أنا وأنت هذا الأمر من قَبل. وقد تجادل البحاثة في هذا الموضوع طيلة قرون. ليس أمراً جديداً."

ورمقه حدّاد بابتسامة ماكرة. "ولكنني لم أكمل شرحي بعد."

الفصل الحادي والعشرين

فيينا، النمسا
الساعة 2:45 بعد الظهر

كان قصر ألفرد هرمن يوفّر له جوّاً يشبه القبر. ولم يكن يقطع عُزلته إلا متى التأمت الجمعية أو اجتمع الرؤساء.

ولكن هذا اليوم لم يكن يشهد أيّاً من هاتَين الحالتَين.

وكان مسروراً بذلك.

كان آمناً ومرتاحاً في شقّته الخاصة، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف الفسيحة في الطابق الثاني من القصر تتكامل بانسياب طبيعي مع بعضها البعض من خلال التصميم الفرنسي الذي لا يعتمد الممرّات. ومن المنتظَر أن تنعقد الدورة الشتويّة التاسعة والأربعين للجمعيّة في غضون أقل من يومَين، وكان مسروراً بأن كافة الأعضاء الواحد والسبعين في جماعة 'الجِزّة الذهبية' سيكونون حاضرين. حتى أن هنريك ثورفالدسن، الذي قال في بادئ الأمر إنه لن يحضر، قد أكد حضوره. لم يكن الأعضاء قد تحدّثوا بشكل جماعي منذ الربيع المنصرم، لذا كان يعلم أن المباحثات ستكون شاقة في الأيام القادمة. وكونه شاغل الكرسي الأزرق، كانت مهمّته الحرص على أن تكون أعمال الاجتماع مثمرة. وكانت هيئة موظّفي الجماعة قد شرعت بعملها لإعداد قاعة الاجتماعات في القصر ـ وسيكون كل شيء جاهزاً قبل وصول الأعضاء في نهاية الأسبوع ـ ولكنه لم يكن قلقاً في بشأن الجماعة بقدر ما كانت أفكاره مركّزة على العثور على مكتبة الإسكندرية. وهذا أمر كان قد حلم بتحقيقه طوال عقود من الزمن.

ودخل الغرفة.

كان النموذج الذي كان قد كلّف أحدهم بإنجازه منذ سنوات يشغل الزاوية الشمالية للغرفة، وهو عبارة عن نسخة مصغّرة عن الشكل الذي كانت تبدو عليه لمكتبة الإسكندرية أيام قيصر. فسحب كرسياً إلى جانبها وجلس، وعيناه تستوعبان التفاصيل بذهن شارد.

كان هناك صفّان من الاعمدة تشكّلان دعامة المكتبة. وكان يعلم بأن كلا الصفّين في المكتبة الأصليّة مليئان بالتماثيل، وبأن الأرض مكسوّة بالسجاد، والجدران مزيّنة بالمطرّزات الجدارية. أما المقاعد العديدة القائمة على امتداد الممرّات، فكانت للأعضاء الذين يتباحثون حول معنى كلمة ما أو إيقاع مقطوعة شعرية، أو ينهمكون في نقاش ساخن حول اكتشاف جديد. وهناك غرفتان مسقوفتان تنفتحان على غرف جانبية وضعت فيها مخطوطات ورق البَرْدي، ولفائف الورق، والمخطوطات اللاحقة، في صناديق كبيرة أو على الرفوف، وكُدِّست بحيث يسهل سحبها وقد أُلصقت عليها بطاقات تعريف للفهرَسة. وفي غرف أخرى، يعمل الناسخون بكَدّ على وضع نُسخ طِبق الأصل كانت تُباع لتأمين دخل للمكتبة. وينعم الموظّفون بمرتّبات مرتفعة وبإعفاءات من الضرائب، ويؤمَّن لهم المأكل والمسكن. وهناك قاعات للمحاضرات، ومختبرات، ومراصد فلَكيّة - وحتى حديقة للحيوانات. وكان علماء النَّحو والشعراء يحتلون المناصب الأرفع مكانة، وتتوافر أفضل التجهيزات للأطباء وعلماء الرياضيات وعلماء الفلَك. أما الطراز المعماري فهو إغريقي حتماً، والمكتبة برمّتها أشبه بمعبد أنيق.

يا له من مكان، قال في نفسه.

يا لذلك الزمان.

ذلك أن نطاق المعرفة في التاريخ البشري لم يتسع بشكل جذري إلا في مرحلتّين، إحداهما إبّان عصر النهضة وما زالت مستمرّة حتى اليوم، والثانية في القرن الرابع قبل المسيح عندما كان الإغريق يسيطرون على العالم.

ثم أخذ يفكّر بالقرن الثالث قبل المسيح وبالموت الفجائي للاسكندر الكبير. فقد تقاتل قادة جيشه على أمبراطوريّته الضخمة، وانقسمت المملكة في النهاية إلى ثلاثة أقسام وبدأ العصر الهليني، وهي فترة الهيمنة الإغريقية على العالم. وطالب بطليموس، وهو مقدوني بَعيد التفكير، بأحد الأقسام الثلاثة وأعلن نفسه مِلِكاً على

مصر عام 304 قبل المسيح، مؤسِّساً السلالة البطليموسية الحاكمة وعاصمتها الإسكندرية.

كان البطليموسيون مثقَّفين، وكان بطليموس الأول مؤرِّخاً، وبطليموس الثاني عالِم حيوانات، وبطليموس الثالث نصيراً للأدب، وبطليموس الرابع مؤلّفاً مسرحياً. وكان كل منهم يختار بحّاثة وعلماء بارزين كمدرّسين خصوصيّين لأولاده، ويشجّع المفكّرين الكبار على الإقامة في الإسكندرية.

وقد أسّس بطليموس الأول المتحف، وهو مكان يمكن للمتعلّمين التجمّع فيه وتشاطر المعرفة. كما أسّس أيضاً المكتبة دعماً لمساعيهم. وفي عهد بطليموس الثالث عام 246 قبل المسيح، كان هناك مكانان: المكتبة الرئيسية بالقرب من القصر الملَكي، ومكان آخر أصغر من الأول، ومقرّه الرئيسي في مكان تقدس الإلّه سيرابيس، ويُعرَف بالسيرابيوم.

وكان البطليموسيون جامعي كتب عازمين يرسلون العملاء إلى مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك. فقد اشترى بطليموس الثاني مكتبة أرسطو بأكملها. وأصدر بطليموس الثالث الأمر بتفتيش كل السفن التي ترسو في ميناء الإسكندرية، فإذا عُثِر فيها على كتب نسخوها وأُعيدت النُّسَخ إلى مالكيها، وتمّ الاحتفاظ بالنسخ الأصلية في المكتبة. وكانت الفنون الأدبية تتراوح بين الشعر والتاريخ والبلاغة والفلسفة والدين والطب والعلوم والقانون. وقد جرى الاحتفاظ في النهاية بحوالى 43000 لفافة في المتحف، خُصِّصت بمجملها للبحّاثة.

ولكن ماذا حلّ بها كلها؟

تقول إحدى الروايات إنها احترقت عندما خاض يوليوس قيصر معركة ضد بطليموس الثامن عام 48 قبل المسيح. وكان قيصر قد أمر بإحراق الأسطول الملَكي، ولكن الحريق امتدّ عبر أرجاء المدينة مُلتهماً ربما المكتبة. وتُلقي رواية أخرى اللوم على المسيحيين الذين زُعِم أنهم أتلفوا المكتبة الرئيسية عام 272 بعد المسيح والسيرابيوم عام 391، وذلك في إطار مساعيهم لتخليص المدينة من كل التأثيرات الوثنيّة. وتنسب رواية أخيرة إتلاف المكتبة إلى العرب بعد استيلائهم على الإسكندرية عام 642. وهكذا، يُزعَم أن لفافات الورق كانت وقوداً لحمّامات الإسكندرية طيلة ستة أشهر.

وكان هرمن يجفَل دائماً لهذه الفكرة: إذ كيف يمكن ببساطة إحراق إحدى أكبر المحاولات البشرية لجمع المعارف.

ولكن ما الذي حدث بالفعل؟

من المؤكَّد أنه بسبب مواجهة مصر حالة اضطراب متنامٍ وعدواناً خارجيّاً، غدت المكتبة ضحيّة الاضطهاد، والاحتلال العسكري، ولم تعُد تنعمُ بامتيازات خاصة.

ومتى اختفت بشكل نهائي؟ لا أحد يعلم.

وهل كانت الأسطورة حقيقية؟ قيل إن مجموعة من المتحمّسين كانوا قد تمكّنوا من إخراج لفافة بعد أخرى، فنسخوها، وسرقوا لفائف أخرى، محافظين بطريقة منهجيّة على مجموعة المعارف. وقد ألمح المؤرّخون لوجودها طيلة قرون. الحراس.

وكان يحبّ أن يتخيّل ما يمكن أن يكون قد حافظ عليه أولئك المتحمّسين. أعمال غير معروفة لإقليدس؟ وأفلاطون؟ وأرسطو؟ وأوغسطين؟ إلى جانب عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من رجال آخرين اعتُبروا في ما بعد مبتكرين في ميادين تخصّصهم.

ولكن لا أثر ظاهر لها.

وهذا ما جعل البحث يكتسب هذا الطابع الإغوائي.

وهذا فضلاً عن نظريات جورج حدّاد التي قدّمت لهرمن طريقة لدعم أهداف الجماعة. وقد سبق للّجنة السياسية أن حدّدت كيف يمكن استثمار زعزعة استقرار اسرائيل. وكان المخطط العملي طموحاً وقابلاً للتنفيذ، شريطة التمكّن من إثبات صحة البحث الذي أجراه حدّاد.

وكان حدّاد قد أبلغ منذ خمس سنوات عن تلقّيه زيارة من شخص يُعرَف بالحارس. وقد نقل جواسيس إسرائيل تلك المعلومات إلى تل أبيب. وبالغ اليهود في ردة فعلهم كما هو حالهم على الدوام، وحاولوا قتل حدّاد على الفور. وبفضل تدخل الأميركيين، بقي حدّاد في عِداد الأحياء. وكان هرمن ممتنّاً بسبب إمكانية التفاوض مع مصادره السياسية الأميركية التي أكّدت تلك الوقائع مؤخراً وأعطت المزيد من المعلومات. ولهذا السبب قام سابر بملاحقة كوتون مالون.

ولكن من كان يعلم شيئاً؟ وهل بإمكان سابر أن يعرف المزيد من ذلك الإسرائيلي الفاسد الذي ينتظره في ألمانيا؟

أما الحقيقة الواحدة والأكيدة فهي جورج حدّاد.

ولا بد من العثور عليه.

الفصل الثاني والعشرون

روثنبرغ، ألمانيا

الساعة 3:30 بعد الظهر

مشى سابر الهُوَيْنَى على الدَّرب الضيّق المرصوف بالحصى. وتقع روثنبرغ على بُعد مئة كيلومتر جنوب وارزبرغ، وهي مدينة مُحاطَة بأسوار حجرية وأبراج مراقَبة تعود للعصور الوسطى. وفي داخلها تتقاطع الشوارع الضيّقة مع الدروب متجاورة تفصل بينها مبانٍ مصنوعة من الخشب جزئياً ومن القرميد والحجارة. وكان سابر يبحث عن مبنى محدَّد.

يقع مبنى بومايشترهاوس على مقربة من ساحة السوق، وعلى بُعد مرمى حجر من برج الساعة القديم. وتشير لوحة حديدية إلى أن المبنى شيُّد في العام 1596، ولكن البناء المؤلَّف من ثلاث طبقات بات يضمّ نُزلاً ومطعماً منذ القرن الماضي.

ودفع الباب الأمامي فاستقبلته رائحة الخبز المختمِر والتفاح المطبوخ بالقِرفة. وكان يوجد في الطابق الأرضي بهوٌ ضيّق يؤدي إلى فناء داخلي لنُزل من طابقَين زيّنت جدرانه المبيَّضة بقرون الوعول المشعَّبة.

كان أحد مُخبري الجماعة ينتظر في حُجرة صغيرة مكسوّة بخشب السنديان، وهو شخص نحيل صغير الحجم يُعرَف بجونا. فاتجه سابر نحو الحجرة ودخل إليها. كانت الطاولة مغطاة بقماش رقيق ورديّ اللون، وعليها كوب صيني مليء بالقهوة السوداء، وبجانبه طبق طعام دانماركي لم يتمّ تناوله بالكامل.

"تحدث هنا أمور غريبة،" قال جونا بالإنكليزية.

"هكذا هي الحال في الشرق الأوسط."

"أغرب من المعتاد."

وكان هذا الرجل مُلحَقاً في وزارة الداخلية الإسرائيلية وعضواً في بعثتها الدبلوماسية إلى ألمانيا.

"لقد طلبتم منّي أن أراقب كل ما له علاقة بجورج حدّاد، يبدو أنه قام من بين الأموات، وجماعتنا في حالة اضطراب."

تظاهر أنه جاهل بالأمر. "ما هو مصدر هذا الظهور المفاجئ؟"

"لقد اتصل في الواقع بفلسطين في الأيام القليلة الماضية، وهو يريد إطلاعهم على أمر ما."

كان سابر قد التقى جونا ثلاث مرات قبل ذلك. فالرجال أمثاله الذين يعطون أهمية لليورو أكبر مما يعطونه للوفاء والإخلاص هم أشخاص مفيدون، ولكن ينبغي الحذَر منهم في الوقت نفسه. فالمحتال يعمد إلى الاحتيال على الدوام. "ما رأيك لو نكفّ عن المراوغة وتخبرني بما تريدني أن أعرفه."

تناول الرجل رشفة من القهوة. "قبل اختفائه منذ خمس سنوات، تلقّى حدّاد زيارة من شخص ما يُدعى 'الحارس'."

وكان سابر على عِلم بذلك، ولكنه لم يقل شيئاً.

"وقد تمّ تسليمه معلومات من نوع ما. كان غريباً إلى حدّ ما فاصبح أكثر غرابة."

لم يكن يقدّر أبداً حسّ الإثارة الذي يحب جونا استحضاره أثناء حديثه.

"لم يكن حدّاد الشخص الأول الذي مرّ بهذه التجربة. لقد شاهدت ملفاً، وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرون تلقّوا منذ العام 1948 زيارات مماثلة ممّن يطلق عليهم اسم 'الحرّاس'. وإسرائيل على عِلم بكل منهم، ولكن جميع هؤلاء لقوا حتفهم في غضون أيام أو أسابيع بعد الزيارة." وتوقف جونا قليلاً. "وإذاً تتذكر، فقد كاد حدّاد يلقى حتفه أيضاً."

وبدأ يفهم. "جماعتك يحتفظون بشيء ما لأنفسهم؟"

"هكذا تبدو الأمور."

"ما هي الفترة الزمنية التي جرت خلالها تلك الزيارات؟"

"كل عشرين سنة تقريباً طيلة السنوات الستين الماضية. وكانوا كلهم أكاديميين، إسرائيلي واحد وثلاثة عرب، بمن فيهم حدّاد. والموساد هي التي قامت بعمليات الاغتيال كلها."

وكان بحاجة إلى معرفة المزيد، "وكيف تمكنتَ من معرفة تلك الأمور؟"

"كما قلت، من خلال الملفات." لزم جونا الصمت قليلاً. "لقد وردنا بيان رسمي منذ ساعات قليلة. يُقيم حدّاد في لندن."

"أريد عنواناً."

وأعطاه جونا العنوان ثمّ قال له، "لقد تمّ إرسال بعض الرجال التابعين لفرقة الاغتيال."

"لمَ يريدون قتل حدّاد؟"

"لقد طرحت السؤال نفسه على السفير. فهو عضو سابق في الموساد وقد أخبرني قصة مثيرة للاهتمام."

"أفترض أن هذا هو سبب وجودي هنا؟"

فرمقه جونا بابتسامة سريعة. "كنت أعلم أنك رجل ذكي."

أدرك ديفيد بن - غوريون أن مهنته السياسية قد انتهت. فمنذ أن كان فتى ضعيفاً في بولندا، كان يحلم بإعطاء اليهود موطنهم المذكور في الكتاب المقدّس. لذا، أسّس أمّة إسرائيل وتزعّمها عبر سنوات الاضطراب بين عامَي 1948 و1963، فقاد الحروب التي خاضتها ومنحها الحنكة السياسية.

لا شك في أنها مهمة شاقة بالنسبة لرجل كان يرغب بالفعل في أن يكون مثقّفاً.

وكان قد التهم كتب الفلسفة، ودرس الكتاب المقدّس، واطّلع على البوذيّة، حتى إنه تعلّم بمفرده اللغة اليونانية القديمة بهدف قراءة مؤلّفات أرسطو بنسخاتها الأصلية. وكان يمتلك فضولاً لا يلين حيال العلوم الطبيعية والقصص الخياليّة المقوتة. وكانت المعركة الكلامية وليس الحوار الماكر صيغة التواصل المفضّلة لديه.

ومع ذلك، فإنه لم يكن مفكّراً متجرداً.

لقد كان عوضاً عن ذلك رجلاً يقظاً، ذا حنجرة بارزة، وهالة من الشعر الفضّي، وحنك يعكس قوة الإرادة، ومِزاج بركاني.

كان قد أعلن استقلال إسرائيل في أيار/ مايو 1948، متجاهلاً التحذيرات التي وجّهتها إليه واشنطن في الدقيقة الأخيرة، ومُبطلاً تنبّؤات زملائه الأكثر تقرّباً منه والمتعلقة بموعد يوم الحساب. واستعاد ذكرى قيام القوات العسكرية لخمس دول عربية باجتياح إسرائيل، وذلك في غضون ساعات بعد إعلانه، وانضمامهم إلى الميليشيات الفلسطينية في محاولة مكشوفة للقضاء على اليهود. وكان قد قاد الجيش بنفسه، فمات من الشعب اليهودي، واحد بالمئة بالإضافة إلى آلاف العرب. وفقد أكثر من نصف مليون فلسطيني منازلهم. وانتصر اليهود في النهاية، ولقّبه العديدون بأسماء عديدة كموسى، والملك داود، وغاريبالدي، والإله القدير.

تزعّم أمّته طيلة خمس عشرة سنة إضافية، وكان قد بلغ عامه الثمانين تقريباً عام 1965 وبدا عليه التعب.

والأسوأ من ذلك أنه كان مخطئاً.

لقد وجّه أنظاره نحو المكتبة المثيرة. كميّة كبيرة من المعارف. وكان الرجل الذي دعا نفسه 'حارساً' قد قال إن البحث سيكون تحدّياً، ولكن المكافآت لن تُحصى إذا تمكّن من النجاح.

وكان الرسول مُحِقاً.

وقرأ ذات مرة أن مقياس فكرة معينة ليس مرتبطاً بزمنها بل بالزمن الآتي.

وكان زمنه قد أنتج الدولة الحديثة لإسرائيل، وقد تطلّب الأمر موت الآلاف - وكان يخشى من هلاك العديدين في العقود اللاحقة. وبدا أنه من المقدّر لليهود والعرب التقاتل. وكان يظنّ أن هدفه نابع من دوافع أخلاقية، وقضيّته عادلة، ولكن الأمر لم يعُد كذلك.

لقد كان مخطئاً.

وبكل شيء.

ثم قلّب ثانيةً وبعناية صفحات الكتاب الثقيل الوزن المفتوح على الطاولة.

وكانت ثلاثة مجلّدات مماثلة في انتظاره عندما وصل. وكان الحارس الذي زاره منذ ستة أشهر واقفاً في المدخل وعلى وجهه المتغضن ابتسامة عريضة.

لم يكن بن - غوريون قد حلم من قَبل بوجود مكان مماثل للتعلّم، وكان ممتناً لأن فضوله سمح له باستجماع شجاعته للبحث.

"من أين جاء كل هذا؟" سأل لدى دخوله.

"من قلوب وعقول الرجال والنساء."

كان ذلك لغزاً بالنسبة إليه، ولكنه حقيقة أيضاً، وكان الفيلسوف الكامن في داخله قد فهم المعنى.

"لقد روى بن - غوريون تلك القصة عام 1973 قبل أيام من وفاته،" قال جونا. "ويقول البعض إنه كان يهذي. ويقول آخرون إنه كان شارد الذهن. ولكن أيّاً يكن الأمر الذي تعلّمه فعلاً في المكتبة، فقد أبقاه لنفسه. ومع ذلك، هناك حقيقة واحدة واضحة. فقد تبدّلت سياسات بن - غوريون وفلسفته بعد العام 1965 بشكل جَذري، إذ بات أقل مَيلاً للقتال وأكثر استعداداً للتصالح. فدعا إلى تقديم تنازلات للعرب. ونسب العديدون هذه الخطوة إلى تقدّمه في السنّ، ولكن الموساد اعتقد أن هذا الموقف مرتبط بأمور أخرى. وهكذا بات بن - غوريون في الواقع عُرضة للشبهات، ولذلك لم يُسمَح له أبداً بدخول المعترَك السياسي مجدّداً. هل يمكنك تصوّر ذلك؟ مؤسس إسرائيل في وضع يائس؟"

"من هو هذا الحارس؟"

هزّ جونا كتفَيه. "لا تذكر الملفات شيئاً. ولكن بالنسبة إلى أولئك الأربعة الذين تلقّوا زيارات، فقد جمع الموساد معلومات عن كل واحد منهم وتصرّف بسرعة. وأيّاً يكن، فإسرائيل لا ترغب في أن يتمكّن أحدٌ من التكلم معهم."

"لهذا السبب يخطط زملاؤك للتخلّص من حدّاد؟"

هزّ جونا موافقاً. "إنهم يخطّطون للأمر بينما نتحدّث."

وكان قد سمع ما يكفي، ولذا انسلّ خارج الحُجرة.

"ماذا عن مكافأتي؟" سأل جونا بسرعة.

فسحب مغلّفاً من جَيبه ورماه له على الطاولة. "يُفترَض بهذا المبلغ أن يجعل حسابنا جارياً. أعلمنا عندما يكون لديك المزيد من المعلومات."

وضع جونا الرشوة في جَيبه. "ستكون أول من يعلم."

ثم أخذ يراقب مُخبره وهو يقف ويتّجه ليس إلى الباب الأمامي بل في اتجاه فسحة توجد خلفها المراحيض. فاعتبر هذا الأمر فرصة مناسبة، لذا تبعه.

ولكنه تمهّل عند باب الحمّام.

فقد كان نصف المطعم مليئاً بالناس، والإضاءة فيه ضعيفة ويعمّه الضجيج، وشاغلو الطاولات غير مهتمّين بما يدور حولهم، منهمكين بالتحدّث بلغات عديدة.

فدخل وأقفل الباب، وعاين المكان بسرعة: حُجَيرتان، ومَغسلة، ومرآة، وضوء أصفر ساطع يشير إلى وجود شخص ما في الحمّام. كان جونا يشغل الحُجَيرة الأولى، وكانت الأخرى شاغرة. فانتزع سابر كميّة من المناشف الورقية وانتظر سماع شطف الماء في المرحاض، ثمّ استلّ سكّيناً من جَيبه.

خرج جونا من الحُجَيرة وهو يُقفل سحّاب سرواله.

فسارع سابر وأغمد السكين في صدر الرجل، وهو يلويه باتجاه الأعلى، ويضغط بيده الأخرى المناشف الورقية بقوّة فوق الجرح. وأخذ يراقب عينَي الإسرائيلي تعبّر عن صدمة عارمة في بادئ الأمر وما لبثا أن غرقتا في سبات. ثم أبقى المناشف في مكانها بينما سحب نَصل سكينه من الجرح. وما لبث جونا أن سقط تدريجياً على الأرض.

استعاد المغلَّف من جَيب الرجل، ثمّ مسح السكّين بسروال جونا. وبسرعة أمسك بذراعي الرجل الميت وسحب الجثة النازفة إلى داخل الحُجَيرة وأسندها إلى المرحاض.

بعد ذلك أقفل الباب وغادر المكان.

في الخارج، أخذ سابر يسير وراء مرشدة سياحية كانت تقود جولة راجلة إلى مدينة راثوس. وكانت المرأة المسنّة تشير إلى جدار المدينة القديمة وتروي تاريخ روثنبرغ الطويل.

فتمهّل وأخذ يصغي إليها. وكانت دقات الأجراس تعلن حلول الساعة الرابعة بعد الظهر.

"إذا نظرتم إلى الساعة في الأعلى، ستشاهدون النافذتَين الدائرتين إلى يمين الوجه ويساره."

التفت الجميع بينما كانت إطارات النوافذ تفتح. وظهر رجل آلي وهو يشرب من كوب معدني كبير بينما كان رجل آلي آخر ينظر إليه. وكانت المرشدة السياحية تتكلم بشكل رتيب عن المعنى التاريخي للحادثة فيما تسمع أصوات آلات التصوير وكاميرات الفيديو وهي تلتقط الصور والمشاهد. ودام الحدث حوالى دقيقتَين. وبينما كان سابر يمشي الهُوَينى مبتعداً، لمح سائحاً يحوّل عدسة آلة التصوير ببراعة عن برج الساعة ويركّزها عليه.

فابتسم له.

لطالما كان تعريض المهام للافتضاح ضرباً من ضروب المجازفة عندما تصبح الخيانة أسلوب حياة. ولحسن الحظ، فقد عرف كل ما هو بحاجة إلى معرفته من جونا، ممّا يفسّر سبب وضع حدّ دائم لتلك المسؤولية. ولكن الإسرائيليين لم يكونوا على عِلم بعد بالاتصال بجونا. وكان شاغل الكرسي الأزرق قد بدا غير مهتمّ، وأوعز إليه بتقديم "عرض مُقنِع. وهذا ما قام به."

لأجل الإسرائيليين ولأجل ألفرد هرمن.

الفصل الثالث والعشرون

لندن

الساعة 2:30 بعد الظهر

انتظر مالون جورج حدّاد لينهي شرحه. وكان صديقه القديم يُطيل الكلام.

"وضعت بحثاً قبل ست سنوات،" قال حدّاد. "وكان يدور حول نظرية كنت قد عملتُ عليها، وهي تتعلق بالطريقة التي ترجم بها العهد القديم من اللغة العبرية القديمة."

ثم أخبرهما حدّاد عن النُّسخة اليونانية للعهد القديم التي وُضعت بين القرنَين الثالث والأول قبل المسيح، وهي الترجمة الأكثر اكتمالاً للعهد القديم إلى اليونانية والتي أُنجزت في مكتبة الإسكندرية. ووصف لهما بعد ذلك نُسخة سيناء للكتاب المقدّس، وهو مخطوط للعهدَين القديم والجديد يعود للقرن الرابع بعد المسيح، وقد استخدمه البحّاثة فيما بعد للتثبّت من نصوص أخرى في الكتاب المقدّس، عِلماً أن لا أحد يعرف ما إذا كان صحيحاً أم لا. كما وصف النسخة اللاتينية للكتاب المقدّس التي أنجزها القديس جيروم في الوقت نفسه تقريباً، وهي الترجمة الأولى من العبرية إلى اللاتينية مباشَرةً، وقد صدرت نسخات مُنقَّحة في القرن السادس عشر والثامن عشر والعشرين بالاستناد إليها.

"حتى أن مارتن لوثر عمل على النسخة اللاتينية للكتاب المقدّس بدون إتقان، مُزيلاً أجزاء منها بما يتطابق ومع إيمانه اللوثري. فلحق بكامل المعنى لتلك الترجمة تشوّش كبير. وقد أدّت وجهات نظر عديدة إلى تبديل الرسالة الكامنة في هذه النسخة.

"وبالنسبة إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدّس التي تمّت بأمر من الملك

جايمس الأول، يعتبر العديدون أنها تحتوي على كلمات أصليّة، ولكنها وُضعت في القرن السابع عشر انطلاقاً من ترجمة للنسخة اللاتينية إلى الإنكليزية. ولم يطّلع أولئك المترجمون أبداً على النسخة العبريّة الأصلية، ولو فعلوا، لما تمكّنوا على الأرجح من فهمها. إن الكتاب المقدّس كما نعرفه اليوم، يا كوتون، هو خمس ترجمات لغوية لأوّل نُسخة وُضِعت على الإطلاق. واعتُبرت الترجمة الإنكليزية مُعتمَدة وأصليّة دون أن يعني ذلك أنها حقيقية، أو صحيحة، أو حتى منطبقة على الواقع."

"هل هناك أي كتب مقدّسة بالعبرية؟" سألت بام.

هزّ حدّاد رأسه مؤكّداً الأمر. "النسخة الأقدم المُحتفَظ بها حتى اليوم هي نسخة حلب (ألبيبو كودكس) التي نجت من التدمير الذي لحق بسوريا عام 1948. ولكنها مخطوط عائد للقرن العاشر بعد المسيح وُضع بعد حوالى ألفَي عام من النص الأصلي دون أن تُعرف اللغة التي نُقل عنها."

وكان مالون قد رأى ذلك المخطوط المصنوع من ورق الرَّق الصلب الهش المائل إلى الصُفرة والمكتوب بحبر بنّي باهت في المكتبة الوطنية اليهودية في القدس.

"في بحثي،" قال حدّاد، "تبنّيت فرضيّة تقوم على كيفيّة تمكّن بعض المخطوطات من المساعدة على حلّ هذه المسائل. ونحن نعلم أن الفلاسفة القدماء قد درسوا العهد القديم في مكتبة الإسكندرية، وهم رجال يفهمون العبرية القديمة بالفعل. ونعلم أيضاً أنهم كتبوا معبّرين عن أفكارهم. وهم يُعتَبرون مراجع لهذه المؤلّفات والاقتباسات والمقاطع في المخطوطات التي ما زالت موجودة، ولكن النصوص الأصلية فُقدت لسوء الحظ. وإضافةً إلى ذلك، من الممكن وجود نصوص يهودية قديمة؛ فنحن نعلم أن المكتبة تتضمّن الكثير منها. ولكن في مراحل لاحقة من التاريخ أصبح الدمار الشامل للكتابات اليهودية شائعاً، ولا سيّما العهد القديم المكتوب باللغة العبرية. فقد أحرقت محاكم التفتيش وحدها اثنتَي عشرة ألف نسخة من التلمود. ولا شك في أن دراسة إحدى هذه النسخ قد تكون حاسمة لإزالة أية شكوك."

"ما الفائدة من ذلك؟" سألت بام.

"فائدة كبيرة،" قال حدّاد. "لا سيّما إذا كانت النسخة مغلوطة."

"من أي ناحية؟" سأل مالون وقد بدأ يفقد صبره.

"قيام موسى بشَقّ البحر الأحمر؛ والخروج؛ والتكوين؛ وداود وسليمان. منذ القرن الثامن عشر، قام علماء الآثار بالتنقيب في الأرض المقدّسة بطريقة انتقامية، لا لشيء سوى لإثبات أن الكتاب المقدّس هو واقع تاريخي. ومع ذلك، لم يتمّ اكتشاف أي قُصاصة كدليل مادّي يُثبت أي شيء في العهد القديم. وسفر الخروج خير مثال على ذلك. فهو يزعم أن آلاف الإسرائيليين شقّوا طريقهم عبر صحراء سيناء، ونصبوا مضارب خيامهم في أماكن يحدّد الكتاب المقدّس مواقعها بصفة خاصة، وهي أماكن ما يزال بالإمكان العثور عليها في الوقت الحاضر. ولكن لم يتمّ العثور على أي كِسرة من خزَف، أو سِوار، أو أي شيء يعود لتلك الحقبة من الزمن يؤكّد حدوث الخروج. وهذا الغياب التام للقرائن حدث أيضاً عندما حاول علم الآثار إثبات وقوع أحداث أخرى بالحُجج ذُكرت في الكتاب المقدّس. ألا تعتبران ذلك أمراً غريباً؟ أفلا يكون هناك أثر باقٍ لحادث واحد على الأقل يصفه العهد القديم ما يزال يقبع في مكان ما تحت الأرض؟"

كان مالون يعلم أن حدّاد، وعلى غرار الكثير من الأشخاص، يؤمن بالكتاب المقدّس من منطلَق تاريخي فحسب. وكانت المدرسة الفكريّة تلك تعتقد بوجود مقدار معيَّن، ولو ضئيل، من الحقيقة فيه. وكان لمالون شكوكه أيضاً؛ فانطلاقاً من قراءاته الخاصة، انتهى إلى أن أولئك الذين دافعوا عن الرواية كتاريخ كانت استنتاجاتهم قائمة على اعتبارات دينيّة أكثر منها علميّة.

ولكن مالون لم يُدرك بعد المغزى من حديث حدّاد.

"جورج، قلتَ لي كل ذلك قبل الآن ووافقتك الرأي. أريد أن أعرف ما هو الأمر الهام لدرجة تعريض حياتك للخطر؟"

وقف حدّاد واقتادهما إلى حيث الخرائط تزيّن الجدران. "لقد أمضيت السنوات الخمس الماضية أجمع هذه الخرائط. لم يكن الأمر سهلاً. وأخجل أن أقول إنني اضطررت لسرقة القليل منها."

"من أين؟" سألت بام.

"من المكتبات بصفة رئيسية. فمعظمها لا يسمح باستنساخ الكتب النادرة. وإضافةً إلى ذلك، فأنت تفقد في النسخة تفاصيل معيَّنة، والتفاصيل هي التي تهمّ."

ثم تقدّم حدّاد نحو خارطة لدولة إسرائيل الحديثة. "عندما اقتُطعت الأرض

عام 1948 وأُعطيَ الصهاينة حصّتهم المزعومة، كان هناك حديث كثير عن خارطة الوعد الإبراهيمي. عهد الله أن تكون هذه المنطقة ـ" وضغط حدّاد بإصبعه على الخارطة، "ـ هذه الأرض بالتحديد لإبراهام كما يُزعَم."

وأخذ مالون يلاحظ الحدود بعناية.

"كَوني قادراً على فهم العبرية القديمة منحني إمكانيّة معيَّنة للنفاذ إلى عمق الأشياء. وربما أكثر من اللازم. فمنذ حوالى ثلاثين عاماً، لاحظت أمراً ما مثيراً للاهتمام. ولكن لتقدير ذلك الكَشف حق قَدْره، فمن المهم تقدير إبراهيم."

كانت القصة مألوفة لمالون.

"يذكر سفر التكوين،" قال حدّاد، "حدثاً أثّر في تاريخ العالم بعمق. وقد يكون اليوم الأكثر أهمية في مجمل التاريخ البشري."

وأخذ مالون يستمع إلى حدّاد وهو يتكلّم عن إبراهيم الذي انتقل من بلاد ما بين النهرين إلى كنعان، هائماً بين الشعوب ومتّبعاً أوامر الله بإيمان. وكانت زوجته سارة عاقراً واقترحت في النهاية على إبراهيم أن يتزوج خادمتها المفضّلة، وكانت جارية مصرية تُدعى هاجَر، وقد لازمتهما منذ قيام الفرعون بطرد العشيرة من مصر.

"كانت ولادة إسماعيل،" قال حدّاد، "الابن البِكر لإبراهيم من هاجَر مصدر حرج في القرن السابع بعد المسيح عندما نشأ دين جديد في شبه الجزيرة العربية، وهو الإسلام. فالقرآن يدعو إسماعيل 'رسولاً ونبياً'. وكان الأكثر مَرضاة عنه في نظر ربّه. ويظهر اسم إبراهيم في خمسة وعشرين سورة من سور القرآن المئة والأربع عشرة. وحتى يومنا هذا، فإن إبراهيم وإسماعيل هما اسمان شائعان لدى المسلمين. ويأمر القرآن نفسه المسلمين باتّباع دين إبراهيم."

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾.

"جيد، يا كوتون. أرى أنك درست قرآنك منذ حديثنا الأخير."

فابتسم. "قرأته مرةً واحدة أو مرتَين. إنه مادة رائعة."

"يذكر القرآن بوضوح أن إبراهيم وإسماعيل بنيا أساس بيت الله الحرام."

"الكَعبَة،" قالت بام. "المقام الأكثر قدسيّة في الإسلام."

بدا مالون متأثراً بهذا الأمر. "متى اطّلعتِ على الإسلام؟"

"لم أطّلع، ولكنني أشاهد قناة التاريخ التلفزيونية."

ولفتته ابتسامتها العريضة.

"الكعبة موجودة في مكة. وعلى المسلمين البالغين أن يحجّوا إلى ذلك المكان."

"يعتبر العرب، ولا سيما العرب المسلمون، أنهم متحدّرون من إسماعيل،" قال حدّاد.

كان مالون يدرك ما الذي سيلي بعد ذلك. فبعد خمسة عشر عاماً من ولادة إسماعيل، قال الله لابرام إنه سيكون أباً لأمم كثيرة. طلب منه أولاً تغيير اسمه إلى إبراهيم واسم ساراي إلى سارة. وقال الله بعد ذلك إن سارة ستلد له ابناً. تعجّب إبراهيم وسارة من هذا الأمر، ولكن بعد عام من ذلك ولد إسحق.

"قد يكون يوم المولد ذاك اليوم الأكثر أهميّة في تاريخ البشرية،" قال حدّاد. "فقد تبدّل كل شيء منذ ذلك الحين. فهناك أوجه اختلاف عديدة حول أبرام بين الكتاب المقدّس والقرآن. فكل منهما يروي قصة مختلفة. ولكن بحسب الكتاب المقدّس، فإن الله قال لابرام إن كل الأرض المحيطة به، أرض كنعان، ستعود لإبراهيم ولوريثه إسحق."

وكان مالون يعرف الجزء الباقي. فقد ظهر الله مجدّداً ليعقوب ابن إسحق وكرّر وعده بالأرض، قائلاً إنه من خلال يعقوب سيكون هناك شعب يعود إلى أرض كنعان إلى الأبد. وطُلب من يعقوب أن يبدّل اسمه إلى إسرائيل. ونمت ذُرّيّة أبناء يعقوب الاثني عشر في قبائل منفصلة يجمعهم الوعد الذي قطعه الله على إبراهيم، وأسّس كل منهم عائلاته الخاصة به وأصبحوا إذاك أسباط إسرائيل الاثني عشر.

"إن إبراهيم هو جَدّ الديانات الرئيسية الثلاث في العالم،" قال حدّاد. "وتعود جذور الإسلام واليهودية والمسيحية إليه، عِلماً أن قصة حياته تختلف بين ديانة وأخرى. والنزاع كلّه في الشرق الأوسط، والذي دام آلاف السنين، هو ببساطة صراع حول صحة أيّ من هذه الروايات الثلاث وحول أيّ من الديانات الثلاث له الحق الإلهي بالأرض. العرب من خلال إسماعيل؛ واليهود عبر إسحق؛ والمسيحيون بسبب المسيح."

وتذكّر مالون الكتاب المقدّس وقال، "*قال الرب لأبرام: انطلق من أرضك، وعشيرتك، وبيت أبيك إلى الأرض التي أُريك. وأنا أجعلك أُمّة كبيرة وأباركك وأُعظّم اسمك، وتكون بَرَكة. وأبارك مبارِكيك، والعن لاعنيك، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض.*"

"إنك تقول هذه الكلمات باقتناع،" قالت بام.

"إنّها تحمل مغزى ما،" قال حدّاد. "يعتقد اليهود أنها تعطيهم ملكيّة فلسطين بشكل حصري. لقد أمضيت معظم حياتي البالغة أدرس الكتاب المقدّس. هو كتاب مثير للدهشة، وما يفرّقه عن الروايات الملحميّة الأخرى أمر بسيط. فليس فيه أي شيء صوفي أو سحري، بل يركّز عِوَضاً عن ذلك على المسؤولية البشرية."

"أنت مؤمن؟" سألت بام.

هزّ حدّاد رأسه. "بالدين؟ لا. فقد رأيت استعمالاته بوضوح شديد. بالله؟ إنها مسألة أخرى. ولكنني خبرت إغفاله. لقد وُلدت مسلماً، وكان والدي مسلماً مثلما كان والده. ولكن بعد حرب العام 1948، ألمّ بي أمر ما: لقد شُغِفت بالكتاب المقدّس وأردت قراءته بصورته الأصلية لمعرفة ما يعنيه بالضبط."

"لمَ يريد الإسرائيليون موتك؟" سأل مالون.

"إنّهم ذُرِّية إبراهيم. وهم الذين قال لهم الله إنه سيباركهم - ويلعن أعداءهم. وقد مات الملايين منهم على مرّ القرون، والآلاف في السنوات الخمسين الماضية، ليس إلا لإثبات صحة تلك الكلمات فحسب. لقد تورّطتُ مؤخّراً يا مالون في سجال. فقد أخبرني رجل متعجرف في حانة محليّة بأن إسرائيل تملك الحق المطلَق بالوجود. وأعطاني ستة أسباب ترتكز بشكل منفصل على علم الآثار، والتاريخ، والإمكانية العلمية، والعامل الإنساني، والدفاع، والأكثر أهميّة بالنسبة إليه منح الحق." وتوقف حدّاد مؤقّتاً. "منح الحق، يا كوتون. منح الحق كما ورد في الكتاب المقدّس؛ الوعد الإبراهيمي؛ أرض الله الذي منحها لشعب إسرائيل، وهو أمر تعبّر عنه كلمات سفر التكوين بكل ما تحمله من مجد."

وكان مالون ينتظر.

"ماذا لو كانت كل معلوماتنا خاطئة؟" وأخذ حدّاد يحدّق في خارطة إسرائيل الموجودة إلى جانب خارطة أخرى للدول العربية.

"أكمل،" قال صوت جديد.

واستداروا جميعهم.

عند باب المدخل كان يقف رجل قصير القامة، يضع نظّارات، وفي فروة رأسه فرق للشّعر تلاشت معالمه. وبجانبه امرأة في أواسط العقد الرابع من العمر، قصيرة القامة، وذات بشرة قاتمة اللون. وكانا يحملان أسلحة مزوّدة بكواتم للصوت. لاحظ مالون على الفَور منشأ الأسلحة وطرازها وعرف لصالح من يعمل هاذان الشخصان.

إسرائيل.

الفصل الرابع والعشرون

واشنطن، العاصمة

الساعة 9:50 قبل الظهر

أنهت ستيفاني تناول فطورها وأشارت للنادل لكي يجلب لها الفاتورة. وكانت جالسة في المطعم القريب من مستديرة دوبون غير البعيد عن فندقها. وكانت وكالة ماجيلان بيليت في حالة استنفار تام، وها هم سبعة من عملائها الاثنَي عشر يساعدونها بشكل مباشَر. فقد شكّل مقتل لي دورانت حافزاً لهم جميعاً، ولكن جهودها كانت مَشوبة بالمخاطر. إذ إن وكالات أخرى للاستخبارات سوف تعلم بسرعة ما الذي كانت تقوم به، ممّا يعني أن لاري دالي سوف يكون في إثرها. ليذهب إلى الجحيم معهم، فمالون بحاجة إليها، ولم تكن لتخذله ثانيةً.

فسدّدَت قيمة الفاتورة واستقلت سيارة أنزلتها بعد خمس عشرة دقيقة في الشارع السابع عشر المجاور للمتنزّه الوطني. كان النهار ساطعاً ومُشمساً، والمرأة التي اتصلت بها منذ ساعتَين تجلس على مقعد طويل مظلّل غير بعيد عن النُّصُب التّذكاري للحرب العالمية الثانية. كانت شقراء طويلة الساقَين، قويّة البِنية، وتتمتّع على حد علم ستيفاني بذكاء يدعو المرء للتعاطي معها باحتراس. وكانت ستيفاني قد تعرفت إلى المدعوّة هيذر ديكسون منذ عقد من الزمن تقريباً، كانت تحمل شهرة زوج لم تدُم علاقتها به طويلاً. وكانت ديكسون مواطنة إسرائيلية مُلحَقة بالبِعثة الدبلوماسية في واشنطن وتابعة لفريق الموساد في أميركا الشمالية. وكانتا قد عملتا معاً، وضد بعضهما البعض، الأمر الذي يضعه الإسرائيليون في خانة التكافؤ. وكانت ستيفاني تأمل في أن يشهد هذا اليوم مغامرة ودّيّة.

"إني مسرورة برؤيتك،" قالت لها وهي تجلس.

كانت ديكسون على عادتها أنيقة الملبَس، ترتدي بنطلوناً باللونَين البنّي والذهبيّ يحمل نقشات مربّعة صغيرة، وقميصاً بيضاء، وصُدرة من قماش أسود ذي عُقَد.

"لقد بَدَوتِ قلقة على الهاتف."

"إني كذلك بالفعل. أريد أن أعرف سبب اهتمام حكومتك بجورج حدّاد."

وسرعان ما تلاشت النظرة المحدّقة غير المعبِّرة التي تُميّز ضابط المخابرات عن وجه ديكسون الجذّاب. "كنتِ فضولية ومنهمكة بالبحث عن التفاصيل."

"على غرار جماعتك. فقد كثر الحديث عن حدّاد في الأيام القليلة الماضية." وكانت في الواقع في ظرف عسير لأن لي دورانت كان صلتها بالإسرائيليين، ولم يحظَ بفرصة إبلاغها بكل ما علِم به.

"ما هي المصلحة الأميركية؟" سألت ديكسون.

"منذ خمس سنوات، كاد أحد عملائي يلاقي حَتفه بسبب حدّاد."

"ولذلك خبّأتم الفلسطيني بعد ذلك، واحتفظتم به، ولم تُزعجوا أنفسكم بإطلاع حلفائكم على الأمر."

وأخذ النقاش يحتدم. "ولم تُزعجوا أنفسكم بإخبارنا بأنكم حاولتم اغتيال الرجل ومعه عميلنا."

"هذا أمر لا عِلم لي به البتّة. إنها وسيلة لتضليلنا. ولكنني أعلم أن حدّاد ظهر مجدَّداً، ونحن نريده."

"ونحن كذلك."

"لمَ أنتم مهتمّون به إلى هذا الحدّ؟"

لم تكن قادرة على معرفة ما إذا كانت ديكسون قد سلّمت بالأمر الواقع أم أنها تماطل.

"أخبريني أنت، يا هيِزر. لماذا جُرفت قرى بأكملها منذ خمس سنوات في المنطقة العربية؟ ولماذا يركّز الموساد على حدّاد؟"

واخترقت نظرتها المحدّقة صديقتها.

"لماذا كان موته أمراً مطلوباً؟"



سلّم مالون بحتميّة القدَر بهدوء. كانت هناك قاعدة واحدة من الواجب احترامها في العمل المخابراتي: *'لا تعبثوا مع الإسرائيليين'*. وكان مالون قد انتهك تلك الحكمة عندما جعل إسرائيل تعتقد بأن حدّاد لقي حتفه في انفجار المقهى. وهو يعلم الآن بأنهم يدركون ذلك. وكان لي دورانت قد قال إن ردات فعل الإسرائيليين مفرطة، ولكنه لم يقل أي شيء عن التوصل إلى تسوية حيال التكتّم عن حدّاد، وإلّا لما كان ليسمح أبداً لبام بمرافقته.

"يُفترَض بك في الواقع أن تقفل بابك،" قال الدخيل. "قد يدخل أشخاص من كافة الأنواع."

"هل تحمل اسماً؟" سأل مالون.

"ادعُني آدم، وهي حوّاء."

"كُنيات مثيرة للاهتمام لفرقة اغتيال إسرائيلية."

"ماذا تعني؟" سألت بام. "اغتيال؟"

فالتفت إليها. "لقد جاؤوا ليُنهوا ما بدأوا به منذ خمس سنوات." واستدار ناحية حدّاد الذي لم يبدُ على وجهه الخوف مُطلَقاً. "ما الذي يريدونه للحفاظ على هدوئهما؟"

"الحقيقة،" قال حدّاد.

"لا أعلم شيئاً عن ذلك الأمر،" قال آدم. "لست مهتمّاً بالسياسة. لقد تمّ استخدامي لتقديم المساعدة ليس إلّا. تقضي أوامري بالإلغاء. إنك تفهم ذلك، يا مالون. لقد مارستَ ذات مرّة هذه المهنة."

نعم، كان بإمكانه تفهّم الأمر، ولكن بام لم تكن كذلك.

"كلّكم مجانين،" قالت بام. "تتكلّمون عن القتل وكأنه جزء من المهنة."

"فعلاً، إنها مهنتي الوحيدة،" قال آدم.

وكان مالون قد تعلّم عندما بدأ عمله في وكالة ماجيلان بيليت أن النجاة من

الموت عدة مرات منوط باتخاذ الخطوات المناسبة في الوقت المناسب. وفيما كان يحدّق بصديقه القديم، وهو محارب محنّك، أدرك أن حدّاد يعلم أن الوقت قد حان للاختيار.

"أنا آسف،" همس مالون.

"وأنا كذلك، يا كوتون. ولكنني اتخذت قراري عندما أجريت الاتصالات الهاتفية."

هل سمع جيّداً؟ "اتصالات هاتفية؟"

"اتصال واحد منذ وقت قصير، والآخران مؤخّراً، بالضفة الغربية."

"هذا تصرّف أحمق، يا جورج."

"ربما، ولكنني كنت أعلم أنك ستأتي."

"سعيد لأنك علمت، ولكني لم أعلم بأمر اتصالاتك."

وازدادت نظرة حدّاد توتّراً. "لقد علّمتني الكثير. وأتذكر كل درس من الدروس، وقد التزمت بهذه الدروس بدقّة حتى الأيام القليلة الماضية، ولا سيّما تلك التي تتناول وسائل الوقاية، وهي التي تهمّ في الواقع." ثم أصبح الصوت خافتاً وغير معبّر.

"كان يُفترَض بك الاتصال بي في بادئ الأمر."

هزّ حدّاد رأسه. "أدين بذلك للحارس الذي أطلقتُ النار عليه وأرديتُه. إنني أسدّد دَيني."

"يا له من تناقض،" قال آدم. "فلسطيني شريف."

"وإسرائيلي قاتل،" قال حدّاد. "ولكن هذا ما نحن عليه."

كان مالون يدرس الاحتمالات في عقله. وكان عليه أن يقوم بأمر ما، ولكن يبدو أن حدّاد شعر بمكيدته. "لقد قمتَ بكل ما تقدر عليه، أقلّه حتى الآن." وأومأ إليه حدّاد وقال، "اعتنِ بها."

"كوتون، لا يمكنك أن تدعهم يقتلونه بكل بساطة،" همست بام وقد بدا اليأس في صوتها.

"ولكن يمكنه ذلك،" قال حدّاد مع مسحة من المرارة في نبرة صوته. ومن ثمّ، حملَق الفلسطيني بآدم. "هل لي بتلاوة صلاتي الأخيرة؟"

فأومأ آدم بمسدّسه. "من أكون لأرفض لك طلباً منطقياً مماثلاً."

فاتجه حدّاد نحو إحدى الخزائن في الجدار ومدّ يده إلى دُرج. "لديّ وسادة في داخله أركع عليها. هل يمكنني إخراجها؟"

فهزّ آدم كتفَيه غير ممانع.

فتح حدّاد الدُّرج ببطء واستخدم يدَيه الاثنتَين لسحب وسادة قرمزيّة اللون. وبعدئذ اقترب الرجل المسنّ من إحدى النوافذ، وكان مالون يراقبه عندما أسقط الوسادة على الأرض.

وظهر مسدّس للعيان.

كان حدّاد يمسك به بإحكام بيده اليمنى.



انتظرت ستيفاني إجابة عن سؤالها.

"يشكّل حدّاد تهديداً لأمن إسرائيل،" قالت ديكسون. "لقد كان كذلك منذ خمس سنوات، وما زال على هذه الحال حتى اليوم."

"هل ترغبين في الشرح؟"

"لمَ لا تطرحين السؤال على جماعتك؟"

وكانت قد أملت في ألّا يبلغ طرح الأسئلة هذه المرحلة، ولكنها قرّرت أن تكون صادقة. "هناك انقسام."

"وأين أنت من هذا الانقسام؟"

"لديّ عميل سابق يواجه مشاكل. وأرغب في مساعدته."

"كوتون مالون. نعلم ذلك. ولكن مالون كان يعلم بالأمور التي أقحم نفسه فيها عندما خبّأ حدّاد."

"لكن ابنه لم يكن يعلم."

هزّت ديكسون كتفَيها. "العديد من أصدقائي ماتوا بسبب الإرهابيين."

"إنك تتصنّعين الفضيلة قليلاً، أليس كذلك؟"

"لا أظن ذلك. لم يترك لنا الفلسطينيون إلّا خياراً محدوداً لكيفيّة التعاطي معهم."

"إنهم لا يفعلون شيئاً مختلفاً عمّا قام به اليهود عام 1948." قالت وهي تدرك أنها غير قادرة على مقاومة رغبتها في التعبير عن رأيها.

وابتسمت ديكسون بتكلّف. "لو كنت أعلم أننا سنتجادل ثانيةً لما أتيت."

كانت ستيفاني تعلم أن ديكسون لا تريد سماع أي شيء عن الأعمال الإرهابية التي حدثت في أواخر الأربعينيات، والتي كانت بمعظمها يهوديّة أكثر منها عربية في الأصل. ولكنها لم تكن تنوي الظهور أمام صديقتها بمظهر الضعف. "يمكننا التحدث عن فندق الملك داود ثانيةً إذا أردت."

كان هذا الفندق الموجود في القدس قد استخدمه البريطانيون مقرّاً لقواتهم المسلّحة ومقراً للتحقيق الجنائي. وبعد أن تعرّضت قوة يهودية محليّة لغارات ونُقلت مستندات حساسة إلى الفندق، ردّ المقاتلون بوضع متفجّرة فيه في تموز/ يوليو 1946. وقد سقط في الانفجار واحد وتسعون قتيلاً وخمسة وأربعون جريحاً، بمن فيهم خمسة عشر قتيلاً يهودياً.

"لقد حذّرنا البريطانيين،" قالت ديكسون. "لم تكن غلطتنا إذا اختاروا تجاهل الأمر."

"هل يبدّل تحذيرهم جوهر السلوك؟" قالت. "كان عملاً إرهابياً ـ يهود ضد بريطانيين ـ وسيلة لفرض برنامج عملكم. أراد اليهود إخراج البريطانيين والعرب من فلسطين، فاستخدموا كل تكتيك متوفر لديهم لتنفيذ مآربهم. إنه الأسلوب نفسه الذي اعتمده الفلسطينيون طوال عقود من الزمن."

فهزّت ديكسون رأسها. "سئمت من سماع ذلك الهُراء. النكبة دُعابة. غادر العرب فلسطين في الأربعينيات طَوعاً لأنهم كانوا خائفين حتى الموت. وأُصيب الأثرياء بالذُعر، وغادر الباقون بعد أن طلب القادة العرب منهم ذلك. لقد اعتقدوا كلهم فعلاً بأنه سيتمّ سحقنا في غضون أسابيع قليلة. والذين غادروا قطعوا أميالاً قليلة

في اتجاه الدول العربية المجاورة. ولم يتكلّم أحد أبداً، بمن فيهم أنتم، عن اليهود الذين أُجبروا على مغادرة تلك الدول العربية نفسها." وهزّت ديكسون كتفَيها. "فالأمر أشبه بالقول: ماذا بعد؟ ومن يُبالي بهم؟ ولكن الأمر مختلف بالنسبة إلى العرب المساكين الذين يُرثى لحالهم. يا للمأساة."

"استولي على أرض إنسان وسيقاتلك إلى الأبد."

"لم نأخذ شيئاً. لقد اشترينا الأرض، وكانت بمعظمها مستنقعات غير محروثة وأماكن مليئة بشُجَيرات ملتفَّة لم يكن يرغب فيها أحد. وبالمناسبة، إن ثمانين في المئة من هؤلاء العرب الذين غادروا كانوا مزارعين، بَنْو رُحَّل، أو من البَدو. أما مالكو الأراضي الذين أثاروا الكثير من الصَّخَب فكانوا يعيشون في بيروت والقاهرة ولندن."

كانت ستيفاني قد سمعت ذلك من قَبل. "إن خط عمل الحزب الإسرائيلي لا يتغيّر."

"كل ما كان على العرب القيام به،" قالت ديكسون، "هو قبول القرار الذي صدر عن الأمم المتحدة عام 1947 والذي يدعو إلى قيام دولتَين، إحداهما عربية والأخرى يهودية، ولو حدث ذلك لربح الجميع. ولكن لا، وألف لا، لا تسوية. كان الترحيل وما زال شرطاً مُسبَقاً لأي مناقشة، وهذا ما لن يحدث. فإسرائيل واقع لن يزول. والمزعج في الأمر ما يكنّه الجميع من مشاعر للعرب. إنهم يُقيمون في مخيّمات كلاجئين لأن القيادة العربية تحب ذلك. ولو لم يُقيموا هناك لواجهت هذه القيادة مشكلة. ولكن بدلاً من ذلك، فإنهم يستخدمون المخيّمات وأماكن الرِزق وسيلة لإحراج العالم بما قام به عام 1948. ومع ذلك، لم يقُم أحد، بمن فيهم أميركا، بمعاقبتهم أبداً."

"في الوقت الحاضر، يا هيذر، لست مهتمّة إلا بابن كوتون مالون وبجورج حدّاد."

"والبيت الأبيض كذلك. لقد علمت جماعتنا بأنك تتدخلين في مسألة حدّاد. يقول لاري دالي إنك شوكة في الخاصرة."

"كان من المفترَض أن يعلم."

"لا تريد تل أبيب أي تدخلٍ من أحد."

فجأة شعرت ستيفاني بأنها نادمة على قرارها بلقاء ديكسون. ولكنها كانت مضطرة إلى طرح السؤال التالي، "لمَ أنتم مهتمّون بالأمر لهذه الدرجة؟ أخبريني وقد أتخلّى عن الموضوع."

فضحكت ديكسون في سرّها. "هذه خدعة جيدة. تُرى، هل انطلت على أحد في السابق؟"

"اعتقدت أنها قد تصلح في حالتنا هذه." وكانت قد أمِلت في أن يكون لصداقتهما أثر إيجابي على الوضع.

ألقت ديكسون نظرة سريعة حولها على الممرات الإسمنتيّة. كان الناس يمشون الهُوَينى في المتنزّه، مستمتعين بيومهم. "هذا الأمر خطير، يا ستيفاني."

"ما مدى خطورته؟"

دسّت ديكسون يدها وراء ظهرها واستلّت مسدّساً.

"بهذه الخطورة."

الفصل الخامس والعشرون

لندن

رأى مالون المسدس في يد حدّاد وأدرك أن صديقه كان قد اتخذ قراراً بأن يكون هذا الموقف موقفه الأخير. لا اختباء بعد اليوم، فقد حان وقت التغلّب على مخاوفه.

أطلق حدّاد النار أولاً، فاصابت الرصاصة صدر حوّاء وأسقطت المرأة الشابة أرضاً، وجرحها ينزف دماً.

وعندئذ، أطلق آدم النار، فصرخ حدّاد من الألم عندما اخترقت الرصاصة قميصه وفجّرت عموده الفِقْري، ملطّخةً الجدار والخرائط خلفه ببقعٍ قرمزية اللون.

وخرّت ساقا حدّاد، وانهار أرضاً فاغر الفاه دون أن يصدر هذا الرجل المسنّ أي صوت.

وصرخت بام بصوت حاد جداً.

وبدا أن الغرفة قد أفرغت من الهواء، وشعر مالون بأنه تحت رحمة قلب قاسٍ.

فالتفت إلى آدم الذي أخفض سلاحه.

"جئت لقتله، هذا كل شيء،" قال آدم، وقد خبت النبرة المعتدلة في صوته. "لا تعتبر حكومتي أنها تواجه مشكلة معك، يا مالون، بالرغم من تضليلك لنا. ولكنك كنت تقوم بعملك. لذا دع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي."

"هذا لطف كبير منك."

"أنا لست قاتلاً، بل أنفّذ عمليات اغتيال فقط."

"وماذا عنها؟" سأل، مشيراً إلى جثّة حوّاء.

"لا شيء يمكنني القيام به. تماماً مثلما أنك غير قادر على القيام بأي شيء حياله. هناك ثمن يجب دفعه لقاء ارتكاب أخطاء."

لم يقل مالون شيئاً على الرغم من أنه كان مستاء نوعاً ما ممّا أصابه من ذُعر وكَرْب. لقد سُمعت الطلقات بالتأكيد وتمّ استدعاء الشرطة.

استدار الإسرائيلي وتوارى عن الأنظار.

وانحسر تدريجياً صوت وقع خطاه المتّجهة إلى أسفل الدرَج.

بدت بام متجمّدة في مكانها وهي تحدّق بجثّة حدّاد، وكان ما يزال فم الرجل المسنّ مفتوحاً في احتجاج أخير. وكان مالون واقفاً أيضاً. فتبادلا النظرات دون أن يتفوّها بأي كلمة. كان قادراً تقريباً على فهم طريقة تفكير الإسرائيلي. فقد كان بالفعل مأجوراً لتنفيذ عمليات اغتيال، وظّفته دولة ذات سيادة ومنحته سلطة القتل. ولكن هذا الأحمق يبقى قاتلاً.

لقد مات جورج حدّاد.

وهناك ثمن يجب دفعه لقاء ذلك أيضاً.

وانتابته أفكار شرّيرة. فانحنى، وأخذ مسدس حدّاد، ومن ثمّ وقف واتجه نحو الباب.

"ابقي هنا،" قال لبام.

"ماذا ستفعل؟"

"سأقتل ذلك الأحمق."



كانت ستيفاني مُربكة أكثر منها خائفة لرؤية المسدس. "من الواضح يا هيِزر أن القواعد قد تبدّلت. ظننت أننا حلفاء."

"هذا هو الأمر المُضحك في العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية. يصعب في بعض الأحيان معرفة الجانب الذي نقف فيه."

"من الواضح أنك تشعرين ببعض الحريّة منذ اتصال البيت الأبيض."

"يكون الأمر ساراً على الدوام عندما يكون الأميركيون في نزاع."

"يريد لاري دالي حدّاد لنفسه. وأنت تدركين ذلك، أليس كذلك؟ إنكم تضيّعون وقتكم هباءً بينما يعمل عملاؤنا على العثور عليه."

"حظاً سعيداً. نحن ومالون فقط نعرف مكانه."

لم يرُق لستيفاني ما وقع على مسامعها. يجب وضع حدّ لهذا الأمر. فمنذ أن جلست وأصابع يدها اليمنى ملقاة على ساقها، ورؤوس أصابعها فوق زرّ جهاز اللاسلكي المخبّأ داخل بنطلونها الفضفاض. "الأمر يعتمد على ما إذا كانت أجهزة المخابرات الأميركية تملك مصدر معلومات داخل منظمتكم أم لا."

"هذه العملية تجري بسرّيّة تامّة، لذا أشك في أنه ستكون هناك أية تسريبات. إضافةً إلى ذلك، من المرجّح أن حدّاداً أصبح في عِداد الأموات الآن. فقد أُرسل عملاؤنا لقتله منذ ساعات."

أشارت ستيفاني بيدها اليسرى إلى المسدس في حين أبقت يدها اليمنى ثابتة على ساقها. "ما الغرض من هذا العرض؟"

"لسوء الحظ، لقد باتت حكومتك تعتبرك مشكلة."

"عَجَباً، ظننت أن استقالتي ستكون كافية."

"ليس بعد الآن. أعتقد أنه تمّ تحذيرك بعدم التدخل في هذا الأمر، ولكنك استنفرت كل إمكانات وكالة بيليت بخلاف ما طُلِب منك بالطبع."

"لا أتلقّى الأوامر من لاري دالي."

"لكنك تتلقّينها من رئيسه."

وأدركت سريعاً أنها إذا كانت مستهدَفة الآن فإن برنت غرين قد يكون كذلك أيضاً. ولكن قتل المدّعي العام يطرح مزيداً من المشاكل اللوجستية عمّا يستلزمه موتها. وكان البيت الأبيض قد استنتج كما يبدو أن الجثث لا تظهر أبداً في برامج الأخبار صبيحة يوم الأحد. وكانت أصابعها مستعدة للضغط على زرّ الجهاز. "أنت هنا لتقومي بعمل دالي القذر؟"

"لنقل إن مصالحنا متشابهة فحسب. علاوةً على ذلك، نرغب في أن يكون البيت الأبيض مَديناً لنا."

"هل تنوين إطلاق النار عليّ هنا؟"

"لا حاجة لذلك. لديّ بعض الشركاء المستعدّين للقيام بالأمر."

"جماعتك؟"

هزّت رأسها. "من المدهش، يا ستيفاني، أنك تمكّنت من القيام بما حاول السياسيون القيام به طيلة عقود: حمل اليهود والعرب على التعاون. ها هم العرب يعملون معنا في هذه المسألة. يبدو أن لدينا هدفاً مشترَكاً، لذا وضعنا كل خلافاتنا جانباً." وهزّت ديكسون كتفَيها. "هذه المرة فقط."

"وهذا الأمر يزيل أيضاً المشكلة الناجمة عن قيام إسرائيل بقتل أميركي."

حدّقت ديكسون بوجهها ساخرة. "هل تُدركين الفوائد؟ نحن نوجد المشكلة وهم يزيلونها. كلنا نكسب."

"باستثنائي أنا."

"تعرفين القواعد. صديقك اليوم قد يصبح عدوّك غداً، وبالعكس. لإسرائيل قليل من الأصدقاء في هذا العالم، ولكن التهديدات تأتي من كل حَدْب وصَوب. ونحن نقوم بما علينا القيام به."

كانت ستيفاني قد واجهت مسدساً للمرة الأولى عندما كانت تبحث مع مالون عن فرسان الهيكل، وقد عاينت الموت هناك أيضاً. حمداً لله لأنها احتاطت للأمر مُسبَقاً. "افعلي ما عليك القيام به."

ثم ضغطت بسبّابتها اليمنى لإطلاق الإشارة التي يفترض أن تنبّه عملاءها الذين لا يبعدون عنها أكثر من دقيقة.

وكل ما بقي عليها القيام به هو المماطلة.

فجأةً، التفتت عينا ديكسون نحو الأعلى، ثمّ أطبقتهما بينما كان رأسها يهوي إلى الأمام ويغدو جسدها مترهّلاً.

وسقط المسدس من يدها على العشب.

التقطت ستيفاني ديكسون وهي تنهار في اتجاهها، ومن ثمّ رأت سهماً صغيراً من الريش في عُنُق ديكسون.

كانت قد رأت سهماً مماثلاً من قَبل.

فاستدارت بهدوء.

كانت هناك امرأة تقف وراء المقعد على بُعد أقدام قليلة. وكانت طويلة القامة، ولها بشرة بلون جدول ماء موحِل، وشعر طويل قاتم اللون. كانت ترتدي سترة من الكشمير الباهظ الثمن وبنطلوناً من الجينز استقرّ حزامه عند الردفَين، ويظهر من الملابس أنها ذات جسد نحيل جميل المظهر. وكانت تحمل مسدساً هوائياً من طراز ماغنوم بيدها اليسرى.

"أقدّر المساعدة،" قالت ستيفاني، محاولةً إخفاء دهشتها.

"لهذا السبب قدِمت."

وابتسمت كاسيوبيا فيت.



نزل مالون السُلَّم وَثباً في اتجاه الطابق الأرضي. لن يكون من السهل قتل آدم، فقد كان محترفاً.

استمرّ بنزول السلّم درجَتَين درجَتَين وهو يتفحّص مخزن المسدس. كانت ما تزال فيه سبع طلقات متبقّية. وأدرك أن عليه التصرّف باحتراس أكبر. فالإسرائيلي يعلم بالتأكيد أنه سوف يلاحقه. والواقع أن آدم قد تحدّاه لأنه لم يأخذ سلاح حدّاد معه قبل مغادرته. فالمحترفون لا يخلّفون وراءهم هذا النوع من الفُرَص المؤاتية، ولا معنى للتهذيب المِهَني في هذه الحالة. ولا يمكن لمنفّذي عمليات الاغتيال أن يكونوا أقل حِرصاً على آداب السلوك، فهم حراس العمل المخابراتي ويتمّ إرسالهم لإعادة ترتيب الأمور ليس إلّا، والشهود هم جزء من حالة الفوضى التي يتوجّب عليهم إزالتها. إذاً، لمَ لا تشمل عملية إعادة الترتيب كل شيء؟ ربما كان آدم يريد المواجهة؟ فقتل عميل أميركي، سواءً كان متقاعداً أم في أي وضع آخر، لا يمرّ دون عواقب. ولكن إذا هاجم العميل أولاً، فإن الأمر يصبح مختلفاً.

كان عقله مشوَّشاً تماماً عندما وصل إلى الطابق الأرضي، وسبّابته على الزّناد، ويُعدّ نفسه لنِزال.

وانتابته مشاعر مألوفة لديه كان قد اكتشف أمرها منذ أشهر قليلة. وكان قد عقد صُلحاً في فرنسا مع تلك المخاوف عندما أدرك أنه مجرد لاعب وأنه سيكون

كذلك على الدوام بصرف النظر عن كونه متقاعداً. ففي كرونبورغ سلوت في اليوم السابق، كانت بام قد عنّفته لأنه كان بحاجة إلى حياة الصخَب، وأنها وغاري لم يكونا كافيَين له أبداً. كان قد شعر بالإهانة لأن هذا الادّعاء لم يكن صحيحاً. فقد كان بحاجة إلى حياة الصخَب بالفعل، ولكنه كان بالتأكيد قادراً على التوفيق بينها وبين حياته العائلية.

خرج إلى أشعة شمس تشرين الأول/ أكتوبر، وبدت له ساطعة بعد الظلام الذي يكتنف المبنى، وعبر بهدوء الرواق الأمامي القائم عند مدخل المبنى. كان آدم يسير أمامه على بُعد خمسين قدَماً يسير على الرصيف.

فتبعه مالون.

وكانت السيارات متوقّفة على جانبَي الشارع الضيّق، والهدير المستمر لحركة المرور يصدر عن الجادّات الناشطة القائمة عند طرفَي المجمّع السكني. كان الناس يتجوّلون على امتداد الرصيف المقابل.

سيكون التحدث مضيعة للوقت.

لذا رفع سلاحه. ولكن آدم استدار بشكل لولبي وبسرعة.

وانبطح مالون على الرصيف.

ثم سمع أزيز طلق ناري يمرّ بجانبه ويُصيب إحدى السيارات. فتدحرج وأطلق النار في اتجاه آدم. لكن الإسرائيلي كان قد غادر الرصيف بذكاء واستخدم السيارات المتوقّفة غطاءً له.

دحرج مالون جسده في اتجاه الشارع واستقرّ بين سيارتَين.

ثم جثا على ركبتَيه وأمعن النظر عبر الزجاج الأمامي للسيارة، باحثاً عن هدفه. كان آدم مختبئاً أمامه على بُعد عشر سيارات. وكان المشاة الذين كانوا على الرصيف قد تبعثروا.

وسمع بعد ذلك أنيناً.

فاستدار ورأى بام مستلقية على الدرج المؤدّي إلى داخل مبنى حدّاد.

كانت ذراعها اليسرى مضرّجة بالدماء.

الفصل السادس والعشرون

واشنطن، العاصمة

كانت ستيفاني سعيدة لرؤيتها كاسيوبيا فيت. وكانت المرة الأخيرة التي عملت فيها مع هذه المرأة المغربية الغامضة في جبال البيرينيه الفرنسية، وكانتا متورّطتَين في مأزق مختلف.

"مدّديها على الارض ودعينا نغادر هذا المكان،" قالت فيت.

وقفت ستيفاني وجعلت رأس هيذر ديكسون يرتطم بالقِدد الخشبية.

"سيخلّف هذا الأمر كَدمة خطِرة،" قالت فيت.

"وكأني أكترث للأمر. كانت على وشك أن تقتلني. هل تريدين إخباري لمَ أنت هنا؟"

"لقد توقّع هنريك أنك قد تحتاجين إلى مساعدة. لم يرُق له الشعور الذي انتابه بعد اتصاله بمصادره في واشنطن. كنتُ في الجِوار - في نيويورك - لذا سألني إن كنتُ قادرة على الاعتناء بك."

"كيف عثرتِ عليّ؟"

"لم يكن الأمر صعباً."

إنها المرة الأولى التي تكون فيها ستيفاني ممتنّة لطرق ثورفالدسن المتكتّمة.

"ذكّريني لكي أضع اسمه على قائمة بطاقات المعايدة بمناسبة عيد الميلاد."

فابتسمت كاسيوبيا. "قد يُعجبه ذلك."

وأشارت ستيفاني إلى ديكسون. "يا لخيبة الأمل. ظننت أنها صديقتي."

"يصعب كسب الأصدقاء في مهنتك."

"كوتون في مأزق كبير."

"يظنّ هنريك الشيء نفسه. كان يأمل في أن توفّري له المساعدة."

"في الوقت الحاضر، أنا مستهدَفة،" قالت لها.

"وهذا يوصِلنا إلى مشكلتنا الأخرى."

لم يُعجبها وقع هذه الكلمات على مسامعها.

"السيدة ديكسون لم تأتِ بمفردها." وأشارت كاسيوبيا في اتجاه النصب التذكاري للرئيس واشنطن. "هناك رجلان في سيارة إلى جانب تلك الرابية، ولا يبدوان إسرائيليَّين."

"عَرَبيَّان."

"هذا عمل فَذّ. كيف تمكّنتِ من معرفة هويّة الجميع؟"

وظهر رجلان على قمّة الرابية واتجها نحوهما.

"لا وقت للشرح،" قالت ستيفاني. "هل نذهب؟"

ثم شقّتا طريقهما بسرعة في الاتجاه المعاكس وباتتا على بُعد خمسين متراً من مُطارِدَيهما، ممّا يعني أنهما في مأمن من طلقاتهما الناريّة فيما لو قرّرا إطلاق النار.

"أفترض أنك خطّطتِ لهذا الظرف الطارئ؟" سألت كاسيوبيا.

"ليس تماماً، ولكنني قادرة على الابتكار."



نسي مالون أمر آدم وتحرّك بسرعة وارتباك من موقعه الآمن وراء السيارة المتوقّفة إلى حيث كانت بام مُلقاة وهي تنزف، وكان تراب الشارع قد علق بثيابه. فاستدار للحظة وألقى نظرة سريعة على الإسرائيلي الذي انطلق بأقصى سرعة مبتعداً.

"هل أنت بخير؟" سألها.

ظهرت على وجه بام قسمات تشير إلى الألم، وأخذت تضغط بيدها اليمنى بإحكام على كتفها الأيسر المُصاب.

"إنّه يؤلمني،" قالت بهمسة مختنقة.

"دعيني أرى."

فهزّت رأسها. "إن حمله.... قد يساعد."

مدّ يده وبدأ يرفع يدها. فاتسعت عيناها ألماً وغضباً. "لا تفعل."

"عليّ أن أرى."

لم يكن عليه أن يقول ما كانا يفكّران به معاً. *'لماذا لم تبقَ في الطابق العُلوي'*؟

فلانت وحرّكت أصابعها الملطّخة بالدماء، فتحقّق ممّا كان يشتبه به: إصابة سطحيّة، جرح في اللحم. ولو كان الأمر أسوأ من ذلك لظهرت معالمه بوضوح. فالناس المصابون يتعرّضون لصدمة، وتتوقف أجسامهم عن العمل.

"لقد سببت لك الرصاصة خدشاً فحسب،" قال.

وأعادت تلمّس الجرح بيدها. "شكراً للتشخيص."

"لدي بعض الخبرة بالفعل حول الإصابة بطلقات نارية."

ولانت عيناها لدى تحقّقها من الأمر.

"علينا الذهاب،" قال لها.

وظهرت على وجهها أمارات الألم. "أنا أنزف."

"لا خيار لنا." ثم ساعدها على الوقوف.

"تبّاً، يا كوتون."

"أدرك أنه يؤلمك. ولكن لو بقيتِ في الطابق العُلوي كما قلت لك ـ"

وكان صوت صفارات الإنذار يُسمع في البعيد.

"علينا الذهاب، ولكن هناك أمر آخر قبل ذلك."

وبدت أنها تستعيد رباطة جاشها، مصمِّمةً على التزام الهدوء والمحافظة على صفاء فكرها، لذا اقتادها إلى داخل المبنى.

"اضغطي بإحكام،" قال لها وهما يصعدان درجات السُلَّم قاصدَين شقة حدّاد. "يجب وقف النزيف، والجرح ليس عميقاً جداً."

وكانت صفارات الإنذار تقترب.

"ماذا تفعل؟" سألت، وهما يطآن بسطة الدَّرَج في الطابق الثالث.

ثم تذكر ما سبق لحدّاد أن قال له قبل إطلاق النار. *'لقد علّمتني الكثير'*. أتذكر كل درس، وقد التزمت بهذه الدروس بدقّة حتى الأيام القليلة الماضية، ولا سيّما تلك التي تتناول وسائل الوقاية وهي التي تهمّ في الواقع. فعندما خبّأ حدّاد لأوّل مرة، علّم الفلسطيني أن يبقي أغراضه الأكثر أهميةً في متناول يده. وقد حان الوقت لمعرفة ما إذا كان حدّاد يعني ما قاله.

ودخلا الشقة.

"ادخلي إلى المطبخ واعثري على مِنشفة،" قال لها، "بينما أنصرف إلى عمل ما."

وكان أمامهما مهلة دقيقتَين أو ثلاث دقائق ربما.

ثم اندفع نحو غرفة النوم. لم يكن المكان الضيّق أكبر من شقّته الخاصة في كوبنهاغن. أكوام من الكتب أُهملت منذ وقت طويل، وأوراق مكدَّسة على الأرض، وسرير غير مرتَّب، ومِنضدات محمَّلة كطاولات البيع في السوق. ولاحظ وجود مزيد من الخرائط على الجدران: إسرائيل، ماضياً وحاضراً. لا وقت للتمعّن بها.

جثا بجانب السرير وأمِل في أن تكون فِطرته على صواب.

كان حدّاد قد اتصل بالشرق الأوسط، عالماً بأن مواجهة ما سوف تعقب هذا الاتصال. وعندما حان وقت ذلك النِزال الحَتمي، لم يَجبُن أمامه ولكنه اعتمد ذلك الهجوم، إدراكاً منه بأنه سيخسر. ولكن ماذا قال صديقه؟ *'علمت أنك ستأتي'*. تبّاً للغباء. لم يكن هناك حاجة لقيام حدّاد بالتضحية بنفسه. فقد كان من الواضح أن الشعور بالذّنب بسبب قتل الرجل قبل عقود من الزمن قد شغل رأس الرجل المسنّ لمدة طويلة من الزمن.

'أدين بذلك للحارس الذي أطلقت النار عليه وأرديته. إنني أسدّد دَيني'.

ليت كان بإمكان مالون فهم هذه الكلمات.

وتفحّص المكان تحت السرير وشعر بشيء ما. فأمسكه بإحكام وسحب حقيبة مدرسية جلدية، وفك أحزمتها بسرعة. كان في داخلها كتاب، وثلاثة دفاتر للملاحظات، وأربع خرائط مطويّة. ومن بين كل المعلومات المبعثَرة في أرجاء الشقّة، أمِل في أن تكون هذه المعلومات هي الأكثر أهمية.

كان عليهما مغادرة المكان.

فعاد مسرعاً إلى الخَلوة. وخرجت بام من المطبخ مع مِنشفة مثبَّتة على ذراعها.

"كوتون؟" قالت.

وأحس بالسؤال في صوتها. "ليس الآن."

ثم حمل الحقيبة بيده، ودفعها خارج الباب بعد أن التقط لِفاعاً عن ظهر إحدى الكراسي. ونزلا السُّلَّم بسرعة.

"كيف حال النزيف؟" سألها بعد أن بلغا الرصيف.

"هل سأحيا، يا كوتون؟"

وكانت صفارات الإنذار على بُعد مجمّع سكني واحد. فوضع اللِفاع حول كتفَيها لإخفاء الإصابة.

"أبقي المِنشفة على الذراع،" قال لها.

وسارا حوالي مئة متر حتى بلغا الجادّة، وغاصا في بحر من الوجوه غير المعروفة، مقاومَين رغبتهما في حثّ الخُطى.

وألقى نظرة إلى الوراء.

وكانت الأضواء الوامضة في الطرف الأقصى للمجمّع السكني قد توقفت قبالة منزل حدّاد.

"كوتون؟"

"أعلم. لنغادر هذا المكان فحسب."

كان يعرف ماذا تريد أن تقول. فقد لاحظ ذلك أيضاً عندما عادا معاً إلى الشقة. لا دماء على الجدارن والأرض؛ ولا رائحة موت كريهة وخانقة.

كانت جثّتا حوّاء وجورج قد اختفتا.

الفصل السابع والعشرون

وادي الراين، ألمانيا

الساعة 5:15 بعد الظهر

كان سابر يحدّق بأكوام التراب العالية التي تغمر حافة النهر. وكانت الجروف القائمة على جانبَي الممرّ الجبلي الضيّق شديدة الانحدار، والغابات المُعْبِلة وافِرة، وكانت الشُّجَيرات المتفرّقة الخضراء والكروم الطويلة تحدّ من رتابة سفوح التلال. كانت التلال الأكثر عُلُوّاً قد حملت طوال سبعمئة عام تقريباً حصوناً تحمل أسماء مثل راينشتاين، وسونك، وفالز. وبعد أن اجتاز المنعطف الغدّار لورلي حيث كانت السفن قديماً تصطدم بالصخور وتتحطم في مياه النهر المتدفّقة وتغرق، أخذ ينظر إلى البرج الرئيسي المستدير "برغ كاتز" من أعلى الضفّة الشرقية للنهر. وفي مكان أبعد، كان ينتصب قصر ستولزنفلز الذي بُني منذ قرنَين، ويكاد المرء لا يستطيع تمييز أحجاره الجيريّة ذات اللون الأصفر المائل للسُّمرة. ثم اختتم رحلته عائداً إلى النقطة التي انطلق منها منذ دقائق قليلة.

إنها الصورة التي لا لُبس فيها لـ ماركسبرغ.

وكان قد غادر روثنبرغ قبل ساعتَين وسلك الطريق السريع نحو الشمال محافظاً على سرعة تسعين ميلاً في الساعة، ولم يُبطئ سيره إلا عندما بلغ ضواحي مدينة فرانكفورت حيث صادفته طلائع زحمة سير بعد الظهر. ومن هناك تمتدّ طريقان في اتجاه الشمال إلى كولونيا: الطريق السريع A60، أو الطريق ذي الاتجاهين N9 المحاذي لنهر الراين. وكان قد قرّر أن يكون النصف الأول من الرحلة على امتداد النهر، ثم يُكمل ما تبقّى منها على الطريق السريع. لذا شقّ طريقه

ببطء إلى خارج الوادي القديم وأخذ يتبع العلامات الزرقاء التي تؤدّي إلى الطريق السريع.

وظهر له مدخل منحدِر أدّى به إلى الطريق السريع جداً فسلكه. ثم زاد من سرعة محرّك سيارته الـ بي إم دبليو التي استأجَرها وسلك الدرب القائم إلى يسار الطريق. كانت رقع من التلال والغابات والمراعي المتفرّقة تبدو وكأنها تنهض منتصبة على جانبَي الطريق كلّما مرّ بها.

ألقى نظرة في المرآة الخلفية.

كانت سيارة المرسيدس الفضيّة اللون ما تزال تلاحقه.

وكان من السهل عدم ملاحظة هذه السيارة نظراً إلى أنها كانت على مسافة لا بأس بها خلف ثلاث سيارات تحجبها عن الأنظار. ولكنه كان يتوقّع وجود تلك السيارات، التي كان تتبعه منذ مغادرته روثنبرغ. وتساءل عمّا إذا تمّ العثور على الجثة في *البومايشتر* هاوس. أن يكون مقتل جونا قد وفّر على الإسرائيليين العناء - إذا إن الخيانة باتت مكلفة في الشرق الأوسط - ولكن اليهود أضاعوا أيضاً فرصة استجواب خائن لوطنه، ممّا قد يجعلهم معكري المِزاج.

أعجبته طريقة الألمان في إنشاء الطرقات السريعة - ثلاثة خطوط واسعة، وانحناءات قليلة، ومخارج متفرّقة. إنها طرق مثالية للسرعة والاختلاء بالذات. وأعلمته إحدى اللافتات بأن كولونيا ما زالت تبعد عنه مسافة اثنَين وثمانين كيلومتراً. فحدد موقعه. إنه يقترب بسرعة من نهر موزل القائم جنوب غوبلنز والذي يَبعد مسافة خمسة عشر كيلومتراً شرق نهر الراين.

فسلك درباً آخر. ولاحظ وجود أربع سيارات أخرى وراء المرسيدس. إنها في الموعد المحدَّد تماماً.

مضى عليه تسع سنوات وهو يبحث عن مكتبة الإسكندرية، وكل ذلك لصالح شاغل الكرسي الأزرق. وكان العثور على أيّ من محتويات المكتبة يستحوذ على عقل الرجل المسنّ، وكان يظنّ في بادئ الأمر أن البحث مسألة بسيطة. ولكنه كان كلّما عرف أكثر أدرك أن الهدف لم يكن بعيد الاحتمال بقدر ما ظنّ في بادئ الأمر. وقد بدأ يعتقد مؤخّراً بوجود شيء ما يمكن العثور عليه. ومن المؤكّد أن هذه المسألة كانت تستحوذ على تفكير الإسرائيليين، وبدا ألفرد هرمن مركّزاً على الأمر. فقد عرف العديد من الأمور، وحان الوقت لاستئثاره بتلك المعرفة.

كان يشعر منذ أشهر بأن فرصته لقطف ثمار جهوده قد حانت، وكان يأمل فقط في أن يكون كوتون مالون واسع الحيلة بما يكفي لتجنّب ما يخطّط له الإسرائيليون في لندن. فقد تحرّكوا بسرعة كبيرة كما كانت حالهم على الدوام. ولكن استناداً إلى معلوماته ومشاهداته، فإن مالون خبير بالرغم من أنه فقد مهاراته السابقة، ويفترَض به أن يتمكّن من معالجة الوضع.

ولاح الجسر القَنطري أمامه.

وشاهد أولى السيارات الأربعة تتخطّى المرسيدس الفضيّة، وتبدّل خط سيرها، وثم تتقدّمها بشكل مفاجئ.

وسارعت سيارتان إضافيّتان إلى السير بموازاة المرسيدس في الخط اليساري من الطريق. وصدمتها سيارة رابعة من الوراء.

ومن ثمّ انطلقت كلها بأقصى سرعة على الجسر.

كان هذا الجسر يمتدّ مسافة أكثر من نصف ميل، ويجري تحته نهر الموزل متعرّجاً في اتجاه الشرق على عمق أربعمئة قدم. وعند منتصف الطريق كما كانت تعليمات سابر بالتحديد، ضغطت السيارة التي تسير في المقدّمة على فراملها، فاستجابت المرسيدس الفضيّة اللون وضغطت على فراملها أيضاً.

إثر ذلك صدمت السيارتان المجاورتان بعنف جانب السيارة لجهة السائق، وأخذت السيارة الرابعة تدفع المرسيدس بمِصدّها.

أدى هذا المزيج من الصدمات، والسرعة إلى دفع المرسيدس يميناً نحو حافة الجسر.

وما هي إلا لحظات حتى كانت السيارة تحلّق في فضاء الوادي.

وكان سابر يتخيل ماذا يحدث.

ذلك أن العزم الناجم عن تسارع السيارة نحو الأسفل كان يدفع الركاب على الالتصاق أكثر بمقاعدهم، وعلى محاولة فك أحزمة الأمان دون أن تتاح لهم الفرصة بذلك. وحتى إذا نجحوا في ذلك، فإلى أين سيذهبون؟ فالسقوط من ارتفاع أربعمئة لن يستغرق أكثر من ثوانٍ قليلة لبلوغ النهر، ولكن اصطدام عجلات السيارة بعنف في المياه سيكون مثل الاصطدام بالخرَسانة، ولن ينجُوَ أحد من هذا الحادث، وسوف تؤدي المياه المتجلّدة المندفعة إلى داخل السيارة إلى إرسالها نحو قعر

النهر الموحِل حيث سيسحبها التيّار في النهاية شرقاً نحو مجرى نهر الراين الأكثر سرعة.

لقد غرقت المرسيدس.

مرّت السيارات الأربع بقربه، ولوّح له سائق السيارة الأخيرة. فردّ عليه بإيماءة مماثلة. كان هؤلاء الرجال مرتفعي الأجر ولا يعطون هدفهم مهلة كافية، ولكنهم كانوا يستحقّون كل مبلغ أخذوه.

تابع قيادة سيارته بسرعة كبيرة في اتجاه كولونيا.

سوف تمر أيام قليلة قبل أن يُدرك الإسرائيليون ما حدث. فقد قُتِل أحد أتباعهم في روزنبرغ وكان بمثابة مشكلة، وفُقِد فريقهم الميداني. وتساءل عمّا إذا تمّ التعرّف إليه، ولكن أحداً لم يحدّد هويّته على الأرجح. ولو عرفوا هويّته، فلِمَ إضاعة الوقت إذاً بالتقاط صور له؟ لا، إنه ما زال سلعة مجهولة. وممّا لا شك فيه أن الارتباك سيسود إسرائيل وسينتقل بسرعة إلى النمسا.

وها قد حان الوقت لإعادة الأمور إلى نصابها.

فأعجبه الأمر.

الفصل الثامن والعشرون

واشنطن، العاصمة

أخذت ستيفاني تتساءل عمّا تكون رفيقتها قد خطّطت له. كانت كاسيوبيا فيت فطنة، وثريّة وجريئة، أي كانت باختصار امرأة يمكنها تدبّر أمورها في المواقف الصعبة. إنها مزيج لا بأس به من المزايا شريطة أن تكون قد فكّرت بخطواتها مُسبَقاً.

"كيف نخرج من هنا؟" سألت بينما كانتا تجتازان المتنزّه بسرعة.

"هل لديك أية أفكار؟"

أجل في الواقع، ولكنها لم تقُل شيئاً. "أنت التي ظهرت من العدَم."

فابتسمت كاسيوبيا. "لا داعي للتذاكي."

"إننا نسير وسط الناس متخفّيتَين. واعتقد أنك مدركة لذلك."

ولاح نُصُب لينكولن التذكاري أمامهما في الطرف الغربي للمتنزّه. وكانت البركة المتلألئة تسدّ أي تراجع باتجاه الجنوب. وإلى الشمال، كانت الأشجار الباسقة تمتد على جانبَي جادّة مزدحمة.

"بعكس ما تظنّانه أنتِ وهنريك،" قالت لها، "لست عاجزة عن تدبّر أموري. لديّ عميلان في جادّة كونستيتيوشن وكنتُ قد ضغطتُ للتوّ على زرّ الطوارئ عندما ظهرتِ."

"أنباء سيّئة. لقد غادر هذان الرجلان."

"ماذا تعنين؟"

"لقد غادرا المكان بعد أن جلستِ مع ديكسون."

كان المتنزَّه ينتهي عند قاعدة النُّصُب التذكاري للينكولن. فنظرت إلى الوراء، وكان ملاحقَيهما قد أوقفا تقدّمهما.

"من الواضح أننا نقف حيث يريداننا أن نقف."

وكان هناك سيارة أجرة تتجه نحوهما من جادّة الاستقلال.

"في الموعد المحدَّد تقريباً،" قالت كاسيوبيا، وهي تلوِّح بمِنديل أسود.

توقفت السيارة وقفزتا إلى داخلها.

"اتصلت منذ دقائق." وأغلقت كاسيوبيا الباب الخلفي بقوة وقالت للسائق. "تولَّ القيادة فحسب. سنقول لك متى تُنزلنا."

وانطلقت السيارة بأقصى سرعة مبتعدة.

أدخلت ستيفاني يدها في جَيبها وأخرجت هاتفها النقّال.

ثم طلبت رقم العميلَين اللذين كانت قد وضعتهما في حالة جهوزيّة للمساندة. وكان هذان الرجلان على وشك أن يُفصلا من الخدمة.

"هل تريد أن تخبرني لماذا تركتني هناك؟" قالت بهدوء على الهاتف عندما تمّ الرّدّ على اتصالها.

"لقد تلقّينا أوامر بالمغادرة،" قال الرجل.

"أنا رئيستك. من يعطي أوامر مناقضة لي؟"

"رئيسك."

أمر مدهش. "أي واحد منهم؟"

"المدّعي العام. لقد أتى برنت غرين بنفسه وطلب منّا المغادرة."



رمى مالون الحقيبة التي أخذها معه من شقة جورج حدّاد على السرير. وكان موجوداً مع بام داخل فندق لا يبعد كثيراً عن الهايد بارك، وهو مكان مألوف كان قد

اختاره للحالات الطارئة، إذ لا شيء برأيه أفضل من الاختباء بين الحشود. وكان يحب أيضاً الصيدلية المجاورة حيث قد اشترى الشاش الطبّي، والمواد المطهِّرة، والضِمادات.

"عليّ أن أعالج ذلك الكتف،" قال لها.

"ماذا تعني؟ لنقصد إحدى المستشفيات."

"ليت الأمر بهذه البساطة."

ثم جلس بقربها على السرير.

"سيكون بهذه البساطة. أريد طبيباً."

"لو بقيتِ في الطابق العُلوي كما طلبتُ منك لما حدث شيء."

"ظننت أنك بحاجة إلى مساعدة. كنت ذاهباً لقتل ذلك الرجل."

"ألا تفهمين، يا بام؟ ألم تكن رؤية موت جورج كافية لك؟ هؤلاء السفَلة جدّيّون. سيقتلونك متى وقع نظرهم عليك."

"جئت لأقدّم المساعدة،" قالت بهدوء.

ولمح شيئاً في عينَيها لم يرَه منذ أعوام: الإخلاص. وهذا ما جعله يطرح العديد من الأسئلة التي لم يكن يرغب في طرحها، كما أنه لم يكن واثقاً من أنها تريد الإجابة عنها. "الأطبّاء سيُقحمون الشرطة في الأمر، ممّا سيتسبّب بمشكلة." ثم أخذ نفساً عميقاً لأن التعب والقلق يُرهقانه. "بام، هناك العديد من اللاعبين هنا. الإسرائيليون لم يخطفوا غاري -"

"كيف تعلم ذلك؟"

"سمِّها الفِطرة. حَدْسي يُنبئني بأنهم لم يقوموا بذلك."

"هم من قتلوا ذلك الرجل المسنّ بالتأكيد."

"لهذا السبب خبّأته في بادئ الأمر."

"لقد اتصل بهم، يا كوتون، أنت سمعته بأذنك. اتصل بهم وهو مدرك بأنهم سوف يأتون"

"كان يقوم بالتكفير عن ذنوبه. فالقتل له عواقب. لقد واجه اليوم جورج عاقبة

ما ارتكب." وحملت فكرة صديقه الميت معها حُرقة متجدِّدة من الأسى. "يجب معالجة ذلك الجرح."

وسحب اللِّفاع عن كتفَيها ولاحظ أن المِنشفة دَبِقة بالدماء. "هل انفتح الجرح مجدَّداً؟"

فهزّت رأسها مؤكّدةً الأمر. "في طريقنا إلى هنا."

وسلخ الرِّفادة عن كتفَيها. "أيّاً يكن ما حدث، فالأمر معقّد. لقد مات جورج لسبب ما -"

"لقد اختفت جثّته، يا كوتون، إضافةً إلى جثّة المرأة."

"يبدو أن الإسرائيليين أزالوا كل مظاهر الفوضى بسرعة." ثم أخذ يتفحّص ذراعها بعناية فتبيّن له أن الجرح سطحيّ بالفعل. "ممّا يُثبت ما أقول. هناك لاعبون عديدون؛ إثنان على الأقل، وربما ثلاثة، ومن المحتمَل أربعة. لم تعتَد إسرائيل على قتل العملاء الأميركيين. ولكن الجماعة التي قتلت لي دورانت تبدو غير مهتمّة، فكأنها تجلب المشاكل لنفسها. وهذا الأمر لا يقوم به الإسرائيليون أبداً."

ثم وقف ودخل إلى الحمّام. وعندما عاد منه، فتح قنّينة تحتوي على مواد مطهِّرة وأعطاها مِنشفة جديدة. "عضّي على هذه."

وارتسمت على وجهها نظرة مُربَكة. "لماذا؟"

"لأني مضطّر لتطهير ذلك الجرح ولا أريد أن يسمعك أحد وأنت تصرخين."

فاتّسعت عيناها. "تلك المادة مؤلمة؟"

"أكثر ممّا يمكنك أن تتصوّري."



أقفلت ستيفاني الهاتف النقّال. 'لقد أتى برنت غرين بنفسه وطلب منّا المغادرة'. وأصابتها الصدمة في الصميم، ولكن قضاء عقود من الزمن في عمل الاستخبارات مكّنها من عدم إظهار الدهشة على وجهها.

التفتت إلى كاسيوبيا في المقعد الخلفي للسيارة وقالت. "أخشى أن تكوني الشخص الوحيد الذي يمكنني الوثوق به في الوقت الحاضر."

"تبدين خائبة."

"أنا لا أعرفك."

"هذا ليس صحيحاً. لقد تحقّقتِ منّي في فرنسا."

وكانت كاسيوبيا على حق ـ لقد تمّ التحقّق منها بدقّة، وقد علِمت ستيفاني أن تلك المرأة الحسناء ذات البشرة السمراء وُلدت في برشلونة منذ سبعة وثلاثين عاماً. هي مسلمة لجهة أحد والدَيها، عِلماً أن تديّنها لا يلاحَظ، وهي تحمل شهادات في الهندسة وتاريخ العصور الوُسطى. كما أنها حاملة الأسهم الوحيدة والمالكة لمجموعة شركات منتشرة عبر القارّات، ومركزها باريس، وتشمل أعمالها مجموعة واسعة من المضاربات الدولية بأصول تبلغ عدة بلايين من الدولارات. كان والدها المغربي قد أسّس الشركة وورثت عنه أعمال إدارتها، عِلماً أنها لم تكن منخرطة كثيراً بأعمالها اليومية. وقد شغلت أيضاً منصب رئيسة مؤسسة هولنديّة كانت تعمل بشكل وثيق مع الأمم المتحدة في ميدان التخفيف من حالات الإصابة بمرض الأيدز على الصعيد الدولي والمجاعة في العالم، وفي أفريقيا بصفة خاصة. وقد علِمت ستيفاني من خبرتها الشخصية أن فيت تجفل لأبسط الأمور وأنها قادرة على استخدام بندقية ببراعة قنّاص. وهي شديدة الجرأة أحياناً لصالحها الخاص، وكانت قد دخلت في شراكة مع زوج ستيفاني الراحل وعرفت أموراً عن حياتها الشخصية أكثر من أي شخص آخر. ولكنها كانت تثق بالمرأة؛ إنه أمر مفروغ منه. وقد كان اختيار ثورفالدسن حكيماً عندما أرسلها.

"أواجه مشكلة جدّيّة."

"هذا ما نعرفه أصلاً."

"ومالون واقع في ورطة. من الضروري أن أتصل به."

"لم يتلقَّ هنريك أي اتصال منه. وقد قال مالون إنه سيتصل عندما يكون مستعدّاً لذلك، وأنت تعرفينه أفضل من أي شخص آخر."

"كيف هي حال غاري؟"

"مثل والده تماماً، قويّ الاحتمال. إنه في مأمن مع هنريك."

"وأين بام؟"

"في طريق العودة إلى جورجيا. لقد رافقت مالون على متن الطائرة إلى لندن وكانت ستغادر من هناك."

"الإسرائيليون في لندن أيضاً؛ فرقة الاغتيال."

"كوتون فتى كبير ويمكنه تدبّر الأمر. علينا اتخاذ قرار بشأن ما يجب القيام به بالنسبة إلى مشكلتك."

كانت ستيفاني تفكّر أيضاً بذلك اللغز. 'لقد أتى برنت غرين بنفسه وطلب منّا المغادرة'. ممّا قد يفسّر سبب ندرة وجود عناصر شرطة الكابيتول. إنهم عادةً في كل مكان. فألقت نظرة خارج التاكسي ورأت أنهم أصبحوا قرب مستديرة دوبون وفندقها. "يجب أن نتأكد من أننا غير ملاحَقين."

"قد يكون مترو الأنفاق طريقة فُضلى للتنقّل."

فوافقت.

"إلى أين نحن متّجهتان؟" سألت كاسيوبيا.

وألقت نظرة على المسدس الهوائي الموضوع تحت سترة كاسيوبيا. "ألا تملكين المزيد من السهام المنوّمة؟"

"هناك الكثير منها."

"إذاً فأنا أعرف إلى أين علينا الذهاب بالتحديد."

الفصل التاسع والعشرون

لندن

الساعة 7:30 مساءً

كان مالون يراقب بام وهي نائمة. وكان مسترخياً في كرسيّ بجانب نافذة غرفة الفندق، وحقيبة جورج حدّاد ملقاة في حضنه. وقد كان مُحِقّاً تماماً بشأن المطهّر: فقد عضّت بام بشدّة على المِنشفة بينما كان يطهّر الجرح. كما انهمرت الدموع من عينَيها، ولكنها كانت قوية الاحتمال ولم تُصدر أي صوت يعبّر عن ألمها الشديد. وشعوراً منه بالأسى عليها، اشترى لها قميصاً جديداً من المتجر القائم عند مدخل الفندق.

وكان تعباً أيضاً، ولكن "أعصاب بيليت" التي يملكها، كانت تزوّد عضلاته بطاقة لا حدود لها. وكان بإمكانه أن يتذكر الأوقات التي مرّت عليه دون طعام، وعندما كان جسمه ممتلئاً بالأدرينالين، وذهنه مركزاً على البقاء حيّاً، وإنجاز عمله. كان يفكّر بكل تلك الأمور التي حدثت في الماضي، وهي أمور لعله لن يختبرها ثانية.

وها هو يمرّ مجدَّداً بتلك الأمور بالذات.

كان بإمكان الساعات القليلة الماضية أن تكون كابوساً مريعاً لولا اتضاح الأحداث في ذهنه بطريقة لا تخطر على بال. فقد قُتل صديقه جورج حدّاد بطلق ناريّ أمام عينَيه مباشَرةً. والأشخاص الذين يعملون وفقاً لبرامج عمل محدَّدة كانوا يُلاحقون أمراً ما. ولكن كل ما يجري لا شأن له به. غير أن بعض هؤلاء الأشخاص أنفسهم كانوا قد خطفوا ابنه وفجّروا مكتبته. لا. لا بد أن يكون الأمر شخصياً.

كان مَديناً لهم، وينوي تسديد ديونه كما فعل حدّاد. ولكنه بحاجة إلى معرفة المزيد.

كان حدّاد غامضاً في تعليقاته قبل وبعد ظهور الإسرائيليين وبعده. والأسوأ من ذلك أنه لم يُنهِ أبداً شرح ما كان قد لاحظه منذ سنوات - فما الذي حثّ إسرائيل على قتله بالتحديد. وبما أنه كان يأمل في أن تحتوي الحقيبة الجلدية الملقاة في حضنه على إجابات، قام بفكّ المشابك وأخرج كتاباً، وثلاثة دفاتر للملاحظات، وأربع خرائط.

كان الكتاب مجلّداً ويعود إلى القرن الثامن عشر، له غلاف من الجلد المزخرَف القَصِف الذي يشبه بشرة جفّفتها الشمس. لم يكن أي من حروفه مقروءاً، لذا أزاح التجليد بعناية وقرأ صفحة العنوان:

'رحلة بطل' بقلم يوسيبيوس هيرونيموس سوفرونيوس.

وأخذ يتفحّص الصفحات بدقة كان الكتاب عبارة عن رواية كتبت منذ أكثر من مئتَي عام بأسلوب غير خيالي ومتحذلق. وأخذ يتساءل عن معناها وأمِل في أن تقدّم دفاتر الملاحظات شرحاً لها.

وأخذ يقلّب الصفحات بإبهامه. وكان الخط الملزوز خط حدّاد باللغة الإنكليزية. فأخذ يقرأ عن كثب:

> ... ثبت أن الإلماعات التي تركها 'الحارس' معي مثيرة للمشاكل. والبحث عن ضالّة بطل الرواية أمر صعب. أخشى أنني كنت أحمق، ولكنني لست الأوّل. كان توماس باينبريدج رجلاً أحمق أيضاً. ففي القسم الأخير من القرن الثامن عشر، من الواضح أن دعوة قد وُجّهت إليه لزيارة المكتبة وأنه أكمل البحث عن ضالّة البطل. ولا بد من أن يكون أحد شروط الدعوة بقاء الزيارة سرّيّة بالتأكيد. فالحراس لم يقضوا ألفَي عام في حماية كنوزهم المخبّأة ليقوم بعد ذلك أحد المدعوّين بالكشف عنها. ولكن باينبريدج أخلّ بتلك الثقة وكتب عن تجربته. وفي محاولة للتخفيف من فداحة خيانته، صاغ عنوان روايته بأسلوب خيالي يحدّ من فَضول القارئ واختار له 'رحلة بطل'. وقد طُبِعت نسخات محدودة من الكتاب، وبالكاد لفتت الأنظار. في زمن باينبريدج، كان العالم يعجّ بالروايات الخيالية (قصص لم تكن تلقى الكثير من الإعجاب والتقدير)، لذلك لم تلقَ رحلة بطل الرواية إلى

مكتبة أسطوريّة إلا قليلاً من الحماسة. ومنذ ثلاث سنوات عثرت على نسخة سرقتها من أملاك ولش. وتقدّم قراءتها القليل من المعرفة بكنه الأمور. ومع ذلك، لم يكن بإمكان باينبريدج مقاومة رغبته بالإخلال للمرة الأخيرة بالثقة التي وضعها الحراس به. وفي الأعوام التي سبقت وفاته، نصب محور عجلة في حديقة منزله بأكسفوردشاير، ونحت في الرخام صورة لوحة وحروفاً رومانية. فقد كانت لوحة نيكولا بوسّان تعرف في الأصل باسم 'السعادة التي يقهرها الموت'، ولكن اسمها الأكثر شيوعاً اليوم هو رعاة أركاديا 2.

كان مالون يعرف القليل عن بوسّان، رغم أن هذا الإسم كان مألوفاً لديه. ولحسن الحظ، كان حدّاد قد وفّر بعض التفاصيل في أحد دفترَي الملاحظات.

كان بوسّان شخصاً مضطرباً على غرار باينبريدج. وُلِد في النورماندي عام 1594، وكانت السنوات الثلاثون الأولى من حياته حافلة بالمحاكمات القضائية والمِحَن. وقد عانى من قلّة الزبائن المنتظمين، والبغايا غير الممتنات، وضعف الصحة، والديون. حتى أن العمل على سقف في متحف اللوفر لم يغذّ إلهامه. ولم يحدث تبدّل إلا عندما غادر بوسّان فرنسا إلى إيطاليا عام 1642. وقد دامت تلك الرحلة، التي كانت تتطلّب طبيعياً أسابيع قليلة، حوالى ستة أشهر مع بوسّان. وعندما وصل إلى روما، بدأ يرسم بأسلوب وثقة بالنفس جديدَين لم يكن بالإمكان عدم ملاحظتهما، وقد أكسبتاه بسرعة لقب الفنّان الأكثر شهرة في روما. وخمّن العديدون أن بوسّان سُلّم سرّاً عظيماً في مكان ما أثناء رحلته. ومن المثير للاهتمام أنه لدى انتهاء لوحة رعاة أركاديا، اختار الكردينال روسبليوزي الذي كلّف بوسّان رسم اللوحة، والذي أصبح في ما بعد البابا كليمنت التاسع، عدم عرض العمل على الملأ بل احتفظ به في شقّته الخاصة. وكان روسبليوزي رجلاً فنّاناً شغوفاً بكل ما هو غامض ولا يفهمه العامّة. وكان يملك مكتبة شخصية متميّزة، وقد أعطاه المؤرّخون في النهاية لقب 'البابا ذو التفكير الحرّ'.

ويمكن العثور على إحدى الإلماعات التي يحتمل أن يكون بوسّان قد اختبرها في رسالة كُتِبت بعد ست سنوات من إنجاز لوحة 'رعاة أركاديا'. وقد ظنّ واضع المسوّدة، وهو كاهن وشقيق وزير المالية أيام الملك

لويس الرابع عشر، أن ما علمه من بوسّان قد يحظى باهتمام المملكة الفرنسية. وقد عثرتُ على هذه الرسالة قبل سنوات قليلة بين محفوظات عائلة كوسّيه ـ بريسّاك:

لقد تباحث معه ببعض الامور التي سأتمكّن من شرحها لك بالتفصيل وبسهولة ـ امور ستعرفها من خلال السيّد بوسّان وستكون ذات فائدة كبيرة لك، حتى إن الملوك سيعانون من مشقّاتٍ جمّة للحصول منه عليها، والتي وفقاً له، من المحتمَل الا يكتشفها أحد في القرون التالية. والأكثر من ذلك وجود أمور يصعب معرفتها ولا يمكن لأي شيء على هذه الارض أن يكون مصيره أوفر حظاً من مصيرها أو مساوٍ له.

مجرّد كلام ـ ومُحيِّر أيضاً. ولكن ما نصبه باينبريدج في حديقته اكثر إرباكاً. فبعد إنجاز لوحة 'رعاة أركاديا'، ولسبب لا تفسير له، رسم بوسّان الصورة المعكوسة لهذه اللوحة وأُطلق عليها اسم رعاة أركاديا *II*. هذا ما اختاره توماس باينبريدج ليكون نَقشاً غائراً على الرخام. وهذا النقش ليس اللوحة الأصليّة بل نظيراً لها. كان باينبريدج حاذِقاً، وما يزال أثره التاريخي المليء بالرموز غامضاً منذ مئتَي عام.

كان مالون يقرأ وعقله مستغرق في متاهة من الاحتمالات. ولسوء الحظ، لم يكشف له حدّاد عن المزيد. وتتناول بقيّة الملاحظات العهد القديم، وترجماته، وتناقضات رواياته. ولا وجود لأي كلمة عمّا يمكن أن يكون قد لاحظه حدّاد ويولّد كل هذا الاهتمام. ولا وجود كذلك لأي رسالة من حارس ما، أو تفاصيل حول أي ضالّة للبطل، بل فقط إشارة عابرة في نهاية أحد دفاتر الملاحظات.

في غرفة الرسم في باينبريدج هول هناك المزيد من عجرفة باينبريدج. فعنوانه تأمّلي بصفة خاصة: 'تجلّي القديس جيروم'. عنوان فاتن وملائم، لأن الأبحاث العظيمة تبدأ بالتجلي في غالب الأحيان.

قليل من المعلومات الإضافية، ولكن ما يزال هناك الكثير من الأسئلة التي لا توجد أجوبة عنها. وكان قد أدرك أن الصراع مع أسئلة لا أجوبة لها هي الطريقة الأسرع لشلّ الدماغ.

"ماذا تقرأ؟"

ونظر إلى الأعلى. كانت بام ما تزال مستلقية على السرير، رأسها على الوسادة، وعيناها مفتوحتان.

"ما تركه جورج."

وجلست بهدوء، وفركت عينَيها، وتحقّقت من الساعة. "ما هي المدة التي غفوت فيها؟"

"حوالى الساعة. كيف حال كتفك؟"

"مؤلم."

"سيبقى كذلك أياماً قليلة."

ثم مدّت ساقَيها. "كم مرة أُصبت بطلقات ناريّة، يا كوتون؟ ثلاث؟"

فهزّ رأسه موافقاً. "أنت لا تنسين أيّاً منها؟"

"لم أنسَها أبداً. وإن كنت تتذكّر، فقد اعتنيت بك."

لقد قامت بذلك حقاً.

"لقد أحببتك،" قالت له. "أعرف أنك قد لا تصدّق ذلك، ولكنّني أحببتك."

"كان يُفترَض بك إخباري بشأن غاري."

"لقد آلمني ما فعلتُ. لم أفهم أبداً لماذا خنتَني، ألَم أكن كافية لك؟"

"كنت شاباً، ومغفَّلاً، ومنشغلاً بنفسي. كان ذلك منذ عشرين عاماً، إكراماً لله. وبعد ذلك، أسفت لما حدث. حاولت أن أكون زوجاً صالحاً. لقد حاولت حقاً."

"ما عدد النساء اللواتي عرفتهنّ؟ لم تُفصح لي أبداً عن الأمر."

لم يكن في وارد الكذب. "أربع؛ واحدة منهنّ كل ليلة." وها هو الآن يريد أن يعرف أيضاً. "وماذا عنك؟"

"واحد فقط. ولكنني بقيت أقابله لأشهر عدة."

هذا أمر مثير. "هل أحببته؟"

"بقدر ما كان بإمكان امرأة متزوّجة مبادلة الحب لرجل آخر غير زوجها."

وفهم ما كانت تُلمِح إليه.

"غاري هو ابن ذلك الرجل." وبدت أنها الآن تواجه أمراً تطرح حوله علامة استفهام وما زال ينبثق من ماضيها. "عندما أنظر إلى غاري، فإن جزءاً منّي يكون غاضباً في بعض الأحيان بسبب ما فعلت ـ ليساعدني الله ـ ولكن جزءاً منّي ممتنّ أيضاً. فقد كان غاري موجوداً على الدوام، أما أنت فكنت تأتي وتذهب."

"لقد أحببتك، يا بام. أردت أن أكون زوجك. وقد أسفت فعلاً لما فعلت."

"لم يكن الأمر كافياً،" تمتمت وعيناها نحو الأرض. "لم أدرك ذلك في بادئ الأمر، ولكنني عرفت في ما بعد أنه لن يكون كافياً أبداً. لذلك بقينا منفصلَين طيلة خمس سنوات قبل الطلاق. أردت لزواجنا أن يستمّر، ولكنني كنت أرفضه ثانيةً."

"هل كرهتني إلى هذا الحد؟"

"لا، لقد كرهت نفسي بسبب ما فعلت. لقد تطلّب مني الأمر سنوات لأدرك ذلك. هذا هو الواقع، فالمرأة التي تكره نفسها تواجه مشكلة كبيرة دون أن تكون على عِلم بذلك."

"لمَ لم تخبريني عن غاري عندما حدث الأمر؟"

"لم تكن تستحق معرفة الحقيقة. هذا ما اعتقدته على الأقل. لم أُدرك خطأي إلا في السنة الماضية. خنتّني، وخنتُك، ولكنني بتّ حاملاً. أنت مُحِقّ. كان يُفترَض بي إخبارك منذ زمن بعيد. ولكنني أقول ذلك الآن بعدما نضجت، وكما قلتَ، كنّا كلَينا شابَّين ومغفَّلَين."

ثم لزمت الصمت. وبدوره لم يباشر بالكلام.

"لهذا السبب بقيت حانقة عليك، يا كوتون. لم أكن مدركة لما يدور في صميم نفسي. ولكن لهذا السبب أيضاً أخبرتك عن غاري في النهاية. أنت تعلم بلا شك أني لم أكن مضطرة لقول أي شيء ولبقيتَ جاهلاً للأمر في هذه الحالة؟ ولكنني أردت أن أتصرف بطريقة صحيحة. أردت أن أعقد صلحاً معك ـ"

"ومع نفسك."

وهزّت رأسها ببطء، موافقةً. "أكثر من أي شيء آخر." وانخفض صوتها.

"لم رافقتني إلى منزل حدّاد؟ كنت تعلمين أنه سيكون هناك إطلاق نار."

"لنقل إنها خطوة غبيّة أخرى فحسب."

ولكنه كان يعرف أكثر من ذلك، وقد حان الوقت لإخبارها. "لا يمكنك أن تعودي إلى أتلانتا. كان هناك رجل يتبعك في المطار. ولهذا السبب عدتُ إليك."

فحملَقت متأمّلة. "كان يُفترَض بك إخباري."

"أجل، كان يُفترَض بي ذلك."

"لمَ قد يتبعني أحد؟"

"استعداداً لاقتناص فرصة أخرى. ربما ثغرة يمكنهم النفاذ من خلالها والمحاولة ثانيةً."

ولاحظ أنها فهمت ما يعني.

"هل يريدون قتلي؟"

فهزّ كتفَيه. "لا فكرة لديّ عن الموضوع، تلك هي المشكلة. مجرد تخمين."

واستلقت مجدَّداً على السرير مُنهكةً من التعب كما يبدو، متألّمة، ومشوّشة الذهن لدرجة أنها كانت غير قادرة على الجدال. "ماذا ستفعل؟ مات حدّاد، ولا بدّ أن الإسرائيليين رحلوا."

"ممّا يمنحنا الوقت الكافي للعثور على ما كان جورج يبحث عنه 'ضالّة البطل' تلك. لقد ترك أغراضه عَمداً. أرادنا أن نواصل بالبحث."

وسوّت وضعيّة رأسها على الوسادة. "لا، أرادك أن تستمرّ بالبحث بمفردك."

ولاحظ حركتها اللاإرادية الناجمة عن الألم. "دعيني أجلب بعض قطع الثلج لكتفك، فهو مفيد لك."

"لن أجادلك في ذلك."

فوقف، والتقط الدلو الفارغ، واتجه نحو الباب.

"أرغب في معرفة ما الذي يستحق الموت لأجله،" قالت.

فتوقف. "قد يفاجئك مدى صِغَره."

"أفكّر بالاتصال بغاري أثناء ذهابك،" قالت. "أريد التأكد من أنه بخير."

"قولي له إنّني بأنني افتقده."

"هل هو بخير هناك؟"

"سيهتم به هنريك جيداً. لا داعي للقلق."

"إذاً، أين سنبدأ بحثنا؟"

سؤال جيد. ولكنه في تلك اللحظة، وفيما كان يحدّق عبر الغرفة في محتويات الحقيبة أدرك أن هناك إجابة واحدة فقط.

الفصل الثلاثون

لندن

الساعة 9:00 مساءً

كان سابر يحدّق خارج النافذة في ظلمة الليل. فعميلته السرّيّة، التي كانت تنتظر وصول مالون في مطار هيثرو قد لحقت به إلى شقته القائمة في أعلى كتلة مرصوصة من المباني الجَمَلونية الشكل التي تؤمّن له بالتأكيد حياة رفاهة ممتعة، ووضعاً جيداً، وخصوصية حذِرة.

هو نموذج بريطاني صرف.

كانت عميلته السرّيّة قد سمعت أيضاً طلقات نارية صادرة من داخل المبنى، وشاهدت معركة حاسمة تندلع بين مالون ورجل آخر ـ وقد أُصيبت زوجة مالون السابقة بإحدى الرصاصات. ثم فرّ المهاجم، وعاد مالون وزوجته السابقة إلى داخل المبنى قبل أن يغادرا ومعهما حقيبة جلديّة.

كان ذلك قبل ساعات، ومنذ ذلك الحين لم يتلقَّ أي اتصال من عميلته السرّيّة. فقد قضى معظم الوقت بالطبع في رحلة جوّيّة من كولونيا إلى لندن، ولكن مع ذلك، كان يُفترَض بها الآن أن تقدم تقريراً له.

كان تَعِباً، ولكنه مفعم بالطاقة بسبب اقترابه أكثر فأكثر من تحقيق غايته.

وكان قد تمكّن من دخول شقة جورج حدّاد بسهولة، متسائلاً عمّا إذا كان حدّاد موجوداً، ولكن لم يكن يوجد فيها أحد. وكانت الخرائط منثورة على الجدران. فتفحّص بمصباحه القلميّ الشكل مجموعة الخرائط الغريبة، ولكن المواقع في الشرق الأوسط لم تكن مفاجئة بالنسبة له. وكان هناك عدد كبير من الكتب وإضمامات الورق غير المرتَّبة تتناول موضوع الساعة.

مكتبة الإسكندرية.

ظل طيلة الساعة الماضية يدرس المادة على ضوء مصباحه الباهت، ويتساءل عن مصير حدّاد. فالرجل الذي واجهه كوتون مالون في الشارع كان إسرائيلياً. وكان جونا قد أوضح له في روثنبرغ أن فرقة الاغتيال قد توجّهت إلى لندن. هل اعترض مالون طريقهم؟ هل أنجزوا مهمّتهم؟ أم هل فرّ حدّاد واختبأ؟ يستحيل معرفة ما جرى لأن عميلته السرّيّة كانت تلازم مالون بحكمة وحذَر.

لم يعتريه أي شعور بالانتصار بالرغم من تمكّنه من تحديد مكان حدّاد بدقة وفقاً للمخطّط. وكان يأمل فقط في أن تكون عميلته السرّيّة قد قامت بعملها جيداً بشكل مماثل.

كان ينوي استخدام الحاسوب في المرحلة الأخيرة، ولكنه كان بجانبه. لذا، شغّل الجهاز وأخذ يتفحّص الشاشة بدقّة.

وبالرغم من أن الشقة كانت غير مرتّبة، فقد تبيّن له أن حدّاد كان شديد التنظيم في النواحي الالكترونية. فتح عدداً قليلاً من الملفات الالكترونية وأخذ يدقّق في محتوياتها.

كان حدّاد قد أجرى بحثاً مفصّلاً حول مكتبة الإسكندرية، ولكنه أجرى بحثاً عن الحراس أيضاً، بطريقة مثيرة للاهتمام. وكان يعلم ذلك من ألفرد هرمن بالذات. كما أن جونا قد أطلعه على بعض التفاصيل. ولكن أحد ملفات حدّاد كان يحوي مزيداً من المعلومات.

... كانت أصولهم غير معروفة، وقد فُقدت بسبب حماقة الرجال القدماء الذين محوا الذاكرة الإنسانية دون أن يفلتوا من العقوبة.

في القرن الثاني، كان الناس يتقنون فنون الحرب والتعذيب. وتشكّلت امبراطوريات في نواحٍ عديدة من العالم سنّت القوانين وإجراءات الأمان. ولكن أيّاً من تلك المفاهيم لم تحمِ الناس من حكّامهم. ونشأ الدين، وأصبح الكهنة حلفاء للطغاة مستعدّين للقيام بما يطلبونه منهم. كانت مصر إحدى الأماكن التي حدث فيها هذا التشويه. ولكن في حوالي القرن الثاني نشأت جماعة دينية مصريّة لم تقدّس القوة بل قدّست الحفاظ على المعارف.

وبدأ في ذلك الوقت نموذج فظّ من الأديرة حيث يجتمع رجال متشابهين في التفكير والهدف. وقد عُزلت هذه الأماكن عَمداً وتمّ تجنّبها

بشكل مستقبَح. إلا أن هذه الجماعة كانت محظوظة بصفة خاصة. وقد عمل أعضاؤها عملياً في مكتبات الإسكندرية كتّاباً وقيّمين. وانطلاقاً من هذه المناصب الخدماتية كان ولوج أي شيء ممكناً. وبسبب ازدهار التسابق بين الناس وتعلّمهم المزيد عن كيفيّة إبادة بعضهم البعض، انطوت هذه الجماعة على نفسها.

كانوا ينسخون النصوص فقط في بادئ الأمر، ولكنها سُرقت في النهاية. وأدّى هذا الحجم الضخم للمكتبة (عدة آلاف من المخطوطات) إلى اتخاذ قرارات، ولكن سرقة النصوص باتت أسهل في السنوات الثلاثمئة التالية لأن المكتبة لم تعُد تحظى بالتكريم، وخصوصاً عندما لم تعد توجد جردة دقيقة بالموجودات. وفي زمن الفتح الاسلامي في القرن السابع، كان الحراس يملكون قسماً كبيراً من المكتبة في الإسكندرية. وفي تلك الحقبة، توارى الحراس عن الأنظار وباتوا يظهرون من وقت لآخر مقدّمين دعوات للقدوم والتعلّم.

واستمرّ سابر بالقراءة، متسائلاً كيف تمكّن جورج حدّاد من الحصول على هذه المعلومات المفصّلة. يبدو أن هذا الفلسطيني مليء بالمفاجآت.

فجأة تنبّهت حواسه بحركة من طرف عينه. وبدأت الظلال تزخر بالحياة، ودنا منه شكل مُظلم.

رفع يداه عن لوحة المفاتيح. ولم يكن يحمل أي سلاح لسوء الحظ. فاستدار مستعدّاً للقتال.

وظهرت أمامه امرأة على ضوء توهّج شاشة الحاسوب.

إنها عميلته السرّيّة.

"قد يصيبك هذا النوع من الحماقة بالأذى،" قال لها.

"لست في مزاج ملائم."

كان يستخدمها بشكل منتظم لمساعدته في كافة أنحاء بريطانيا. وكانت ممشوقة القدّ وذات ميزات حسنة. وفي هذا اليوم، كان شعرها الأسود ممشّطاً بشكل متماسك ومضفوراً بجدائل كبيرة.

"أين كنت؟" سألها.

"أتتبّع مالون. إنهما في أحد الفنادق قرب الهايد بارك."

"ماذا عن حدّاد؟"

فهزّت رأسها. "لا أعلم، كنت ألازم مالون. لقد جازف بالعودة إلى هنا - وكانت الشرطة في طريقها إلى هذا المكان - وغادر ومعه حقيبة."

فأُعجب بفِطرتها. "ما زلنا بحاجة إلى العثور على الفلسطيني."

"سوف يعود إن لم يكن قد لاقى حتفه بعد. إنك تبدو مختلفاً."

فقد زالت خصلات شعره الداكنة اللمّاعة وتخلّى عن ملابسه السميكة. وبدلاً من ذلك، كان شعره قصيراً، عصفت به الريح، وبنّيّاً بلون الرّمل. كان أنيق الملبَس يرتدي جينزاً وقميصاً من الكانفا تحت سترة من القماش. وكان قبل مغادرته ألمانيا قد تقدّم أوّلاً بتقرير إلى شاغل الكرسي الأزرق حول المعلومات التي جمعها، وبعد ذلك أدخل تغييرات على مظهره - وكل ذلك جزء من مخطّطه الذي تمّ تصوّره بعناية، والذي لا يعلم ألفرد هرمن إلا القليل عنه.

"هل يعجبك؟" سألها.

"لقد أحببت المظهر الآخر."

فهزّ كتفَيه. "ربما المرة القادمة. ماذا يجري؟"

"لديّ أشخاص يراقبون الفندق. سيقومون بالاتصال عند أول حركة يقوم بها مالون."

"هل من شيء عن الإسرائيليين؟"

"لقد غادر رجلهم على عجَل."

فنظر من حوله. ربما لن يكون عليه سوى انتظار عودة حدّاد فحسب. فهذه الطريقة هي الأسهل على ما يبدو. وهو أيضاً بحاجة إلى معرفة كل ما هو موجود في حاسوب حدّاد، ولكنه لا يريد أخذ الجهاز معه. فقد يعرقل هذا الأمر تحرّكاته كثيراً، وسيكون من الأفضل استصدار نسخة عن الملفات. ولاحظ إصبعاً من الذاكرة موضوعاً بين الأغراض المبعثَرة. فالتقط الأداة الصغيرة ووضعها داخل المنفذ الخاص بها. تحقّق منها فوجدها فارغة.

وببضع نقرات على زرّ الفأرة، استطاع أن ينسخ كل الملفات من قرص الحاسوب.

وعندئذٍ لمح شيئاً آخر وراء المرقاب.

ضوء أحمر صغير.

فحدّق عن قُرب بين مجموعة الأوراق غير المرتَّبة ورأى مسجّلة جيب صغيرة موضوعة على الطاولة. فرفعها ولم يلاحظ أي فرق في طبقة الغبار التي تغطّي وجه الطاولة الخشبي، ممّا يعني أن المسجّلة وُضعت هناك مؤخَّراً. وكان الشريط في نهايته، ولكن المسجّلة ما زالت مضاءة. فضغط على زرّ إعادة اللّف.

ولزمت عميلته السرّيّة الصمت.

ثم ضغط على زرّ تشغيل الشريط. وكان اللقاء بين مالون وحدّاد والإسرائيليين، مسجَّلاً. فاستمع بدهشة إلى كيفيّة مقتل حدّاد. وكان آخر ما سمعه تصريح كوتون مالون بأنه ينوي قتل ذلك الأحمق.

وأطفأ المسجّلة.

"هل مات حدّاد؟" سألت المرأة. "هل قُتِل هنا؟ لماذا لا يشبه ليس هذا المكان مسرحاً للجريمة؟"

"أفترض أن الإسرائيليين نظّفوا المكان قبل وصول الشرطة."

"والآن ماذا؟"

"لدينا مالون. هيا بنا لمعرفة المكان الذي سيقودنا إليه."

الفصل الحادي والثلاثون

غادر مالون الغرفة متوجِّهاً نحو الرُّدهة. كان قد لاحظ في وقت سابق وجود آلة لقطع الثلج، الأمر الذي أثار دهشته لأن وسائل الراحة الأميركية أخذت تجتاح الفنادق الأوروبية أكثر فأكثر.

كان غاضباً من نفسه بسبب تعريض بام للخطر. ولكن هل كان هناك خيار آخر؟ لم يكن بإمكانه تركها في مطار هيثرو مع رجل يلاحق خطواتها. ومن كان هذا الرجل؟ ربما كان متورطاً مع أولئك الذين اختطفوا غاري؟ بدا له ذلك الأمر منطقياً، ولكنه ما زال يجهل الكثير.

كان الإسرائيليون قد استجابوا بسرعة لإشارة حدّاد التي أظهرت أنه كان ما يزال على قَيد الحياة، ومع ذلك فقد كانت بام مُحِقة. فبموت حدّاد، تحمى مصالحهم، "وُحلّ مشكلتهم. ولكن بالرغم من ذلك فإن بام هي التي تمّت ملاحقتها وليس هو.

لماذا؟

غيَّر مالون آلة قطع الثلج وتبين له أنها معطلة. فمع من أن الضاغط فيها يرتجّ بعنف إلا أنها لا تحتوي على ثلج في خزّانها. ففكر أن هذا شبيه بما يحدث في أميركا أيضاً. دفع باب بيت الدَّرَج ونزل طابقاً واحداً.

هناك، كانت الآلة تطفح بقطع الثلج. فوقف في حُجَيرة بجانب الرُّدهة وملأ السطل الذي يحمله.

ثم سمع صوت باب إحدى الغرف يُغلَق بقوة، ومن ثمّ أصواتاً أخرى. وكان ما يزال يغرف قطع الثلج عندما مرّ من أمامه رجلان يتحدّثان باضطراب. فاستدار

ليغادر وما لبث أن لمح جانبية وجه أحد الرجلَين، وكان طويل القامة، نحيلاً، وذا بشره لفحتها الشمس.

إنه سترينغ بيم من هيثرو.

هنا في الطابق السفلي للمكان الذي يقيمان فيه.

تراجع إلى داخل الفجوة والقى نظرة متفحّصة على المدخل، مراقباً الرجلَين وهما يدخلان المِصعد.

ويتجهان إلى الطابق العُلوي.

فأسرع نحو باب بيت السلَّم وصعد الدرجات وثباً وبسرعة كبيرة. وفتح الباب على مهل في اللحظة التي أصدر المِصعد فيها طنيناً وخرج الرجلان منه بمشية متمهّلة.

فانسلّ من الباب وألقى نظرة متفحّصة وحذِرة على الممرّ. وشاهد أحد الرجلَين يلتقط صينيّة طعام مستعمَلة خاصة بخدمة الغُرَف عن السجادة ويحملها بيد واحدة بشكل متوازن. أما الرجل الآخر فقد أخرج مسدساً قصير الماسورة، واتّجها مباشَرةً نحو الغرفة حيث تنتظر بام.

لعن نفسه.

فقد بقي مسدس حدّاد على إحدى الطاولات في الغرفة، ولم يأخذه معه. يا للنكاء! وكان عليه الارتجال.

توقّف الرجلان عند الباب. ثم قرع الرجل الذي يحمل مسدساً الباب وتنحّى جانباً بعد نلك. وادّعى الآخر أنه خادم وهو يحمل الصينيّة عالياً بيد واحدة.

قرعة أخرى على الباب. لعل بام لا تزال تتحدّث إلى غاري عبر الهاتف؟ ممّا يمنحه اللحظة التي هو بحاجة إليها.

"خدمة الغُرَف،" سمع الرجل يقول.

وخلافاً للفنادق الأميركية، فإن البريطانيين لم يزودوا أبواب فنادقهم بثقوب للنظر، ولم يكن هذا الفندق استثناء. وأمِل في ألا تُدير بام المِقبَض.

"لديّ الطعام الذي طلبتموه،" قال الرجل بصوت مرتفع. وتوقّف قليلاً.

"السيّد هو الذي طلب الطعام."

تبّاً، قد تعتقد بام بلا تردّد بأنه قام بطلب الطعام أثناء نومها. عليه أن يتصرّف الآن. فرفع سطل الثلج لكي يخفي وجهه وسار في الرُّدهة.

"الطعام هو لهذه الغرفة،" كان الرجل يشرح.

ثم سمع صوت فتح الأقفال.

أخذ يحدّق من وراء الدلو المرفوع، فرأى أن الرجل المسلّح قد تنبه إلى وجوده وأخفى المسدس عن الأنظار. استغل مالون لحظة الاسترخاء هذه لصالحه وقذف الثلج والدلو على وجه الرجل المسلّح، ثمّ سدّد بقبضته اليمنى لكمةً إلى فك الرجل الذي يحمل الصينيّة. فانكسرت العظمة اليسرى من فكّه ووقع على الأرض، وتبعثرت الصينيّة ومحتوياتها.

استعاد الرجل الأول وعيه من صدمته الأولى وحاول أن يشهر مسدسه عندما سدّد إليه مالون لكمتَين على رأسه أعقبها بركلة من ركبته على صدره فانهار المهاجم كلياً على الأرض وغدا بلا حراك.

وفُتح باب الغرفة.

وأخذت بام تحدق فيه.

"لمَ كنتِ ستفتحين ذلك الباب؟" سأل.

"ظننت أنك طلبت الطعام."

التقط المسدس وأقحمه في حزامه. "وهل كنت لأخفي عنك ذلك؟" ثم فتّش الرجلَين بسرعة ولم يجد لديهما أي هويّة تعريف.

"من هم هؤلاء؟" سألت بام.

"ذاك الذي كان يلاحقك في المطار."

فأمسك بذراعَي سترينغ بيم وجرّه إلى غرفتهما. ثم التقط قدمَي الرجل الآخر وسحبه إلى الداخل. "أنت امرأة عنيدة." وأغلق الباب بركَلة.

"كنت جائعة."

"كيف حال غاري؟"

"إنه بخير، ولكنني لم أتمكّن من قول الكثير."

وبدأ أحد الرجلَين بالأنين، وسيستعيد الاثنان وعيَهما قريباً. فالتقط الحقيبة الجلدية ومسدس حدّاد وقال: "هيّا بنا."

"هل سنغادر؟"

"ما لم ترغبي في أن تكوني في الجوار عندما يستفيقان."

ولاحظ أن ذلك الاحتمال لم يَرُق لها.

"لديك مسدس،" قالت منكِرة إياه.

"ولا أريد استخدامه. لسنا في الغرب الأميركي المتوحش. نحن في فندق، مع الناس. لذا، فلنقُم بالأمر الحكيم ونغادر. هناك العديد من الفنادق الإضافية في هذه المدينة."

التقطت اللِّفاع وغطّت كتفَيها برِفق، وغادرا الغرفة وبلغا المِصعد بسرعة. خرجا من الطابق السُّفلي إلى ليل بارد. تفحّص المكان المحيط به وتبين له أن من الصعب معرفة ما إذا كانا ملاحَقَين أم لا. كان عليه التحقّق من أمور كثيرة تحيط بهما. وكانت أقرب محطة لمترو الأنفاق على بُعد مجمّعَين سكنيَّين، لذا اتّجه نحوها عازماً على التزام الحذَر الشديد.

كان عقله مشوَّشاً. كيف تمكّن رجل هيثرو من العثور عليهما؟ والأكثر مَدعاةً للقلق هو أن الرجل الذي ادّعى أنه مُضيف كان يعلم أنه لم يكن في الغرفة؟

'السيّد هو الذي طلب الطعام'.

والتفت إلى بام وهما يسيران. "هل قلتِ لذلك الرجل عبر الباب إنك لم تطلُبي أي شيء؟"

فهزّت رأسها مؤكدةً الأمر. "عندها قال إنك أنت الذي طلبت."

الأمر غير صحيح تماماً. فقد قال إن رجلاً 'هو الذي طلب الطعام'.

ولكن مع ذلك، هل يكون تخمينه صحيحاً؟

على الإطلاق.

الفصل الثاني والثلاثون

واشنطن، العاصمة

الساعة 9:00 مساءً

اقتادت ستيفاني كاسيوبيا عبر الحي المجاور الهادىء. وكانتا قد بقيتا مختبئتَين في الضواحي السكنيّة طيلة الساعات القليلة الماضية. كما أنها أجرت اتصالاً هاتفياً واحداً بالمقرّ الرئيسي لوكالة بيليت من هاتف عمومي في أحد مطاعم كراكر باريل، وعلِمت أن مالون لم يُجرِ أي اتصال هاتفي، وكذلك البيت الأبيض. كان مكتب لاري دالي قد اتصل ثلاث مرات، وكانت قد طلبت من موظّفيها القول بأنها ستعاود الاتصال به في الفرصة الأولى المؤاتية. وعلِمت أن الأمور ستتفاقم. ولكن لتدَع دالي يتساءل عمّا إذا كانت المرة التالية التي سيرى فيها وجهها البشوش ستكون عبر نقل مباشر من محطة سي أن أن. ويُفترَض أن تكون تلك الخَشية كافية في الوقت الحاضر لكبح جماح نائب مستشار الأمن القومي. ومع ذلك فقد، كانت هيذر ديكسون والإسرائيليون يشكلون بالنسبة لها مسألة أخرى.

"إلى أين نحن ذاهبتان؟" سألت كاسيوبيا.

"لمعالجة مشكلة."

كان هذا الحي السكني مُثقَلاً بالهندسة المعمارية التقليدية التي كانت متناغمة مع أرباب الصناعة في القرن التاسع عشر الذين كانوا أوّل من شيّد الجادّات التي تحدّها الأشجار من الجانبَين. وكانت صفوف المنازل القائمة منذ عهد الاستعمار والممرّات المرصوفة بالحجارة تزيد من مظهر الثراء في الجوّ الليليّ.

"لست واحدة من عملائك،" قالت كاسيوبيا. "وأرغب في معرفة الأمر الذي تقحمينني فيه."

"يمكنك المغادرة متى شئت."

"محاولة جيدة. لن تتخلّصي منّي بهذه السهولة."

"إذاً توقّفي عن طرح الأسئلة. هل تُزعجين ثورفالدسن بهذه الطريقة؟"

"لمَ لا تحبّينه؟ كنتِ تُحكمين الخِناق عليه في فرنسا."

"انظري أين أصبحت، يا كاسيوبيا. كوتون في ورطة، وجماعتي الخاصة تريدني مَيتة، والإسرائيليون والعرب يلاحقونني. هل تظنّين أنه من الحكمة أن أحبّ أحداً؟"

"هذه ليست إجابة عن سؤالي."

لا، لم تكن كذلك، ولكنها لم تكن قادرة على البَوح بالحقيقة. ذلك لأن شراكة ثورفالدسن مع زوجها الراحل، جعلته يعرف نقاط القوّة والضعف لديها، وكانت تشعر بأنها عُرضة للأذى بجانبه.

"لنقل فقط إننا مُلمّين ببعضنا البعض إلى حدٍّ بعيد."

"هنريك قلق عليك، لذلك طلب منّي المجيء. لقد شعر بحدوث مشكلة ما."

"أقدّر له ذلك. ولكن هذا لا يعني أن عليّ أن أحبّه."

ثم عيّنت موقع المنزل، وهو أحد المنازل القرميدية العديدة المتماثلة التي تحمل نقوشاً، وتحتوي على مدخل مظلّل، وسقف مزدوج التحدّر. وكانت الانوار مُضاءة في نوافذ الطابق السُفلي فقط. فتفحّصت الشارع.

هادئ تماماً.

"اتبعيني."

نادراً ما ينام ألفرد هرمن. فقد كيّف عقله منذ زمن بعيد ليعمل دون أن يرتاح لأكثر من ثلاث ساعات.

لم يكن مسنّاً بما يكفي ليكون قد شهد الحرب العالمية الثانية شخصياً، رغم أنه يملك ذكريات واضحة عن طفولته عندما كان النازيّون يستعرضون جنودهم في

شوارع فيينا. وفي العقود التي تلت ذلك، كان يشارك بفعّاليّة في المعارك ضد السوفيات، ويتحدّى الأنظمة التي هيمنت على النمسا وكانت كالدمى في أيديهم. وتعود ثروة أسرة هرمن إلى عهد هابسبرغز، وقد تمكّنت من المحافظة عليها طيلة قرنَين من السياسات المتقلّبة. ثم كبرت ثروة العائلة عشرة أضعاف خلال السنوات الخمسين الماضية، ويعود الفضل في قسم كبير من هذا النجاح إلى جماعة الجِزّة الذهبيّة. لم ينعم والده وجدّه أبداً بالفوائد التي عادت عليه نتيجة لمشاركته الحميمة لهذه الجماعة المختارة من كافة أنحاء العالم. ولكن المنافع تكون أكبر عندما يكون المرء في سدّة المسؤولية.

ومع ذلك فإن مدة ولايته شارفت على الانتهاء.

فعند وفاته، سوف ترث ابنته كل شيء، ولم يكن مرتاحاً لهذه الفكرة. فقد كانت تشبهه إلى حدٍّ كبير في بعض النواحي: واثقة وعازمة، وتقدّر الماضي، وترغب في امتلاك المنتجات البشرية الأعلى ثمناً، أي المعرفة، بحماسة مماثلة لحماسته. ولكن شخصيتها لم تصقل بعد، وهي تعمل على ذلك، ولكنه يخشى من أن هذا الصقل لن يكتمل أبداً.

أخذ يحدّق بابنته التي لا تنام كثيراً مثله. وكان قد سمّاها مارغريت تيمّناً بوالدتها. وكانت تعجب بنموذج مكتبة الإسكندرية.

"هل يمكننا العثور عليها؟" سألت بهدوء.

فاقترب منها. "أعتقد أن دومينيك على وشك العثور عليها."

رمقته بنظرات ثاقبة وعينَين رماديّتَين. "لا يمكن الوثوق بسابر. لا يُفترَض الوثوق بأي أميركي."

وكانا قد تباحثا في ذلك قبلاً. "لا أثق بأحد."

"ولا حتى بي؟"

فابتسم ابتسامة عريضة، وكانا قد ناقشا ذلك الأمر أيضاً من قَبل.

"ولا حتى بك."

"يملك سابر قَدراً كبيراً من الحرّيّة."

"لماذا نَبخل عليه؟ إننا نكلّفه بمهام صعبة. لا يمكنك القيام بذلك وتتوقّعي منه العمل كما يناسبنا."

"إنه مشكلة ـ براعة أميركية وكل تلك الأمور ـ أنت لا تعرفها فحسب."

"إنه رجل عنيد. ويحتاج إلى تحقيق هدف ما، ونحن نوفّر له ذلك الهدف. وهو في المقابل، يقوم بتعزيز غاياتنا."

"لقد جعلني مؤخراً أشعر بأمور إضافية. إنه يحاول جاهداً إخفاء طموحه، ولكن لديه طموح. ما عليك إلا الانتباه منه فقط."

وظنّ أن سابر يسخر منها. "ربما كنتِ منجذبة إليه؟"

فهزئت من سؤاله. "لن يحدث هذا أبداً. في الواقع، سأطرده بعد رحيلك."

وتساءل عن افتراضها بأنها سوف ترث كل ما يملك. "لا شيء يضمن أنك ستكونين شاغلة الكرسي الأزرق. فذلك الاختيار هو من شأن الرؤساء الآخرين."

"ساكون من ضمن الحَلْقة، أؤكّد لك ذلك. وما هي إلا خطوة بسيطة لبلوغ المنصب التي تشغل."

ولكنه لم يكن واثقاً من الأمر. فقد كان مدركا لصِلاتها بالرؤساء الأربعة الآخرين، وكان قد شجّعهم على ذلك لاختبارهم. كما أن ثروته تفوق ثروة الآخرين بالقِدم والحجم والاتساع. وكانت المؤسسات المالية التي يشرف عليها تواجه مشاكل معقّدة مع العديد من أعضائها، بمن فيهم ثلاثة من الرؤساء. ولم يكن أيّ منهم يريد أبداً أن يعرف الآخرون بمدى هشاشتهم، وطالما كان ولاؤهم ثمناً لصمته. كان قد استخدم نقاط ضعفهم بمهارة طيلة عقود من الزمن، ولكن محاولات ابنته كانت عديمة التأثير. لذلك، كانت الدعوة إلى الحِرص في مكانها. "متى رحلتُ، سيكون على دومينيك التعاطي معكم حقاً، كما سيكون عليكم التعاطي معه. ولكن لا تستعجلوا الأمر. فرجال مثله مجرّدون من العاطفة؟ لا يعترفون بالأخلاقيات؟ قلب جريء؟ قد تجدونهم قيّمين."

وأمل في أن تستمع إلى ما يقول، ولكنه خشي من ألا يعلق شيء في ذهنها كما كانت الحال على الدوام. لقد توُفّيت والدتها عندما كانت في الثامنة من عمرها، وكانت تبدو في صباها نسخة عنه - 'من الضِلع' كما كانت تحب أن تقول - ولكن العمر لم يؤدِّ إلى إنضاج ذلك التوقّع المُبكر. فقد بدأت تعليمها في فرنسا، وأكملته في إنكلترا، وأتمّته في النمسا، وحصلت على خبرتها في ميدان الأعمال في قاعات اجتماعات العديد من شركاته.

ولكن التقارير الواردة لم تكن مشجّعة.

"ماذا ستفعل إذا عثرتَ على المكتبة؟" سألته.

أخفى سروره. يبدو أنها لم تعُد راغبة في مناقشة أمر سابر أو أمرها. "لا يمكن تخيّل الأفكار العظيمة الموجودة هناك."

"سمعتك بالأمس تتكلّم عن تلك الأفكار. أخبرني المزيد."

"آه، إنّها خارطة بيري رايس التي ترقى إلى العام 1513 والتي عُثر عليها في اسطنبول. كنت أتكلّم عنها باستمرار. لم أكن أعلم أنك تستمعين."

"أستمع على الدوام."

ابتسم ابتسامة عريضة لهذه الملاحظة. فكلاهما يعلم أن الأمر لم يكن كذلك.

"كنت أخبر المستشار كيف أن أميرالاً تركياً، كان فيما مضى قرصاناً، رسم الخارطة على جِلد غزال. إنها مليئة بتفاصيل مدهشة. يظهر فيها الخط الساحلي لأميركا الجنوبية، عِلماً أن البحّارة الأوروبيين لم يكونوا قد رسموا تلك المنطقة. ويظهر فيها المحيط الأطلسي أيضاً قبل وقت طويل من تغطيته بالجليد. لم نتمكّن من تحديد الخط الساحلي ذاك إلا مؤخَّراً من خلال رادار أرضي. ومع ذلك، فإن الرسم الذي وُضع عام 1513 يضاهي بدقته الرسوم التي وضعناها. وعلى الجهة الأمامية للخارطة، ذكر رسّام الخارطة أنه استخدم خرائط وُضعت في زمن الإسكندر ذي القرنَين. هل تتخيلين ذلك؟ لعل بحّارة قدماء كانوا قد زاروا القارّة القطبية الجنوبية قبل آلاف السنين ودوّنوا ما رأوا، وذلك قبل تراكم الجليد."

كان فكر هرمن مشغولاً بما يمكن أن يكون قد فُقد أيضاً من معارف في حقول الرياضيات، والفلك، وعلم الهندسة، وعلم الأرصاد الجوية، والطب.

"إما أن تكون المعارف غير المدوَّنة قد فقدت أم أنها شُوِّهت وبات التعرّف إليها أمراً صعباً. هل تعرفين ديمُقريطُس؟ إنه هو الذي تصوّر المفهوم القائل إن كل الأشياء مصنوعة من عدد متناهٍ من الجسيمات المنفصلة، وندعوها اليوم ذرّات، ولكنه كان أول من سلّم بوجودها وصاغ النظرية الذّرّية. وقد ألَّف سبعين كتاباً ـ نعرف ذلك من مراجع أخرى ـ ولكنها فقدت. وقد مرّت عدة قرون قبل قيام أشخاص آخرين، وفي أزمنة أخرى، بالتفكير بالشيء نفسه.

"لم يبقَ شيء تقريباً من كتابات فيثاغورس. وكان مانيتو قد دوّن تاريخ مصر، ولكنه فُقد. وماذا عن الطبيب جالينوس الروماني العظيم؟ لقد كتب خمسمئة

مؤلِّف طبّي لم يتبقَّ منها إلا النَّزر القليل. وكان أرِسطَرخُس يظن أن الشمس، لا الأرض، هي مركز الكون. ولكن كوبرنيكوس الذي عاش بعد سبعة عشر قرناً هو الذي نَسب إليه التاريخ ذلك الكَشف."

كان يفكّر بالمزيد. عالما الجغرافيا، إيراتوستين وسترابو، وعالم الفيزياء والرياضيات أرخميدس، وعالم النَّحو زينون، والشاعر كاليماخوس، والفيلسوف الأول طاليس.

لقد ذهبت كل أفكارهم.

"الأمر كذلك على الدوام،" قال. "المعارف هي أوّل ما يتمّ اجتثاثها بعد أن نحصل على النفوذ. لقد أثبت التاريخ ذلك مراراً وتكراراً."

"إذاً ما هي مخاوف إسرائيل؟" سألت.

وكان يعلم أنها ستُثير ذلك الموضوع معه.

"لعلها مخاوف أكثر مما هي وقائع،" قالت. "فتغيير العالم عمل صعب."

"ولكن يمكن القيام به. فالرجال -" وتوقّف قليلاً "- والنساء قاموا بالأمر طوال قرون. لم يكن العنف على الدوام سبب معظم التغييرات الكبيرة. وغالباً ما كانت الكلمات وحدها كافية. فقد بدّل الكتاب المقدّس الناس بشكل جوهري، وكذلك القرآن، والماغناكارتا (الميثاق الأعظم)، والدستور الأميركي. وهناك مليارات من البشر يحكمون بواسطة تلك الكلمات، وقد تبدّل المجتمع من خلالها. لم تكن الحروب هي التي بدّلت مسار التاريخ بقَدر ما كانت المعاهدات التي تبعتها. فقد بدّلت خطة مارشال العالم بسرعة أكبر ممّا بدّلته الحرب العالمية الثانية نفسها. الكلمات هي الأسلحة الحقيقية للدمار الشامل."

"لقد تفادَيت الإجابة عن سؤالي،" قالت بنبرة لَعوب ذكّرته بزوجته المتوفّاة منذ زمن طويل.

"ما هي مخاوف إسرائيل؟" قال مكرِّراً كلامها.

"لماذا لا تخبرني؟"

"ربما لأنني لا أعرف."

"أشكّ في الأمر."

وفكّر مليّاً بأن يخبرها بكل شيء، ولكنه ما كان ليبقى على قَيد الحياة لو كان أحمق وباح بما يعرف. فلطالما كان الكلام غير الخاضع لأي ضوابط سبباً لسقوط أكثر من رجل واحد ناجح.

"لنقل ببساطة إنه يصعب على الدوام تقبّل الحقيقة. للشعوب، والثقافات، وحتى بالنسبة للأمم."

مشت ستيفاني في المقدّمة إلى داخل الفناء الخلفي وقد روّعها مظهره المشذّب. كان هناك الكثير من الأزهار: نَجميّات ملوَّنة، وعصا الذهب، وبنفسجاً مثلّثة الألوان، وأُقحوان. وكانت هناك مصطبة وُضعت على بلاطاتها بشكل مبعثر قِطع أثاث من الحديد المشغول، ومزيد أوعية الزينة المليئة بالنباتات.

ثم اقتادت كاسيوبيا نحو جِذع شجرة قَيقَب طويلة، وهي إحدى الأشجار الثلاث العظيمة التي تظلّل الحديقة.

وتحقّقت من ساعتها: كانت الساعة تشير إلى 9:43 مساءً.

كانت قد بلغت هذا المكان البعيد في ظلّ مزيج من الغضب والفضول، ولكنها ستتخطى حدودها في الخطوة التالية بطريقة لا تقبل الجدَل.

"جهّزي المسدس الهوائي،" قالت هامسة.

أدخلت رفيقتها سهماً في الماسورة. "آمل في أن تسجّلي طاعتي العمياء لهذه الحماقة."

وفكّرت مليّاً بالخطوة التالية.

كان اقتحام المنزل بالنسبة لها خياراً مؤكداً، وكانت كاسيوبيا تملك المهارات الضرورية لذلك. ولكن قد يكون قَرع الباب ببساطة عملاً مُجدياً أيضاً. ففضّلت اللجوء إلى ذلك الخيار. ومع ذلك، بات طريقهما ممهَّداً على الفَور عندما فُتح الباب الخَلفي وخرج منه ظل أسود وأخذ يسير بين الأعمدة الرفيعة التي تحمل صفاً آخر من الأعمدة القصيرة. كان الرجل الطويل القامة يرتدي ثوب حمّام مربوط عند الخَصر، وينتعل خُفَّين يحفّان أرض المصطبة.

أشارت ستيفاني إلى المسدس، ومن ثمّ إلى الشكل.

صوّبت كاسيوبيا وأطلقت السهم.

كان صوت الطلقة خفيضاً، ثمّ سمع صوت حفيف مع انطلاق السهم.

فأصاب السهم رأس الرجل فصرخ بينما كانت يده تمتدّ نحو كتِفه. وبدا أنه يحرّك السهم بأصابعه، ولهث بعد ذلك، وانهار.

أسرعت ستيفاني نحوه. "المادّة سريعة المفعول."

"هذه هي الغاية من استخدامها. من هذا؟"

وحدّقتا بالرجل.

"أهنّئك. لقد أصبتِ المدّعي العام في الولايات المتحدة. ساعديني الآن على سحبه إلى داخل المنزل."

الفصل الثالث والثلاثون

الثلاثاء 6 تشرين الأول/ أكتوبر

لندن

الساعة 3:15 صباحاً

درس سابر الملفات الموجودة في حاسوبه المحمول. وكان قد قضى الساعات الثلاث الأخيرة يتفحّص ما نسخه عن حاسوب جورج حدّاد.

فصُعِق للأمر.

لم تكن المعلومات بالتأكيد أقل من تلك المعلومات التي كان سيجمعها من الفلسطيني نفسه، ومن دون أن يضطر إلى إجبار العربي على التكلّم. كان حدّاد قد أمضى على ما يبدو سنوات وهو يبحث في موضوع مكتبة الإسكندرية مع الحراس الخرافيين، مستوعباً مجموعة مؤثّرة من البيانات.

وكان هناك سلسلة كاملة من الملفات المتعلّقة بإيرل إنكليزي يُدعى توماس باينبريدج كان قد سمع ألفرد هرمن يتحدث عنه. وبحسب حدّاد، فقد زار باينبريدج مكتبة الإسكندرية في أواخر القرن الثامن عشر، وكتب بعد ذلك رواية حول خبرته تحتوي، بحسب المذكرات، على تلميحات عن مكان المكتبة.

هل عثر حدّاد على نسخة؟

هل هذا ما حصل عليه مالون؟

ثمّ أنه كان أيضاً هناك عقار باينبريدج شمال لندن الذي ورثه عن الأجداد. وكان حدّاد قد زاره عدة مرات كما يبدو معتقداً أن مزيداً من التلميحات موجودة

هناك، ولا سيّما في ما يتعلّق بمحور عجلة من الرخام وشيء ما يُدعى 'تجلّي القديس جيروم'. ولكن لا يوجد تفاصيل تشرح معنى أي منهما.

وبعد ذلك، كانت هناك ضالّة بطل الرواية.

وكان قد عثر قبل ساعة من الزمن على رواية قصصيّة لما حدث قبل خمس سنوات في منزل حدّاد في الضفة الغربية. فقرأ المدوّنات باهتمام، وها هو الآن يعيد تجميع الأحداث في ذهنه وقد أُثيرت حماسته.

"تقول إن المكتبة ما زالت موجودة؟" سأل حدّاد الحارس.

"لقد حميناها طيلة عقود من الزمن، وأنقذنا ما كان ليُفقَد بسبب الجَهل والطمع."

لوّح حدّاد بالمغلّف الذي كان قد سلّمه إيّاه ضيفه. "هل ترشدنا ضالّة البطل هذه إلى الطريق؟"

هزّ الرجل رأسه مؤكّداً الأمر. "للذين يفهمون، ستكون الطريق واضحة وجليّة."

"وإذا لم أفهم؟"

"إذاً لن نرى بعضنا البعض أبداً مجدداً."

ثم فكّر مليّاً بالاحتمالات وقال، "أخشى أن يكون من الأفضل بقاء ما أريد معرفته طيّ الكتمان."

"لمَ تقول ذلك؟ يجب أن لا نخاف أبداً من المعرفة. عملك مألوف لديّ. وأنا أيضاً قد درست العهد القديم . ولهذا السبب تمّ اختياري حارساً لك." وامتلأ وجه الرجل الأصغر سنّاً بريقاً. "إننا نملك مصادر لا يمكنك تخيّلها: نصوص أصليّة، ومراسلات، وتحاليل وضعها أناس منذ زمن بعيد كانوا يعرفون أكثر ممّا نعرف بأشواط. وبراعتي بالعبريّة القديمة لا تضاهي براعتك. وكما ترى، فإن هناك مستويات من الإنجاز يمكن للحارس بلوغها، والطريقة الوحيدة للارتقاء هي عبر تحقيق إنجازات. وأنا مثلك تماماً، مفتون بالترجمة المسيحية للعهد القديم وبكيفيّة معالجتها. أريد أن أعلّم المزيد، وأنت، يا سيّدي، قادر على تعليمي."

"والتعلّم سيساعدك على الارتقاء؟"

"إن إثبات نظريّتك سيكون إنجازاً عظيماً لكلَينا معاً."

لذا فتح المغلّف.

ثم انتقل سابر إلى الملف الذي يضمّ محتويات المغلّف. ويبدو أن حدّاد كان قد أدخل المستند إلى الحاسوب بواسطة ماسح إلكتروني. كانت الكلمات مكتوبة بخط يدوي نكوري حادّ الزوايا، وكلها باللاتينية. ولحسن الحظ، ترجم الرسالة. وراح سابر يقرأ ضالّة البطل، وهو الطريق المفترَض إلى مكتبة الإسكندرية.

كم إن المخطوطات غريبة، سفر مَديد إلى المجهول. تظهر وكأنها منفصلة، ولكنها تبدو واحدة لأولئك الذين يعلمون أن ألوان قوس قُزح تصبح ضوءاً أبيض واحد. كيف السبيل إلى العثور على ذلك الشعاع الوحيد؟ إنه لغز، ولكن إذهب بزيارة المُصلّى بالقرب من نهر التاج، في بيت لحم، المكرَّس لسيِّدنا القدّوس. إبدأ الرحلة في الظلال وأكملها في النور حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً، ويحوّل الفضة إلى ذهب. اعثر على المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر. وبعدئذٍ، سوف يغمرك نور الالهام مثل رعاة الرسام بوسّان، الذين أربكهم اللُّغز. أعِد تجميع الحجارة الأربع عشرة، واستخدم بعد ذلك الزاوية القائمة والبِركار لإيجاد الطريق. وعند الظهر، تحسّس وجود الضوء الأحمر، وانظر إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً. ولكن انتبه للحروف. فالخطر يُحدِق بالذي يصل بسرعة كبيرة. وإذا بقي مسارك صحيحاً، فإن الطريق ستكون موثوقة.

هزّ سابر رأسه. مجرّد ألغاز. لم يكن بارعاً بها ولم يكن يملك الوقت للتعاطي معها. لقد حصل على كل الملفات من الحاسوب، ولكن حدّاد لم يحلّ رموز الرسالة.

وهنا تكمن المشكلة.

لم يكن سابر مؤرّخاً، أو لغويّاً، أو باحثاً في الكتاب المقدّس. ألفرد هرمن هو الخبير المفترَض، ولكن سابر أخذ يتساءل عن مقدار ما يعرفه النمساوي في الواقع. وكان كلاهما انتهازيّاً يحاول استغلال الفرصة الفريدة لأقصى درجة.

ولكن لأسباب مختلفة.

يحاول هرمن تخليد ذِكراه، ووسم علامته الفارقة على جماعة الجِزّة الذهبية،

وربما أيضاً التمهيد لارتقاء ابنته مارغريت المنصب الأعلى الذي يمنحها السلطة والنفوذ. والله يعلم كم إنها بحاجة إلى المساعدة. وكان يعرف بأنها سوف تعمد إلى إزالته مباشرة بعد رحيل هرمن. ولكن إذا أمكنه أن يستبق ما تخطّط له، خطوة إلى الأمام ليكون خارج قبضتها ليس إلاّ، فقد يتمكّن من النجاح. إنه يريد جواز مرور إلى القمة مباشَرةً دون عناء: مكان للجلوس إلى الطاولة والمساومة على النفوذ ليصبح مؤهَّلاً بالكامل لعضويّة جماعة الجِزّة الذهبية. وإذا كانت مكتبة الإسكندرية المفقودة تحتوي على ما أخبره ألفرد هرمن بأنه قد يكون موجوداً فيها، فإن امتلاكها يكون أجدى بكثير من ثروة عائليّة.

ورنّ هاتفه النقال.

وأشارت شاشة الحاسوب إلى أن المتصل هي عميلته السريّة؛ في الوقت المحدَّد تقريباً. فأجاب.

"مالون يتحرّك،" قالت له. "لقد جرت معركة دامية قبل تنفيذ العملية. ماذا تريدني أن أفعل؟"

"أين ذهب؟"

"لقد استقلّ حافلة إلى محطة بادنغتون، ومن ثمّ قطاراً إلى الغرب."

"هل تقع أكسفوردشاير على ذلك الطريق؟"

"يمرّ عبرها مباشَرةً."

من الواضح أن مالون كان فضولياً أيضاً. "هل حضّرت المساعدة الإضافية كما طلبتُ؟"

"إنهم هنا."

"انتظري في محطة بادنغتون. أنا في طريقي إليها."

ثم أقفل الخط.

فقد حان الوقت للمرحلة التالية.



قنفت ستيفاني محتويات قدح الماء على وجه برنت غرين. وكانتا قد سحبتا جسمه المترهّل إلى المطبخ، وقيّدتاه بكرسيّ بواسطة شريط لاصق يستعمل للتوضيب عثرت عليه كاسيوبيا في أحد الأدراج. حرّك المدعي العام جسمه قليلاً بعد استعادته وعيه لكي يزيل الغشاوة عن عينَيه.

"هل نمتَ جيداً؟" سألت.

كان غرين يحاول أن يستيقظ من إغمائه، ولذلك رمت عليه رشّة أخرى من الماء لمساعدته.

"كفى،" قال غرين وجُفونه مفتوحة على وسعها، ووجهه وثوب الحمّام مبلّلان بالماء. "أفترض أن هناك سبباً مُقنعاً لاتخاذك قراراً بانتهاك هذا الكمّ من القوانين الفدرالية." كانت الكلمات تخرج من فمه ببطء شديد، وبنبرة مدير مأتم، وكلا الحالتَين مألوفتان لغرين. إذ لم يسبق لها أن سمعته يتكلّم بسرعة أو بصوت عالٍ.

"أخبرني أنت، يا برنت. لصالح من تعمل؟"

ألقى غرين نظرة سريعة على الرباطات التي تقيّد مِعصمَيه وكاحلَيه. "وأنا الذي ظننت أن علاقتنا تتحسن."

"كنّا كذلك إلى أن خنتني."

"ستيفاني، قيل لي منذ سنوات إنك ورقة خاسرة، ولكنني كنت أقدّر تلك الميزات فيك. ومع نلك فقد بدأت أدرك الجانب الآخر المتنمّر."

فاقتربت منه. "لم أكن أثق بك، ولكنك واجهت دالي فاعتقدتُ أنني قد أكون مخطئة فحسب."

"هل تملكين أي فكرة عمّا سيحدث إذا قدم حراسي الأمنيين لتفقّدي؟ وبالمناسبة، هذا ما يقومون به كل ليلة."

"محاولة جيدة. لقد استغنيتَ عن خدماتهم منذ أشهر، وقلتَ إنك لن تكون بحاجة إليهم ما لم يرتفع مستوى التهديد، وهذا هو الحال في الوقت الراهن."

"وكيف تعلمين أنني لم أضغط على زر الطوارئ الخاص قبل السقوط على الشرفة؟"

وأخرجت جهاز الإرسال الذي كانت تحمله في جَيبها. "لقد ضغطتُ على زرّي، يا برنت، في المتنزّه، وأنت تعلم ما حدث؟ لا شيء البتّة."

"قد يكون الأمر مختلفاً هنا."

كانت تعلم أن لدى غرين زرّاً للطوارئ مثل كافة المدراء ذوي المراتب العليا. وهو ينقل على الفَور ما يجري إلى مفرزة أمنيّة في الجوار أو مركز قيادة جهاز المخابرات ويستطيع أيضاً أن يلعب دور جهاز تتبّع.

"لقد راقبت يدَيك،" قالت له. "كانت كلاهما فارغتَين. كنتَ منهمكاً جداً بمعرفة ما الذي لدغك."

وتصلّب وجه غرين، ثم حدّق بكاسيوبيا. "أنت التي أطلقت النار عليّ؟"

وانحنت له إجلالاً. "أنا في خدمتك."

"ما هذه المادة الكيميائية؟"

"مادة ذات مفعول سريع وجدتها في المغرب. سريعة، ومؤلمة، ولا يدوم مفعولها طويلاً."

"يمكنني أن أشهد بصحة كل تلك المواصفات." واستدار غرين نحو ستيفاني. "لا بد أنها كاسيوبيا فيت. كانت تعرف زوجك، لارس، قبل أن يقتل نفسه."

"كيف تعرف ذلك بحق الله؟" فهي لم تذكر ما حدث لأي شخص في هذه الجهة من المحيط الأطلسي. فقط كاسيوبيا، وهنريك ثورفالدسن، ومالون، كانوا على عِلم بالأمر.

"إسأليني ما جئت بسببه،" قال غرين بعزم هادئ.

"لِمَ أوقفت عمل مفرزتي الأمنية؟ لقد تركتني مجرَّدة من أي دفاع في مواجهة الإسرائيليين. اعترف بذلك."

"اعترف لك."

وتفاجأت بالاعتراف. فقد كانت معتادة كثيراً على الأكاذيب. "رغم علمك بأن العرب يحاولون قتلي؟"

"كنت أعلم ذلك أيضاً."

وتآكلها الغضب، وأخذت تكافح لكبح جماح رغبتها الشديدة بمعرفة المزيد، فقالت: "كلّي آذان صاغية."

"آنسة فيت،" قال غرين. "هل أنت جاهزة لحراسة هذه المرأة إلى أن ينتهي هذا الأمر؟"

"ولِمَ هذا الاهتمام؟" قالت ستيفاني وقد فقدت أعصابها. "لستَ وصياً علي."

"على أحدهم أن يكون كذلك. فالاتصال بهِيذِر ديكسون لم يكن عملاً حكيماً. إنك لا تفكرين."

"وكأنني بحاجة إليك لمعرفة ذاك."

"انظري إلى نفسك. تتهجّمين على المسؤول الأعلى عن تطبيق القانون في الولايات المتحدة من دون معلومات أو بالحد الأدنى منها. ومن جهة ثانية، فإن أعداءك قادرون على الوصول إلى مقدار كبير من الاستخبارات، وهم يستخدمونها لتحقيق أكبر منفعة ممكنة."

"ما الذي تهذي به بحق الجحيم؟ كما أنك لم تُجب عن السؤال أبداً."

"هذا صحيح، لم أفعل. تريدين أن تعرفي لماذا أصدرت أمراً بإيقاف عمل مفرزتك الأمنية. الجواب بسيط. لقد طُلب منّي القيام بذلك، فاستجبت."

"ومن طلب منك ذلك؟"

أخذت عينا غرين تقحصها بنظرة تأميلية هادئة. "هنريك ثورفالدسن."

الفصل الرابع والثلاثون

باينبريدج هول، إنكلترا
الساعة 5:20 صباحاً

أُعجب مالون بمحور العجَلة الرُّخامي في الحديقة. وكانا قد استقلّا قطاراً إلى مكان يبعد اثنَي عشر ميلاً شمال لندن، ومن ثمّ أقلّتهما سيارة أجرة من محطة المدينة المجاورة إلى باينبريدج هول. كان قد قرأ كافة مدوَّنات حدّاد المتروكة في الحقيبة وتصفّح مضمون الرواية، محاولاً إيجاد معنى لكل ما يحدث، ومتذكّراً كل ما كان تباحث به مع حدّاد على مرّ السنين. ولكنه توصل إلى استنتاج مفاده أن صديقه القديم حمل معه معظم الأمور الهامّة إلى قبره.

كانت تمتدّ فوقه سماء مخمليّة. وأشعرته نسمة معتدلة البرودة من هواء الليل بالقشعريرة. كان العشب المشذَّب يمتد إلى خارج الحديقة في بحر من الأواني القصديريّة وجزر من الشُّجَيرات والجَنْبات المورِفة الظلال، وكان الماء المنبثق من نافورة يتراقص. وكان قد قرر أن يقوم بهذه الزيارة قبل الفجر كونها الطريقة الفُضلى لمعرفة شيء ما، وحصل على مصباح جيب من بوّاب الفندق.

لم يكن المكان مسيَّجاً، كما أنه لم يكن مزوَّداً بأجهزة إنذار كما بدا له. وافترض أن المنزل نفسه سيكون مسألة أخرى. واستناداً إلى ما كان قد قرأه في مدوَّنات حدّاد، فإن العقار هو عبارة عن مُتحَف صغير الحجم من بين مئات المتاحف التي يملكها التاج البريطاني. وكان عدد من الغرف الأرضية مُضاء في المبنى، فأخذ يستطلع المكان عبر زجاج النوافذ غير المَستورة وتبين له فريق التنظيف موجود في الداخل.

فالتفت مجدَّداً إلى محور العجَلة.

كانت الريح تتغلغل في الأشجار وتتصاعد بعد ذلك نحو الغيوم. وكان ضوء القمر يتلاشى، ولكن عينَيه معتادتان تماماً على ما يوقع الكآبة في النفس.

"هل تعتزم إطلاعي على ماهيّة هذا الشيء؟" سألت بام، وكانت هادئة طيلة الرحلة على نحو غير مألوف.

سلّط الضوء على الصورة المنقوشة على الرخام. "هذه الصورة مأخوذة من لوحة تُدعى 'رعاة أركاديا II'. وقد عانى توماس باينبريدج الكثير من المتاعب ليتمكّن من نقشها." وأخبرها ما كان حدّاد قد دونه بشأن بالصورة، ثم استخدم شعاع المصباح لاقتفاء أثر الحروف الموجودة تحتها.

D. O. V.O. S. V. A. V. V. M

"ماذا قال عن تلك الحروف؟" سألت بام.

"لا شيء البتة، سوى أنها رسالة وهناك المزيد منها داخل المبنى."

"ممّا يفسّر بالتأكيد سبب وجودنا هنا في الخامسة صباحاً."

ولاحظ انزعاجها. "لا أحب الحشود."

نظرت بام إلى محور العجَلة عن قرب. "هل تساءلت لِمَاذا فصل الحرف D عن الحرف M بهذه الطريقة؟"

لم يكن يملك أي فكرة. ولكن هناك أمر واحد كان قد استوعبه. فالمشهد الرَّعَوي لـ 'رعاة أركاديا II' يصف امرأة تقوم بالحراسة وثلاثة رعاة مجتمعين حول بلاطة ضريح ويُشير كلّ منهم إلى حروفٍ منقوشة *'ET IN ARCADA' EGO*. وكان يعرف ترجمة هذه العبارة.

'وفي أركاديا II'.

كتابة غامضة لا معنى لها، ولكنه كان قد شاهدها في السابق في فرنسا. وكانت داخل مخطوطة تعود للقرن السادس عشر تصف ما أنجزه فرسان الهيكل سرّاً في الأشهر التي سبقت اعتقالهم الجماعي في تشرين الأول/ أكتوبر العام 1307.

'Et in arcadia ego'. جناس تصحيفي للعبارة *'I tego arcana dei'*، 'أي أكتم أسرار الله'.

وأخبر بام عن الجملة.

"لا يمكن أن تكون جدّيّاً،" قالت له.

فهزّ كتفَيه. "أخبرك بما أعلم ليس إلّا."

وكانا بحاجة إلى استكشاف المنزل. ومن مسافة آمنة داخل الحديقة، وبين أحزمة أشجار الأرز الباسقة، أخذ يتفحص الطابق الأرضي. كانت الأضواء ترتعش بينما كان عمّال التنظيف يقومون بعملهم. وكانت الأبواب المؤدِّية إلى الشرفة الخلفيّة مفتوحة ومسنودة ببعض الكراسي. شاهد رجلاً يخرج حاملاً كيسَين من النفايات وضعهما فوق كومة من الأكياس، وعاد مجدَّداً إلى الداخل وتوارى عن الأنظار. فألقى نظرة سريعة على ساعته: إنها الـ 5:40 صباحاً.

"سيُنهون عملهم قريباً،" قال. "وعندما يغادرون، سيكون أمامنا بضع ساعات قبل وصول أي شخص إلى عمله. فهذا المكان لا يفتح أبوابه قبل العاشرة." وكان قد علِم بهذا الأمر من لافتة موضوعة بالقرب من البوّابة الرئيسية.

"لا حاجة للقول كم أن هذا عمل جنوني."

"كنت تريدين دوماً معرفة العمل الذي أقوم به كسباً للرِّزق، ولم يكن بإمكاني إطلاعك على الأمر أبداً. سرّي للغاية، وكل ذلك الهُراء. لقد حان الوقت لاكتشاف الأمر."

"كنت أحبّ عملك أكثر عندما لم أكن أعلم."

"لا أظنّ ذلك. أتتذكّر مدى غضبك."

"على الأقل لم أُصَب بأي جروح بسبب طلقات ناريّة."

فابتسم. "إنه طقسك الديني للانتساب إلى ذلك العالم." ثم أشار إليها بأن تتقدم. "من بَعدِك."



كان سابر يراقب خيال كوتون مالون وزوجته السابقة وهما يختفيان ظلال الأشجار وراء باينبريدج هول. لقد قدِم مالون إلى أكسفوردشاير مباشَرةً؛ وهذا جيد. كل شيء رَهن بفضوله. وكانت عمليته السريّة قد قامت بعملها أيضاً. فقد استأجرت ثلاثة أشخاص إضافيين بناءً على طلَبه وزوّدتهم بالسلاح. أخذ بضعة أنفاس عميقة من الهواء وشعر ببعض الحيويّة والنشاط، واستلّ بعد ذلك من جيب سترته سلاحاً من طراز سيغ ساور.

لقد حان الوقت للقاء كوتون مالون.



اقترب مالون من الباب الخلفي المفتوح، ملازماً جانباً واحداً منه، معانقاً الظلال، وأنعم النظر إلى الداخل.

كانت غرفة الاستقبال مُتقَنة. وكانت الأنوار المتلألئة تسقط كالشلال من السقف القنطري، فتضيء الأثاث المذهَّب، وترسم ألواحاً من النور على الجدران المزدانة بالمطرَّزات الجدارية واللوحات التي تُضفي عليها طابعاً مُفعَماً بالحياة. لم يشاهد أحداً، ولكنه كان يسمع هدير آلة تلميع الأرض وزعيق جهاز الراديو من وراء الممرّات المُقنطَرة.

فأوما لها ودخلا.

لم يكن يعرف شيئاً عن جغرافيّة المنزل، ولكن لوحة معدنية أفادته بأنه موجود في 'غرفة أبولو'. فتذكر ما كتبه حدّاد: 'في غرفة الرسم في باينبريدج هول هناك المزيد من عجرفة باينبريدج. فعنوانها تأمّلي بصفة خاصة: 'تجلّي القديس جيروم'. وهو مذهل وملائم أن 'الأبحاث العظيمة تبدأ بتجلٍّ في غالب الأحيان'. لذا، فقد كانا بحاجة إلى العثور على غرفة الرسم.

واقتاد بام إلى أحد المخارج المؤدّية إلى ردهة تشبه جناح كاتدرائية حيث تتعامد القناطر فوق بعضها البعض، وقد أثار اهتمامه هذا التبدّل المفاجئ في الأسلوب والهندسة. كما أن الخطوط الكفافية لقطع الأثاث كانت تضيع في ظلال رمادية بسبب الإضاءة غير الكافية. وشاهد تمثالاً نصفياً داخل إحدى القناطر.

فانسلّ على الأرض الرخامية، واكتشف صورة توماس باينبريدج. كان الوجه

الذي يعود للعصور الوسطى ممتلئاً بالتجاعيد والثنايا، والفك مُطبَقاً بإحكام، والعينان باردتين ومنحرفتين. واستناداً إلى ما كان قد قرأه في مدوَّنات حدّاد، فقد كان باينبريدج مثقَّفاً ورجل عِلم وأدب، بالإضافة إلى كونه جامع قطع فنّيّة وكتب ومنحوتات بحصافة محسوبة. وكان أيضاً مغامراً يسافر إلى البلاد العربية والشرق الأوسط في وقت كان فيه هذان المكانان غريبين تماماً عن الغرب.

"كوتون،" قالت بام بصوت خفيض.

فاستدار نحوها. وكانت قد سارت على غير هدى نحو طاولة تكدست عليها المنشورات. "تصميم المنزل."

فخطا إلى جانبها، والتقط إحداها من الكدسة وعثر على الفَور على غرفة كُنّيت بكلمة "رسم". فحدّد موقعها. "في ذلك الاتجاه."

كانت آلة تلميع الأرض وجهاز الراديو مستمرين بالتبارز في الطابق العُلوي. فغادرا الردهة المُعتمة وشقّا طريقهما عبر ممرّات واسعة إلى أن دخلا قاعة مُضاءة.

"ما هذا!" قالت بام.

وكان هو أيضاً متأثّراً. فقد ذكرته المساحة الكبيرة ببهو مدخل قصر أمبراطور روماني. تباين مُجفل آخر مع بقية المنزل.

"هذا المكان يشبه إبكوت،" قال لها. "فكل غرفة تعبّر عن زمان وبلد مختلفَين."

كانت إحدى الثريّات تنير بتوهّج كبير درجات رخاميّة بيضاء يتحاذى منتصفها بساط ضيّق ذي لون كستنائي قاتم. وتؤديّ قوائم الدرجات مباشَرةً إلى بَهو من الأعمدة الأيونيّة المضلّعة. ويربط درابزين ذو التواءات وأشكال لولبيّة من الحديد الأسود ما بين الأعمدة الرخاميّة الزهريّة اللون. وكانت الفجوات في كلا الطابقَين تشكل أطراً لتماثيل نصفيّة وتماثيل كما هي الحال في صالات العرض في المتاحف. وألقى نظرة سريعة إلى الأعلى. لعلّ سقف كاتدرائية القديس بولس قد نقل إلى هنا.

فهزّ رأسه.

لا شيء في المظهر الخارجي للمنزل الكبير يُلمِح إلى هذا الثراء.

"غرفة الرسم في أعلى تلك الدرجات،" قال.

"أشعر وكأننا سنلتقي الملكة،" قالت بام.

سلكا البساط الضيّق الأنيق الممتدّ إلى الأعلى عبر قوائم الدرجات التي لا يحدّها درابزين. وكانت أبواب لوحية مزدوجة تفتح على غرفة مُظلِمة. فنقر مفتاحاً كهربائياً بإصبعه، وأضاءت ثُريّا أخرى مصنوعة من أنياب الفِيَلة بنور متوهّج، كاشفةً عن صالون مكتظ، أثاثه مغطّى ومُريح، ويكسو جدرانه جِلد موَبَّر بلون حساء البازيلا.

"ما كنت لأتوقّع أقل من ذلك،" قال لها، "بعد تلك الردهة."

وأقفل الأبواب.

"ما الذي نبحث عنه؟" سألت بام.

تأمّل باللوحات المعلَّقة على الجدران، وكانت بمعظمها رسوماً لأشخاص تعود للقرنَين السادس عشر والسابع عشر. فلم يتعرّف إلى أحد منهم. وكانت رفوف المكتب المصنوعة من خشب القَيقب تمتدّ تحت الصور. ولاحظت عينه الشغوفة بالكتب بسرعة أن هذه الكتب تافهة وأنها للعرض فقط ولا قيمة تاريخية أو أدبيّة لها. وكانت تماثيل نصفيّة من البرونز تعلو الصناديق؛ مجدَّداً، لا صور مألوفة.

"قد يكون 'تجلّي القديس جيروم' إحدى تلك الرسوم" قال.

أخذت بام تجول في الغرفة متأمّلةً بكل صورة على حدة، وكان مالون يعدّها: أربع عشرة صورة، معظمها لنساء يرتدينَ الملابس بإتقان، أو لرجال مزيَّنين بشعر مُستعار ورداء متدلٍّ كان مألوفاً منذ ثلاثمئة عام. وكان هناك أريكتان وأربعة كراسٍ مصفوفة بشكل انحناءة مزدوجة أمام مدفأة حجريّة. فخيّل له أن توماس باينبريدج قد أمضى كثيراً من وقته في هذا المكان.

"لا علاقة لأيّ من هذه بالقديس جيروم،" قالت بام.

فاعترته الحيرة. "قال جورج إنها هنا."

"قد يكون الأمر كذلك، ولكنها غير موجودة الآن."

الفصل الخامس والثلاثون

واشنطن، العاصمة

حدّقت ستيفاني ببرنت غرين، وتحولت نظراتها من عدم الانفعال إلى الذهول. "ثورفالدسن طلب منك إيقاف عمل مفرزتي الأمنية؟ ولكن هل تعرف هذا الرجل؟"

"أعرف عدداً كبيراً من الناس،" وأشار إلى أربطته. "رغم أني أجد نفسي في الوقت الحاضر تحت رحمتك."

"إيقاف عمل مفرزتها الأمنيّة عمل أخرق،" قالت كاسيوبيا. "ماذا لو لم أكن هناك؟"

"قال هنريك إنك هناك وإنك قادرة على تدبّر الأمور."

جهدت ستيفاني للتحكّم بانفعالها. "كنت أنا المستهدَفة."

"وقد وضعتِ نفسك في هذا الموقف بغباء."

"لم أعتقد أبداً بأن ديكسون ستهاجمني."

"وهذا ما رميت إليه: إنك لا تفكّرين." وأشار غرين ثانيةً برأسه إلى أربطته. "وهذا مثال آخر عن الغباء. وبعكس ما قد تظنّين، فالأمن سوف يحضر إلى هنا في فترة وجيزة. إنهم يتصرّفون بهذه الطريقة على الدوام. قد أكون بحاجة ماسّة إلى خصوصيّتي، ولكنني، على عكسك، لست متهوّراً."

"ماذا تفعل؟" سألت. "لِمَ أنت منغمس في هذه المسألة؟ هل تعمل مع دالي؟ هل ما جرى بينك وبينه في السابق كان عرضاً مُتقَناً لصالحي؟"

"ليس لديّ الوقت والصبر لعروض من هذا النوع."

ولم تتأثّر ستيفاني. "لقد ملاؤني بالأكاذيب. وقد اختُطف ابن مالون بسببي. وكوتون هو الآن في لندن بالذات مع فرقة اغتيال إسرائيلية. لا يمكنني العثور عليه، ولذلك لا يمكنني تحذيره. وقد تكون حياة جورج حدّاد على المحك. ثم علِمت أن رئيسي تركني بدون حماية في مهبّ الريح، عالماً بأن العرب يريدون قتلي؟ ما الذي يُفترَض أن أفكّر به؟"

"أن صديقك، هنريك ثورفالدسن، قد فكّر بما يكفي لإرسال مساعدة لك. وأن صديقك الآخر، وهو أنا، قد قرّر نوع المساعدة التي أنت بحاجة إليها للعمل بمفردك. ما رأيك بذلك؟ هل للأمر أي معنى؟"

وفكّرت مليّاً بهذه الكلمات.

"وهناك أمر واحد آخر،" قال غرين.

فحملقت به.

"وهذا الصديق مهتمّ بصفة خاصة بما يحدث لك."



شعر مالون ببعض الاستياء. فقد قدِم إلى باينبريدج هول أملاً في الحصول على إجابات، وقد أشارت مدوّنات حدّاد إلى وجودها هنا بالذات. ومع ذلك لم يجد شيئاً بعد.

"قد تكون هناك غرفة رسم أخرى؟" قالت بام.

أعاد تفحّص المنشور وتحقّق من أنه المكان الوحيد المدعوّ بهذا الإسم. فما الذي كان غافلاً عنه؟ ثمّ لمح شيئاً ما. هناك بجوار إحدى كوّات النوافذ في الجدار، حيث الألواح الزجاجيّة الملوّنة بشكل مُتقَن تنتظر شروق شمس الصباح، كان هناك جزء فارغ من الجدار. وكانت الرسوم تغطي كل المساحة المتوفرة ما عدا ذلك المكان. وكان هناك خط كفافي ضعيف وواضح لشكل مستطيل على صفحة الجدار. فأسرع إلى البُقعة الفارغة. "لقد اختفت واحدة."

"كوتون، أنا لا أحاول أن أكون صعبة المِراس، ولكن قد يكون هذا البحث عقيماً."

فهزّ رأسه. "أراد جورج أن نكون هنا."

ثم أخذ يتأمل في كافة أنحاء الغرفة بسرعة وأدرك أنه لا يمكنهما التأخر في المكان. فقد يأتي أحد أفراد طاقم التنظيف إلى هذه الناحية. وبالرغم من أنه يحمل معه مسدَّسَي حدّاد وسترينغ بيم، إلا أنه لم يكن يرغب في استخدام أيّ منهما.

وأخذت بام تتفحص الطاولات القائمة وراء الأريكتَين. هناك كتب ومجلات مكدّسة بشكل تزييني وسط المنحوتات والنباتات المزروعة في أوانٍ. ثم تأمّلت إحدى المنحوتات البرونزية الصغيرة ـ وكانت لرجل مُسنّ ذي بشرة كثيرة التجاعيد وجسم قوي العضلات، ويرتدي صَدريّة. كان الشخص جالساً على صخرة، ووجهه الملتحي مركّز على كتاب.

"يجب أن تشاهد هذه،" قالت.

فاقترب منها ورأى ما قد حُفِر على قاعدة التمثال.

القديس جيروم
لاهوتي بارز في الكنيسة

كان منهمكاً جداً في محاولة العثور على لوحات فنّيّة معقّدة لدرجة أن الجليّ منها أفلت منه. وأشارت بام إلى كتاب تحت المنحوتة.

"'*تجلّي القديس جيروم*'"، قال لها.

وتفحّص كعب الكتاب. "عين ثاقبة."

فابتسمت. "قد أكون مفيدة."

فأمسك بالمنحوتة البرونزية الثقيلة ورفعها. "إذاً، كوني مفيدة والتقطي الكتاب."



لم تكن ستيفاني واثقة من أنها استوعبت ملاحظة برنت غرين. "ماذا تقصد؟ هذا الصديق الخاص؟"

"يصعب قليلاً مناقشة الأمر في الوقت الحاضر."

وشاهدت أمراً ما في عينَيّ غرين يدعو للفضول: القلق. فقد كان طيلة خمس

سنوات قلب الإدارة في أكثر من معركة مع الكونغرس، والصحافة، والجماعات ذات الاهتمامات الخاصة. وكان مؤيّداً بارعاً ومحامياً تولّى المرافعة دفاعاً عن قضايا الإدارة على الصعيد الوطني. ولكنه كان متديّناً بعمق وأن اسمه لم يكن على حد علمها مرتبطاً بأية فضيحة.

"لنقل فقط،" قال غرين هامساً إلى حدّ ما، "إنني لم أكن راغباً في أن يقتلك العرب."

"إن ما تقوله ليس عزاء كبيراً لي في الوقت الحاضر."

"ماذا عن مفرزته الامنيّة؟" سألت كاسيوبيا. "أشعر بأنه لا يخدعنا في تلك المسألة."

"تحقّقي من الجهة الأمامية للمنزل وراقبي الشارع،" قالت لها، موضحةً من خلال نظراتها أنها تريد الانفراد قليلاً بغرين.

فغادرت كاسيوبيا المطبخ.

"حسناً، يا برنت. ماذا لديك لتقول ما لم تكن قادراً على قوله أمامها؟"

"ما هو عمرك، يا ستيفاني، واحد وستون عاماً؟"

"لا أتكلّم عن عمري."

"زوجك متوفٌ منذ أكثر من عشر سنوات. لا بد أن هذا الأمر كان قاسياً عليك. لم أتزوّج أبداً، لذا لا أعرف ما يكون عليه حال من يفقد زوجاً أو زوجة."

"الأمر ليس سهلاً. ما علاقة ذلك الأمر بكل ما يجري؟"

"أعرف أنك ولارس كنتما في حالة من الجفاء عندما توفّي. لقد حان الوقت للوثوق بأحدهم."

"عَجَباً، سأقول لك أمراً. سأحدّد مواعيد لإجراء المقابلات، وسيحصل كل شخص، بمن فيهم أولئك الذين يحاولون قتلي، على فرصة لإقناعي بأنهم جديرون بي."

" هنريك لا يحاول قتلك، وكاسيوبيا كذلك، وكوتون مالون أيضاً." وتوقف قليلاً. "وأنا لا أحاول قتلك."

"لقد أوقفتَ عمل مفرزتي الأمنية، عالماً بأنني أواجه مشكلة."

"وماذا كان ليحدث لو لم أقم بذلك؟ لاقتحم عميلاك مسرح الأحداث، ولتسبّب ذلك بإطلاق نار، وما الذي كنا سنجنيه من ذلك؟"

"لعلي كنت احتجزت هيذر ديكسون."

"وفي الصباح التالي يُطلَق سراحها بعد تدخّل وزير الخارجية بالتأكيد، والرئيس بنفسه على الأرجح. ولعلك كنت تعرّضتِ للطّرد بعد ذلك واستطاع العرب أن يقتلوك ساعة يشاؤون. هل تعرفين السبب؟ لأن أحداً لم يكن يكترث ليهتمّ بما يجري لك."

كانت كلماته ذات معنى؛ تبّاً له.

"لقد تحرّكتِ بسرعة ولم تفكّري بما قد يحدث." وكانت عينا غرين قد لانتا قليلاً، فلمحت فيهما شيئاً آخر لم تلمحه من قَبْل:

القلق والاكتراث.

"في السابق عرضتُ عليك مساعدتي، فرفضتِ. سأطلعك الآن على ما لا تعرفينه. ما الذي لم الذي أخبرك به آنذاك."

فانتظرت.

"لقد سمحت بافتضاح أمر ملف لغز الإسكندرية."



فتح مالون الكتاب المتعلّق بالقديس جيروم، وكان عبارة عن مجلّد رقيق يحتوي على من ثلاث وسبعين ورقة فقط مائلة إلى الصُّفرة، مع تاريخ طباعته الذي يعود للعام 1845. فقلّب صفحاته واستوعب القليل من التفاصيل.

عاش جيروم بين عامَي 342 و420 بعد المسيح. وكان يتكلّم اللغتَين اللاتينية واليونانية بطلاقة، وعندما كان شاباً، لم يبذل جهداً لكبح جماح غرائز الحب الممتعة. وبعد تلقّيه العِماد على يدَي البابا عام 360، كرّس نفسه للرب. وقام بأسفار في السنوات الستين التالية، وكتب رسائل، ودافع عن الإيمان، وأصبح مثالاً يُحتذى في الدين المسيحي. فترجم أوّلاً العهد الجديد، وترجم بعد ذلك، وفي أواخر حياته، العهد القديم من العبرية إلى اللاتينية فأوجد النسخة اللاتينية للكتاب المقدّس التي أعلنها مجلس ترِنتي، بعد ألف ومئة عام، النص المَرجِعي للكنيسة الكاثوليكية.

ولفتت انتباه مالون ثلاث كلمات.

'Eusebius Hieronymus Sophronius'.

هو اسم جيروم وفقاً لنَسَبه.

ثم فكّر بالرواية الموجودة في الحقيبة الجلدية: 'رحلة بطل' بقلم يوسيبيوس هيرونيموس سوفرونيوس. ومن الواضح أن توماس باينبريدج كان قد اختار اسمه المستعار بعناية شديدة.

"هل وجدت شيئاً؟" سألت بام.

"كل شيء." ولكن إثارته خبت وحلّ مكانها الإحباط بعدما أدرك أمراً غير سارّ. "يجب أن نخرج من هنا."

فاسرع إلى الأبواب، وأطفأ الأنوار، وفتحها بهدوء. ولاحت أمامه القاعة الرخامية، وكانت هادئة. كان جهاز الراديو لا يزال يصدح في إحدى الغرف البعيدة، وهو ينقل الآن حدثاً رياضياً يسمع فيه صراخ الحشد والمعلّق عالياً. ولم يكن يصدر أي صوت عن آلة تلميع الأرض.

فاقتاد بام إلى أعلى الدرج.

في الوقت نفسه كان هناك ثلاثة رجال مزوّدين بالأسلحة يندفعون إلى داخل القاعة في الطابق الأرضي، ووقف أحدهم وأطلق النار.

فدفع مالون بام على الأرض.

وأصابت الرصاصة الحجر مُحدثةً أزيزاً. فتدحرجا سويّاً واختبآ وراء أحد الأعمدة، ورأى بام مقطّبة الوجه من الألم.

"كتفي،" قالت له.

حاولت ثلاث رصاصات أخرى النَّيل منهما عبر الرخام. فأمسك مسدس حدّاد الآلي براحة يديه واستعدّ للمجابهة. لم يكن أي من الطلقات قد تلاها حتى الآن ردّ حاد وسريع - فرقعات ليس إلّا كصوت تنفيش الوِسادات: كواتم للصوت. على الأقل لديه الطابق العُلوي. ومن موقعه المشرف، شاهد اثنين من مُطلقي النار يتقدّمان في اتجاه الجهة اليمنى من الطابق السُّفلي بينما بقي الثالث إلى اليسار. لم يكن بإمكانه السماح للإثنَين بالاحتفاظ بموقعهما - إذ إنهما سيكونان قادرَين على استهداف محيط العمود بطلقاتهم النارية - لذا أطلق النار.

فشلت الرصاصة في إصابة الرجل، ولكنّ قربها من المهاجمَين حملهما على التردّد بما يكفي لقيام مالون بتصحيح هدفه وإطلاق رصاصة على الرجل القائم في المقدّمة، فصرخ ثمّ سقط أرضاً. قفز الرجل الآخر لتغطيته، ولكن مالون أطلق رصاصة ثانية حملت المطارِد على الركض بسرعة في اتجاه مدخل القاعة. أخذت الدماء تسيل من الرجل المُلقى على الأرض وتتجمع في بركة حمراء لمّاعة على الرخام الأبيض.

وأَطلق المزيد من الرصاص في اتجاههما، وعبق الجوّ بالدخان الناجم عن الطلقات النارية.

لم يتبقَّ في مسدس حدّاد سوى خمس رصاصات، ولكن مالون كان لا يزال يحتفظ أيضاً بالمسدس الذي أخذه من سترينغ بيم. ربما خمس طلقات أخرى. فبدت علامات الخوف في عينَيّ بام، ولكنها بقيت هادئة ومتأمّلة.

وفكّر بالانسحاب إلى داخل غرفة الرسم. فمن شأن الأبواب المزدوجة إذا ما وُضعت عوائق وراءها من قِطَع أثاث أن تمنحهما دقائق قليلة للفرار عبر إحدى النوافذ. ولكنهما كان في الطابق الثاني ممّا يشكّل بالتأكيد عقبات إضافية. وبصرف النظر عن ذلك، فقد يكون هذا الأمر التصرّف الوحيد المتوفر لهما إلا إذا قام الرجال في الأسفل بتعريض أنفسهم لطلقاته الناريّة ومكّنوه من استهدافهم بشكل واضح.

ولكن هذا الأمر غير محتمَل الحدوث.

ركض أحد الرجال نحو أسفل الدرج، وقام الآخر بتغطية تقدّمه بأربع طلقات أصابت الجدار وراءهما. وكان على مالون ادّخار ذخيرته، ولم يكن بإمكانه إطلاق النار إلا على هدف أكيد ومحسوب.

وعندئذٍ أدرك ما الذي يخططون.

فلكي يستهدف أحدهم، عليه أن يعرّض نفسه بالانتقال من حافة العمود حيث هو موجود إلى الحافة الأخرى. لذلك قام بما هو غير متوقَّع، متجاهلاً الجهة اليسرى وملتفّاً على نفسه في الجهة اليمنى، وأطلق رصاصة على البساط الضيّق الأحمر أمام المهاجم المتقدّم.

فقفز الرجل من الدَّرَج وأخذ يبحث عن مكان يحتمي به.

مدّت بام يدها إلى كتفها واكتشفت وجود دماء. لقد انفتح جرحها ثانيةً بسبب كثرة تحريكه. وحدّقت عيناها الزرقاوان إلى الوراء ممتلئتَين خَوفاً.

ودوّت طلقتان في القاعة. لا استخدام لكواتم صوت؛ وطلقات من عيار كبير.

وساد بعد ذلك الصمت.

"مرحباً،" نادى صوت ذكوري.

فألقى نظرة متفحّصة حول العمود. في الأسفل كان يقف رجل طويل القامة ذو شعر أشقر وأشيب بلون الرمل، جبينه عريض، وأنفه قصير، وذقنه مستدير. وكان مربّع القامة ويرتدي جينزاً وقميصاً من قماش القنّب تحت سترة جلدية.

"بدا لي وكأنك بحاجة إلى مساعدة،" قال الرجل ومسدسه إلى جَنبه الأيمن.

وكان المهاجمان ممدّدَين على الأرض، والدم يرشح على الرخام.

فتراجع مالون إلى وراء العمود. "من أنت؟"

"صديق."

"أعذرني إن كنت متشكّكاً."

"لا ألومك على ذلك. لذا، إبقَ في مكانك وانتظر قدوم الشرطة. يمكنك إعطاؤهم شرحاً حول هؤلاء الجثث الثلاث." وسمع وقع خطوات، فتراجع. "وبالمناسبة، على الرَّحب والسعة."

فخطر بباله أمر ما. "ماذا عن طاقم التنظيف؟ لِمَ لم يهرَعوا إلى هذا المكان؟"

وتوقّف وقع الخطى. "إنّهم فاقدو الوعي، في الطابق العُلوي."

"أنت الذي قمت بذلك؟"

"لا."

"ما هي مصلحتك؟"

"كمصلحة العديدين الذين قدِموا إلى هنا في منتصف الليل. أبحث عن مكتبة الإسكندرية."

لم يقُل مالون شيئاً.

"سأقول لك أمراً. أنا أقيم في السافوي، الغرفة رقم 453. لديّ بعض المعلومات التي أشكّ في أنك تعرفها، وقد يكون بحوزتك بعض منها لا عِلم لي به. إذا رغبت في التحدث، أقصدني. وإن لم ترغب في ذلك، فإننا سنلتقي مجدّداً يوماً ما

على الأرجح. يعود الخيار لك، ولكننا قد نتمكّن معاً من تسريع العملية. الأمر عائد إليك."

ثم طقطقت أعقاب قدمَيه على الأرض بخطى متواصلة، وتلاشت مبتعدة في أرجاء المنزل.

"ما كان نلك بحق الجحيم؟" سألت بام.

"طريقته في التعريف عن نفسه."

"لقد قتل الرجلَين."

"وأنا ممتنّ له بسبب نلك."

"كوتون، يجب أن نخرج من هنا."

"أُدرك نلك، ولكن يجب أولاً أن نعرف هويّة هؤلاء الرجال."

ثم خرج من وراء العمود ونزل مسرعاً على الدرجات الرخامية، وتبعته بام. ففتّش الجثث الثلاث دون أن يجد أي بطاقة تعريف.

"أمسكي المسدسات،" قال لها، واضعاً في جَيبه ستة مخازن نخيرة احتياطية كانت في ثياب الجثث. "هؤلاء الأشخاص قدِموا وهم على أُهبة الاستعداد للقتال."

"بتّ معتادة على رؤية الدماء في الواقع،" قالت له.

"قلت لك إن الأمر سوف يصبح أكثر سهولة."

كان يفكّر بالرجل أكثر من أي شيء آخر. السافوي، الغرفة رقم 453، طريقته في قول 'يمكنك الوثوق بي'. وكانت بام ما تزال ممسكة بالكتاب الذي يتناول القديس جيروم، وهو يحمل الحقيبة الجلدية التي اصطحبها معه من شقة حدّاد.

فاستدارت بام للمغادرة.

"إلى أين تذهبين؟" سألها.

"إني جائعة. آمل في تناول طعام فطور فاخر في السافوي."

فابتسم ابتسامة عريضة.

لقد استوعبت الموضوع بسرعة.

الفصل السادس والثلاثون

واشنطن، العاصمة

لم تكن ستيفاني واثقة من أنها قادرة على تحمّل المزيد، وكانت نظراتها مثبّتة على برنت غرين. "أوضح لي ما تقول."

"لقد سمحنا بافتضاح أمر الملفات. هناك خائن في صفوفنا ونحن نريده، أو نريدها."

"من تقصد بكلمة نحن؟"

"وزارة العدل. إنه تحقيق سرّي للغاية. لا يعلم بهذا الأمر إلا أنا وشخصان آخران إنهما نائباي المقرّبان وأنا على ثقة تامّة بهما لدرجة أنني أضع حياتي بين أيديهما."

"لا يهتمّ الكانبون كثيراً بمدى ثقتك بهم."

"أوافقك الرأي. ولكن التسرّب ليس في وزارة العدل. إنه يتمّ في مناصب أعلى، خارج الوزارة. لقد نصبنا طُعماً وتمّ ابتلاعه."

لم تكن قادرة على تصديق ما تسمع. "وخاطرتَ بحياة غاري مالون في العملية."

"لم يكن بإمكان أحد أن يتنبأ بذلك. لم تكن لدينا أي فكرة عمّن سرّب المعلومات عن جورج حدّاد، باستثناء الإسرائيليين والعرب. والتسرّب الذي نحاول سدّه يؤدّي إليهم مباشَرةً، وليس إلى أي مكان آخر."

"وهذا أمر أنت على عِلم به." وانتقلت أفكارها إلى جماعة الجِزّة الذهبيّة.

"لو كنت أملك أي دليل على أن عائلة مالون في خطر، لما سمحت أبداً باعتماد هذا التكتيك."

كان بودّها أن تصدق ذلك.

"ظننّا فعلاً أن مكان إقامة حدّاد لا يشكل معلومات مُؤذِية نسبياً. والسماح للإسرائيليين بمعرفة أن حدّاد لا زال حيّاً لم يبدُ أمراً محفوفاً بالمخاطر، سيّما وأنه لم يكن هناك أي شيء في الملف يشير إلى مكان اختبائه."

"باستثناء أثر يؤدّي إلى مالون مباشرةً."

"وافترضنا أن مالون سيعرف ما يتوجّب عليه القيام به إذا ما واجه أي تهديد."

"إنه متقاعد، يا برنت،" قالت وكادت أن تصرخ. "لم يعُد يعمل لصالحنا. إننا لا نعرّض عملاء سابقين للخطر، ولا سيّما دون عِلم منهم."

"لقد فكّرنا ملياً بتلك المخاطر وقرّرنا أن تحمّلها جدير بالمحاولة إذا ما أردنا العثور على من يسرّب معلوماتنا السريّة. وقد بدّل اختطاف الفتى كل شيء، وأنا سعيد لأن كوتون استطاع ارجاعه."

"هذا موقف رائع من قِبلك. ستكون محظوظاً إن لم يعمد إلى كسر أنفك."

"هذا البيت الأبيض هو كيان لعين،" تمتم غرين. "زُمرة من الحمقى الفاسدين الذين يُظهرون الالتزام بالفضيلة والأخلاق."

لم يسبق لها أبداً أن سمعت غرين يتكلّم بهذه الطريقة من قَبْل.

"يدافعون بالحجّة عن مدى التزامهم بمسيحيّتهم، وبهويّتهم الأميركية، ولكن ولاءهم هو لأنفسهم فقط - وللدولار. لقد جرى اتخاذ القرار تلو الآخر، ولُفَّ كل منها بعلم أميركي، ولم يؤدّ ذلك إلا إلى تسمين جيوب الشركات الكبرى - وهي كيانات أسهمت بقوّة في القضيّة التي يتبنّاها حزبهم. هذه الإدارة تشعرني بالغثَيان. فهي تشارك في لقاءات تُصاغ فيها السياسة بما يُرضي مشاهدي محطات التلفزة لا بما يؤول إلى خير الأمّة. أن أبقى صامتاً ولا أقول أي شيء، وأصبح لاعباً في هذا الفريق لا يعني أنني سوف أسمح بتعريض هذا البلد للخطر. لقد أقسمت اليمين، وبخلاف العديدين في هذه الإدارة، فهو يعني لي شيئاً."

"إذاً لِمَ لا تعمد إلى فضح حقيقتهم؟"

"حتى الآن، لست على يقين بأن أيّاً منهم قد انتهك القانون. مُثيرون للاشمئزاز، لا أخلاقيون، جشعون؟ لقد تيقّنت من ذلك، ولكن هذه الممارسات ليست غير قانونية. أؤكد لك أنه لو قام أي شخص بانتهاك القانون، بمن فيهم الرئيس، لاتخذتُ الإجراءات المناسبة. ولكن أيّاً منهم لم يبلغ هذا الحد."

"باستثناء من يسرّب المعلومات."

"ولهذا السبب بالتحديد أنا مهتمّ جداً - الإناء ينضح بما فيه."

لكنها لم تكن سانجة. "لنواجه الأمر، يا برنت. أنت تحب أن تكون المسؤول الأعلى عن تطبيق القانون، ولن تبق في هذا المنصب طويلاً لو سعيتَ وراء أحدهم وفشلتَ."

فأثنى غرين عليها والقلق في عينَيه. "تعجبينني عندما تكونين أكثر تنبّهاً."

لم تُبالي باكتراثه. "هل عثرت على من يسرّب المعلومات؟"

"أعتقد أننا -"

وعادت كاسيوبيا مسرعة إلى المطبخ. "لدينا رفقة. هناك رجلان أوقفا للتوّ سيّارتهما عند حافة الطريق. بذلات رسمية وسمّاعات أُذُن؛ جهاز المخابرات."

"مفرزتي الأمنية،" قال غرين. "لقد جاؤوا للقيام بمهمّتهم الليلية وتفحّص الأوضاع."

"يجب أن نرحل،" أوضحت كاسيوبيا.

"لا،" قال غرين. "فكّا قيودي وسأتولّى أمرهم."

واتجهت كاسيوبيا إلى الباب الخلفي. أما ستيفاني فقد أخذت قراراً من نوع القرارات التي اتخذتها مئات آلاف المرات، عِلماً أنه سبق لها أن اتخذت مثلها على نحو مُرعب طوال اليوم، وذلك كما اعتاد والدها أن يقول، 'صواب، خطأ، لا يهمّ. قومي بشيء ما فحسب'.

"انتظري."

خطت ستيفاني نحو الطاولة وبحثت في بعض الأدراج، فعثرت على سكّين. "سنفكّ قيوده." واقتربت من غرين وقالت له، "أرجو أن أكون مُدركة لما أنا فاعلة."



اندفع سابر بسرعة عبر أحراج أكسفوردشاير إلى حيث كان قد ترك سيارته. وكان الفجر يُطلّ على الريف الإنكليزي، والضباب الخفيف يغطّي الحقول من حوله. كان مسروراً بلقائه الأول مع مالون، وكان كافياً لإثارة فضول الأميركي، وتبديد أي شك. في الوقت نفسه، وبدا له أن قتل الرجال الذين كان قد استخدمهم يشكل مقدّمة ممتازة. وكان ليطلق النار على الثلاثة لو لم يُردِ مالون أحدهم.

من المؤكّد أن مالون فتّش الجثث بعد مغادرته، ولكن سابر كان قد تأكّد من أن أيّاً من الرجال لا يحمل بطاقة تعريف. فالتعليمات التي أعطيت إليهم كانت تقضي بمجابهة مالون وإردائه. ولكن عندما قتل مالون واحداً منهم، تبدّلت اللعبة. ولم يفاجئه الأمر؛ فقد أثبت مالون في كوبنهاغن أنه يعرف كيف يتدبّر أمره بنفسه.

حمد الله على المسجّلة التي عثر عليها في شقة حدّاد. فتلك المسجّلة، بالإضافة إلى المعلومات التي كانت متوفرة على الحاسوب، زوّدته بما يكفي من معلومات ليتمكّن من حمل مالون على الوثوق به. وكل ما كان عليه القيام به هو العودة إلى فندق سافوي والانتظار.

لأن فمالون سيأتي.

خرج من الغابة ولمح سيارته. وكانت عربة أخرى متوقّفة وراءها، ورأى عميلته السريّة تذرع المكان جيئةً وذهاباً.

"أيها الأحمق،" صرخت. "لقد قتلت هؤلاء الرجال."

"وأين المشكلة في ذلك؟"

"لقد استأجرتهم. كم تظنّ أنه سيكون عدد الآخرين الذين بإمكاني استخدامهم إذا اكتُشف أننا نحن اللعينين نقتل رجالنا؟"

"من يعلم بذلك؟ سوى أنت وأنا."

"أيها الغبي، لقد راقبتك من الخارج. أطلقت النار عليهم من الخلف. لم يروك أبداً قادماً. هذا ما كنت تعتزم القيام به منذ البداية."

فبلغ سيارته. "لقد كنت دوماً ذكيّة."

"تبّاً لك، يا دومينيك. هؤلاء الرجال كانوا أصدقائي."

أثار هذا الأمر فضوله. "هل ضاجعت أيًّا منهم؟"

"الأمر لا يعنيك."

فهزّ كتفَيه. "أنتِ مُحقّة."

"لم يعُد لي علاقة بك البتّة. إحصل على مساعِدة أخرى." واندفعت بغضب نحو سيارتها.

"لا تفكّري بذلك،" صرخ بها.

فاستدارت لمواجهته، متوقّعةً تعنيفاً منه. وكانا قد تجادلا من قَبْل، ولكنه هذه المرة أطلق النار في وجهها.

لم يكن ليحول أي شيء أو أي شخص دون قيامه بهذا الأمر. فقد بذل الكثير من الجهد لبلوغ ما يخطِّط له، وكان على وشك خداع أحد التكتلات الأكثر قوة على وجه الأرض. ولكن للفشل عواقب مُريعة. وبما أنه لم يكن في وارد الفشل، فقد محا أي آثار قد تؤدّي إليه.

فتح باب السيارة وانسلّ إلى داخلها.

إن كوتون هو الشخص الوحيد المتبقّي الذي يتوجّب عليه تدبّر أمره.

وقفت ستيفاني في المطبخ، وكاسيوبيا بجانبها، وأخذتا تستمعان إلى برنت غرين عند الباب الأمامي وهو يتحدّث إلى عميلَي جهاز المخابرات. إما أنها اتخذت قراراً صائباً أم إنه سيتمّ اعتقالهما بعد وقت وجيز.

"هذه حماقة منك،" همست كاسيوبيا.

"هذه حماقتي، ولم أطلب منك أو من هنريك التورّط."

"أنتِ خبيثة عنيدة."

"انظروا من يتكلّم، كان بإمكانك المغادرة. يمكنني القول إنك أيضاً عنيدة بعض الشيء."

كانت تستمع إلى غرين يتحدّث عن أمور تافهة كطقس الليل وكيف أراق كوب الماء على ردائه. وكانت قد حرّرت غرين المقيَّد إلى الكرسي، وتسلّت بمراقبته وهو

ينزع الشريط اللاصق عن مِعصمَيه وكاحلَيه. تُرى، ما الذي كان سيمنحه الممثّلون الهزليّون الليليون لقاء مشاهدته ينتفض بينما كان شعر ذراعَيه وقدمَيه يُنتزَع مع كل شدّة عنيفة؟ ولكن هذا القادم من نيو إنغلند كان قد ملّس شعره الرطْب بسرعة وخرج من المطبخ.

وتبادر إلى ذهنها ثانيةً ما كان قد قاله غرين لها بإقناع حقيقي. '*هذا الصديق مهتمّ بصفة خاصة بما يحدث لك*'.

"إنه يخوننا وقد انتهى أمرنا،" همست كاسيوبيا.

"لن يفعل."

"ما الذي يجعلك واثقة إلى هذا الحد؟"

"عشرون عاماً من الأخطاء."

أخيراً سمعت غرين يتمنّى للعملاء ليلة هانئة. فتحت الباب الدوّار بهدوء ورأت غرين يُلقي نظرة سريعة على العميلَين عبر فتحات الأباجور وهما يغادران. ثم توّجه نحوها وقال، "هل أنت راضية؟"

عبرت غرفة الطعام، وتبعتها كاسيوبيا.

"حسناً، يا برنت. ماذا سنفعل الآن؟"

"سنقوم معاً بإنقاذك، وفي الوقت نفسه، سدّ التسرّب."

"بالمناسبة، لم تذكر لي أبداً من هو مسرّب المعلومات."

"لا، لم أفعل، لأنني لا أعرفه."

"ظننت أنك قلت إنك قد حدّدت هويّة الشخص؟"

"ما بدأت بقوله هو أنني أعتقد أننا قد حدّدنا المشكلة."

"كلّي آذان صاغية."

"لن يُعجبك هذا الأمر."

"حلول."

"في الوقت الحاضر، القناة الرئيسية للإسرائيليين هي بام مالون."

القسم
الثالث

الفصل السابع والثلاثون

الساعة 7:40 صباحاً

كان هنريك ثورفالدسن يكره السفر جوّاً، ولذلك لم تكن أيٌّ من شركاته تملك طائرات. ولكي يخفّف من حالة الازعاج التي يُصاب بها، كان يجلس دائماً في الدرجة الأولى ويطير في الصباح الباكر. فالمقاعد الواسعة، وأسباب الراحة، وموعد السفر، كلها تخفّف من حالة الرُّهاب التي تعتريه. أما غاري مالون فكان من جهة ثانية شغوفاً بخوض التجربة. وكان قد أتى على كل طعام الفطور الذي قدّمه له مُضيف الرحلة بالإضافة إلى قسم كبير من حصة هنريك.

"سوف نهبط قريباً،" قال لغاري.

"هذا عظيم. لو كنّا في ظروف أخرى، لكنت الآن في مدرستي. أما الآن فأنا موجود في النمسا."

كان هنريك وغاري قد أصبحا مقرّبَين جدًّا في السنتَين السابقتَين. فعندما كان غاري يأتي لزيارة مالون لقضاء عطلة الصيف، كان يقضي ليالٍ عدّة في كريستيانفيد. وكان الأب والابن يحبان الإبحار بالمركب الشراعي البالغ طوله أربعين قدَماً والراسي في حوض تابع للمكان نفسه، والذي تمّ شراؤه منذ مدة طويلة للقيام برحلات في قناة أورساند نحو النروج والسويد، ولكنه بات يُستخدم الآن بشكل نادر. وكان كاي، ابن ثورفالدسن، يحب الماء. وهو يفتقده كثيراً بعد وفاته منذ عامَين تقريباً. فقد أصيب بطلقات نارية في العاصمة مكسيكو لسبب لم يتمكّن ثورفالدسن من معرفته أبداً. وكان مالون في مهمّة هناك وبذل ما بوِسعه تجاهه، ما أدّى في النهاية إلى تعرف الرجلَين إلى بعضهما البعض. ولكن ثورفالدسن لم ينسَ ما حدث

هناك، فقد اكتشف حقيقة موت ابنه ولم يكن بإمكانه التغاضي عن حمل الجاني على دفع ثمن جريمته. ولذلك كان الوقت الذي يقضيهمع غاري يُشعره بمقدار من الفرح حرمته الحياة منه بقسوة.

"إني سعيد لأنك استطعت المجيء،" قال له. "لم أكن راغباً في تركك في المنزل."

"لم أزُر النمسا أبداً من قَبل."

"إنها مكان جميل. غابات كثيفة، وجبال مكلَّلة بالثلوج، وبحيرات ألبيّة، ومناظر طبيعية خلّابة."

كان يراقب غاري عن كثَب طيلة اليوم السابق وبدا له أنه يتخطى بنجاح المحنة التي ألمّت به، سيّما وأنه شاهد رجلَين يُقتلون بطلقات نارية. فعندما غادر مالون وبام إلى إنكلترا، كان غاري متفهماً لضرورة ذهابهما. فقد كانت والدته مضطرة إلى العودة إلى عملها، وكان والده بحاجة إلى اكتشاف سبب تعرّض غاري للخطر. وكانت كريستيانغيد مكاناً مألوفاً، وكان غاري يقيم فيها بلهفة وتشوّق. ولكن في اليوم السابق، وبعد أن تحدّث إلى ستيفاني، علم ثورفالدسن بما كان عليه القيام به.

"هذا اللقاء الذي أنت مضطر لحضوره،" قال غاري. "هل هو هامّ؟"

"قد يكون كذلك. سيكون علي حضور عدة جلسات، ولكننا سنجد لك أموراً تقوم بها أثناء وجودي هناك."

"ماذا عن والدي؟ هل يعلم بما نفعله؟ كما أني؟ لم أُخبر أمّي."

كانت بام مالون قد اتصلت هاتفياً قبل ساعات قليلة وتحدّثت بإيجاز إلى غاري. ولكنها أقفلت الخط قبل أن يتمكّن ثورفالدسن من التحدث إليها. "إني متأكد من أن أحدهما سيعاود الاتصال بنا فيُطلعه جِسبر على مكاننا."

كان اصطحاب غاري معه يعد مجازفة، ولكنه قرّر أن ذلك عين الصواب. فإذا كان ألفرد هرمن وراء عملية الاختطاف منذ البداية، وهذا هو اعتقاد ثورفالدسن الراسخ، فإن السلوك الأكثر أماناً يقضي بوجود غاري معه في الجمعية مُحاطاً برجال ونساء ذوي نفوذ من مختلف أنحاء العالم، يحيط بكل منهم فريق إداري وأمني. وبحسب المعلومات القليلة التي علمها بشأن دومينيك سابر، فقد كان

الأميركي محترفاً وغير ميّال للاستعانة بأشخاص مُهمِلين كالهولنديين الثلاثة الذين أفسدوا عملية اختطاف غاري. ولكن ثمة أمراً أما لم يكن مناسباً لقد كان فتصرف مالون تصرفاً جيداً، وهو يُقرّ له بذلك، ولكن الأمور كانت قد كشفت عن دقة غريبة. فهل تمّ إخراج القضية برمّتها لتبدو ببساطة أنها لصالح مالون؟ وهل كانت طريقة لحثّه على الاستمرار في البحث عمّا يسعى إليه الخاطفون؟ إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن غاري بات حقاً في منأى عن أي خطر.

"لا تنسَ الأشياء التي كنا قد تحدّثنا عنها،" قال لغاري. "قليل من الكلام، وكثير من الإنصات"

"فهمت ذلك."

فابتسم وقال. "ممتاز."

لم يبق أمامة الآن إلا ان يأمل في أن يكون قد تمكّن من قراءة أفكار ألفرد هرمن بطريقة صحيحة.

الفصل الثامن والثلاثون

فيينا

الساعة 8:00 صباحاً

دفع هرمن بطبق الفطور جانباً. فقد كان يكره تناول الطعام، ولا سيّما وسط حشد من الناس، ولكنه كان يحب قاعة الطعام في القصر. فقد اختار بنفسه تصميمها وهندستها الداخلية وفقاً للأسلوب القوطي الجديد، والنوافذ ذات المصراعين وتجاويف السقف التي تحمل شعارات نسَب المشاركين الذائعي الصيت في الحملات الصليبية، والجدران التي تغطيها لوحاتٍ زيتية تصف استيلاء المسيحيين على بيت المقدس.

كان طعام الفطور رائعاً، وقد تولّى خدمةَ الضيوف فريقٌ من المُضيفين يرتدون السترات البيضاء. وكانت ابنته تجلس في الطرف المقابل من الطاولة المستطيلة، ويشغل الكراسي الإثنتَي عشرة المتبقّية مجموعة مختارة من أعضاء الجماعة ـ اللجنة السياسية ـ الذين وصلوا في اليوم السابق لحضور جمعية نهاية الأسبوع.

"آمل أن تكونوا جميعاً مستمتعين بوقتكم،" قالت مارغريت للحاضرين. وكان التعاطي مع الحشود أفضل ما تقوم به.

ولاحظ هرمن عبوسها الناجم عن عدم تناوله أي شيء من صحنه، لكنها لم تقُل شيئاً. فتعنيفها له أمر خاص فيما بينهما ـ كما لو أن الشهيّة بحدّ ذاتها تحمل للمرء العمر المديد والصحة الجيّدة. وحبّذا لو كان الأمر بهذه السهولة.

كان العديد من أعضاء اللجنة يتبادلون أطراف الحديث عن القصر وأثاثه

الفاخر، ويبدون الملاحظات عن بعض التغييرات التي أُدخلت عليه منذ الربيع السابق. وبالرغم من أن هؤلاء كانوا من الرجال والنساء الأثرياء، الا أن ممتلكاتهم لم تكن تساوي ربع ثروة هرمن. ومع ذلك فإن كل واحد منهم يفيد بطريقة ما، ولذا فقد أثنى على ملاحظاتهم وانتظر قليلاً ثم قال، "إني مهتمّ بما تنوي اللجنة السياسية قوله للجمعية حول المفهوم رقم 1223."

وكانت تلك المبادرة التي جرى تبنّيها قبل ثلاث سنوات في الدورة الربيعية للجمعية تشمل خطة معقَّدة لزعزعة الاستقرار في إسرائيل وبعض البلاد العربية. وكان قد تبنّى ذلك المفهوم وعمل في سبيله إلى زرع مصادر له داخل الحكومتَين الإسرائيلية والاميركية - مصادر قادتْه بشكل غير متوقَّع إلى جورج حدّاد.

"قبل ذلك،" قال رئيس اللجنة، "هل يمكنكم إخبارنا عما إذا كانت جهودكم قد أثمرت؟ فسوف نضطر إلى تبديل خططنا إن لم تحقّقوا نجاحاً."

وأومأ برأسه مستأنفاً الكلام. "الأحداث تتكشف بسرعة. ولكن إذا نجحتُ، فهل نعتبر أن سوق تصريف المعلومات مأمون؟"

أومأ عضو آخر في اللجنة برأسه طالباً الكلام. "لقد أجرينا تحقيقات في الأردن، وسوريا، ومصر، واليمن. الكلّ مهتمّ، أقلّه على صعيد تنظيم محادثات."

سرّه سماع ذلك. وكان قد علم بأن حماسة بعض الدول العربية - سواء حيال السلع، أو الخدمات، أو الإرهاب - كانت تتزايد بنفس وتيرة حماسة جاراتها.

"إن تجاهل العرب أمر محفوف بالمخاطر،" قال عضو آخر. "لديهم روابط متينة بالعديد من أعضائنا، وقد يكون الرّد مُكلّفاً."

"يجب على مفاوضيكم العمل على إبقائهم ملتزمين بالهدوء إلى أن يصبح التعاطي معهم لمصلحتنا،" أجاب قائلاً.

"ألم يحِن الوقت بعد لكي تطلعنا على ما نحن متورّطون فيه بالتحديد؟" سأل أحد أعضاء اللجنة.

"لا، ليس بعد،" أجاب.

"إنك تورّطنا كثيراً في أمر ما لدرجة أنه، وبكل صدق، باتت لديّ تساؤلات حول الأمر."

"ما هو سؤالك؟"

"ما الذي قد يُعتبر مُغرياً إلى هذا الحد بالنسبة إلى الأردن، وسوريا، ومصر، واليمن، إلى حد استبعاد باقي العرب عنه؟"

"إزالة إسرائيل."

وساد الصمت في الغرفة.

"أمر مسلّم به أن يكون ذلك هدف كل تلك الدول، ولكنه أيضاً مستحيل. فتلك الدولة وُجدت لتبقى."

"هذا ما قيل عن الاتحاد السوفيتي. ولكن عندما واجه مبرّرُ وجوده تهديداً جدّيّاً، وثم كشف النقاب عن حالة الخداع التي كان يقوم في ظلّها، انظر ما الذي حدث. فقد تفكّك في غضون أيام."

"وأنت قادر على تحقيق ذلك، أليس كذلك؟" سأل آخر.

"ما كنت لأهدر وقتنا سُدىً لو لم أعتقد أن الأمر ممكن." وكان أحد الأعضاء الآخرين الذي تربطه بهرمن صداقة دائمة يبدو مُحبَطاً بسبب إجاباته غير المباشَرة، لذا قرّر أن يكون توفيقيّاً إلى حدّ ما. "دعوني أطرح هذا الأمر. ماذا لو كانت صحة العهد القديم موضع تساؤل؟"

فهزّ قليل من الضيوف أكتافهم، وسأل أحدهم، "ماذا لو كان الأمر كذلك؟"

"قد يبدّل هذا الأمر الصراع في الشرق الأوسط بشكل جوهري،" قال هرمن. "فاليهود عازمون على دعم صحة توراتهم؛ كلمة الرّب وما إلى ذلك. ولم يسبق لأحد أن تحدّاهم بجدّيّة أبداً. كان هناك أقاويل وتخمينات، ولكن إذا ثبت أن التوراة غير صحيحة، تخيّلوا مدى تأثير ذلك في مصداقية اليهود. فكّروا كيف أن هذا الأمر قد يحثّ دولاً شرق أوسطية أخرى."

وكان يعني ما يقول. فما من ظرف قاهر كان قادراً على إلحاق الهزيمة باليهود، والكثيرون حاولوا ذلك: الأشوريون، والبابليّون، والرومان، والأتراك، ومحاكم التفتيش. حتى أن مارتن لوثر كان يشمئز منهم. ولكن الذين يزعمون أنهم أبناء الله كانوا يرفضون الاستسلام بعِناد. وقد يكون هتلر الأسوأ، ولكن بعد أفول نجمه، منحهم العالم وطنهم الذي ذُكر في الكتاب المقدّس.

"ماذا لديك ضد إسرائيل؟" سألت إحدى أعضاء اللجنة. "أتساءل منذ البداية عن سبب إضاعة وقتنا على هذا الأمر."

وكانت المرأة قد عارضت الفكرة مع عضوَين آخرَين. ومن الواضح أنهم كانوا من الأقلّيّة المعارِضة، والمأموني الجانب نسبياً، لذا سمح لهم بمناقشة الموضوع لإضفاء مظهر ديمقراطي على النقاش.

"هذا الأمر أبعد من كونه متعلّقاً بإسرائيل فقط." وشعر أنه قد استحوذ على انتباههم جميعاً، وحتى على انتباه ابنته، فأضاف، "إذا ما تمّ تناول المسألة بالشكل الصحيح، قد نكون قادرين على زعزعة استقرار إسرائيل وإحدى الدول العربية المجاورة. فالأمران مرتبطان ببعضهما البعض. وإذا استطعنا خلق القدر الملائم من الاضطراب عند الاثنين، وسيطرنا عليه، وحددنا الوقت المناسب لإحداثه، فقد نكون قادرين على الإطاحة بالحكومتَين بشكل مُبرَم." ثم نظر إلى رئيس اللجنة السياسية. "هل بحثتم كيفية استغلال أعضائنا لتلك العملية فور البدء بتنفيذها؟"

وأومأ الرجل المُسنّ برأسه مؤكّداً الأمر. فقد كان صديقاً له طيلة عقود من الزمن، وكان في طليعة المرشّحين لاحتلال مقعد في الحَلقة. "السيناريو الذي نُعِدّ له يعتمد على الفلسطينيين والأردنيين والسوريين والمصريين، وكلّهم موافقون على ما نقوم بتوفيره ـ"

"هذا الأمر لن يحدث،" قال أحد الرجال، وهو عضو معارض آخر.

"من الذي يظنّ أن العالم سيقوم بترحيل حوالى مليون عربي وبمنح اليهود وطناً؟" قال هرمن موضحاً. "العديد من الناس في الشرق الأوسط قالوا أيضاً إن الأمر لن يحدث." خرجت هذه الكلمات من فمه بشكل جارح، ولذلك قام باعتماد نبرة معتدلة للتعبير عمّا كان ينوي قوله. "إن أقلّ ما يمكننا تحقيقه هو هدم ذلك الجدار البغيض الذي بناه الإسرائيليون لحماية حدودهم، وتحدّي كل ادّعاءاتهم القديمة. وسوف تعاني العجرفة الصهيونية على الأرجح بما يكفي ربما لتحفيز الدول العربية المحيطة بها على القيام بعمل موحَّد. دون أن أنسى إيران التي لن ترغب في أقل من إزالة إسرائيل من الوجود بالكامل. فهذا الأمر سيكون بمثابة نِعمة لها من الله."

"ما الذي قد يتأتّى من كل ذلك؟"

"المعرفة."

"لا بدّ أن تمزح. هل كل ذلك متوقّف على معرفتنا بأمر ما؟"

لم يكن يتوقع حدوث مثل هذه المناقشة الصريحة، ولكن الوقت كان مناسباً لقيامه بشرح الفكرة وإقناع الحاضرين. فقد كانت اللجنة المجتمعة حول طاولة غرفة الطعام مُكلَّفة بوضع تشريعات خاصة بالجماعة وصياغة السياسة الجماعية، وكانت هذه المهام مترابطة بشكل وثيق مع مبادرات تقدمها اللّجنة الاقتصادية لأن السياسة والأرباح مترادفتان. وكانت اللجنة الاقتصادية قد حدّدت هدفاً لزيادة المداخيل للأعضاء الراغبين في الاستثمار بشكل كبير في الشرق الأوسط بنسبة لا تقل عن 30 بالمئة. ولذلك أُجريت دراسة، وجرى تحديد استثمار أوّلي باليورو، وجرى تقدير الأرباح المحتمَلة وفقاً للأحوال الاقتصادية والسياسية، وجرى وضع تصوّر لعدة سيناريوهات. وفي النهاية، اعتُبر أن نسبة 30 بالمئة هي هدف قابل للتحقيق. ولكن الأسواق في الشرق الأوسط محدودة في أفضل الأحوال، وقد تنفجر المنطقة برمّتها بسبب أي حادث مهما كان صغيراً. ويحمل كل يوم معه إمكانية أخرى لحدوث كارثة. لذلك، فالتماسك هو ما تسعى إليه اللجنة السياسية. ولم تكن الوسائل التقليدية - الرشاوى والتهديدات - فعّالة بالنسبة لمن يزنّرون صدورهم عادة بالمتفجّرات في صدورهم. أما الأشخاص الذين يتحكمون بتنفيذ القرارات في معظم الدول العربية فهم شديدو الثراء والحذَر والتعصّب. وبدلاً من ذلك، كانت الجماعة قد توصلت إلى إدراك الحاجة إلى العثور على نموذج جديد من العُملات - عُملة كان هرمن على ثقة بأنه سيمتلكها في وقت قريب.

"المعرفة هي أمضى من أي سلاح،" قال بهمسة متكتّمة.

"كل شيء يعتمد على المعرفة،" أكّد أحد الأعضاء.

فوافقهم الرأي. "سوف يكون النجاح متوقّفاً على قدرتنا على إعطاء معلوماتنا للشارين المناسبين بالسعر المناسب وفي الوقت المناسب."

"أعرفك جيّداً، يا ألفرد،" قال أحد الرجال المسنّين. "لقد خطّطتَ لهذا الأمر بدقّة."

فابتسم ابتسامة عريضة. "بدأت الأمور أخيراً تشهد تطوّراً. فالأميركيون مهتمّون الآن، ممّا يفتح أمامنا طريقاً جديداً وكاملاً من الاحتمالات."

"ماذا عن الأميركيين؟" سألت مارغريت، وقد عبّرت نبرة صوتها عن نفاد صبرها.

سبَّب له سؤالها شيئاً من الانزعاج. فقد كانت بحاجة إلى التعلّم لا إلى إظهار

ما تجهله. "يبدو أن هناك بعض المتنفذين في الولايات المتحدة يرغبون أيضاً في إذلال إسرائيل. وهم يرون في ذلك فائدة للسياسة الخارجية الأميركية."

"وهل يكون مثل هذا الأمر ممكناً؟" سأل أحد أعضاء اللجنة. "العرب في ما بينهم، وكذلك العرب واليهود، لا زالوا يتحاربون منذ آلاف السنين. ما المخيف في الأمر إلى هذا الحد؟"

وكان بودّه أن يحدد هدفاً سامياً لنفسه وللجماعة، ولكن صوتاً في داخله كان يقول له إنه على وشك نَيل المكافأة على مثابرته. لذا حدّق بالرجال والنساء الجالسين أمامه وقال معلناً، "يُفترَض أن أعرف الإجابة عن ذلك السؤال قبل نهاية الأسبوع."

الفصل التاسع والثلاثون

واشنطن، العاصمة

الساعة 3:30 صباحاً

جلست ستيفاني على الكرسي مُنهَكة، وجلس قُبالتها برنت غرين يجلس على الأريكة. كان مترهّلاً في الواقع، ولم تكن قد رأته على هذه الحال من قَبل. وكانت كاسيوبيا مستغرقة في النوم في الطابق العُلوي، أقله أن يأخذ أحدهم قِسطاً من الراحة، أما هي فلم تكن راغبة في ذلك بالتأكيد. وبدا الأمر وكأنه قد مضى على وجودها في هذا المكان ثمانية وأربعين يوماً لا ثمانية وأربعين ساعة حينما كانت غير واثقة بغرين وتتشكّك في كل ما يقول، وغاضبة من نفسها لتعريض حياة ابن مالون للخطر. وعلى الرغم من أن غاري مالون هو في مأمن الآن، إلا أن الشكوك نفسها ما زالت تنتابها حول برنت غرين، وخصوصاً عندما أخذت تفكر ملياً بما كان قد أخبرها به قبل ساعات.

'القناة الرئيسية للإسرائيليين هي بام مالون'.

حملت بيدها علبة كتب عليها 'الدكتور بيبر للحمية' كانت قد وجدتها في ثلّاجته. "هل تشرب هذه المواد فعلاً؟"

أومأ برأسه مؤكّداً الأمر. "إن طعمها كالأصليّة تماماً ولكن بدون سكّر. وقد بدت لي فكرة جيدة."

فابتسمت وقالت. "إنك شخص غريب الأطوار، يا برنت."

"لست سوى رجل عادي يحتفظ بما يحبّ لنفسه."

كانت تشعر بالقنوط والإرهاق الفكري، ويتنازعها قلق عميق حيال رغبتها في صرف انتباهها عن غرين. وكانا قد تركا كل الأضواء مُطفأة عَمداً للإيحاء لكل من يراقب المنزل بأن سكان المنزل غير موجودين.

"هل تفكرين بمالون؟" سأل في الظُّلمة.

"إنه في مأزق."

"لا يمكنكِ القيام بشيء قبل أن يتّصل."

فهزّت رأسها. "ليس الأمر جيداً بما يكفي."

"لديك عميل في لندن. ما هي فُرَص العثور على كوتون؟"

ليست كثيرة. فلندن مدينة كبيرة، ومن يدري إذا كان مالون هناك؟ ربما غادرها إلى أي مكان داخل بريطانيا. ولكنها لم تشأ التفكير بالأمور المتعذّرة، لذا سألت، "منذ متى تعرف بأمر بام؟"

"منذ مدة قريبة."

وشعرت باستياء بسبب إبقائها خارج قضية بام وقرّرت أنها إذا أرادت الحصول على ما تريد فلا بد لها من إعطاء شيء ما لقاء ذلك. "هناك لاعب آخر في قضيتك."

"كلّي آذان صاغية." وكانت نبرة غرين تشير إلى اهتمامه. وأخيراً إنها تعرف شيئاً لم يكن على علم به.

فأخبرته بما قال لها ثورفالدسن عن جماعة الجِزّة الذهبية.

"لم يقُل لي هنريك أي شيء عن ذلك الأمر."

"عجباً، هذا أمر مثير للصدمة." وتناولت جرعة أخرى من مشروبها. "إنه يُخبرك فقط بما يريدك أن تعرف به."

"هل اختطفوا ابن مالون؟"

"إنهم في رأس قائمة المشتبَه بهم."

"ذلك الأمر يفسّر أموراً عديدة،" قال غرين. "كان الإسرائيليون حذِرين بشكل غير اعتيادي طوال كل هذه العملية. وقد تتبّعنا اللغز آملين في أن يبتلع

مصدر معلوماتهم الطُعم. وطوال سنوات، كان دبلوماسيّوهم يجرون تحرّيات سرّيّة عن جورج حدّاد، ولم نخدعهم كلّيّاً عندما خبّأه مالون. لقد بحثوا بدقة في ما تبقّى من ذلك المقهى المدمَّر، ولكن أضرار المتفجّرة كانت شاملة. وحتى عندما تخلّصنا من اللغز هناك لنحملهم على ملاحظة الأمر، قام الإسرائيليون بكل الأمور بسرّيّة."

"أخبرني شيئاً لا أعرفه."

"لقد أربكنا اختطاف ابن مالون. لذلك أرجأتُ موعد لقاءنا عندما اتصلتِ بي في بادئ الأمر حاملةً إليّ الأنباء."

"وظننتُ أن سبب ذلك هو أنني لم أُعجبك ببساطة."

"إنك تتمتّعين بالقدرة على الصبر والاحتمال، ولكنني تعلّمت أن أتكيّف مع الأمور."

فابتسمت ابتسامة عريضة.

مدّ غرين يده نحو طبق من البلور موضوع على طاولة صغيرة منخفضة ويحتوي على بندق مملّح. وكانت هي جائعة أيضاً، لذا غرفت منه حفنة في يدها.

"علِمنا أن إسرائيل ليست متورطة في قضية اختطاف غاري مالون،" قال غرين. "وكنا فضوليّين حيال سبب بقائهم هادئين إلى هذه الدرجة عندما حدث الأمر." وتوقف قليلاً. "ومن ثمّ، وبعد اتصالك بي، علمت بشأن بام مالون."

وكانت تستمع إلى ما يقول.

"لقد تورّطت بعلاقة مع رجل منذ ثلاثة أشهر. وهو محامي ناجح وشريك في شركة في أتلانتا، ولكنه أيضاً مواطن يهودي ومن كبار الذين يدعمون إسرائيل. ويعتقد جهاز الأمن الوطني أنه ساعد في تمويل إحدى الفصائل الأكثر مَيلاً إلى القتال في الحكومة الإسرائيلية."

كانت ستيفاني تعلم أن سياسيين إسرائيليين كانوا يتلقّون دعماً مالياً أميركياً منذ زمن بعيد. " لم يكن لديّ أي فكرة عن اهتمامك إلى هذا الحد بأمور يوميّة."

"مجدّداً، يا ستيفاني، إنّي أجسّد أموراً كثيرة لا تُدركينها. وأبدو بمظهر اجتماعي، وهو أمر مطلوب. ولكن عندما تولّيت هذا العمل، لم أكن أرغب في أن أكون شخصاً يظهر على شاشات التلفزيون. أنا المسؤول الأعلى عن تطبيق القانون في هذا البلد، وأقوم بعملي."

ولاحظت أنه لم يأكل أيّاً من حبّات البندق. وبدلاً من نلك، وبينما كانت راحة يده اليمنى مفتوحة، كان الشكل القاتم ليده اليسرى يبحث داخل طبق الفستق.

"ماذا تفعل؟" سألته.

"أبحث عن الأنصاف."

"لِمَاذا؟"

"يوجد عليها المزيد من الملح."

"عفواً؟"

"إذا كان لديك حبة كاملة، يكون داخلها غير مملَّح. ولكن إذا كانت مشطورة إلى قسمَين فهي تحمل كميّة مضاعَفة من الملح."

"إنك تمزح."

ثم التقط حبة بندق وقذفها إلى داخل فمه.

"لِماذا يوجد في نصف حبة من البندق ملح أكثر مما يوجد في الحبة الكاملة؟"

"ألا تُدركين الأمر؟" سأل بنبرة مُسلّية. "نصفان مملَّحان، إذا ما جُمعا، يحتويان على ملح أكثر مما تحتويه حبة كاملة." وقذف بحبة أخرى إلى داخل فمه.

لم تكن قادرة على معرفة ما إذا كان جدّيّاً أم إنه يثير غضبها فحسب، ولكنه استمرّ بالبحث عن الأنصاف. "وماذا تفعل بالحبّات الكاملة؟"

"أتركها للنهاية، لا أتناولها إلا كملاذ أخير. ولكنني سأقايض معك حبة كاملة مقابل نصف حبة."

كانت تحب برنت غرين بهذه الشخصيّة. لمسة من المرَح، وحسّ بسيط بالفكاهة. وشعرت فجأةً بالأمان معه. "إنك تريد النَّيل من هؤلاء الأغبياء المتكبّرين في البيت الأبيض بقدر ما أريد نلك. وقد سمعتَ الحديث الذي دار بشأنك؛ لقد نعتوك بالمحترم غرين العادل. إنهم يحتفظون بالأشياء لأنفسهم ويستغلّونك لتعزيز صورتهم ليس إلّا."

"أودّ الاعتقاد بأنني لست حقيراً إلى هذا الحد."

"أين الحقارة في ركل مؤخّراتهم؟ إنهم يقومون بالأمر إذا كان شخص ما بحاجة إلى ذلك، بمن فيهم الرئيس."

"أوافقك الرأي." ونفض بقايا البندق عن يدَيه وهو مستمرّ بالمضغ. وكانت قد بدأت فعلاً تقدّر الرجل الجالس قُبالتها حق قدره.

"أخبرني بالمزيد عن بام،" قالت.

"لقد ظلت تواعد المحامي طيلة ثلاثة أشهر تقريباً. ونحن نعلم أنه كان على اتصال بهيذر ديكسون. فقد التقيا عدة مرات."

فأُصيبت بالحَيرة. "يفوتني أمر ما. كيف يمكن للإسرائيليين الافتراض بأن بام قد تتورّط في أيّ من هذه الأشياء؟ لقد بقيت على جفاء مع مالون لمدة طويلة، وهما لا يتكلّمان مع بعضهما البعض إلا نادراً. وقد قلتَ بنفسك إنك لا تعتقد أنهم اختطفوا غاري."

"كان الإسرائيليون بحاجة إلى معرفة أمر ما لا نعرفه. لقد توقّعوا كل ذلك، وعرفوا أنه سيحدث، وأن بام مالون ستتّصل بكوتون. هذا هو الأمر الوحيد المعقول. لقد خططوا لكسب صداقتها عَمداً. أخبريني الآن عن جماعة الجِزّة الذهبية. أظنّ أن الإسرائيليين كانوا على عِلم أيضاً بأن هذه الجماعة متورطة، وأن الفتى سيتمّ اختطافه. وربما كانوا يخطّطون للقيام بالأمر بأنفسهم؟"

"هل بام جاسوسة؟"

"إن مدى تورّطها يبقى لغزاً محيّراً. ولسوء الحظ، فقد توفّي المحامي الذي كانت تواعده في أتلانتا أول من أمس." وتوقف غرين قليلاً ثم تابع. "أطلق أحدهم عليه النار في مرأب للسيارات."

لا شيء جديد، فالشرق الأوسط ينال نصيبه من هذه الأحداث.

"ماذا تعرف عنه؟" سألت.

"كنّا نتحقّق من مشاركته في صفقة لبيع الأسلحة. فتل أبيب تقول علانيةً إنها تحاول إيقاف هؤلاء الأشخاص، ولكنها تشجّع هذه الممارسات سرّاً. وقد أُبلغتُ بأن هذا المحامي هو الذي قام بكافة الخطوات تجاه بام، وأنه أمضى الكثير من الوقت معها، وقدّم لها الهدايا، وذلك النوع من الأمور. فبام مالون وحيدة وضعيفة على عكس ما يريد أحدهم حمل الناس على الظنّ بأنها قويّة وشديدة التحمّل."

فشعرت بشيء ما في نبرة صوته. "ذلك الأمر ينطبق عليكَ أيضاً؟"

لم يُجب غرين على الفَور، وتساءلت عمّا إذا كانت قد مسّت بمشاعره. لكنه قال أخيراً بهمسة منخفضة، "أكثر ممّا تعرفين."

كانت تريد أن تستكشف تلك الناحية من حياته، كانت على وشك القيام بذلك عندما سُمعت وقع خطوات متّجهة نحو الطابق السُّفلي. وظهر شكل كاسيوبيا عند مدخل الباب.

"لدينا رفقة لقد توقّفت سيارة للتوّ."

فوقف غرين. "لا أرى أي أضواء للمصابيح الأمامية."

"لقد أطفأوا الأنوار."

وبدا القلق على ستيفاني. "ظننت أنك كنت نائمة."

"يجب على أحد ما أن يحرسكما."

ورنّ جرس الهاتف.

ولكن أحداً لم يتحرّك.

ورنّ مرة ثانية.

فخطا غرين في الظُّلمة وعثر على سمّاعة الهاتف اللاسلكية، وأجاب.

ولاحظت ستيفاني من نبرة صوته أنه يتظاهر بأنه كان نائماً.

ومرّت لحظات قليلة من الصمت.

"إذاً في مطلق الأحوال، تفضّل بالدخول. سأكون في الأسفل بعد قليل."

وأقفل غرين الخط.

"لاري دالي. إنه في الخارج ويريد مقابلتي."

"ليس بالأمر الجيد،" قالت ستيفاني.

"قد لا يكون الأمر كذلك، ولكن إبقيا بعيدتَين عن الأنظار ولنرَ ما يريد هذا الشرير."

الفصل الأربعون

لندن
الساعة 8:15 صباحاً

كان مالون يحب فندق السافوي. وكان قد أقام فيه عدة مرات على نفقة الحكومتَين الأميركية والبريطانية. فهناك أمر واحد تمتاز به وكالة ماجيلان بيليت، وهو أن التعويضات الإضافية كانت وفيرة بمقدار وفرة المخاطر. لم يكن قد زار المكان منذ عدة سنوات، ولكنه كان سعيداً لرؤية الفندق الذي يعود تاريخه لأواخر عهد الملكة فكتوريا والذي ما زال يتمتّع بهذا المزيج من الثراء وإثارة الدهشة. كان يعلم أن قضاء ليلة في غرفة قُبالة نهر التّايمز تكلّف أكثر ممّا يجنيه معظم الناس في العالم في سنة. مما يعني أن منقذهم يحب على ما يبدو أن تكون أسفاره مفعمة بالأناقة والتميّز.

كانا قد غادرا باينبريدج هول على وجه السرعة بعد أن استوليا على عربة النقل الخاصة بفريق التنظيف، وأوقفاها على بُعد أميال قليلة من محطة القطار. هناك، استقلّوا قطار الساعة 6:30 العائد إلى لندن. في محطة فكتوريا كان كل شيء هادئاً، وقد تفادى ركوب سيارات الأجرة واستقلّ مترو الأنفاق إلى السافوي.

كان كتف بام يبدو في حالة جيّدة، وكان النزف قد توقّف وهما في طريقهما من باينبريدج هول إلى الفندق. في داخل الفندق، عثر على هاتف داخلي وطلب الاتصال بالغرفة رقم 453.

"إنكما تتحركان بسرعة،" قال الصوت في الجانب الآخر من الخط.

"ماذا تريد؟"

"في الوقت الحاضر، أنا جائع. لذا، فإن تناول طعام الإفطار هو أولويّتي الرئيسية."

فهم مالون الرسالة. "إنزل إلى هنا."

"ما رأيك لو نتقابل في المقهى بعد عشر دقائق؟ لديهم بوفيه من الأطعمة اللذيذة."

"سوف نكون في انتظارك."

كان الرجل الذي انضمّ إلى طاولتهما هو الشخص نفسه الذي شاهداه قبل ساعتَين، إلّا أنه يرتدي الآن ملابس زيتيّة اللون من قماش التشينو المخصَّص للجنود، وقميصاً من التويل البنّي المائل للصُّفرة. وكانت حلاقته النظيفة ووجهه الوسيم ينمّان عن حسن نيّة وتهذيب.

"اسمي ماك كولوم، جايمس ماك كولوم. ويدعونني الناس جيمي."

كان مالون مُرهَقاً جداً ومرتاباً ولم يكن في مِزاج يسمح له بأن يكون متودِّداً، ولكنه بذل ما في وسعه ليبدو كذلك. كانت المصافحة حازمة وواثقة، وكانت عينا الرجل الآخر الخضراوان تحدّقان فيه بحماسة مفرَطة. بقيت بام جالسة، فتولى مالون مهمة التعريف عن نفسه وعنها، ثمّ دخلا في صلب الموضوع مباشَرةً. "ماذا كنت تفعل في باينبريدج هول؟"

"بإمكانك أن تشكرني على الأقل لأني أنقذت حياتك. لم يكن من واجبي ذلك."

"هل كان وجودك في الجِوار من قَبيل المصادفة؟"

تجعّدت شفتا الرجل الرقيقتان بعد أن ارتسمت عليهما ابتسامة عريضة. "أنت دائماً هكذا؟ بدون مداعبات تمهيدية، تدخل مباشَرةً في صلب الموضوع؟"

"إنك تتملَّص من الإجابة عن سؤالي."

وسحب ماك كولوم كرسيّاً وجلس. "أنا اتضوّر جوعاً. ما رأيك لو نتناول بعض الطعام ومن ثمّ أُخبرك بالأمر؟"

لم يتحرّك مالون. "ما قولك في الإجابة عن سؤالي."

"حسناً، سأجيبك تعبيراً عن نيّتي الحسنة. أنا صائد كنوز أقتفي آثار مكتبة الإسكندرية. لقد مضى أكثر من عقد وأنا أبحث عمّا تبقّى منها. كنت في باينبريدج هول بسبب أولئك الرجال الثلاثة. لقد قتلوا امرأة منذ أربعة أيام، وكانت مصدراً جيداً للمعلومات، لذلك عملت على تعقّبهم أملاً في معرفة الجهة التي يعملون لصالحها. وبدلاً من ذلك، قادوني إليك."

"قلت هناك إنك تملك معلومات لا أملكها. ما الذي يحملك على الاعتقاد بذلك؟"

دفع ماك كولوم كرسيّه إلى الوراء ووقف. "لقد قلتُ إني قد أملك بعض المعلومات التي لا تملكها. وليس لدي الوقت ولا الصبر لهذا الاستجواب. لقد زرت المكان قبل ذلك. وأنت لستَ أوّل من يذهب إلى هناك. كل واحد منكم أنتم الهواة يعرف جزءاً ضئيلاً من الحقيقة ممزوجاً بالكثير من الوهم. أرغب في مقايضة بعض ما أعرفه مقابل مقدار ضئيل من المعلومات التي لديك. هذا كل شيء يا مالون. لا شيء أكثر شؤماً من ذلك."

"لهذا السبب أطلقت النار على رجلَين في الرأس لإثبات وجهة نظرك؟" سألت بام، ولاحظ مالون في عينَيها نظرة المحامي المتشكّك.

فثبّت ماك كولوم نظره على بام. "أطلقت النار على هؤلاء الرجال لإنقاذ حياتكما." ثم ألقى نظرة سريعة حوله. "أحب هذا المكان. هل تعلمان أن أول كأس مارتيني يُسكب هنا كان في المقصِف الأميركي؟ همنغواي، فيتزجيرالد، غرشوين - كلهم شربوا هنا. كثير من الأحداث التاريخية."

"هل تحب التاريخ؟" سألته بام.

"للضرورة المهنيّة."

"هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟" سأل مالون.

حافظ ماك كولوم على رباطة جأشه متّبعاً سلوكاً هادئاً، بالرغم من محاولة مالون المتعمّدة لإثارته. "إن طريقتك تنمّ عن ارتياب كبير حيالي. هيا، استمرّ على هذا النحو. إحصل على ضالّة البطل. آمل في أن تحقّق نجاحاً."

كان هذا الرجل مطّلعاً. "كيف علمت بذلك الأمر؟"

"كما قلت، إني أقتفي هذا الأمر منذ مدة قصيرة. كم مضى على شروعك

بالبحث؟ دعني أحزر؟ أنت مبتدئ. والأسوأ من ذلك أنك مبتدئ وتتّخذ موقفاً. لقد التقيت بالعديد من أمثالك. وهم يظنّون أنهم يعرفون كل شيء، ولكنهم لا يعرفون في الحقيقة إلا القليل. لقد بقيت تلك المكتبة مخبّأة طيلة ألف وخمسمئة عام لسبب ما." وتوقف ماك كولوم قليلاً. "هل تعلم يا مالون أنك مثل حيوان على عشب كثير ورأسه فوق السياج يأكل العشب الضارّ. سُررت بلقائك. سأذهب وأجلس على تلك الطاولة هناك وأتناول الفطور."

ثم شقّ ماك كولوم طريقه بين طاولات المقهى الفارغ تقريباً.

"ما رأيك؟" سأل بام.

"متكبّر، ولكن لا يمكنك أخذ ذلك عليه."

فابتسم وقال. "لديه بعض المعلومات، ولن نحصل على شيء طالما بقينا جالسين هنا."

فوقفت وقالت. "أوافقك الرأي. لذا، هيا بنا نتناول الطعام مع صديقنا الجديد."



جلس سابر إلى الطاولة وأخذ ينتظر. فإذا كان تقديره صائباً، فسوف يتّجهان نحوه بعد وقت قصير. ومن غير الممكن أن يتمكّن مالون من المقاومة. فمعرفته لا بد أن تكون محدودة بما أطلعه عليه جورج حدّاد - والتي، بحسب ما سمعه في الشريط، لم تكن معلومات وافية. وقد يكون ما استخرجه مالون من شقّة حدّاد قبل الفرار ملأ بعض الثغرات، ولكنه كان يراهن على أن معظم الأسئلة الحيويّة ما زالت بدون إجابات.

وكان هذا الأمر أيضاً يشكل مشكلة له.

وكان سابر يُجبر نفسه على القيام برد فعل، أمر مختلف. كان معتاداً على سكون أفكاره الخاصة - والصُّحبة الحميمة بالنسبة إليه كانت نادرة وتتوقّف على المرأة المناسبة التي توفّر له ممارسة الجنس. كان يستأجرهنّ في معظم الأحيان، وكنّ احترافيات مثله تقُمنَ بعملهنّ، فتقلنَ له في الليل ما يريد سماعه، ومن ثمّ تغادرنَ في الصباح. وكانت الوقائع القاسية المتمثّلة بتعرّضه للخطر الجسدي والتوتّر الفكري، أقله بالنسبة إليه، تقلّل رغبته في ممارسة الجنس بدلاً من تحفيزها.

فالعواقب الوخيمة توهن الدماغ. كان ينام مع مساعِدته المستأجَرة من حين لآخر. ولكن كما كانت حاله عندما أطلق إطلاق النار على البريطاني في وقت سابق، كان يرافق هذا الأمر تأثيرات جانبية مُزعجة. فبدلاً من إقامة علاقة غرامية، كان يتشوّق للعُزلة.

كان قد لعب هذا الدور الخاص من قَبل مع آخرين عندما كان بحاجة إلى ضمان ثقتهم. وكان قد ورث من أحد أصدقاء والدته الكثيرين كلماته، وأفعاله، وطريقة سيره وتنقّله، وصوته المتبجّح. وكان هذا الأخير شرطياً وجوديّ السلوك في شيكاغو حيث كانا قد أقاما عندما كان في الثانية عشرة من عمره. فتذكّر كيف أن الرجل حاول التأثير في والدته وبلا حَرَج. كما تذكّر ممارسة لعبة وايت سوكس وقيامه برحلة إلى متنزّه البحيرة. وعلِم بعد ذلك أن الشرطي، على غرار معظم عشّاق والدته، كان مهتمّاً بالتأثير فيها ليس إلّا. فما إن يحصلوا على مُرادهم بقضاء ليالٍ في سرير والدته حتى يكفّوا عن الاهتمام بهما. وبلغ به الأمر حدّ كره كل المتقدّمين للزواج بها؛ فأيّ منهم لم يكن موجوداً عندما قام بدفنها. لقد ماتت بمفردها مُفلِسة. ولم يكن عازماً على تكرار المصير الذي لقَيته.

فوقف واتّجه نحو البوفيه.

كان يحب السافوي والغرف المفروشة بالتُّحف الأثرية الباهظة الثمن التي يقوم خدّام أولد وورلد بتقديم الخدمات لشاغليها. وكانت هذه الرفاهية من النوع التي يستمتع به بشكل روتيني ألفرد هرمن وبقيّة أعضاء جماعة الجِزّة الذهبية. كان يريد الحصول على ذلك الامتياز أيضاً، ولكن وفقاً لشروطه لا لشروطهم. ولتبديل الواقع، كان بحاجة إلى كوتون مالون، وكان يتساءل عمّا إذا كان بعض ما يسعى إليه يكمن داخل الحقيبة الجلديّة التي يحملها مالون. حتى الآن تمكّن من التقدم على خصمه خطوة واحدة. ومن طرف عينه، كان مسروراً برؤية أنه ما زال يحتفظ بهذه المزيّة.

فقد كان مالون وزوجته السابقة يشقّان طريقهما بين الطاولات التي تمتلئ بالروّاد بسرعة.

"حسناً، يا ماك كولوم،" قال مالون وهو يقترب. "نحن هنا."

"قبلت الصفقة؟"

"بالتأكيد. هذا أقل ما يمكنني القيام به."

وضحك في سرّه. "آمل فقط ألّا يكون ذلك أقصى ما يمكنك القيام به."

الفصل الحادي والأربعون

واشنطن، العاصمة

انسحبت ستيفاني وكاسيوبيا إلى داخل المطبخ بينما كان برنت غرين يتجه نحو الباب الرئيسي للمنزل. واستعادتا موقعَيهما بالقرب من الباب الدوّار وأخذتا تستمعان إلى غرين وهو يرافق دالي إلى غرفة الطعام، ويجلسان من ثم إلى الطاولة.

"برنت،" قال دالي، "يجب أن نتباحث في بعض المسائل."

"لطالما كانت لدينا مسائل نبحثها، يا لاري."

"إننا نواجه مشكلة جدّيّة، وأنا أستخدم صيغة الجمع لأنني قدمت لمساعدتك على حلّها."

"كنت آمل في أن تكون هامّة نظراً إلى قدومك في هذا الوقت المتأخر من الليل. لذا، لِمَ لا تخبرني ما هي مشكلتنا؟"

"لقد تمّ العثور على ثلاث جثث منذ وقت قصير في أحد الأماكن في غربي لندن، جثّتان تلقّتا رصاصتَين في الرأس، والأخرى في الصّدر. كما عُثر على جثّة أخرى لامرأة على بُعد أميال قليلة مُصابة برصاصة في رأسها من مسدس عياره مماثل لعيار المسدس الذي استُخدم لإطلاق النار على رأسَي الجثّتَين. وقد سُرقت عربة نقل خاصة بطاقم التنظيف من المكان، وتعرّض أفراد الطاقم للضرب حتى فقدوا وعيهم. وقد اُقتيدت العربة إلى داخل مدينة قريبة وتُركت هناك. كما شوهد رجل وامرأة يغادران عربة النقل ويستقلّان بعد ذلك قطاراً إلى لندن. وأكّد شريط الفيديو الذي سجّلته كاميرا المراقَبة التابعة لمحطة فكتوريا أن كوتون مالون وزوجته السابقة نزلا من ذلك القطار."

كانت ستيفاني تعرف إلى أين يؤدّي هذا الأمر.

"أفترض أنك تُلمح إلى أن مالون قتل هؤلاء الأشخاص الأربعة،" قال غرين.

"يبدو الأمر كذلك بلا ريب."

"من الواضح، يا لاري، أنك لم ترافع عن جريمة قتل حتى النهاية."

"وهل فعلت أنت؟"

"ست جرائم في الواقع، عندما كنت مساعد المدّعي العام. لا تملك أي فكرة عما إذا كان مالون هو الذي قتل هؤلاء الأشخاص."

"قد لا أملك ذلك يا برنت ولكن هناك ما يكفي لإثارة غضب البريطانيين. سأترك لهم التفاصيل للبحثها."

أدركت ستيفاني أن هذا الأمر قد يسبب مشكلة لكوتون، ورأت في عينَي كاسيوبيا أن صديقتها توافقها الرأي.

"تعرّف البريطانيون إلى مالون. والسبب الوحيد لعدم ملاحقتهم إيّاه هو أنهم سألونا عمّا يفعله هناك. أرادوا أن يعرفوا إذا كان في مهمة رسمية. ألا تعرف الجواب بالصدفة؟"

ثم ساد الصمت في المكان، وأخذت ستيفاني تتخيل النظرة الثابتة البادية على وجه غرين. فقد كانت محاولة الإعاقة أفضل ما قام به.

"هذا الأمر يقع خارج سلطتي القضائية، ومن الذي يقول إن مالون يقوم بأي شيء هناك يعنينا؟"

"أظن أنني أبدو غبياً فحسب."

"ليس دائماً."

"ظريف، يا برنت. حسّ الفكاهة، أمر جديد بالنسبة إليك. ولكن كما كنت أقول، مالون موجود هناك لسبب ما وقد لقي أربعة أشخاص حتفهم بسببه بصرف النظر عمّا إذا كان هو الذي ضغط على الزناد أم لا. وباعتقادي أن للأمر علاقة بلغز الإسكندرية."

"مزيد من الاستنتاجات باسم المنطق. أهكذا يحدّد البيت الأبيض سياسته؟"

"لو كنت مكانك لما إقحمت البيت الأبيض في ما يجري. لستَ من الأشخاص المفضَّلين لديه في الوقت الحاضر."

"إذا لم يكن الرئيس راغباً في أن أستمرّ بتأدية واجبي، يمكنه بالتأكيد القيام بشيء ما بهذا الخصوص."

"لستُ أكيداً من أن استقالتك تكفي."

وأدركت ستيفاني أن دالي بات أخيراً على وشك الإفصاح عن هدف زيارته.

"ما الذي يجول في فكرك؟" سأل غرين.

"إليك الموضوع. إن نتائج الاستفتاء الشعبي حول الرئيس ليست على المستوى المطلوب. صحيح أنه ما زال أمامنا ثلاث سنوات لانتهاء مدة ولايتنا الثانية، ولكننا نرغب في أن نبقى في الصدارة. من لا يرغب في ذلك؟ ولا شيء يعطِّل مفعول نتائج الاستفتاء أكثر من لمّ شعث الأطراف المتفرّقة حول العَلَم، ولا يمكننا القيام بهذا الأمر على أفضل وجه إلا من خلال عمل إرهابي."

"لقد أصبت هذه المرة."

"أين ستيفاني؟"

"كيف لي أن أعلم؟"

"أخبرني أنت. منذ يوم أو يومَين كنت مستعدّاً للاستقالة دفاعاً عنها. أقول لها ألّا تُقحم وكالة بيليت في هذه القضيّة، فتستنفر الوكالة بأكملها دون تلكّؤ. هل فعلت ذلك بموافقتك؟"

"لست قيّماً عليها."

"لقد طردها الرئيس. وقد تمّ استبدالها."

"دون استشارتي؟"

"استشار نفسه وهذا يكفي. لقد أصبحت خارج اللعبة."

"ومن سيتولّى مسؤولية ماجيلان بيليت؟"

"ما رأيك بقصة صغيرة؟ ليست من ابتكاري بل مستمَدّة من أحد كتبي المفضَّلة 'إجراءات جدّيّة متصلّبة' لكريس ماثيوز. فهذا الكاتب لا ينتمي إلى الجناح

السياسي الذي أنتمي إليه ولكنه مع ذلك رجل ذكي. يروي الكتاب كيف أن السيناتور السابق بيل برادلي أراد الحصول على قطعة أخرى من الزبدة عندما كان في حفل عشاء أُقيم على شرفه، دون أن يتمكّن من جعل النادل الذي يحمل الصينيّة يلبّي طلبه. وأخيراً، قصد الرجل وقال له إنه من الواضح أنه لا يعرف من يكون. 'أنا بيل برادلي، باحث في رودس، ولاعب محترف في كرة السلّة، وسيناتور أميركي، وأرغب في مزيد من الزبدة'. لم يتأثّر النادل بهذا الأمر وقال له ببساطة إنه من الواضح أن برادلي لا يعرف من يكون، لذا أخبره النادل. 'أنا الشخص المسؤول عن الزبدة'. كما ترى، يا برنت، السلطة هي في المنصب الذي أوكل إليك. لذلك، أنا الشخص المسؤول حالياً عن ماجيلان بيليت."

"ألم تكن فرداً من شركات الضغط قبل العمل في البيت الأبيض؟ وقبل ذلك مستشاراً سياسياً؟ ما الذي يخوّلك إدارة أحد أكثر الأقسام حساسية في وزارة العدل؟"

"واقع أن الرئيس يقدّر رأيي."

"وأنك تقبّل مؤخّرته كلما انحنى."

"لم آتِ إلى هنا لمناقشة المؤهّلات. لقد اتُّخذ القرار. لذا، أين ستيفاني؟"

"أفترض أنها في فندقها."

"لقد أصدرتُ مُذكرة باعتقالها."

"ومن في وزارة العدل يساعدك في هذا الأمر؟"

"لقد نظر مستشار البيت الأبيض في التفاصيل. لقد انتهكتْ عدداً لا بأس به من القوانين."

"هل ترغب في إطلاعي على القوانين التي تمّ انتهاكها؟"

"ما رأيك في التعدّي على مواطنة أجنبيّة؟ هناك عضوة في البعثة الإسرائيلية تقسم أن ستيفاني حاولت قتلها. ويوجد على رأس المرأة كَدمة كبيرة تثبت صِحّة الأمر."

"هل تنوي الادّعاء على ستيفاني؟"

"أعتزم جرّها إلى مكان لا وجود فيه لأي مراسل صحافي."

"ولا يمكنها العودة منه."

وساد مزيد من الصمت.

"الحوادث تقع في كل وقت، يا برنت."

"وهل يشملني ذلك؟"

"في الوقت الحاضر، نعم. يبدو أن الإسرائيليين لا يحبّونك ولا يريدون الافصاح عن السبب. قد يكون كل الأمر متعلّقاً بادّعاء المحافظين المسيحيين بأنك تحب إلقاء المواعظ." وتوقف دالي قليلاً. "أو لعل السبب يعود إلى أنك أحمق، لا أعلم."

"إن ما تكنّه لمنصبي من احترام هو أمر مثير للاهتمام."

"أحترم الأشخاص الذين أوكلوا إليّ هذا المنصب، كما يُفترَض بك ذلك. لنكن واضحين. يمكننا القيام بضربة إرهابية جيدة، وأيّاً من الأشخاص الذين اعرفهم لن يذرفوا دمعة واحدة عليك إذا كنت الضحيّة. لا شيء سوى هتافات بالانتصار. ثلاثة عصافير بحجر واحد وما عدا ذلك هراء. لقد انتهى أمرك. إسرائيل مبتهجة هذه المرة، ونتائج الاستفتاء في تصاعد، والكل ينظرون إلى الرئيس بصفته القائد. الحياة جميلة."

"إذاً أتيت إلى هنا لتهديد مدّعي عام الولايات المتحدة؟"

"لمَاذا تقول ذلك الآن؟ لقد أتيت لتبليغ التهديد. من الصواب القيام بذلك كما تعلم، فيكون ممكناً إذاك اتخاذ الاحتياطات الأمنية المناسبة. والإجراءات تطال ستيفاني أيضاً. لسبب ما، حقد الإسرائيليون عليها. ولكنك بالطبع لا تعرف شيئاً عن مكان وجودها، لذا لا يمكننا تحذيرها؛ أمر مؤسف جداً. ولكنك مسألة أخرى. اعتبر نفسك مطلعاً على الأمر."

"هل أفترض أن الإسرائيليين أنفسهم لن يتورّطوا في أي عملية قتل؟"

"بالطبع لا. إسرائيل ليست دولة إرهابية، ولكنهم أشخاص واسِعو الحيلة ويمكنهم تلزيم المشروع. لديهم صلات بعناصر يثيرون الرعب في النفس، إذا أمكننا قول ذلك. لهذا السبب تمّ إعلامك."

سمعت ستيفاني أحدهما يقف.

"لا تعتبر الأمر شخصياً إنها ضرورات العمل، يا برنت."

"وإذا كنتُ فتى مُطيعاً والتزمتُ بما يُطلَب منّي، فسوف يفقد هؤلاء 'العناصر الذين يثيرون الرُّعب في النفس' اهتمامهم بي."

"لا يمكنك قول ذلك، ولكنه أمر محتمَل. لِمَ لا تحاول ونرى النتيجة؟"

وساد الغرفة صمت أطول من أن يكون تعبيراً عن حالة ارتياح. وتخيلت ستيفاني أسدَين يواجهان بعضهما البعض.

"هل يستحق تخليد ذكرى الرئيس كل هذا الأمر؟" سأل غرين.

"هل هذا كل ما في الأمر باعتقادك؟ على الإطلاق. الأمر متعلّق بتخليد اسمي، وما يمكنني تقديمه. وذلك النوع من الرأسمال السياسي تفوق قيمته الذهب."

ثم سمعت طقطقة الأحذية على الخشب الصلب وهي تبتعد عن المطبخ.

"لاري،" قال غرين رافعاً صوته.

وتوقّفت الخطى.

"أنا لا أخافك."

"يجدر بك ذلك."

"جرّب أفضل حظّ لديك، سأجرب حظّي بنفسي."

"أجل، صحيح. يا برنت، بعد أن أجرّب حظّي ستعود إلى فرمونت في صندوق وتوضَع في باطن الأرض على عمق ستة أقدام."

"لا تكن واثقاً من ذلك."

ضحك دالي ضحكة خافتة. "الأمر المضحك في كل ذلك هو أن الشخصَين الأكثر إزعاجاً لي يسعون إلى إخراج الإدارة عن مسارها. تكلّم عن أمور يمكنك الاعتماد عليها."

"قد نفاجئك."

"واصل التفكير على هذا النحو. طاب يومك."

وفُتح باب، ومن ثمّ أُغلق.

"لقد ذهب،" قال غرين.

خرجت ستيفاني من المطبخ وقالت، "أظنّ أنه لا يمكنك الإشارة عليَ بما يتوجّب القيام به بعد الآن."

ولاحظت إرهاقاً في عينَيه الرماديّتَين، وكانت تعبة أيضاً.

"لقد نجحتِ في حثّهم على طردكِ في النهاية."

"وهو آخر ما يهمنا،" أوضحت كاسيوبيا.

"هناك خائن في هذه الحكومة،" قال غرين. "وأنا عازم على كشف أمره."

"أؤكّد لك يا سيّدي المدّعي العام،" قالت كاسيوبيا، "أنك لم تتعامل أبداً مع أولئك 'العناصر الذين يثيرون الرعب في النفوس'. دالي مُصيب. لن يقوم الإسرائيليون بأي عمل قذِر بأنفسهم. إنهم يستأجرون من يقوم به، والأشخاص الذين يستخدمونهم هم مشكلة بحدّ ذاتها."

"إذاً سيكون علينا جميعاً الاحتراس."

وكانت ستيفاني تبتسم. فقد كان برنت غرين يملك شجاعة أكبر ممّا تصوّرت. ولكن هناك أمر آخر كانت قد تحرّت عنه في وقت سابق وباتت واثقة منه. "لديك مخطّط، أليس كذلك؟"

"آه، أجل. لست مجرَّداً من الموارد ومصادر العَون."

الفصل الثاني والأربعون

فيينا، النمسا

الساعة 10:50 قبل الظهر

ودّع ألفرد هرمن اللجنة السياسية واعتذر مغادراً غرفة الطعام. فقد قيل له إن ضيفه المميّز قد وصل أخيراً.

اجتاز ممرّات الطابق الأرضي ودخل ردهة القصر الرَّحبة بينما كان هنريك ثورفالدسن يدخل جارّاً قدمَيه. وارتسمت على وجهه ابتسامة سريعة وقال بالإنكليزية، "هنريك. كم تسرّني رؤيتك."

ابتسم ثورفالدسن أيضاً عندما شاهد مضيفه. "ألفرد، لم أكن في وارد القدوم، ولكنني قرّرت أن أقوم بالزيارة مثل الجميع."

اقترب هرمن منه وتصافحا. وكان منذ أربعين عاماً قد تعرف إلى ثورفالدسن الذي لم يتغيّر إلا قليلاً. وكان عموده الفِقري اليابس مُعوَجّاً وينحني بزاوية غير طبيعية مثل علبة صفيح تعرّضت للضرب بمِطرقة. كان يعجب على الدوام بانفعالات ثورفالدسن التي بقيت مدروسة ومهذَّبة كأنه يطبّق برنامجاً مُستظهَراً وهو أمر يتطلّب موهبة. ولكن ثورفالدسن صحيح أنه يهودي، غير متديّن أو منفتح، ولكنه عبريّ بالرغم من كل شيء. والأسوأ من ذلك أنه الصديق الحميم لكوتون مالون، وكان هرمن مقتنعاً بأن ثورفالدسن لم يحضر إلى الجمعية لمجرد إقامة علاقات اجتماعية.

"أنا سعيد بوجودك،" قال هرمن. "لديّ أمور كثيرة للتحدث معك بشأنها."

غالباً ما كانا يقضيان الوقت معاً في الجمعية. وكان ثورفالدسن أحد الأعضاء القلائل الذين يمكنهم منافسة هرمن بثرائه، وكان على علاقة وثيقة بمعظم

الحكومات الأوروبية. فبلايين اليورو التي يملك تتحدّث عن نفسها.

تلألأت عينا الدانماركي. "أنا متلهّف لسماعها كلها."

"ومن هذا؟" سأل هرمن، مشيراً إلى الفتى الصغير الواقف بجانب ثورفالدسن.

"غاري مالون. إنه موجود برفقتي لأسابيع قليلة لأن والده غائب، وقد قرّرت أن اصطحبه معي."

كان ثورفالدسن يختبر ردّ فعله. "رائع، هناك عدد قليل من الشبّان الذين قدِموا مع الأعضاء. سأحرص بنفسي على أن يحصلوا كلهم على التسلية المناسبة."

"أنا واثق من ذلك."

دخل الخدَم حاملين حقائب السفر. فأومأ هرمن إليهم طالباً منهم نقل الحقائب إلى الطابق الثاني.

وكان قد حدّد الغرفة التي سيشغلها ثورفالدسن.

"تعالَ إلى مكتبي يا هنريك بينما يضعون أمتعتك في مكانها. إن مارغريت متلهّفة لرؤيتك."

"ولكن غاري برفقتي."

"أحضره معك. سيكون الأمر رائعاً."



تناول مالون طعام الإفطار وهو منشغل بتقييم جيمي ماك كولوم بالرغم من أنه كان يتساءل عمّا إذا كان اسم هذا الرجل حقيقياً أم لا.

"هل ستخبرني عن مصلحتك في كل ذلك؟" سأل ماك كولوم. "مكتبة الإسكندرية ليست الكاس المقدّسة بالتحديد. لقد قام أشخاص آخرون بالبحث، ولكنهم كانوا عادةً إما متعصّبين أو مجانين. وأنت لا تبدو شبيهاً بهم."

"ولا أنت،" قالت بام. "ما هي مصلحتك؟"

"ماذا حلّ بكتفك؟"

"من نكر شيئاً عن الموضوع؟"

وغرف ماك كولوم ملء شوكة من البيض ووضعها في فمه. "كنتِ تحملينه وكأنه مكسور."

"قد يكون كذلك."

"حسناً، لن تقول لي،" قال ماك كولوم ملتفتاً إلى مالون. "هناك الكثير من الارتياب حيال الشخص الذي أنقذ حياتيكما."

"لقد طَرَحْتُ سؤالاً جيداً. ما هي مصلحتك في المكتبة؟"

"لنقل فقط إنه إذا كان عليّ العثور على شيء ما، فهناك أشخاص سيكافئونني لقاء جهودي بطرق عديدة وبارعة. وأنا شخصياً أظنّ أن الأمر مضيعة للوقت. ولكن لا بد لي من التساؤل عن سبب قتل الناس بعضهم بعضاً. لا بد أن أحدهم يعرف شيئاً ما."

قرّر مالون رمي الطعم في الماء. "ضالّة البطل التي نكرتها، أنا على عِلم بها، وكذلك التلميحات التي تقود إلى المكتبة،" وتوقف قليلاً. "على وجه الافتراض."

"آه، إنها كذلك، صدّقني. هناك أشخاص قدّموا تلميحات، وأنا لم أقابل أيّاً منهم أو أتحدّث إلى أحدهم، ولكنني سمعتُ عن خُبُراتهم. ضالّة البطل حقيقية، وكذلك الحرّاس."

كلمة أساسية أخرى. فقد كان هذا الرجل حسن الاطلاع. حوّل مالون انتباهه إلى فطيرة إنكليزية كان قد غطّاها بمربّى الخوخ. "ماذا يمكن أن يقدّمه واحدنا إلى الآخر؟"

"ما رأيك في أن تطلعني على سبب ذهابك إلى باينبريدج هول؟"

"'تجلّي القديس جيروم'."

"هذه معلومة جديدة. هل ترغب في شرحها؟"

"من أين أنت؟" سأل مالون فجأة.

ضحك ماك كولوم في سرّه. "ما زلت تحاول تكوين رأي عنّي؟ حسناً، سأجاريك في الأمر. وُلدت في ولاية كنتاكي العظيمة، في لويسفيل. وقبل أن تسأل،

لم أدخل أي كلّيّة، ولم ألتحق لا بالجيش ولا بالقوات الخاصة."

"وهل كنت سأعثر، فيما لو تحققت من الاسم، على مجنَّد يُدعى جيمي ماك كولوم؟ حان الوقت لتقول الحقيقة."

"أكره أن أخبرك، ولكنني أملك جواز سفر وشهادة ميلاد، وستجد اسمي عليها. لقد أدّيت قسطي؛ إخلاء سبيل مشرِّف. ولكن هل لكل تلك الأشياء أهمية؟ يبدو أن الشيء الوحيد الذي يُهمّ موجود هنا حالياً."

"ما الذي تسعى إليه؟" سأل مالون.

"آمل في أن يكون هناك الكثير عندما يتمّ العثور على هذه المكتبة، عِلماً أنني ما زلت لا أعرف مصلحتك في الأمر."

"قد يتكشّف عن هذه الضالّة تحدٌّ ما."

"هذا هو أول شيء تقوله حتى الآن ويحمل معنى."

"أعني، هناك آخرون قد يقومون بالبحث أيضاً."

"أخبرني شيئاً لا أعرفه."

"ما رأيك في الإسرائيليين؟"

ولفت انتباهه ظهور الحَيرة للحظة من الزمن في عينَي ماك كولوم المفعمتَين بالحياة، ثم عاد الوضوح إليهما مُرفَقاً بابتسامة. "أحبّ مواجهة التحدّي فعلاً."

لقد حان الوقت لإشراكه في المعلومات. "نملك 'تجلّي القديس جيروم'."

"إنه يحمل في طيّاته الكثير من المعلومات إن لم تكن تعرف ذلك."

فوافقه مالون على ذلك.

"أملك ضالّة البطل،" قال ماك كولوم.

وأثار ذلك البَوح اهتمام مالون، سيّما وأن جورج حدّاد لم يترك لهما تفاصيل تلك الرحلة.

"ما أريد معرفته،" قال ماك كولوم. "هو التالي: هل تملك رواية توماس باينبريدج؟"

كانت بام ما تزال تتناول بعض الفاكهة واللبن. وكانت تعرف بالتأكيد القاعدة

الأولى لممارسة المحاماة ـ لا تبُح أبداً بما تعرف ـ ولكن مالون قرّر أنه إذا كان يريد الحصول على أمرٍ ما، فإن عليه إعطاء شيء ما في المقابل. "أجل، أملكها." وإمعاناً في تعذيب مستمعه، أضاف، "وأكثر من ذلك."

وارتسمت على وجه ماك كولوم ملامح الإعجاب. "علمتُ أن خياري كان صائباً عندما قرّرت إنقاذكما."



راقب هرمن ثورفالدسن والفتى الصغير وهما يغادران مكتبه. وكانت ماغريت واقفة بجانبه. وقد أمضيا زيارة ممتعة دامت ثلاثين دقيقة.

"ما رأيك؟" سأل ابنته.

"ظهر هنريك بشخصيّته العاديّة. يأخذ أكثر بكثير ممّا يعطي."

"هذه هي طبيعته، وهي شبيهة بطبيعتي." 'ويُفترَض أن تكون طبيعتك أيضاً'، قال في نفسه. "هل تشعرين بشيء؟"

فهزّت رأسها دلالةً على النّفي.

"ألم تشعري بشيء حيال الفتى؟" سأل.

"بدا حسن السلوك."

وقرّر أن يطلعها على ما لم تكن على عِلم به. "هنريك متورّط قليلاً بمبادرة تسعى الحلقة إلى الاستئثار بها، وهي تتعلق بما تباحثنا به أثناء الفطور."

"مكتبة الإسكندرية؟"

فأومأ برأسه مؤكّداً الأمر. "إن أحد شركائه المقرَّبين، وهو رجل يُدعى كوتون مالون، جزء ممّا يجري."

"وهل سابر هو الذي يُدير العملية؟"

"بشكل جيد تماماً. كل شيء يجري حسبما هو مخطَّط له."

"والفتى المدعو مالون. هل هو جزء من العملية أيضاً؟"

"إنه ابن كوتون مالون."

بدت الدهشة على وجهها. "لِمَاذا هو هنا؟"

"الواقع أنها كانت خطوة ذكيّة من قِبَل هنريك. فبحضور الأعضاء، سنسعى جميعاً إلى التصرّف بأفضل طريقة. قد يكون هذا المكان الأكثر أماناً لهما معاً. ولكن الحوادث تقع أحياناً دون شك."

"هل ستُلحق الأذى بالفتى؟"

فحدّق بنظرات صارمة. "سأقوم بكل ما هو ضروري لحماية مصالحنا، مثلما يحب أن تكوني راغبة في القيام به."

لم تقل شيئاً، ولكنه منحها لحظات قليلة. أخيراً، قالت، "هل نحن بحاجة إلى افتعال حادثة؟"

كان مسروراً لأنها بدأت بتقدير خطورة الوضع. "يتوقّف الأمر على ما يجول في خاطر صديقنا العزيز هنريك."



"كيف حصلت على ذلك الإسم، يا كوتون؟" سأل ماك كولوم.

" الواقع أنه مجرّد ـ" بدأت بام حديثها.

ولكن مالون قاطعها قائلاً. "إنها قصة طويلة. يمكننا مناقشتها لاحقاً. في الوقت الحاضر، أريد أن أعرف المزيد عن ضالّة البطل."

"أنت دائماً سريع الغضب في ما يتعلّق باسمك؟"

"ما يُغضبني بسرعة هو تضييع الوقت."

كان ماك كولوم قد فرغ من تناول طبق الفاكهة، ولاحظ مالون أن الرجل يأكل طعاماً صحياً: دقيق الشوفان، والفراولة، والبيض، والعصير.

"حسناً، يا مالون، لديّ الضالّة. لقد حصلت عليها من مدعوّ مات قبل أن يغادر منزله."

"أنت قتلته؟"

"ليس هذه المرة، فقد مات لأسباب طبيعية. عثرت عليه وسرقت الضالّة. لا تسألني من هو لأنني لن أخبرك. ولكنني أملك الإلماعات."

"وهل تعلم إذا كانت حقيقية؟"

ضحك ماك كولوم ضحكة خافتة. "في مهنتي، لا تعرف ذلك أبداً إلّا متى يحين وقت ذلك. ولكنني سأجازف بالأمر."

"ما الذي تحتاج إليه بالفعل؟" سألت بام. وكانت قد بقيت هادئة على غير عادتها أثناء تناول الفطور. "من الواضح أنك تعرف أكثر ممّا نعرف. لِمَ تضيّع وقتك معنا؟"

"إني، أواجه مشكلة لكي أكون صادقاً. لقد أمضيت الأسابيع القليلة الماضية أحاول الوصول إلى سرّ الضالّة. إنها أُحجية لا يمكنني حلّها. ظننت أنكما قد تقدّمان لي بعض المساعدة. في المقابل، سأكون مستعداً لمشاطرتكما بما أعلم."

"وستكون مستعداً لإطلاق النار على شخصَين في الرأس،" قال مالون.

"كانا ليفعلا الشيء نفسه لكما. وبالمناسبة، ينبغي بهذا الأمر أن يحملكما على التساؤل. من سيكون راغباً في ذلك؟"

'سؤال ممتاز'، قال مالون في نفسه. فقد كان واثقاً من ان أحداً لم يتبعهما من لندن. ومن غير المنطقي أن يكون القتلة كانوا بانتظارهما في باينبريدج هول. إذ لم يقرّر زيارة المكان إلا قبل ساعات قليلة.

"تحتوي هذه الضالّة،" قال ماك كولوم، "على أشياء أكثر ممّا كنتُ أظنّ أول الأمر. وأنت تقول لي الآن إن اليهود متورّطون أيضاً."

"لقد قُتل صديق لي يوم أمس، ويُفترَض بهذا الأمر أن يكون قد وضع حدّاً لاهتمام إسرائيل بالموضوع."

"هل يعلم هذا الصديق شيئاً عن المكتبة؟"

"هذا ما تسبّب بقتله."

"إنه ليس أوّل من يقتل."

وكان بحاجة إلى معرفة أمر ما. "أفترض أنك تريد بيع المخطوطات التي عثرتَ عليها لتجّار؟"

ضحك ماك كولوم ضحكة خافتة. "أريد أن أكسب شيئاً لقاء المشقّات التي واجهتها. هل يزعجك ذلك؟"

"إذا كانت المخطوطات موجودة على الدوام، فسيكون من الضروري المحافظة عليها ودراستها."

"لست جشِعاً، يا مالون. هناك في ما وجدت بالتأكيد بعض القُصاصات التي يمكنني بيعها لقاء ما صادفتُه من مشقات." وتوقف ماك كولوم قليلاً. "إضافةً إلى السُّمعة الحسنة التي سأكتسبها بسبب ما وجدت، بالطبع. قد يساوي ذلك الأمر شيئاً ما بحدّ ذاته."

"الشهرة والثروة،" قالت بام.

"المكافأة الخالدة،" قال ماك كولوم. "لكليهما مظاهرهما المشبِعة للرغبات."

كان مالون قد سمع ما يكفي. "أطلِعنا على التلميحات."

جلس ماك كولوم قُبالتهما، متحفّظاً كالأمراء وماكراً كالشياطين. وكان هذا المظهر الأخير يستحق المشاهدة؛ فقد قتل حتى الآن بسهولة كبيرة. ولكن إذا كان يملك ضالّة البطل، فسيكون وسيلتهما الوحيدة لتحقيق تقدّم ما في بحثهما.

ومدّ ماك كولوم يده إلى جَيبه وأخرج قصاصة من الورق. "هكذا تبدأ."

تناول مالون رقعة الورق وكانت بحجم ورقة دفتر ملاحظات، وقرأ.

'ما أغرب هذه المخطوطات' وما أعظم هذا السفر في المجهول. إنها تظهر وكأنها منفصلة، ولكنها تبدو واحدة لأولئك الذين يعلمون أن ألوان قوس قُزح تصبح ضوءاً أبيض واحد. كيف السبيل إلى العثور على ذلك الشعاع الواحد؟ إنه لغز، ولكن قُم بزيارة المُصلّى بالقرب من نهر التاج، في بيت لحم، المكرَّس لسيّدنا القدّوس؛

"أين البقيّة؟" سأل.

فضحك ماك كولوم في سرّه. "حاول أن تجد حلاً لهذا الجزء وسوف نرى فيما بعد خطوة خطوة."

ووقف مالون.

"إلى أين تذهب؟" سأل ماك كولوم.

"لكي أكسب رزقي."

الفصل الثالث والأربعون

واشنطن، العاصمة

الساعة 5:30 صباحاً

كانت ستيفاني قد واجهت العديد من الأمور، ولكنها لم تواجه الاعتقال أبداً. كان لاري دالي يرفع الرهان.

"لا بد من توجيه ضربة لدالي الآن،" قالت موضحة.

كانت واقفة مع غرين وكاسيوبيا في مطبخ غرين، والقهوة تتخمّر على الطاولة. ونكّرتها الرائحة الذكيّة بأنها جائعة.

"ماذا يجول في فكركِ؟" سألت كاسيوبيا.

طيلة اثنتَي عشرة سنة، لم تعرُّض أمن وكالة بيليت للخطر ولو لمرة واحدة؛ فقد كانت تأخذ قَسَمها على محمل الجدّ. ولكن قدراً كبيراً من الشك جعلها غير واثقة من خطوتها التالية. وأدركت أخيراً أن ليس أمامها سوى خيار واحد، وقالت، "كنّا نتحرّى عن دالي."

وارتسمت على وجه غرين جدّيّة غير مألوفة. "أوضحي."

"أردت أن أعرف ما الذي جعل هذا الرجل يرتقي بسرعة من منصب إلى آخر، لذا عيّنتُ عميلة لذلك. فكانت تحتال عليه على نحو متقطّع طوال عام تقريباً، وعرفتُ أموراً كثيرة."

"إنك لا تكفين عن إثارة دهشتي، يا ستيفاني. هل تعلمين ماذا كان ليحدث لو اكتشف الأمر؟"

"أظنّ انني كنت سأُطرد، وما أهميّة ذلك الآن؟"

"إنه يحاول قتلك. ربما كان يعلم بالأمر."

"أشك في ذلك، فقد كانت كفوءة. لكن دالي منشغل بما ترى عيناه من خلل. قلتَ في وقت سابق إنك لم تعثر أبداً على أي انتهاكات للقانون. أما أنا فقد عثرت على الكثير منها: تمويل حملات، ورشاوى، واحتيال. دالي هو الوسيلة المباشرة لما يحتاج إليه الأغنياء من البيت الأبيض، الأشخاص الذين لا يريدون أن تُفتضَح أسماؤهم."

"لِمَ لم تفعلي شيئاً حيال هذا الأمر؟"

"كنت أخطط للأمر - ثمّ حدث التسرّب. وكان لا بد من إرجاء الأمر."

"وبعد أن أصبح الآن مسؤولاً عن وكالة ماجيلان بيليت، هل سيكتشف ما فعلتِ؟" سألت كاسيوبيا.

فهزّت رأسها دلالةً على النفي. "كل المعلومات التي أملكها مخفيّة، والعميلة التي تولّت التحقيق نُقلت من وكالة بيليت منذ أشهر. ولا أحد سوانا، هي وأنا، يعلم بالأمر."

سكب غرين القهوة في قدحَين. "ماذا تريدين أن تفعلي؟"

"بما أن صديقتي التي تتمتّع بمهارات عديدة موجودة هنا، ظننت أن من المفترض أن ننهي عمليّة التحرّي."

"لا يعجبني وقع ذلك،" قالت كاسيوبيا.

وأومأ غرين. "سيّدتايَ، أضيفا ما ترغبان فيه إلى قهوتكما."

"لا قهوة لكَ؟" سألته ستيفاني.

"لا أشرب القهوة أبداً."

"إذاً لماذا يوجد لديك آلة لإعداد القهوة؟"

"يزورني بعض الضيوف." وتوقف قليلاً. "من حين لآخر."

وللحظة، حلّ مكان صلابة غرين ووثوقيّته الذكورية صدق صبياني، وأحبّت فيه ذلك.

"هل أعرف أياً منهم؟" سألته.

فابتسم غرين.

"إنك مليء بالمفاجآت،" قالت.

"إنه يشبه كثيراً شخصاً آخر نعرفه جميعاً،" قالت كاسيوبيا وهي ترتشف قهوتها.

أوما غرين برأسه موافقاً وكأنه يودّ تغيير الموضوع. "هنريك رجل مُذهل. إنه يسبقنا دوما بخطوةٍ. ولكن ماذا عنك، يا ستيفاني؟ ماذا تعنين بإنهاء عملية التحرّي؟"

فاشتمّت رائحة القهوة المتبخرة، وتناولت رشفة لتدفئة حلقها. "يجب أن نقوم بزيارة إلى منزله."

"لماذا؟" سألت كاسيوبيا. "وحتى ولو تمكنّا من دخوله، فإن حاسوبه محميّ بالتأكيد بكلمة سر."

فابتسمت. "ما من مشكلة."

وأنعم غرين النظر فيها بفضول، ولم يتمكّن بعد ذلك من إخفاء دهشته. "إنك لا تحتاجين إلى كلمة سر، أليس كذلك؟"

فهزّت رأسها وقالت. "لقد حان الوقت لاعتقال ذلك المغفّل."



دخل مالون المركز المخصص لرجال الأعمال في فندق سافوي. وكان هذا المركز الفسيح مجهّزاً بالحواسيب، وآلات الفاكس، وآلات الاستنساخ. فأخبر المسؤول عن المركز بما يحتاج إليه، وسُمح له بدخول إحدى الحواسيب على أن تُحتسَب التكلفة على غرفة ماك كولوم.

همّ بالجلوس، ولكن بام قاطعته.

"هل تسمح لي؟" سألت.

وقرّر أن يمنحها شرف القيام بالمهمة. ففي طريقهما من المقهى، أدرك أنها تعرف ما ينوي القيام به.

"لِمَ لا؟ باشري بالأمر."

سلّمها الورقة التي تحمل بداية الضالّة، ثمّ التفت إلى ماك كولوم. "قلتَ إنك حصلت عليها مؤخّراً؟"

"لا، لم أنكر الوقت. محاولة جيدة، يا مالون."

"أنا بحاجة إلى معرفة الوقت، فالأمر هام. في الأشهر القليلة الأخيرة؟"

تردّد الرجل، قليلاً، ثمّ أومأ برأسه مؤكّداً الأمر.

وكان مالون يفكر متسائلاً. "استناداً إلى ما أعرف، كان الحرّاس يدعون أشخاصاً لزيارة المكتبة منذ قرون من الزمن. لذا كان لا بد من تغيير التلميحات. فقد كيّفوا الضالّة مع زمنهم. وأراهن أنهم كيّفوها لتتلاءم مع المدعوّ. لِمَ لا؟ لقد جعلوا الأمر مرتبطاً بالشخص عينه، وهذا سبب ما كانوا يواجهونه من مشاكل. لِمَ لا يكون الأمر كذلك؟"

فأومأ ماك كولوم برأسه موافقاً. "معقول."

كانت بام تنقر باستمرار على لوحة المفاتيح.

"الجزء الأول،" قال مالون. "'*ما أغرب هذه، وما أعظم المخطوطات، السفر في المجهول. إنها تظهر وكأنها منفصلة، ولكنها تبدو واحدة لأولئك الذين يعلمون أن ألوان قوس قُزح تصبح ضوءاً أبيض واحد. كيف السبيل إلى العثور على ذلك الشعاع الواحد؟* هذا هراء. إنها طريقة للقول إن هناك الكثير من المعلومات. ولكن الجزء التالي، إنه لغز، *ولكن قُم بزيارة المُصلّى بالقرب من نهر التاج، في بيت لحم، المكرّس لسيّدنا القدّوس. سنبدأ.*"

"وجدتُها،" قالت بام.

ابتسم. فقد كانت تتقدّمه في هذه المهمة وأحبّ ذلك.

"أجريتُ بحثاً عن تاج وبيت لحم."

"أليس الأمر سهلاً جداً؟" سأل ماك كولوم.

"لا يمكن للحرّاس أن يكونوا غافلين عمّا يوجد في العالم. فالإنترنت موجودة، لذا، لِمَ لا يفترضون أن المدعوّ قد يستخدمها؟"

أخذ يحدّق بالشاشة. فالموقع الذي عثرت عليه بام يتعلّق بالبرتغال ويحتوي

على صفحة عن السفر والسياحة تتناول الأماكن الجميلة المحليّة داخل لشبونة وفي محيطها.

"بيليم،" قالت بام." خارج وسط المدينة، حيث يلتقي نهر التاج بالبحر. 'بيليم' هي *الترجمة البرتغالية* لـ 'بيت لحم'."

وأخذ يقرأ عن الأرض القائمة جنوب غرب وسط لشبونة، وهو المكان الذي كانت المراكب الشراعية البرتغالية قد انطلقت منه منذ زمن بعيد في اتجاه العالم الغربي: دي غاما إلى الهند، وماجيلان للإبحار حول الكرة الأرضية، ودياز للانعطاف حول رأس الرجاء الصالح. وقد ازدهرت بيليم في النهاية بفضل الثروات ـ التوابل بصفة رئيسية ـ التي تدفّقت إلى هذا البلد من العالم الجديد. وقد بنى الملك البرتغالي قصراً صيفياً هناك، واندفع المواطنون الأثرياء للإقامة في محيطه. وعندما أصبحت مقاطعة منفصلة، باتت تجتنب السيّاح الذين يأتون للاستمتاع بمتاجرها، ومقاهيها، ومتاحفها.

"هنري الملّاح موصول بهذا المكان،" قالت بام.

"لنكتشف أمر '*المُصلّى المكرَّس لسيّدنا القدّوس*'،" قال لها.

وبعد نقرات قليلة على الفأرة أشارت بام إلى الشاشة. "الطريق أمامكم."

وملأت الشاشةَ صورةُ مبنى مجري هائل تعرض كثيراً للعوامل الجويّة. وكانت القمم المستدقّة المُتقَنَة لأبراج الكنائس ترتفع في كبِد السماء الغائمة. ووكان المشهد عبارة عن مزيج من الهندسة المعمارية القوطيّة وتلك العائدة لعصر النهضة مع تأثيرات مغربية واضحة. وظهرت صور زاهية الألوان على الواجهة الحجريّة وبشكل متناثر.

"دير القديسة مريم العذراء في بيليم،" قرأ على الشاشة.

ثم انتقلت بام إلى أسفل الشاشة، ولاحظ مالون عبارة تشير إلى أنه أحد أفضل الآثار التاريخية في البرتغال، وغالباً ما يُعرَف بدَير جيرونيموس. وكان العديد من الشخصيات الكبرى في البلد، بمن فيهم الملوك والملكات، مدفونين هناك.

"لِمَاذا ظهر هذا المشهد؟" سألت بام.

ونقرت على أحد الارتباطات.

لقد "أدخلتُ الكثير من الكلمات الأساسية وقادنا محرّك البحث إلى هنا

مباشرةً. في العام 1498، عندما عاد دي غاما من رحلته بعد اكتشاف الطريق إلى الهند، منح الملك البرتغالي مبالغ ماليّة لبناء الدير. وتملّكت رهبنة القديس جيروم الموقع عام 1500، ووُضع حجر الأساس في 6 كانون الثاني/ يناير 1501."

كان مالون يعرف معنى ذلك التاريخ منذ طفولته. فقد كانت والدته كاثوليكية وكانا يحضران قداس الكنيسة بانتظام، ولا سيّما بعد وفاة والده في 6 كانون الثاني/ يناير، تاريخ عيد التجلّي.

ماذا كتب حدّاد في دفتر يوميّاته؟

'*غالباً ما تبدأ عمليات البحث الكبرى في عيد التجلّي*'.

"كان المُصلّى الرئيسي في الدّير مكرَّساً للقديس جيروم،" قالت بام. "كوتون، هل تتذكر ما قال عنه حدّاد."

وكان يتذكر بالفعل ذلك. لقد كان أحد آباء الكنيسة الأوائل في القرن الرابع الذين ترجموا مخطوطات متعلّقة بالكتاب المقدس إلى اللاتينية، بما فيها العهد القديم.

"هناك ارتباط آخر يقود إلى معرفة المزيد عن جيروم،" قالت في الوقت الذي كانت الشاشة فيه تتبدل بنقرة أخرى على الفأرة.

فقرأوا ثلاثتهم، وكان مالون أول من رأى الملاحظة. "إنه شفيع المكتبات. يبدو أن هذا البحث قد بدأ في لشبونة."

"جيد، يا مالون."

"هل كسبنا رزقنا؟"

"كما قلتُ، لست جيداً بالأحاجي. وأنتما تبدوان جيّدَين فيها، ولكن الباقي أكثر صعوبة."

فابتسم ابتسامة عريضة. "ما رأيك لو حاولنا معاً لنرى إلى أين يؤدّي بنا ذلك."

الفصل الرابع والأربعون

فيينا

الساعة 1:00 بعد الظهر

خرج ثورفالدسن من الحمّام ورأى غاري يُفرغ الحقائب. لم يكن يملك ملابس غير تلك التي كان يرتديها عندما كان مخطوفاً منذ أيام قليلة. لذا، قام جِسبر في اليوم السابق بجولة في كوبنهاغن واشترى له قليلاً من الحاجيّات.

"هذا المنزل قديم، أليس كذلك؟" سأل غاري.

"لقد بُني منذ أجيال عديدة، كالكريستيانغيد."

"هناك الكثير من الأشياء القديمة في أوروبا. ليس الحال كما في بلادنا."

فابتسم ابتسامة عريضة. "لقد مضى على وجودنا هنا فترة طويلة."

"غرفة رائعة."

كان هو أيضاً يعتبر أسباب الراحة مثيرة للاهتمام. فقد وضعا في الطابق الثاني بالقرب من مُضيفهما، في غرفة فخمة تحتوي على أثاث أنثوي يؤكد أنها كانت تخصّ امرأة نوّاقة.

"هل تحب التاريخ؟" سأل.

هزّ غاري كتفَيه. "لم أكن أحبّه حتى الصيفَين الماضيَين. إنه أكثر إثارة للاهتمام هنا عندما تراه مباشَرةً."

وقرّر أن الوقت قد حان لإخبار الفتى بوضعهما. "هل كوّنت فكرة عن مُضيفنا وابنته؟"

"ليسا ولودين أبداً، ولكن يبدو أنهما يحبّانك."

"عرفت الفرد منذ زمن بعيد، ولكن أخشى أنه يدبّر مكيدة ما."

فجلس غاري على السرير.

"أعتقد أنه كان وراء اختطافك." ولاحظ أن الفتى بدأ يدرك الموقف الصعب الذي يواجهان.

"هل أنت واثق من ذلك؟"

فهزّ رأسه مؤكداً الأمر. "لهذا السبب نحن هنا، لاكتشاف الأمر."

"أريد أيضاً أن أعرف. هؤلاء الرجال أغاظوا والدتي، وأنا لا أحب ذلك."

"هل أنت خائف؟"

"لم تكن لتحضرني إلى هنا لو كنتُ في خطر."

أعجبه الجواب، فهذا الفتى ذكي. "لقد رأيتَ رجلَين يُقتلان. قليلون ممّن بلغوا سنّ الخامسة عشرة يمكنهم الادّعاء بأنهم شاهدوا أمراً مماثلاً. هل أنت بخير؟"

"ذاك الذي قتله والدي يستحق ذلك. لقد حاول إنقاذي. قام والدي بما كان عليه القيام به. ماذا ستفعل؟"

"لست متأكداً بعد. ولكن سيأتي الكثير من الناس في الأيام القليلة القادمة. أشخاص يتمتّعون بالنفوذ، ويُفترَض بي أن أعرف منهم ما أحتاج إلى معرفته."

"هل الأمر أشبه بنادٍ أم بشيء آخر؟"

"يمكنك قول ذلك. يأتي الأشخاص الذين تجمعهم مصالح مشترَكة للاجتماع والتباحث في تلك المصالح."

ورنّ هاتفه النقّال الموضوع على الطاولة القائمة بجانب السرير بنغمات متنافرة. فاتّجه نحوه وتحقّق من الرقم: إنه جِسبر. فضغط على زرّ التكلّم.

"وردك اتصال، من تل أبيب."

"إذا صِلني به بالتأكيد."

وبعد ثوانٍ قليلة، وبعد أن تمّ الاتصال، سمع صوتاً عميقاً جهورياً يقول، "هنريك، ما الذي شرعتَ به؟"

"ماذا تعني؟"

"لا تتظاهر بالجَهل. عندما اتصلتَ بي بالأمس كنتُ أميل إلى الارتياب، ولكنني الآن مرتاب تماماً."

كان ثورفالدسن قد اتصل في اليوم السابق بمكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي. ولم يكن بالإمكان عدم الردّ على اتصاله لأنه منح مبالغ بالملايين للقضايا اليهودية وموّل الكثير من السياسيين الإسرائيليين، بمن فيهم رئيس الوزراء الحالي. وكان قد طرح سؤالاً بسيطاً واحداً ـ لِمَ إسرائيل مهتمّة بجورج حدّاد؟ لم يتكلّم مع رئيس الوزراء مباشَرةً عَمداً، موجِّهاً سؤاله من خلال رئيس أركانه الذي بدا قلقاً على الهاتف كما لاحظ. لذا، سأل، "هل وجدتَ إجابة عن سؤالي؟"

"طلب منا الموساد أن لا تهتم إلا بشؤوننا الخاصة."

"هل يتكلّمون هكذا مع من هم في سدّة المسؤولية؟"

"إنهم كذلك عندما يريدون منّا أن نهتم بشؤوننا الخاصة فقط."

"إذاً لا تملك أي إجابة؟"

"لم أقل ذلك. يريدون جورج حدّاد مَيتاً ويريدون وضع حدّ لتصرّفات كوتون مالون. يبدو أن مالون وزوجته السابقة هما في طريقهما إلى لِشبونة في الوقت الحاضر، وذلك بعد مقتل أربعة أشخاص ليلة أمس شمال لندن في أحد المتاحف. من المثير للأمر أن البريطانيين علِموا بأن مالون متورّط في عمليّات القتل هذه، ولكنهم لم يتّخذوا أي إجراء ضدّه. لقد تركوه يُكمل طريقه إلى خارج البلد. وتعتقد مصادرنا أن السبب عائد إلى أن الأميركيين أعطوه ضوءاً أخضر للمباشَرة بعمله. وهم يظنّون أن أميركا عادت تتدخّل مجدداً في أعمالنا ـ في ما يتعلّق بجورج حدّاد."

"أنّى لموظّفيك أن يعرفوا كل هذه المعلومات؟"

"إنهم يراقبون مالون بشكل مباشَر. يعرفون بالتحديد ما يقوم به وأين يقوم به، إضافةً إلى أنهم أصبحوا يستبقونه منذ بعض الوقت."

"يبدو أن الجميع مشغول هناك."

"هذا أقلّ ما يمكننا قوله. رئيس الوزراء وأنا شخصيًّا أقدّر صداقتك. أنت راعٍ لهذه الأمّة، ولهذا السبب تتلقّى هذا الاتصال. سيقوم الموساد بإخراج مالون من

اللعبة، والعملاء في طريقهم إلى لشبونة. إذا كنت قادراً على تحذيره، لا تتردد في ذلك."

"أتمنّى لو كنتُ قادراً على القيام بهذا الأمر، ولكن لا سبيل لي إلى لذلك."

"إذاً، ليرعاه الله. سيكون بحاجة إلى ذلك."

ثم انقطع الخط.

وضغط ثورفالدسن على زرّ الانتهاء.

"هل من مشكلة؟" سأل غاري.

قال وهو يحافظ على رباطة جأشه. "مسألة صغيرة فقط مع إحدى شركاتي. أنت تعرف أنه ما زال لديَّ أعمال أديرها."

بدا أن الفتى صدّق الشرح. "قلتَ إننا هنا لنوع من أنواع الاجتماعات التي تحصل في النوادي، ولكنك لم تُخبرني أبداً بأن للأمر علاقة بي."

"سؤال ممتاز في الواقع. دعني أجيبك ونحن نمشي. تعال، سأُريك المكان."



سمع ألفرد هرمن صوت باب غرفة هنريك ثورفالدسن يُقفَل. فقد كان جهاز التنصّت المثبَّت في غرفة نومه بطريقة مُتقَنة يعمل بشكل جيد. وكانت مارغريت جالسة قُبالته عندما أطفأ مكبّر الصوت.

"هذا الدانماركي مشكلة،" قالت له.

لقد تطلّبها الأمر وقتاً طويلاً لإدراك ذلك. من الواضح أن ثورفالدسن حضر إلى هذا المكان لجسّ النبض، ولكنه كان مدهوشاً للاتصال الهاتفي. فصديقه لم يقل ما يسمح بمعرفة الكثير عن طبيعة الاتصال، وكان يشكّ في أن يكون له أي علاقة بالأعمال.

"هل هو مُحِقّ؟" قالت مارغريت. "هل اختطفتَ ذلك الفتى؟"

كان قد سمح لها بالتنصّت لسبب ما، لذا أومأ برأسه مؤكّداً الأمر. "إنه جزء من مخطّطنا. ولكننا سمحنا أيضاً بإنقاذه. في الوقت الحاضر، يحصد دومينيك ما زرعناه."

"المكتبة؟"

هزّ رأسه موافقاً. "نظنّ أنّنا على الطريق الصحيح."

"وتخطط لأن تعهد بتلك المعلومات إلى سابر؟"

"إنه رسولنا."

فهزّت رأسها باشمئزاز. "أبي، إنه انتهازي جشِع، وقد قلت لك ذلك منذ سنوات

ونفد صبره. "لم أسمح لك بمعرفة ما يجري لكي نتجادل. أحتاج إلى مساعدتك."

ورأى أنها لاحظت توتّراً في صوته.

"بالطبع. لم أقصد تجاوز الحدود."

"مارغريت، العالم مكان معقّد. عليك استخدام الموارد المتوافرة. ركّزي معي. ساعديني على التعاطي مع ما نواجهه، ودعي دومينيك يقلق بشأن ما أوكِل إليه."

أخذت نفساً عميقاً وأخرجت الهواء ببطء عبر أسنانها المُطبَقة بإحكام، وهي عادة كانت تلجأ إليها عندما تكون عصبيّة المِزاج. "ماذا تريدني أن أفعل؟"

"تحقّقي من كافة الأمور. التقي بهنريك مصادَفةً، إنه يعتقد أنه بمأمن هنا. فاجعليه يشعر بذلك."

الفصل الخامس والأربعون

واشنطن، العاصمة

الساعة 10:30 صباحاً

لم تكن ستيفاني معجبة بمظهرها الخارجي الجديد. فقد أصبح شعرها الأشقر الفضّي بنّياً مائلاً للحُمرة بعد أن صبغته كاسيوبيا على عجَل. وقد استُكملت عملية تبديل المظهر بتبرّج مختلف، وثياب جديدة، وزوج نظارات فاتحة اللون. لم تكن العملية مثاليّة، ولكنها كانت كافية لمساعدتها على التخفّي وسط الناس.

"لم أرتدِ بنطلوناً من الصوف منذ وقت طويل،" قالت لكاسيوبيا.

"لقد دفعت ثمناً باهظاً لشرائها، لذا اعتني بها."

فابتسمت ابتسامة عريضة. "وكأنك غير قادرة على تحمّل ثمنها."

واكتملت البَنلة بسترة ذات قَبّة بحريّة. وكانتا جالستَين في المقعد الخلفي لسيارة أجرة تجتاز بجهد حركة المرور المزدحمة في هذا الوقت المتأخّر من الصباح.

"أكاد لا أعرفك،" قالت كاسيوبيا.

"تقولين إنني أشبه امرأةً عجوزاً بهذه الثياب؟"

"قد تكون مجموعة ملابسك بحاجة إلى قليل من التجديد."

"إذا تجاوزت هذه المحنة، يمكنك اصطحابي للتسوّق."

وشعّت عينا كاسيوبيا مرَحاً. لقد أحبّت ستيفاني هذه المرأة، وقد تكون ثقتها بنفسها مُعدِية.

كانتا متّجهتَين إلى منزل دالي المقيم في كليفلاند بارك، وهي ضاحية سكنية جميلة لا تبعد كثيراً عن الكاتدرائية الوطنية. وكانت هذه الضاحية ذات مرّة ملجأ لسكان واشنطن الساعين إلى الفرار من حرّ المدينة، وهي الآن تضم متاجر غريبة، ومقاهٍ على الموضة، ومسرحاً شعبياً اعتُمد فيه فنّ هندسي وزُخرفي شاع في أوائل القرن العشرين.

طلبت من السائق التوقف على بُعد ثلاثة مجمّعات سكنيّة من العنوان، ودفعت له الأُجرة. وسارت الاثنتان المسافة المتبقّية.

"دالي غبيّ متعجرف،" قالت ستيفاني. "يظنّ أن أحداً لا يراقبه، ولكنه يحتفظ بسجلات. إذا سألتني عنه أقول إنه مغفّل، ولكنه يحتفظ بها بالفعل."

"كيف أصبحت قريبة منه؟"

"إنه زير نساء. لقد وفّرت له فرصة ملائمة ببساطة."

"حديث فراش؟"

"من أسوأ الأنواع."

كان المنزل أحد المنتجعات الأخرى التي تعود للحقبة الفكتورية. وكانت قد تساءلت في بادئ الأمر عن كيفية تمكّن دالي من تحمّل القَرض السكني الهائل، ولكنها علمت أنه كان مستأجَراً. كان يوجد على إحدى نوافذ الطابق الأرضي ملصق يعلن أن المنزل مزوَّد بجهاز إنذار. كان النهار في منتصفه، ويتوقّع أن يكون دالي حالياً في البيت الأبيض حيث يبقى على الأقل ثماني عشرة ساعة. كانت الصحافة المحافظة تحب امتداح عمله واصفةً إياه بالأخلاقي، ولكن ستيفاني لم تكن مخدوعة به. لم يكن يرغب في أن يكون خارج الحلقة، ولا لحظة واحدة.

"سأعقد معكِ اتفاقاً،" قالت لها.

وارتسمت على وجه كاسيوبيا ابتسامة ماكرة. "تريدين منّي اقتحام المنزل؟"

"وبعدئذٍ، أتدبّر أمر جهاز الإنذار."



كان سابر متكيّفاً مع شخصية جيمي ماك كولوم. وكان الاسم بحدّ ذاته مسألة

أخرى. لم يكن قد استخدمه منذ مدة طويلة ولكن كان يعتبره مأموناً نظراً إلى أن مالون قد يتحقّق منه. وإذا قام بذلك، فإنه سيظهر في سجلات الجيش. فلديه شهادة ميلاد، وبطاقة ضمان اجتماعي، وأشياء أخرى، لأنه كان قد بدّل اسمه عندما انتقل إلى أوروبا. كان اسم دومينيك سابر يضفي على حامله مزيداً من الثقة والصوفيّة. والرجال الذين استخدموه يعرفون عن اسمه أكثر مما يعرفون عنه، لذلك كان من المهمّ للاسم المعتمَد أن يحمل في طيّاته الإغراء الصحيح. وكان قد وقع عليه مصادَفةً في ضريح ألماني، وهو لأرستقراطي تُوُفّي في القرن التاسع عشر.

أما الآن فقد عاد جيمي ماك كولوم ثانيةً.

وأسمته والدته جايمس تيمّناً بوالدها، وكان يدعوه بابا العظيم - أحد الذكور القلائل في حياته الذي أبدى له كل احترام. لم يكن يعرف أبداً والده الحقيقي، كما أنه لم يكن يظنّ أن والدته تعرف في الواقع العشيق الذي يمكنها تحميله مسؤولية إنجابه. وبالرغم من أنها كانت والدة جيدة تعامله بلُطف وطيبة، فقد كانت امرأة ضعيفة تنتقل من رجل إلى آخر، فتزوّجت ثلاث مرات وبدّدت أموالها. وكان قد غادر المنزل عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره للانضمام إلى الجيش. وكانت والدته تريد منه الالتحاق بالكلّيّة، ولكن العلوم الأكاديمية لم تكن تهمّه. وبدلاً من ذلك، وعلى غرار والدته، فإن ما كان يجذبه هو اقتناص الفُرَص. ولكنه تمكّن، وبخلافها، من انتهاز كل فرصة صادفته.

الجيش، والقوات الخاصة، وأوروبا، وشاغلي الكراسي.

كان قد عمل طيلة ستة عشر عاماً لصالح أشخاص آخرين، منفّذاً أوامرهم، وراضياً عما يقدّمون له من أجر، ومكتفياً بإطرائهم اليسير.

أما الآن، فقد حان الوقت لكي يعمل لحسابه الخاص.

إلا أن الأمر محفوف بالمخاطر؟ بالتأكيد.

ولكن الحلقة تحترم النفوذ، وتُعجَب بالبراعة، ولا تتفاوض إلا مع الأقوياء. كان يريد أن يصبح عضواً فيها، وربما شاغلاً لأحد الكراسي، وحتى أكثر من ذلك.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية المفقودة تحتوي على ما يعتقد ألفرد هرمن أنها تحتوي عليه، فقد يكون قادراً كذلك على التأثير في العالم.

وهذا يعني امتلاك النفوذ.

لذا، كان عليه العثور على المكتبة.

وهذا الرجل المسافر على متن الرحلة من لندن إلى لِشبونة هو الذي سيدلّه على الطريق.

كان مالون وزوجته السابقة قد حلّا الجزء الأول من ضالّة البطل في دقائق قليلة فقط، وكان واثقاً من قدرتهما على حلّ رموز ما تبقّى، وبعد ذلك يقوم بالتخلّص منهما معاً.

ولكنه لم يكن غبياً. فمالون سيكون حذراً بالتأكيد وما عليه سوى إخفاء خطواته المقبلة.



كانت ستيفاني تراقب كاسيوبيا وهي تفتح قفل الباب الخلفي لمنزل دالي.

"في أقل من دقيقة،" قالت لها. "لا بأس. علّموك ذلك في أكسفورد؟"

"الواقع أن، كل ما تعلّمته فعلاً هو خلع قفلي الأول. قفل خزانة المشروبات، إن لم تخُنّي الذاكرة."

ثم فتحت الباب وأخذت تصغي.

انطلقت إشارات صوتية عالية من جدار مجاور، وأسرعت إلى لوحة المفاتيح الخاصة بجهاز الإنذار وأدخلت رمزاً من أربعة أرقام، آملةً في ألا يكون الأحمق قد بدّل السلسلة.

وتوقّفت الإشارات الصوتية وتبدّل لون ضوء المؤشّر من أحمر إلى أخضر.

"كيف عرفت الرمز؟"

"راقبته فتاتي وهو يُدخله."

فهزّت كاسيوبيا رأسها. "هل هو غبي؟"

"هذا ما يُدعى التفكير بالرأس غير المناسب. كان يظنّ أنها موجودة هناك لتوفير المُتعة له فقط."

وراحت تتأمّل الداخل المنوّر: ديكور وفقاً للطراز الحديث، والكثير من ألوان

الأسود والفضّي والأبيض والرمادي. وكان هناك لوحات تجريديّة لا تحمل أي معنى أو شعور معلّقة على الجدران بطريقة مبعثَرة. كم هي مناسبة!

"عمّا نبحث؟" سألت كاسيوبيا.

"لنذهب في هذا الاتجاه."

وعبرت ردهة قصيرة في اتجاه بهو صغير يشكّل امتداداً للردهة، يستخدم مكتباً. كانت عميلتها قد رفعت إليها تقارير جاء فيها أن دالي يخزّن كل معلوماته على أسطوانات أصبعية محمية بكلمات سر، ولا يترك أبداً أي بيانات في حاسوبه المحمول أو في حاسوب البيت الأبيض. وكانت عميلتها المومَس التي استأجرتها بواسطة الهاتف لإغواء دالي قد شاهدت ذات مساء تلك الطريقة الخاصة في التصرّف بينما كان دالي يعمل على الحاسوب، وقامت بإغوائه لاكتشاف بعض المعلومات.

وأخبرت كاسيوبيا بما كانت تعرفه. "لسوء الحظ، لم تتمكن من رؤية المخبأ بالفعل."

"كانت منهمكة بعملها؟"

فابتسمت. "حسناً، لكلّ منّا عمله، ولا تنتقدي ذلك العمل. فالمومسات اللواتي تعملن عبر الهاتف يعتبرن من الموارد الأكثر إنتاجية."

"وتقولين إنني منحرفة."

"يجب أن نعرف مكان مخبئه."

جلست كاسيوبيا بتثاقل على كرسيّ مكتب خشبي تحمّل وزنها الخفيف بالصرير والأنين. "يجب أن يكون في متناول اليد."

وأحصت ستيفاني محتويات البهو. وكان المكتب يحتوي على رزمة من الورق النشّاف، وحاملة لأقلام الحِبر والرصاص، وصور لدالي مع الرئيس ونائب الرئيس، إضافةً إلى مصباح للقراءة. وكان هناك مجموعة ضيّقة من الرفوف التي تمتد من الأرض إلى السقف وتغطّي جداريْن بأكملهما. كانت مساحة البهو ستة أقدام مربّعة تقريباً، والأرضية مصنوعة من الخشب الصلب على غرار بقيّة المنزل.

ولم تكن هناك مخابئ عديدة.

لفتت انتباهها الكتب الموضوعة على الرفوف. فقد كان دالي يحب المقالات السياسية، ولكن لم يكن هناك العديد منها ـ حوالى المئة تقريباً. كانت الكتب ذات الأغلفة الورقيّة مختلطة بتلك المجلّدة تجليداً فنياً، وكان العديد من المجلدات متشقّقاً، ممّا يشير إلى أنه تمّت قراءتها. فهزّت رأسها. "ذوّاق في علم السياسة الحديث، ويقرأها من كافة جوانبها."

"لِمَ تتّخذين هذا الموقف منه؟"

"كنت أشعر على الدوام بأنني أحتاج إلى حمّام بعد الالتقاء به، وذلك بصرف النظر عن أنه حاول طردي منذ اليوم الأول." وتوقّفت قليلاً. "وقد نجح أخيراً."

فجأة سمعت ستيفاني صوت مفتاح في قفل الباب الأمامي.

فأدارت رأسها بسرعة وحدّقت عبر الردهة في اتجاه الجهة الأمامية من المنزل.

ثم فُتح الباب وسمعت صوت لاري دالي. ومن ثمّ سمعت صوت شخص آخر؛ وكانت أنثى.

هيذر ديكسون.

فأومأت لكاسيوبيا واندفعتا مسرعتَين نحو إحدى غرف النوم.

"دعيني أطفئ جهاز الإنذار،" قال دالي.

وساد الصمت ثوان قليلة من الزمن.

"أمر غريب،" قال دالي.

"هل من مشكلة؟"

وأدركت ستيفاني على الفَور أنها لم تتنبّه إلى إعادة تشغيل الجهاز بعد دخولهما.

"أني واثق من أنني أعددت الجهاز قبل مغادرتي،" قال دالي.

وساد الصمت لحظات قليلة أخرى، وبعدها يسمع صوت تلقيم رصاصة في مسدّس.

"لنلقِ نظرة على المكان،" قالت ديكسون.

الفصل السادس والأربعون

لِشبونة

الساعة 3:30 بعد الظهر

أخذ مالون يحدق بدَير القديسة مريم عذراء بيليم. وكان هو وبام وجيمي ماك كولوم قد سافرا بالطائرة من لندن إلى لِشبونة، واستقلّوا بعد ذلك سيارة أجرة من المطار إلى الوجهة البحرية للمدينة.

تجثم لِشبونة فوق مجموعة متعرّجة عريضة من التلال المُطلّة على مصب نهر التاج الشبيه بالبحر، وهي مكان تكثر فيه الجادّات المتوازية الواسعة والساحات الرائعة المليئة بالأشجار. ويمتدّ أحد أكبر الجسور المعلّقة في العالم فوق النهر الغزير ويؤدّي إلى تمثال شامخ للمسيح، ذراعاه مبسوطتان تعانقان المدينة بدءاً من الساحل الشرقي. وكان مالون قد زار المدينة عدة مرات، وكانت تذكّره على الدوام بسان فرانسيسكو لجهة بنيتها وشكلها وتعرّضها للزلازل. فقد خلّفت الزلازل المتعددة وراءها علاماتها في المدينة.

والمعروف أن جميع البلدان تملك أشياء رائعة: مصر، الأهرامات؛ إيطاليا، كاتدرائية القديس بطرس؛ إنكلترا، كنيسة وستمنستر؛ فرنسا، قصر فرساي. وقد علم وهو يستمع إلى سائق سيارة الأجرة هم في طريقهم من المطار أن المفخرة الوطنية للبرتغال مستمَدّة من الدَّير الواسع المنبسط أمامه. فواجهته المغطّاة بالحجر الجيري الأبيض تمتدّ مسافة تتخطّى طول ملعب كرة قدم، وهي قديمة قدم العاج القديم، وتجمع هندسته المعماريّة بين الطراز المغربي، والبيزنطي، والقوطي الفرنسي في زخارف غزيرة تبدو أنها تبثّ الحياة في الجدران الشاهقة.

كان الناس محتشدين في كل الأماكن، وكانت مجموعة كبيرة من آلات

التصوير ترسل من المداخل أنوارها الوامضة نحو الداخل والخارج. وعلى الجانب الآخر من جادّة ناشطة وخطوط سكك حديدية قائمة قُبالة الواجهة الجنوبية المثيرة للإعجاب، كانت الحافلات السياحية تنتظر في خط متعرّج كالسفن الراسية في الميناء. وكان هناك لافتة للزوّار تعطي معلومات عن كيفيّة تشييد الدَّير للمرة الأولى عام 1500 تنفيذاً لنذر كان الملك مانويل الأول قد تعهّد للعذراء مريم بتحقيقه. وقد بُني الدير مكان خان بحَارة قديم أقامه الأمير هنري الملّاح. وكان كل من كولومبوس، ودي غاما، وماجيلان، قد أقاموا صلواتهم في هذا المكان قبل القيام برحلاتهم. واستُخدم هذا البناء الضخم على مرّ القرون مبنى دينياً، ومسكناً للمتقاعدين، وميتماً. وهو الآن موقع للتراث العالمي أُعيد إليه جزء كبير من شهرته الغابرة.

"الكنيسة والدَّير مكرَّسان للقديس جيروم،" سمع إحدى المرشدات السياحيات تقول لحشد من الناس باللغة الإيطالية. "الرمزي في الموضوع أن جيروم وهذا الدَّير هما بمثابة نقطتَي انطلاق للمسيحية. فالسفن غادرت من هنا لاكتشاف العالم الجديد والتبشير بالمسيح. وقد ترجم جيروم العهد القديم إلى اللاتينية، فتمكّن مزيد من الناس من اكتشاف أمور مثيرة للدهشة." وكان بإمكان مالون الجزم بأن ماك كولوم كان يفهم أيضاً ما تقوله المرأة.

"الإيطالية هي إحدى لغاتك؟" سأله.

"أعرف المقدار الكافي منها."

"إنك رجل متعدّد المواهب."

"كلما كان الأمر ضرورياً.

فلاحظ موقفه الفظّ. "إذاً، ما هي الخطوة التالية في البحث عن الضالّة؟"

أبرز ماك كولوم قصاصة أخرى من الورق كُتب عليها قسم من الاقتباس الأول ومزيد من الجُمَل الغامضة.

> 'إنه لغز، ولكن عليك زيارة *المُصلّى بالقرب من التاج*، في بيت لحم، *المكرّس لسيّدنا القدّوس*. إبدأ الرحلة في *الظلال* وأكملها في النور حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً، ويحوّل الفضة إلى ذهب. أعثر على *المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان*، حيث يمكن العثور على مكان آخر. ومن ثمّ، وعلى غرار رعاة الرسام بوسّان، *الذين يُربكهم اللُّغز*، سيغمرك نور الإلهام'.

ثم أعطى الورقة لبام وقال لها، "حسناً، لنقم بزيارة ونرى ماذا يوجد هناك."

وما لبثوا أن تبعوا حشداً ضخماً من السيّاح إلى المدخل، وكان هناك لافتة تشير إلى أن دخول الكنيسة مجّاني، ولكن زيارة بقيّة المباني تحتاج الحصول على تذكرة.

داخل الكنيسة، وفي ما كان يعرف بالمكان السفلي لجوقة الترتيل، كان يبدو السقف بعقوده المتصالبة الشكل منخفض الارتفاع وتسود فيه ظُلمة مَهيبة، وإلى يساره النُّصُب التذكاري لفاسكو دي غاما. وكان بسيطاً ورزيناً يزخر بالرموز المِلاحيّة. ويقوم إلى يمينه ضريح آخر للشاعر لويس دو كاموس إضافةً إلى جُرن للمعمودية. وتُضفي جدران عارية في الكوتين البساطة والعظَمة على الجوّ العام. وكانت آلات التصوير تومض، ويتكلّم المرشدون السياحيون بشكل رتيب عن معنى الميت.

تجوّل مالون في صحن الكنيسة، وكان وراء العتمة الأساسية التي تهيمن على المكان السفلي لجوقة الترتيل مشهد برّاق مثير للدهشة: ستة أعمدة نحيلة باسقة يحمل كل منها كمّاً وفيراً من الزخرفات مع أزهار منقوشة. وكانت الشمس تلقي بظلالها عليها في وقت متأخر من بعد الظهر عبر سلسلة من النوافذ الزجاجية الملوّنة. وكانت الأشعّة والظلال تطارد بعضها البعض على امتداد الجدران المغطّاة بأحجار جيرية باتت رماديّة على مرّ السنين. ويشبه السطح المقبّب رزمة من أضلع مِظلّة، والأعمدة دعائم المِظلّة، والبنية الهندسية حبال الأشرعة والصواري في سفينة. شعر مالون بحضور العرب الذين حكموا لشبونة ذات مرة لِشبونة، ولاحظ مبتكرات الخيال البيزنطي. وكانت آلاف التفاصيل تتعدّد من حوله دون تكرار.

أمر مُلفِت النظر.

وأكثر ما يلفت النظر فيه برأيه الشجاعة التي امتلكها البناؤون القدماء لبناء شيء مماثلٍ بهذه الضخامة فوق أرض لِشبونة المهتزّة.

وها هي المقاعد الخشبية في الكنيسة التي كان يجلس عليها الرهبان ذات مرة تستقبل اليوم في أحضانها الفضوليين. ويتردّد صدى همهمة منخفضة للأصوات عبر صحن الكنيسة يحجبه بشكل دوري صوت هادئ صادر عن جهاز لمخاطبة الناس يطلب منهم المحافظة على الهدوء بلغات مختلفة. حدّد مالون مصدر التنبيه: كاهن يقف وأمامه ميكروفون على مذبح الشعب وسط حيز داخلي ذي عقد

متصالب الشكل. لم يكن يبدو أن أحداً يعير التحذير أي اهتمام، ولا سيما المرشدين السياحيين الذين ظلوا يواصلون محاضراتهم التي يعتاشون منها.

"هذا المكان رائع،" قالت بام.

فوافقها الرأي. "تقول اللافتة الموضوعة في الخارج على واجهة المبنى إنه يُقفل في الخامسة. نحتاج إلى بطاقات لزيارة الأماكن المتبقّية."

"سأذهب للحصول عليها،" قال ماك كولوم. "ولكن التلميح لا يقودنا إلّا إلى هذا المكان، إلى الكنيسة، أليس كذلك؟"

"ليس لديّ أي فكرة. للتأكد من ذلك، دعونا نُلقي نظرة على ما تبقّى."

وعاد ماك كولوم أدراجه إلى المدخل المظلَّل عبر حشد الناس.

"ما رأيك؟" سألت بام وهي ما تزال ممسكة بقصاصة الورق.

"به أو بالضالّة؟"

"كلاهما يطرحان مشكلة."

فابتسم. لقد كانت مُحِقّة. ولكن في ما يتعلّق بالضالّة، "فإن بعضها يحمل معنى ما حتى الآن. '*إبدأ الرحلة في الظلال وأكملها في النور*'. فقد شاهدنا هذا الأمر بدقّة لدى الدخول. إنه يشبه مكاناً تحت الأرض، ثم ينفتح على عُلّيّة ساطعة."

طلب الكاهن ثانيةً من الحشد، وبهدوء، المحافظة على الصمت، لكنهم تجاهلوه مجدَّداً.

"لديه مهمّة شاقّة،" قالت بام.

"كالولد الذي يسجّل الأسماء عند مغادرة المدرّس قاعة الصفّ."

"حسناً، أيها العبقري،" قالت. "ماذا عن '*حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً، ويحوّل الفضة إلى ذهب. أعثر على المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر*'."

كان قد بدأ بالتفكير بذلك واسترعى انتباهه المكان الذي يقع أمامه، في هيكل الكنيسة حيث تؤدّي أرضيّة مستطيلة الشكل إلى جدار مجوَّف قائم وراء المذبح المرتفع الذي تعلوه مجموعة مؤلَّفة من قُبّة نصف كُرويّة، وقَنطرة دائرية الشكل، وسقف يحمل زخارف غائرة على شكل صناديق حجرية. وكانت الأعمدة الأيونيّة والكورنثية تنتصب بشكل متماثل على جهات ثلاث من هيكل الكنيسة، مشكّلةً إطاراً لغُرف حجرية مقنطَرة تعرض فيها أضرحة ملكيّة مُتقَنة الصنع. وتغطّي الجدار

المقعَّر خمس لوحات، وكل شيء يجرّ النظر إلى بيت القربان الباروكي القائم في الوسط. وعلى مستوى أعلى من المذبح المرتفع.

واتّبع مساراً متعرّجاً حول حشد السيّاح المتباطئين في اتجاه الجانب الأقصى لمذبح الشعب. وكانت الحبال المخمليّة تعيق الدخول إلى هيكل الكنيسة. وأعلمه مُلصق إعلاني بأن بيت القربان المصنوع بأكمله من الفضة أنجزه ببراعة فنيّة الصائغ جاو دو سوزا بين عامَي 1674 و1678، حتى أن روعته كانت تبدو من على بُعد خمسين قدَماً من المذبح الجانبي المزخرَف.

فاستدار وحدّق عبر صحن الكنيسة، مروراً بالأعمدة والمقاعد الخشبية، ووصولاً إلى مكان الترتيل السفلي حيث دخلوا.

وعندئذ رآه. في المكان العُلويّ لجوقة الترتيل، عبر درابزين حجري سميك، وفوق أرض الكنيسة بخمسة عشر قدَماً. ففي مكان مرتفع من الجدار الخارجي البعيد، كانت عين دائرية ضخمة تحملق به. وكانت النافذة الدائرية تمتد بقطر يبلغ عشرة أقدام أو أكثر. وتشعّ قواطع النافذة والزخرفات الشعاعية المتشابكة في وسطها. وتمرّ وراءها أضلع السقف بطريقة ملتفّة، وتبدو كأنها تتلاشى داخل شكله الشعاعي الذي لا يُظهر أي خطوط كفافيّة، برّاقاً كمِصباح مسرح، وغامراً الداخل بأنواره.

إنه تزيين مألوف في العديد من الكنائس العائدة للعصور الوسطى. وقد دُعيت تيمّناً بشكلها الخيالي:

النافذة الوردية.

وهي تقع في الجهة الغربية. كانت تتوهّج كالشمس في وقت متقدّم من النهار.

ولكن كان هناك المزيد.

ففي وسط الدرابزين المحيط بالمكان العُلوي لجوقة الترتيل، كان يوجد صليب كبير. فاتجه نحوه ولاحظ أن حجم الصليب ينطبق تماماً على مقياس النافذة الدائرية، وتمرّ عبره الأشعة البرّاقة إلى داخل صحن الكنيسة.

'حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً، ويحوّل الفضة إلى ذهب'.

يبدو أنهم عثروا على المكان.

الفصل السابع والأربعون

فيينا

الساعة 4:30 بعد الظهر

أُعجب ثورفالدسن بالمشهد الرائع للزهور والماء والرخام في حديقة ألفرد هرمن الضخمة التي تدل على عمل أجيال عدة. وكانت الممرات الظليلة تمتد من القصر إلى الفسحات العشبيّة، وتقوم على جوانبها المرصوفة بالآجر والتماثيل، والنقوش قليلة البروز، والنوافير، فكثيراً ما تستسلم التأثيرات الفرنسية لذوق إيطالي واضح.

"من هم الأشخاص الذين يملكون هذا المكان؟" سأل غاري.

"عائلة هرمن من الأسر العريقة في النمسا كعائلتي تماماً في الدانمارك. وهي تتمتّع بالثراء والنفوذ."

"هل هو صديقك؟"

إنه سؤال مثير للاهتمام إذا ما أُخذت شكوكه بعين الاعتبار. "حتى أيام قليلة سابقة، اعتقدتُ أنه كذلك. ولكنني غير واثق من ذلك الآن."

كان مسروراً بحب الفتى للاستطلاع. وكان على عِلم بنسب غاري. فلدى عودته إلى منزله بعد اصطحاب غاري إلى وطنه بعد زيارتهما الصيفية، كان مالون قد أطلعه على الحقيقة التي كشفتها له بام. وكان ثورفالدسن قد ادّعى تجاهل الأمر عندما رآها قبل ليال قليلة، عِلماً أنه عرف هويّتها على الفَور. وكان حضورها في منزله مع مالون دلالة على حدوث متاعب، ولذلك وضع جِسبر خارج باب المكتب. فقد كانت بام مالون متوتّرة الأعصاب، ولكنها هدأت لحسن الحظ. كان يُفترَض بها العودة إلى جورجيا، وبدلاً من ذلك، كان المتّصل من تل أبيب قد قال إنه '*يبدو أن مالون وزوجته السابقة هما في طريقهما إلى لشبونة*'.

فما الذي حدث؟ ولِمَ الذهاب إلى هناك؟ وأين كانت مخالب النسر؟

"جئنا إلى هنا،" قال لغاري، "لمساعدة والدك."

"لم يقُل والدي شيئاً عن مغادرتنا، بل طلب منّي أن الازم مكاني وأن ألزم الحذَر."

"ولكنه قال لك أيضاً أن تفعل ما أطلبه منك."

"إذاً، عندما يصيح في وجهي، أتوقّع منك أن تتحمّل التوبيخ عنّي."

فابتسم ابتسامة عريضة. "بكل سرور."

"هل رأيت يوماً شخصاً مقتولاً بطلق ناري؟"

كان يعلم أنه لا بد من أن تكون ذكريات يوم الثلاثاء مثيرة للاضطراب أيّاً تكن رغبة الفتى في أن يكون شجاعاً. "عدة مرات."

"لقد أطلق والدي النار على رأسه. ولكن هل تعلم أني؟ لا أبالي بالأمر؟."

فهزّ رأسه لتظاهر غاري بالشجاعة. "حذار، يا غاري. لا تعتَد أبداً على القتل مهما كان أحدهم يستحقّه."

"لم أعنِ التصرّف بهذه الطريقة. ما عنيته أنه كان رجلاً سيّئاً ليس إلّا. لقد هدّد بقتل أمّي."

ومرّا بقرب عمود من الرخام يعلوه تمثال ديانا. وكان النسيم يلاعب الأشجار فتظهر على العشب القصير المتموّج ظلالها المهتزّة. "لقد قام والدك بواجبه. لم يحبّ الأمر، ولكنه قام به فحسب."

"وأرغب في القيام بالأمر نفسه أيضاً."

اللعنة على علم الوراثة. ذاك الشبل غاري من ذاك الأسد مالون. وبالرغم من أن الفتى ما زال في الخامسة عشرة من عمره، إلا أنه من الممكن إثارة غيظه بالتأكيد ـ على غرار والده تماماً ـ إذا تعرّض أحد أحبّائه للتهديد بصفة خاصة. كان غاري يعلم أن والدَيه قد سافرا إلى لندن، ولكنه لم يكن يعلم أن والدته ما زالت متورّطة بالأمر. وهو جدير معرفة الحقيقة.

"والدتك ووالدك في طريقهما إلى لِشبونة."

"هل هذا ما جرى الحديث عنه في الاتصال الهاتفي؟"

فأومأ برأسه مؤكّداً الأمر وابتسم لطريقة الولد الحاسمة في تلقيه الأنباء.

"لماذا بقيت أمّي معه؟ لم تقُل أي كلمة عن البقاء عندما اتصلت مساء أمس، فهما لا ينسجمان مع بعضهما البعض."

"ليس لديّ أي فكرة. ينبغي علينا الانتظار إلى أن يقوم أحدهما بالاتصال مجدَّداً." ولكنه كان راغباً أيضاً، وبشكل يائس، في معرفة الجواب عن ذلك السؤال.

وظهر أمامهما المكان الذي يقصدانه: وهو عبارة عن مقصورة دائرية من الرخام الملوَّن يعلوها حديد مذهَّب. وتُطلّ درابزينها المفتوح على بحيرة بلّورية، تبدو صفحتها الفضّيّة هادئة في الظلال.

فدخلا واقتربا من سكّة الدرابزين.

كان هناك أوعية كبيرة ملأى بالأزهار زكيّة الرائحة وموضوعة بشكل متناثر في الداخل. وكما هي الحال على الدوام، كان هرمن قد تأكد من أن هذا المنزل تحفة فنّيّة.

"هناك شخص قادم،" قال غاري.

لم ينظر إلى الخَلْف. ولم يكن عليه القيام بذلك. فقد رآها في مخيّلته: قصيرة القامة، سمينة، تتنفّس بسرعة أثناء المشي. واستمرّ بالنظر في اتجاه البحيرة، مستمتعاً بالرائحة الزكيّة للعشب، والأزهار، والخبرة.

"هل هي آتية بسرعة؟"

"كيف عرفتَ أنها امرأة؟"

"سوف تتعلّم، يا غاري، أنه لا يمكنك الفوز بمعركة ما لم تكن قادراً على التنبّؤ بتصرّفات عدوّك بطرق معيَّنة."

"إنها ابنة السيد هرمن."

واستمرّ يتأمّل البحيرة وهو يراقب سرباً من البط يسبح باتجاه الشاطئ. "لا تقل لها شيئاً عن أي موضوع. استمع ولا تتكلّم إلا قليلاً. بذلك تكتشف ما أنت بحاجة إلى معرفته."

ثم سمع وقع الأقدام تطقطق على الأرضيّة الحجرية، واستدار بينما كانت مارغريت تقترب منه.

"أخبروني في المنزل أنك جئت إلى هنا،" قالت له. "وتذكرتُ أن هذا المكان هو أحد أماكنك المفضَّلة."

فابتسم لأدائها البديهي. "له خصوصيّة مميَّزة. فهو بعيد عن القصر بما يكفي، وتوفَّر الأشجار فيه الهدوء والسكينة. أحبّ فعلاً هذا الموقع. وهو أفضل المواقع التي كانت تفضّلها والدتك، على ما أذكر."

"لقد بناه والدي خصّيصاً لها. وقد أمضت يومها الأخير في هذه الدنيا هنا."

"هل تشتاقين إليها؟"

"لقد ماتت عندما كنت صغيرة. لذا، لم نكن أبداً وثيقتَي الصلة ببعضنا البعض. ولكن والدي يشتاق إليها."

"ألا تشتاقين إلى والدتك؟" سأل غاري.

وبالرغم من أن الفتى قام بانتهاك ما كان قد حُذِّر منه، فإن ثورفالدسن لم يمانع من طرح هذا السؤال. فقد كان هو الآخر فضولياً أيضاً في الواقع.

"بالطبع أشتاق إليها. الأمر ببساطة هو أننا لم نكن مقرَّبتَين من بعضنا البعض ـ كأم وابنتها."

"يبدو أنكِ تهتمّين بأعمال العائلة وبالجماعة."

وشعر بالأفكار تتزاحم في عقلها. لقد ورثت عن والدها نظراته النمساوية الفظّة أكثر ممّا ورثته من والدتها البروسيّة من جمال. ولم تكن امرأة جذّابة بصفة خاصة ـ شعر قاتم، وعينان بنيّتان وأنف نحيف مرتفع. ولكن من هو لكي يُصدر أحكامه، خصوصاً أنه ذو عمود فقري مُعوَجّ ومتيبِّس، وشعر كثّ، وبشرة تبدو عليها تأثيرات الطبيعة؟ وكان يتساءل عن خطّاب تلك الفتاة، ولكنه ارتأى أن هذه المرأة لن تهب نفسها لأحد. فقد كانت ممّن يأخذون.

"أنا المتبقّية الوحيدة من عائلة هرمن." وأضافت ابتسامة كانت تهدف بالتأكيد إلى إضفاء جوّ من الراحة، ولكنها عكست إزعاجاً بدلاً من ذلك.

"هل هذا يعني أنك سترثين كل هذا؟"

"بالطبع، لِمَ لا؟"

فهزّ كتفَيه. "لا فكرة لديّ عمّا يفكّر به والدك. ولكنني تيقّنت من أنه لا وجود لضمانات في هذا العالم."

فلاحظ أنها لم تحبّ ما يحمله كلامه من معانٍ ضمنية. وبدوره يمنحها أي وقت للتفاعل، وسأل، "لِمَ حاول والدك إلحاق الأذى بهذا الفتى؟"

أحدث سؤاله المفاجئ نظرة مُربكة. من الواضح أنها لم تكن قادرة كذلك على تمالك أعصابها في مواجهة المصاعب ـ بخلاف والدها.

"لا فكرة لديّ عمّا تتحدّث."

فتساءل في نفسه: ربما أحجم هرمن عن إطلاعها على مخطّطاته.

"إذاً لا فكرة لديك عمّا يقوم به *داي* كلاون در أدلر؟"

"ليست من مسؤولياتي ـ" قالت موقعة نفسها في الشرَك.

"لا تقلقي، يا عزيزتي. أنا على عِلم بأمره. كنت أتساءل فقط إذا كنتِ على عِلم بأمره."

"هذا الرجل يطرح مشكلة."

عرف الآن أنها ليست طرَفاً في أي شيء. لقد كشفت عن كثير من المعلومات. "أوافقك الرأي من صميم قلبي. ولكن كما قلتِ، لا أحد منّا مسؤول عنه. الجماعة فقط هي المسؤولة."

"لم أكن مُدركة أن الأعضاء يعلمون بشأنه."

"أنا مدرك لكثير من الأمور، ولا سيّما ما يقوم به والدك. وذلك يطرح مشكلة أيضاً."

لاحظت من نبرة صوته أنه يحاول إقناعها. وارتسمت ابتسامة عصبيّة على وجهها السمين المدوَّر. "تذكر أين أنت، يا هنريك. إنها أرض هرمن. نحن نسيطر على ما يجري هنا. لذا يُفترَض بك ألّا تورّط نفسك في هذه المسائل."

"هذه ملاحظة مثيرة للاهتمام. سأحاول ألّا أنساها."

"أعتقد أنك أنت ووالدي بحاجة ربما إلى إكمال هذا الحديث."

واستدارت وهي تهم بالمغادرة، ولكنه استلّ سلاحاً بحركة سريعة.

فجأة ظهر من بين أشجار السرو الكثيفّة ثلاثة رجال يرتدون ملابس عسكرية مموَّهة. فاتجهوا إلى الأمام بسرعة ووصلوا في اللحظة التي همت فيها مارغريت بالخروج من المقصورة.

فأمسك بها رجلان.

وضع أحدهما يده على فمها بإحكام.

فحاولت أن تقاوم.

"هنريك،" قال غاري. "ماذا يفعل جِسبر هنا؟"

كان الرجل الثالث كبير الخدَم لديه، وكان قد سافر جوّاً في وقت سابق وتسلّل إلى حديقة القصر. كان ثورفالدسن يعلم من زيارات أخرى - على عكس تبجّح مارغريت - بأن الحراسة الأمنيّة المشدَّدة كانت مقتصرة على المنزل. ولم تكن مئات الفدانات المتبقّية مسيَّجة أو خاضعة للحراسة.

"لا تتحرّكي،" قال لها.

فتوقّفت عن المقاومة.

"سوف تذهبين مع هؤلاء السادة."

فهزّت رأسها بعنف.

كان قد توقّع أن تكون صعبة المِراس. لذا، أومأ برأسه، فرفعت اليد عن فمها واستُبدلت بقطعة قماش كان يعلم أنها تحتوي على ما يكفي من المخدّر للتسبّب لها بنوم عميق. ولم يتطلّب الأمر سوى ثوانٍ قليلة حتى ظهر مفعول المخدِّر، وأصبح جسمها مترهّلاً.

"ماذا تفعل؟" سأل غاري. "لماذا تؤذيها؟"

"أنا لا أؤذيها. ولكنني أؤكد لك أنهم كانوا ليُلحقوا بك الأذى لو لم يتصرّف والدك." ثم التفت إلى جِسبر وقال: "أبقِها في مكان آمن، كما بحثنا من قَبل."

فأومأ الموظّف برأسه موافقاً. وحمل أحد الرجال جسد مارغريت البدين فوق كتفه، وانسحب الثلاثة نحو الأشجار.

"كنتَ تعلم أنها ستأتي إلى هنا؟" سأل غاري.

"كما قلتُ، من الجيّد أن تعرف عدوّك."

"لماذا تحتجزها؟"

وكان يحبّ إعطاء الأمثولات ويشتاق إلى تعليم قيادة المركب الشراعي. "أنت لا تقود سيارة بدون عقد تأمين. إن ما نقوم به يعرّضنا للمخاطر. وهي ضمانتنا."

الفصل الثامن والأربعون

واشنطن، العاصمة

جمدت ستيفاني في مكانها. فقد كانت هيذر ديكسون تحمل سلاحاً ومتيقّظة. وكانت عَينا كاسيوبيا تفتّش غرفة النوم تفتيشاً دقيقاً، فعلِمت أن زميلتها تبحث عن أي شيء يمكن استخدامه كسلاح.

"ما الأمر؟" سمعت دالي يسأل ديكسون.

"جهاز إنذاركَ مُطفَأ. وهذا يعني أن شخصاً ما موجود هنا."

"استنتاج منطقي عظيم، أليس كذلك؟"

"هل ضبطت لوحة جهاز الإنذار قبل مغادرتك؟"

ومرّت لحظات من الصمت، وعرفت ستيفاني أنهما وقعتا في شرَك.

"لا أعلم،" قال دالي. "لعلّي نسيت، وليست المرة الأولى."

"لِمَ لا أُلقي نظرة للتأكد من الأمر فحسب؟"

"لأنني لا أملك الوقت لكي تلعبي دور الجندي، وذلك المسدس في يدك يجعلني شديد التوتر. تبدين مثيرة جنسياً."

"يبدو أنك شديد الإطراء اليوم. فهذا الأمر يمكّنك من الحصول على كل شيء."

وساد مزيد من الصمت، ومن ثمّ سُمع احتجاج مُرفَق بأنّة شبه مكبوتة.

"انتبه على رأسي. تلك القبضة مؤلمة."

"هل أنت بخير؟" سأل دالي.

وفَكّ سحّاب سرواله.

"ألقي ذلك المسدس أرضاً،" قال دالي.

وسُمع وقع خطوات خافتة على الدَّرَج. فحدّقت ستيفاني بكاسيوبيا وهمست، "لا أصدّق ما يجري."

"إننا نعرف على الأقل أين هما."

تلميح جيد ولكنه لا يحمل الكثير من الاطمئنان. "يجب عليَّ أن أتحقّق من الأمر."

فأمسكت كاسيوبيا بذراع ستيفاني بإحكام. "دعيهما وشأنهما."

وبخلاف الساعات الإثنتَي عشرة السابقة التي كانت قد اتخذت أثناءها قرارات مشكوك فيها في أفضل الأحوال، فقد كانت تفكر الآن بوضوح... كانت تعرف ما يجب عليها القيام به.

فزحفت إلى خارج غرفة النوم ودخلت البهو الواقع بين الغرف. وكان أمامها دَرَج يؤدّي إلى الطابق العُلوي، والباب الأمامي إلى يمينها. وسمعت أصواتاً منخفضة، وضحكة، وسقطة على ألواح الأرضيّة.

"ما الذي يجري بحق الجحيم؟" تساءلت ستيفاني بصوت مرتفع.

"ألم يكشف تحقيقك هذا الأمر؟"

فهزّت رأسها. "على الإطلاق. لا بد أن ما يجري حديث العهد."

وتوارت كاسيوبيا عن الأنظار عائدةً إلى الردهة. تمهّلت هناك للحظات وشاهدت المسدس نفسه الذي كانت هيذر ديكسون قد شهرته عليها في اليوم السابق مُلقى على إحدى الكراسي.

فالتقطته وغادرت البهو.



حدّق مالون بالنافذة الوردية وتحقّق من ساعته: إنها الرابعة بعد الظهر. في هذا الوقت المتأخر من السنة، تبدأ الشمس بالمغيب في الدقائق التسعين التالية.

"يتّبع هذا المبنى وُجهة محور الشرق ـ الغرب،" قال لبام. "تلك النافذة موجودة هناك لتمرير أشعة شمس المساء. يجب أن نصعد إلى هناك."

وشاهد ممرّاً عليه سهم يشير إلى المكان العُلوي لجوقة الترتيل. فاجتازه ووجد دَرَجاً من الحجر الأبيض مبنيّ على امتداد الجدار الشمالي للكنيسة، وكان ذا سقف نصف أسطواني يجعله يبدو وكأنه نفق.

صعد وراء حشد من الناس.

وفي الأعلى، دخلوا إلى المكان المخصّص للترتيل.

كان هناك صفّان من المقاعد الخشبية العالية الظهر موضوعة قُبالة بعضهما البعض، ومزيّنة بحبال الزينة والزخارف العربية، وقد عُلّقت فوقها لوحات باروكية لمختلف الرسل. وكان الممر القائم بين الصفّين يؤدي إلى الجدار الغربي للكنيسة حيث تقع النافذة الوردية على ارتفاع ثلاثين قدَماً.

أخذ يحدّق نحو الأعلى.

كانت ذرّات الغبار تطفو برفق بين أشعة الشمس البرّاقة. فاستدار وأخذ يتأمّل الصليب المرفوع في الجانب الأبعد من المكان العلوي لجوقة الترتيل. ثم اقترب مع بام من الدرابزين وأخذ يتأمل بإعجاب الواقعية المحزنة لصورة المسيح المنقوشة. وكان هناك لوحة على قاعدتها تحمل معلومات بلغتَين:

Cristo na cruz

المسيح مصلوب

سي 1550

Escultura em Madeira policroma

منحوتة خشبية متعدّدة الألوان

"'حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً'"، قالت بام. "لقد وجدناه."

فوافقها القول، ولكنه كان يفكّر بالكلمات التالية.

'ويحوّل الفضة إلى ذهب'.

ألقى نظرة سريعة على النافذة الوردية المتوهّجة وأخذ يتبع الأشعّة المليئة بالغبار وهي تمرّ بالقرب من الصليب وتدخل إلى صحن الكنيسة. كان الضوء في

الأسفل يمرّ نزولاً عبر حفرة في الأرضية الشبيهة برقعة الشطرنج وصولاً إلى ممرّ في الوسط بين المقاعد الخشبيّة. وكان الناس يتحركون بشكل غير منتظم غير مبالين بما يحدث. وكان الضوء يواصل مساره شرقاً حتى مذبح الشعب، مشكّلاً خطاً باهتاً على السجادة الحمراء.

ظهر ماك كولوم في المكان السفلي لجوقة الترتيل وأخذ يعبر الممرّ الأوسط في اتجاه الجهة الأمامية للكنيسة.

"سيتساءل عن مكان وجودنا،" قالت بام.

"لن يذهب إلى أي مكان. يبدو أنه بحاجة إلينا."

توقّف ماك كولوم بين العمودَين الخامس والسادس ونظر من حَوله، واستدار بعد ذلك وشاهدهما. فرفع مالون راحة يده وأومأ له طالباً منه الانتظار هناك، ثم أشار له بسبّابته إلى أنهما سيكونان في الأسفل في غضون دقيقة.

لقد أخبر ماك كولوم بالحقيقة. فقد كان جيّداً إلى حدّ ما في حل الأحاجي. وقد بدت هذه الأحجية مُربِكة في بادئ الأمر، ولكنه الآن، وبعد تحديقه نزولاً في مجموعة من المنحوتات والأضلع والقناطر، وفي الخطوط المتآلفة والأحجار المتحابكة التي لم يبدّلها الزمن والطبيعة والإهمال إلّا قليلاً، شعر وكأن الحل في يده.

تبع بنظره المتفرّس أشعّة الشمس وهي تعبر المذبح، وتقسم المذبح العُلوي إلى قسمَين، وتبلغ بيت القربان الفضّي الذي كان يومض بلون الذهب. هذه الظاهرة لم يلاحظها عندما كانا في الأسفل بالقرب منها، أو لعل الشمس المتّجهة نحو المغيب لم تكن قد بلغت بعد الزاوية المناسبة. ولكن التحوّل كان واضحاً في تلك اللحظات.

'الفضة إلى ذهب'.

ورأى أن بام لاحظت الأمر أيضاً.

"أمر مذهل،" قالت له، "كيف يفعل الضوء ذلك."

من الواضح أن النافذة الوردية كانت في الموقع المناسب الذي يجعل الشمس المائلة إلى المغيب تمرّ ببيت القربان لدقائق قليلة على الأقل. ومن الواضح أن الإناء الفضّي كان قد وُضع بتأنٍّ كبير، وأن إحدى اللوحات المحيطة به قد أزيلت من مكانها، وتمّ الإخلال بالتناسق الذي تعلّق به بنّاؤو العصور الوسطى.

وفكّر بالمقطع الأخير للضالّة.

'*أعثر على المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر*'.

واتّجه نحو السُّلَّم.

وفي الطابق الأرضي، اقترب من الحبال المخمليّة التي كانت ما تزال تسدّ الطريق إلى داخل هيكل الكنيسة. ولاحظ التفاعل الحاصل بين الرخام الأسود والأبيض والأحمر الذي يُضفي جوّاً من النُبل ـ هو مُعَدّ خصّيصاً بهذه الطريقة لأن الهيكل كان يُستخدَم كضريح فخم للعائلة المالكة.

وكان هيكل الكنيسة ينتصب على بُعد ثلاثين قدَماً.

ولم تكن خبرة الزائرين تشمل معاينته عن قُرب.

وكان الكاهن الموجود عند مذبح الشعب يعلن أن الكنيسة والدَّير سيُقفلان أبوابهما بعد خمس دقائق. وكان العديد من السيّاح قد بدأوا بالمغادرة، وكان هناك مزيد من الناس يتجهون نحو المَخرج.

وكان مالون قد لاحظ في وقت سابق وجود صورة منقوشة على باب بيت القربان حيث كان يُحتفَظ ذات مرة بالقربان المقدَّس. ولعله ما زال يحتوي على خبز القربان. وبالرغم من أنه موقع للتراث العالمي ومَعلَم سياحي أكثر منه كنيسة، فقد كان صحن الكنيسة يُستخدَم بالتأكيد لإحياء احتفالات دينية خاصة، كما هي حال كاتدرائية القديس بولس وكاتدرائية وستمنستر، وهذا ما يفسّر سبب إبقاء الناس على مسافة من المكان الأوسط من المبنى.

اقترب ماك كولوم منها وقال: "حصلت على البطاقات."

فأشار مالون إلى بيت القربان. "يجب أن ألقي نظرة عن قرب، ومن دون هؤلاء الشهود."

"قد يكون أمراً صعباً. أفترض أنه سيتمّ إخراج الجميع من هنا في الدقائق القليلة القادمة."

"لا تعتبرني رجلاً يُذعن للسلطات."

"ولا أنت أيضاً."

وفكّر ببلدة أفينيون وما قام به مع ستيفاني قد قاما به هناك في ليلة ممطرة من ليالي حزيران/ يونيو.

"لنعثر إذن على مكان نختبئ فيه إلى أن يغادر الجميع."



عادت ستيفاني على رؤوس أصابعها إلى البهو. وكانت بحاجة إلى العثور على مخبأ دالي قبل أن تصل الأمور إلى 'النشوة' في الطابق العُلوي. وأمِلت في ألّا يكون أيّاً من ديكسون أو دالي على عَجلة من أمره، عِلماً أن دالي كان يبدو مستعجلاً.

وكانت كاسيوبيا قد شرعت بالبحث بهدوء.

"يقول التقرير إنه لم يغادر هذا المكتب أبداً مع الذاكرات الإصبعية. كان يستخدمها في حاسوبه المحمول ولكنه لم يأخذها معه عند مغادرته. وكان يطلب منها على الدوام التوجه إلى غرفة النوم ليكون بمفرده." كانت كلماتها تشبه الهمس أكثر مما تشبه الأصوات.

"إننا ببقائنا هنا ندفع الأمور إلى النهاية."

فتوقفت وأصغت. "يبدو أنهما ما زالا منهمكَين."

وفتحت كاسيوبيا أدراج المكتب ببطء، محاولةً العثور على الأماكن التي قد تصلح كمخبأ. ولكن ستيفاني شكّت في أن تجد شيئاً لأن المكان ظاهر بوضوح. وتفحّصت ثانيةً بدقّة رفوف الكتب، وتوقّفت عيناها عند إحدى المعاهدات السياسية، وهو كتاب رفيع ذو لون رمادي مائل إلى البنّي يحمل كتابات زرقاء.

'إجراءات جدّيّة' لكريس ماثيوز.

وتذكّرت القصة التي رواها دالي لغرين عندما كان يتباهى بنفوذه الجديد الذي اكتسبه بتعيينه مسؤولاً عن وكالة ماجيلان بيليت.

فما الذي قاله؟

'السلطة هي في المنصب الذي يوكل إليك'.

مدّت يدها إلى الكتاب، وفتحته، ووجدت أن الثلث الأخير من الصفحات كانت مُلصَقة ببعضها البعض، وقد أُحدثت فيها فجوة بعمق ربع إنش. وكانت في داخلها خمس ذاكرات إصبعية، أُلصق على كل منها رقم روماني.

"كيف عرفتِ؟" همست كاسيوبيا.

"إنني خائفة كثيراً لأني عرفت. لا بد أنني بدأت أفكر كالأغبياء."

وهمّت كاسيوبيا بالتوجه إلى الجهة الخلفية من المنزل نحو الباب الخلفي، ولكن ستيفاني أمسكت بذراعها وأشارت إلى الباب الأمامي، فالفوضى مُستعرة وراءها ـ تعبير يوازيه السؤال التالي، *'لِمَ البحث عن المشاكل'*؟

فمرّتا بالبهو، ومن ثمّ بالرَّدهة.

وكانت لوحة المفاتيح الخاصة بجهاز الإنذار الموضوعة بالقرب من الباب الأمامي تشير إلى أن النظام ما زال معطّلاً عن العمل. فحملت مسدس ديكسون.

"لاري،" نادت.

لا جواب.

"لاري، هل لي بلحظة من فضلك؟"

وسُمع وقع خطوات في الطابق العُلوي، وظهر دالي عند باب غرفة النوم مرتدياً بنطاله وعاري الصدر.

"يعجبني شعرك، يا ستيفاني. مظهر جديد؟ والثياب، أخّاذة."

"إنها لأجلك."

"ماذا تفعلين هنا؟"

فعرضت الكتاب بتباهٍ. "جئت من أجل مخبئك."

وبدا الذُّعر على وجه دالي الصبياني.

"هذا صحيح. حان الوقت لكي تعرف. وماذا عن هيذِر؟" ثم ارتفع صوتها. "لقد خيّبت ظني باختيارك لعشيقاتك."

وخرجت ديكسون عارية من غرفة النوم غير مُبدية أي شعور بالخجل. "أنتِ ميتة."

فهزّت ستيفاني كتفَيها. "سنرى إذا كان هذا الأمر سيتحقّق. في الوقت الحاضر، لديّ مسدّسك." وكشفت عن السلاح.

"ماذا ستفعلين؟" سأل دالي.

"لم أقرّر بعد." ولكنها أرادت أن تعرف أمراً. "هل أنتما معاً منذ مدة طويلة؟"

"هذا الأمر لا يعنيك،" قالت ديكسون.

"مجرد فضولية فحسب. لقد قاطعتكما لإعلامكما فقط بأنني لن أكتفي بالاختباء بل ستكون هناك مفاجآت أخرى."

"يبدو أنك تعرفين أمراً ما،" قال دالي. "من هي صديقتك؟"

"كاسيوبيا فيت،" أجابت ديكسون.

"أشعر بالإطراء لأنكِ عرفتني."

"أدين لك بالسهم الذي أطلقتِه على عنُقي."

"لا شكر على واجب."

"عودا إلى الفراش كلَيكما،" قالت ستيفاني.

"لا اظن ذلك." وهمّت ديكسون بنزول السُّلّم، ولكن ستيفاني صوّبت المسدّس الآلي نحوها. "لا تجبريني يا هيذر على إطلاق النار عليك. لقد أصبحت مؤخراً عاطلة عن العمل، وهناك تفويض باعتقالي."

فتوقّفت العميلة الإسرائيلية، ربما لأنها شعرت بأن الوقت ليس مناسباً للتحدّي.

"إلى غرفة النوم،" قالت ستيفاني.

فتردّدت ديكسون.

"الآن."

وتراجعت ديكسون إلى أعلى السُّلّم. وأخذت ستيفاني تجمع ثياب الإسرائيلية، بما في ذلك حذاءها. "لن تجرُؤ على المجازفة بإثارة فضيحة أمام الناس من خلال اللحاق بنا،" قالت لدالي، "ولكنها قد تفعل ذلك. وهذا سيُبطئ تحرّكها على الأقل."

ثم غادرتا المكان.

الفصل التاسع والأربعون

فيينا

الساعة 6:40 مساءً

كان ثورفالدسن يرتدي الثوب الاحتفالي القرمزيّ اللون. وكان الأمر يقتضي قيام كافة الأعضاء بارتداء هذه الملابس أثناء انعقاد الجمعيّة. وكان من المقرَّر أن تبدأ الجلسة الأولى في الساعة السابعة، ولكنه لم يكن ينوي المشاركة فيها: كثير من الكلام، كالعادة، وقليل من العمل. ولم يسبق له أن كان بحاجة إلى جمعية تعاونية لتحقيق أهدافه، ولكنه كان يستمتع بالصُّحبة التي تعقب الاجتماعات.

كان غاري يجلس في أحد المقاعد المنجَّدة.

"كيف أبدو؟" سأل بنبرة مرِحة.

"مثل ملك."

كانت الملابس المُلوكية التي تصل إلى الكاحل مصنوعة من المخمل ومليئة بالتطريزات المذهّبة وتحمل شعار الجماعة *'JE LAY EMPRINS'*، ومعناه 'أنا أجرؤ'. ويعود تاريخ البذلة إلى القرن الخامس عشر وإلى جماعة الجِزّة الذهبية الأصليّة.

مدّ يده إلى السلسلة الموجودة في عنقه، وكانت من الذهب الخالص مع حجر صوّاني أسود مصقول يُطلق شرارات من الفولاذ. وتتدلّى جِزّة ذهبيّة مزخرَفة من وسطه.

"تُقدَّم هذه السلسلة لكل شخص يُقبَل عُضواً في الجماعة. إنه شعارنا."

"يبدو باهظ الثمن."

إنه كذلك."

هل هذا الأمر هام بالنسبة إليك فعلاً؟"

فهزّ كتفيه. "إنه أمر أستمتع به، ولكنه ليس كالدِّين."

أخبرني والدي بأنك يهودي."

فأومأ برأسه مؤكّداً الأمر.

لا أعرف الكثير عن اليهود، سوى أن ملايين منهم قُتلوا في الحرب العالمية الثانية. إنه أمر لا أفهمه حق الفهم."

لست الوحيد في ذلك. فطالما كان وجودنا بالنسبة إلى غير اليهود حجر عثرة طيلة قرون من الزمن."

لم يكره الناس اليهود؟"

كان قد فكّر ملياً بهذا السؤال عدة مرّات ـ مع الفلاسفة، وعلماء اللاهوت، والسياسيين. الذين ناقشوا الموضوع طيلة قرون. "يعود تاريخ وجودنا إلى إبراهيم عندما كان في التاسعة والتسعين من العمر فتجلّى له الله وأقام عهداً معه، خالقاً الشعب المختار. أولئك الذين يرثون أرض كنعان. ولكن لسوء الحظ، فقد أوتينا هذا الفخر مع مسؤولية معيَّنة."

وكان بإمكانه ملاحظة اهتمام الفتى بالموضوع.

"هل قرأت يوماً الكتاب المقدَّس؟"

فهزّ غاري رأسه نافياً.

"يُفترَض بك القيام بذلك، فهو كتاب عظيم. لقد منح الله الإسرائيليين نعمته ليصبحوا الشعب المختار. ولكن ما كان يحدّد مصيرهم في النهاية هو استجابتهم لتلك النعمة."

"ماذا حصل؟"

"يقول العهد القديم إنهم تمرّدوا على الله، وقدّموا البخور لآلهة أخرى، ووثقوا بالأصنام لتأمين الحظ السعيد لهم، وتبعوا إملاءات قلوبهم. لذلك شتّتهم الله بين الشعوب غير اليهودية الأخرى عِقاباً لهم."

"ألهذا السبب يكرههم الناس؟"

وكان قد انتهى من إقفال أزرار عباءته وقال، "يؤسفني أن أقول ذلك، ولكن اليهود تعرّضوا للاضطهاد منذ ذلك الزمن."

"يبدو أن لله مشيئة معيّنة."

"إن إلّه العهد القديم مختلف كثيراً عن إلّه العهد الجديد."

"لستُ واثقاً من أنني أحب الأول."

"لستَ الوحيد في ذلك." وتوقّف قليلاً. "كان اليهود أول من أصرّوا على أن الإنسان مسؤول عن تصرّفاته الخاصة، وإذا ساءت أحوال الحياة فالله غير مسؤول عن ذلك؛ إنه *خطأك*. وهذا ما جعلنا مختلفين. وذهب المسيحيون بهذه العقيدة أبعد من ذلك؛ فالإنسان هو الذي جنى على نفسه نفيَه من جنّة عدن، ولكن بما أن الله أحبّ الإنسان فقد افتدانا بدم ابنه. وإلّه اليهود هو إلّه غاضب، وتحقيق العدل هو هدفه. أما إلّه المسيحيين فهو إلّه رحمة. هناك فرق كبير بين الإلّهين."

"يُفترَض بالله أن يكون لطيفاً، أليس كذلك؟"

فابتسم، ثم نظر إلى أرجاء الغرفة الأنيقة؛ حان وقت التفكير بالأمور الجديّة. "قل لي، ما هو رأيك بما حدث في المقصورة؟"

"لست واثقاً من أن السيد هرمن سوف يكون ممتنّاً لك على احتجاز ابنته."

"تماماً كما أن والدَيك لم يُعجبهم ما حدث لك. ويكمن الفارق في أنها امرأة ناضجة وأنت مراهق."

"لِمَ يحدث كل هذا؟"

"أتصوّر أننا سنعرف ذلك قريباً."

فجأة فُتح باب غرفة النوم بقوة، واندفع ألفرد هرمن إلى الداخل بغضب. كان هو أيضاً يرتدي ثوباً احتفالياً قرمزيّ اللون مع ميداليّة ذهبية، وعباءته مزيّنة بخيط حريري أزرق.

"هل ابنتي لديك؟" قال هرمن ووجهه مملوء بالغضب.

فوقف ثورفالدسن وأجاب بشكل صارم. "أجل."

"ومن الواضح أنك على عِلم بأن هذه الغرفة مزوَّدة بأجهزة تنصّت."

"لا يحتاج هذا الأمر إلى قدر كبير من الذكاء."

كان بإمكانه رؤية ارتفاع حدة التوتر، وكان هرمن في موقف الضعيف.

"هنريك، لن أتحمّل هذا الأمر."

"ماذا تخطط للقيام به؟ هل تستدعي مخالب النسر للتعامل معي؟"

فتردّد هرمن. "هذا ما تريده، أليس كذلك؟"

اقترب ثورفالدسن منه. "لقد تخطّيت الحدود عندما اختطفتَ هذا الشاب." وأشار إلى غاري.

"أين مارغريت؟"

"في أمان."

"أنت لا تجرؤ على إلحاق الأذى بها."

"أجرؤ على القيام بكل ما يتطلّبه الأمر. أنت الذي يُفترَض بك أن تعرف ذلك وليس أنا."

كانت نظرات هرمن المحدّقة تتفرّس به غضباً. وكان يظنّ على الدوام بأن وجه هذا النمساوي الأعجف يصلح أن يكون وجه مزارع أكثر منه وجه أرستقراطي. "ظننتُ أننا صديقان."

"وأنا كذلك. ولكن من الواضح أن هذا الأمر لم يعنِ لك شيئاً عندما أخذت هذا الشاب من والدته ودمّرتَ مكتبة والده."

كانت الجلسة الأولى للجمعيّة على وشك الانعقاد، ولهذا السبب باح بهذا الأمر في ذلك الوقت بالذات وبعناية. فقد كان على هرمن، بصفته شاغل الكرسي الأزرق، إظهار الانضباط والثقة بالنفس. ولم يكن ليسمح أبداً بأن يكون الأعضاء على عِلم بالمآزق التي يواجه.

كما أنه لا يقدر أن يتأخر عن موعد انعقاد الجلسة.

"علينا الذهاب،" قال هرمن أخيراً. "لم ينتهِ الأمر بيننا بعد، يا هنريك."

"أوافقك الرأي. ليست سوى البداية بالنسبة إليك."

الفصل الخمسون

واشنطن، العاصمة

الساعة 1:30 بعد الظهر

"ألا تظننين أنك ضغطت كثيراً على دالي؟" سأل غرين ستيفاني.

كانت هي وكاسيوبيا تستقلّان سيارة غرين الفخمة وتجلسان في المقعد الخلفي الذي يعزله عن المقعد الأمامي لوح عازل للصوت من البلاستيك السميك. وكان غرين قد أقلّهما من وسط المدينة بعد مغادرتهما منزل دالي.

"ما كان ليتبعنا، وكان بإمكان هيذر ارتداء ملابسه وليس حذاءه. أشكّ في أنها تطاردنا بقدمَين عاريتَين وبدون سلاح."

لم يبدُ غرين مقتنعاً. "أفترض أن هناك هدفاً لحمل دالي على اكتشاف وجودكما هناك؟"

"أرغب في سماع ذلك أيضاً،" أضافت كاسيوبيا. "كان بإمكاننا الخروج دون أن يعرف بالأمر أبداً."

"ولولا ذلك، لبقيت مستهدَفة من قِبَله. بهذه الطريقة، عليه التزام الحذَر. أملك شيئاً يريده، وفي كافة الأحوال سيعقد صفقة معي."

وأشار غرين إلى نسخة كتاب 'إجراءات جدّيّة متصلّبة'. "ما أهميّة هذا الكتاب؟"

مدّت ستيفاني يدها إلى الحاسوب المحمول الذي كانت قد طلبت من غرين إحضاره. ووضعت إحدى الذاكرات الإصبعية في منفذ فارغ وأدخلت كلمة AUNT B'S في الحيّز المخصّص لكلمة السر.

"عرفتْ فتاتكِ كلمة المرور أيضاً. أليس كذلك؟" سألت كاسيوبيا.

فأومأت برأسها مؤكّدةً الأمر. "مطعم صغير في مريلاند يقصده دالي في كثير من الأحيان في عطلات نهاية الأسبوع. يقدّم طعاماً على الطريقة الريفية، وهي من المآكل المفضّلة لديه. لقد صعقني بغرابة أطواره ـ كنت أظن أنّ دالي من روّاد مطاعم الدرجة الأولى."

وأخذت الشاشة تعرض قائمة من الملفات لكل واحد منها تعريف من كلمة واحدة.

"أعضاء الكونغرس،" قالت.

ثم نقرت على أحدها.

"علمت أن دالي هو سيد التواريخ والأوقات. فعندما يمارس ضغطاً على أحد الأعضاء لكسب صوته في اقتراع ما، تكون لديه معلومات محدّدة عن كل مساهمة ماليّة نقديّة أُرسلت إليه. والغريب في الأمر أنه لم يوجّه الأموال مباشَرةً على الإطلاق. وبدلاً من ذلك، فإن الذين يقومون بهذا العمل القذِر هم الذين يمارسون الضغوط على أعضاء الكونغرس ويحسبون أنهم يؤدّون خدمات للبيت الأبيض. وقد حملني هذا الأمر على الظنّ بأنه يحتفظ بسجلّات. فليس لدى أي شخص ذاكرة قادرة على تخزين كل تلك المعلومات." وأشارت إلى الشاشة. "إليكما مثالاً على ذلك." وقامت بالعدّ. "أربع عشرة دفعة من المال لهذا الرجل يبلغ مجموعها مئة وسبعة وثمانون ألف دولار على مدى ست سنوات. وهنا تاريخ كل دفعة، ومكان حدوثها، والوقت الذي حدثت فيه بالتحديد." فهزّت رأسها. "لا شيء يخيف السياسي أكثر من التفاصيل."

"هل نحن بصدد الحديث عن رشاوى؟" سأل غرين.

فأومأت برأسها موافقة. "ودفعات مالية نقدية" 'ومصروف للجَيب'. ليست كافية للفت الانتباه ولكنها كافية لإبقاء خطوط الاتصال مفتوحة. أمر بسيط وبارع، ولكن ما يقوم دالي بجمعه وتعتمده إدارة البيت الأبيض الحالية يندرج في إطار الرأسمال السياسي. فقد تمكّنوا من تمرير بعض التشريعات الذكية."

حدّق دالي بالشاشة. "لا بد أن هناك مئة عضو أو أكثر من مجلس النواب."

"إنه فعّال، أُقِرّ له بذلك. المال يوزّع في كل مكان على الجانبَين الجمهوري والديمقراطي."

ودخلت إلى ملف آخر يعرض قائمة بأعضاء من مجلس الشيوخ، وكان عددهم ثلاثين تقريباً. "يملك أيضاً كادراً من القضاة الفدراليين. فهم يتورّطون بمشاكل مالية كغيرهم، ولديه معاونون هناك لمساعدتهم على الخروج منها. وقد التقيت بأحدهم في متشيغن وأفشى السر. كان على وشك الإفلاس عندما ظهر أحد أصدقائه ومعه المال. وشعر بوخز الضمير أخيراً لا سيّما بعد أن طلب منه دالي تطبيق القانون بطريقة خاصة. يبدو أنه كان ينظر في قضية يعتبر محاميها مساهماً في تمويل حزب كبير ويحتاج إلى حكم بالبراءة."

"المحاكم الفدرالية مرتع للفساد،" همهم غرين. "قلت هذا الأمر طيلة سنوات. إمنحي أحدهم منصباً مدى العمر وستقعين في مشاكل. كثير من النفوذ، وقليل من المراقبة."

ثم أمسكت بذاكرة إصبعية أخرى. "إن إحدى هاتَين الذاكرتين كافية لمقاضاة العديد من هؤلاء النسور الأميركيين."

"يا له من وصف بليغ."

"إنهم أصحاب الرداء الأسود. يبدون كالنسور الجاثمة على غصن كبير، ينتظرون تجريد إحدى الجيف من لحمها."

"قلة احترام لسلطتنا القضائية،" قال بابتسامة عريضة.

"الاحترام شيء يُستحَق."

"هل يمكنني التدخّل،" قالت كاسيوبيا. "لِمَ لا نُعلن الأمر على الملأ للفت الانتباه؟ ليست الطريقة التي أعالج فيها الأمور عادةً، ولكنها تبدو لي مناسِبة في هذه الحالة."

فهزّ غرين رأسه بعدم الموافقة. "كما ذكرتِ في وقت سابق، لا أعرف الكثير عن الإسرائيليين، وأنت لا تعرفين جهاز العلاقات العامّة في هذه الإدارة كذلك. إنه سيّد التلفيق. يمكنهم التعتيم على القضية لدرجة طمسها، وقد نفقد دالي والخائن معاً."

"إنه مُحِق،" قالت ستيفاني. "لن تنجح تلك الطريقة. علينا القيام بالأمر بأنفسنا."

توقفت السيارة بسبب زحمة المرور وأخذ هاتف غرين النقّال يرن بإيقاع

منخفض. فمدّ يده إلى جَيب بنلته، وأخرج الجهاز وتفحّص شاشته. "قد يكون هذا الاتصال مثيراً للاهتمام." فضغط على زرّين وتحدّث بمكبّر الصوت الخاص بالهاتف. "كنت أنتظر اتصالك."

"أراهن على نلك،" قال دالي.

"يبدو أنني قد أخيّب أملك في شأن نلك الصندوق في فرمونت بالرغم من كل شيء."

"هذا سرّ الشطرنج، يا برنت. كل نقلة هي مغامرة بحد ذاتها. حسناً، أنت بارع، فقد كانت تسديدتك جيدة."

"عليك أن تقرّ ببراعة ستيفاني."

"أنا واثق من أنها برفقتك، تسديدة جيّدة، يا ستيفاني."

"على الرَّحب والسَّعة، يا لاري."

"لا يبدّل هذا الأمر شيئاً،" أوضح دالي. "ما يزال هؤلاء العناصر النين أشرتُ إليهم في الملفات في حالة من الهيجان."

"يجب أن تعمل على تهدئتهم،" قالت ستيفاني.

"هل تريدين التحدث؟" سأل دالي.

همّت ستيفاني بالكلام، ولكن غرين رفع يده طالباً منها التوقف. "وما الفائدة من نلك؟"

"قد تكون كبيرة. هناك كثير من الأمور على المِحك."

لم يكن بإمكانها الامتناع عن الكلام. "أكثر من غبائك؟"

"أكثر بكثير."

"لقد كنبت عندما قلتَ إنك لا تعرف شيئاً عن لغز الإسكندرية، أليس كنلك؟" سأل غرين.

"'كنبت' هي كلمة قاسية جداً. لقد قمتُ، بالأحرى، بالتكتّم عن وقائع لصالح الأمن الوطني. ألهذا السبب يجب أن أدفع الثمن؟"

"أظن أن ما تقوله منطقي إذا ما أخذنا الظروف بعين الاعتبار."

وكانت ستيفاني تعلم أن دالي يُدرك أنهم قادرون على نشر أسراره متى شاؤوا. فلديها ولدى غرين معارف في وسائل الإعلام يرغبون دوماً في تشويه سمعة الإدارة.

"حسناً،" قال دالي بإذعان تام. "كيف تريدان حل المسألة؟"

كانت ستيفاني تعرف الجواب. "في العلانية، بحضور الكثير من الناس."

"ليست الفكرة جيدة."

"إنها الطريقة الوحيدة التي سنعتمدها."

وبقي مكبّر الصوت هادئاً للحظات قبل أن يقول دالي، "قُولي لي أين ومتى؟"

الفصل الحادي والخمسون

لِشبونة

الساعة 7:40 مساءً

استيقظ مالون من نومه واتّخذَ وضعية الجلوس مُسنداً ظهره إلى جدار حجري غير مُستوٍ.

"لقد تخطّى الوقت السابعة والنصف،" همست بام في أُذنه.

"منذ متى وأنا نائم؟"

"ساعة."

لم يكن بإمكانه رؤية وجهها لأن الظلام الدامس كان يلفّهم. وتذكّر الحالة التي كانوا عليها. "هل كل شيء جيّد في الأعلى؟" قال بهدوء لماك كولوم.

"جيّد وهادئ."

كانوا قد غادروا الكنيسة قبل الخامسة بلحظات وأسرعوا إلى المكان العُلوي لجوقة الترتيل حيث يوجد مخرج آخر يؤدي إلى رواق معمَّد مسقوف. كان الزائرون يبطئون في المغادرة، مستفيدين من الشمس في ذلك الوقت المتأخر من فترة بعد الظهر لالتقاط قليل من الصور الأخيرة للزخرفات الوافرة التي تعتمد الأسلوب المغربي. ولم تكن الشُّرفة العُلوية توفّر لهم أي ملاذٍ آمن، ولكنهم كانوا قد عثروا على أحد عشر باباً خشبياً على امتداد الجدار الشمالي للكنيسة في الطابق الأرضي. وكان هناك مُلصَق إعلاني يشرح أن الأماكن المتراصّة كانت تُستخدَم كحُجرات للاعتراف.

وبالرغم من أن أبواب حُجرات الاعتراف الإحدى عشرة كانت مُقفَلة، فقد

تمكّن ماك كولوم من فتح أحدها بفضل ثقب موجود تحت المزلاج. ومن الواضح أنه كان هناك عَيب في صناعة القفل، وأن الثقب كان سبيل الفريق إلى بلوغ المدخل. وقد استخدم ماك كولوم سكّيناً مثيراً للإعجاب كان في جَيبه لحمل المزلاج على الانزلاق، وأعاد إقفاله بعد دخولهم. لم يكن مالون يعرف أن الرجل مسلّح، فمن غير الممكن أن يكون قد حمل السكين على متن الطائرة، ولكن ماك كولوم كان يحمل معه حقيبة صغيرة في مطار لندن وضعها في ما بعد في خزانة صغيرة في مطار لِشبونة. وكان مالون قد وضع أيضاً في خزانة في لِشبونة الحقيبة التي وجدها في شقة حدّاد. لكن عدم ذكر ماك كولوم للسكين رفع مستوى الارتياب لدى مالون.

داخل حجرة الاعتراف، كان الستار الحديدي المؤلَّف من قضبان متصالبة يفتح على حُجرة صغيرة أخرى مُظلمة. ويؤدّي باب في الغرفة الأخرى إلى داخل الكنيسة، فيستطيع التائب الدخول منه. وكانت الستارة تفصل بين المكانَين لإضفاء طابع من السرّيّة على الاعتراف.

كان مالون كاثوليكيّ النشأة، فتذكّر طريقة مماثلة للاعتراف في كنيسته، وإن كانت أكثر بساطة. ولكنه لم يفهم أبداً سبب عدم السماح له برؤية الكاهن الذي كان يُحلّه من خطاياه. وعندما سأل الراهبات عن الأمر، قُلنَ له إن الفصل أمر مطلوب وإن قصد الكنيسة الكاثوليكية نبيل، ولكنهنّ لم تشرحنَ السبب، ممّا يفسّر إلى حدّ ما سبب عدم ممارسته الطقوس الدينية.

ألقى نظرة سريعة على الميِنا المشعّة لساعة بام، وكانت تشير إلى حوالى الثامنة مساءً. ما زال الوقت مُبكِراً، ولكن الموقع كان قد أُقفل منذ ثلاث ساعات.

"هل هناك أي حركة في الخارج؟" سأل ماك كولوم بلطف.

"لا أسمع أي صوت."

"لننتهِ من هذا الأمر،" همس في الظُّلمة. "لا فائدة من الجلوس هنا بعد الآن."

وسمع صوت انطلاق نَصل سكّين ماك كولوم، ومن ثمّ احتكاك أداتَين حديديّتَين.

ثم فُتح باب حُجرة الاعتراف.

وقف مالون على قدمَيه ولكن كان عليه أن ينحني قليلاً بسبب انخفاض السقف.

فتح ماك كولوم الباب إلى الداخل، وخرجوا إلى الشُّرفة السُّفلية وتنشّقوا هواء

الليل البارد بعد قضاء ثلاث ساعات في ما يشبه الخزانة. وكانت الشموع المتوهّجة تحترق بهدوء على امتداد الرواق المعمّد والمسقوف في الشرفات العُلويّة والسُّفليّة، وكانت الزخرفة المُتقَنة القائمة بين القناطر غارقة في الظلال ولم يكن بالإمكان مشاهدة التفاصيل.

اتّجه مالون نحو القنطرة الأقرب وحدّق بسماء الليل، وكانت ظُلمة الرواق أكبر في هذه الليلة الخالية من النجوم.

ثم توجّه مباشَرةً نحو الدَّرَج المؤدّي إلى المكان العُلوي لجوقة الترتيل، وأمل في أن يكون الباب الذي يفتح على الكنيسة ـ ذلك الذي كان قد استخدمه في وقت سابق لبلوغ هذا المكان انطلاقاً من صحن الكنيسة ـ مفتوحاً.

وسُرَّ عندما وجد أنه ما زال مفتوحاً.

كان صحن الكنيسة هادئاً كالمقبرة.

وكان الضوء الواقع على الواجهة الخارجية يغمر النوافذ الزجاجية الملوَّنة. وكان هناك عدد قليل من المصابيح الكهربائية الخافتة التي تخترق الظلام الدامس في المكان السُّفلي لجوقة الترتيل فقط.

"هذا المكان مختلف في الليل،" قالت بام.

فوافقها الرأي وازداد حذَره.

واتّجه مباشَرةً نحو هيكل الكنيسة وقفز فوق الحبال المخمليّة. عند المذبح المرتفع، تسلّق خمس قوائم من الدَّرَج ووقف أمام بيت القربان.

ثم استدار وركّز نظره على المكان العُلوي لجوقة الترتيل في طرف الكنيسة.

كانت قُزحيّة النافذة الورديّة بلونها الرمادي الشاحب تحدّق به، وقد باتت غير زاخرة بالحياة التي تمدّها بها الشمس.

ويبدو أن ماك كولوم قد توقّع مُسبَقاً ما هو بحاجة إليه فظهر إلى جانبه حاملاً شمعة وعيدان ثِقاب. "تبرّعات للكنيسة، وجدتها في الخلف بقرب جُرن المعمودية. لقد شاهدتها في وقت سابق."

أمسك مالون بالشمعة وأضاء ماك كولوم الفَتيل. وقرّب الضوء الخافت من بيت القربان وتأمّل الصورة الموجودة على الباب.

كانت الصورة لمريم وهي جالسة والطفل في حِضنها، ويوسف وراءها،

والثلاثة مكلّلون بهالات من نور. وكان هناك ثلاثة رجال مُلتحون يقدّمون الولاء، أحدهم راكع أمام الطفل. ويقوم ثلاثة رجال آخرين بالتحديق به، يرتدي أحدهم بطريقة غريبة قبعة تبدو وكأنها خوذة عسكرية. وفي أعلى الصورة حيث الغيوم تتفرّق يوجد نجمة تشعّ برؤوسها الخمسة.

"ميلاد السيد المسيح،" قالت بام من وراء مالون.

فوافقها الرأي وقال: "يبدو الأمر كذلك بالتأكيد. المجوس الثلاثة يتبعون النجم، وهم قادمون لتسبيح المولود الجديد الملك."

وتذكر الضالّة وما يُفترَض بهم البحث عنه هنا حيث تحوّلت الفضّة إلى ذهب. ʼجِد *المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر*ʻ.

لُغز ينطوي على تحدٍّ.

"ينبغي علينا أن نخرج من هنا، ولكننا نحتاج أيضاً إلى صورة لهذا المشهد. بما أن أحداً لا يحمل آلة تصوير، هل هناك أية أفكار؟"

"بعد أن اشتريت البطاقات،" قال ماك كولوم، "صعدتُ السُلّم. ووجدت هناك متجراً للهدايا مليئاً بالكتب والبطاقات البريدية. لا بد من وجود صورة هناك بالتأكيد."

"فكرة جيدة،" قال. "افتح لنا الطريق."

صعد سابر الدَّرَجات إلى الشرفة العُلوية، مسروراً لقيامه بالخيار الصحيح. فعندما عهد إليه ألفرد هرمن بمهمة العثور على المكتبة، قام بوضع مخطّطه النهائي في عقله، وقد ساعدته عملية التخلّص من فريق المراقبة الإسرائيلي في ألمانيا على تعزيز مسيرته.

وما كان هرمن ليُجيز أبداً استفزاز اليهود عَمداً، وكان من المستحيل على سابر تقديم شرح له عن ضرورة حدوث هذه الجرائم لأن من شأن هذه الخطوة الإخلال بالتوازن في الأيام القليلة التي هو بحاجة إليها لتحقيق هدفه.

هذا إذا كان الأمر ممكناً.

ولكن لعله كذلك.

وما كان ليكتشف معنى ضالّة البطل بمفرده، ولو أشرك أي شخص آخر غير مالون لأدّى ذلك إلى تفاقم فرص افتضاح الأمر. ومع ذلك، فقد كان اتخاذ مالون حليفاً مفترَضاً له هو المسار العملي الوحيد.

كانت الخطوة محفوفة بالمخاطر، ولكن ثبُت أنها مُثمرة. يبدو أنه وجد حلاً لنصف الضالّة.

صعد إلى قمّة الدَّرَج ودخل الشرفة العُلويّة، واستدار إلى اليسار وسار نحو مجموعة من الأبواب الزجاجية مباشَرةً، وكانت دخيلة على محيطها العائد للعصور الوسطى. كان هاتفه النقّال داخل جَيب بنطاله قد سجّل بصمت ورود أربعة اتصالات من ألفرد هرمن. وكان قد فكّر في الاتصال بالرجل المُسنّ وتهدئة قلقه، ولكنه رأى أن الأمر سيكون ضرباً من الغباء. وكانت تتنازعه أسئلة عديدة، ولم يكن قادراً إلّا على إيجاد القليل من الإجابات عنها. فقد درس الجماعة لمدة طويلة، ولا سيّما ألفرد هرمن، معتقداً أنه فهم نقاط القوة والضعف لديهم.

فقد كان الأعضاء جميعهم تجّاراً قبل أي شيء آخر.

ولا مفر لجماعة الجزّة الذهبية من أن تعقد اتفاقاً معه قبل ابتزاز الإسرائيليين، أو العرب، أو الأميركيين. ولن يكون أجره بخِساً.



تبع مالون بام وماك كولوم إلى الشرفة العُلوية ذات القناطر المضلّعة، مذهولاً بالمهارة الحِرَفيّة التي كانت وراء إنشائها. وانطلاقاً من المعلومات القليلة التي سمعها من المرشدين السياحيِّين في وقت سابق، فإن الرهبنة الجيرومية التي امتلكت الدَّير عام 1500 كانت مجموعة غير منفتحة على العالم الخارجي، مكرَّسة للصلاة والتأمل والتفكير الإصلاحي، ولم يُعهد إليها أي مهمة تبشيرية أو رعويّة. وقد ركّزت بدلاً من ذلك على عيش حياة مسيحية نموذجيّة من خلال العبادة الإلَهية على غرار شفيعهم القديس جيروم نفسه، والذي كان مالون قد قرأ عنه في الكتاب الذي أخذه معه من باينبريدج هول.

وتوقفوا أمام أبواب زجاجية كانت تشكّل واجهة تحت قنطرة مُتقَنة لمتجر الهدايا.

"لا يمكن أن يكون مزوَّداً بجهاز إنذار،" قال ماك كولوم. "ما الذي يخشون سرقته؟ تنكارات؟"

كانت الأبواب مؤلَّفة من ألواح زجاجية سميكة مزيّنة بمفصلات معدنية سوداء ومقابض من الكروم.

"إنها تفتح إلى الخارج،" قال مالون. "لا يمكن دفعها إلى الداخل. تبلغ سماكة هذا الزجاج نصف إنش."

"لِمَ لا تتحققان من الأقفال، فلعلها غير مقفلة؟" قالت بام.

فأمسك مالون بأحد المقابض وشدّه باتجاهه.

ففُتح الباب.

"أُدرك السبب الذي يحمل زبائنكِ على تقدير رأيك حق قَدْره."

"ما الجدوى من إقفالها؟" قالت له. "هذا المكان قلعة حصينة، وهو مُحِقّ: ماذا يوجد لسرقته؟ فقيمة الأبواب نفسها أكبر من قيمة البضاعة."

ابتسم للمنطق الذي تعتمد. وكانت قد استعادت بعضاً من تصرّفاتها الفظّة، ولكنه كان سعيداً؛ فهذا الأمر يساعده على المحافظة على صرامته.

ودخلوا إلى المكان. ذكّره المكان المُظلم الذي يحمل رائحة العفَن بكرسي الاعتراف. لذلك، فتح الباب على مداه وثبّته بالوضعيّة التي يفترض أن يكون عليها عندما يدخل الزائرون المتجر ويخرجون منه طوال اليوم.

وبعد إجراء مسح بصري سريع على المكان، قدّر مساحة المتجر بحوالى عشرين قدَماً مربَّعاً، مع ثلاث خزائن مرتفعة لعرض السِّلع مُسنَدة إلى أحد الجدران، ورفوف للكتب مثبَّتة على الجدارَين الآخرَين، ومِنضدة وصندوق نقد موضوع بإزاء الجدار الرابع. وكان هناك مِنضدة مستقلّة منفصلة محمّلة بالكتب تحتل وسط المتجر.

"نحتاج إلى ضوء،" قال.

فاقترب ماك كولوم من زوج آخر من الأبواب الزجاجية تؤدّي إلى بيت دَرَج مُظلِم. وكانت ثلاثة مفاتيح كهربائية تنتأ من الجدار.

"نحن داخل الدَّير،" قال مالون. "لن يرى أحد الضوء خارج جدران الدَّير. ومع ذلك، لنُضئ الأنوار ونُطفئها بسرعة ونرَ ما الذي يحدث."

ضغط ماك كولوم على أحد المفاتيح، فأضاءت أربعة مصابيح هالوجينية

الخزائن الزجاجية. وكانت إضواؤها ترسل أشعّة مكثّفة نحو الأسفل، وتشكّل إضاءة كافية.

"هذا سيفي بالغرَض،" قال. "لنعْثر الآن على أشياء تحمل صوراً."

كان يوجد فوق المِنضدة الوسطى مجموعة من الكتب المجلّدة باللغتَين البرتغالية والإنكليزية وتحمل كلّها عنواناً واحداً هو نَير جيرونيموس للقديسة مريم. كانت الصفحات مصقولة تحمل كثيراً من النصوص، والصور أيضاً. كان هناك كتابان أقل سماكة بالقرب منها يحتويان على صور أكثر مما يحتويان على نصوص. فقلّب صفحات كتب المجموعة الأولى بينما كانت بام تتصفّح المجموعة الأخرى. وقام ماك كولوم بتفحّص الرفوف الأخرى. وبعد تقليب صفحات ثلاثة أرباع الكتب، عثر مالون على صورة ملوّنة لجانب من هيكل الكنيسة يظهر فيها الباب الفضّي لبيت القربان.

وجّه الكتاب نحو الضوء، وكانت الصورة الفوتوغرافية لمنظر قريب يحتوي على كثير من التفاصيل. "وجدتها."

وقرأ المزيد عن بيت القربان، محاولاً التحقق ممّا إذا كانت المعلومات مفيدة، وعلِم أنه مصنوع من الخشب المغلّف بالفضّة. وكان تركيزه في هيكل الكنيسة يتطلب إزالة اللوحة القائمة في وسط الصف السُّفلي، ممّا يفسّر اختفاءها. وقد حُفرت صورة تلك اللوحة المفقودة على باب بيت القربان، مكمّلةً مجموعة اللوحات التي تتناول التجلّي. وتُظهر الصورة المحفورة غاسبار، أحد الرجال الحكماء، وهو يبجّل المولود الجديد. كما ذكر الكتاب أن التجلّي كان يُعتبَر بمثابة خضوع الإنسان الدّنيويّ للمشيئة الإلهيّة، ويرمز الرجال الحكماء الثلاثة إلى أنحاء العالم التي كانت معروفة آنذاك ـ أوروبا، وآسيا، وأفريقيا.

عندئذ وجد المقطع المثير للاهتمام:

> 'قيل إن ظاهرة غريبة حدثت في أوقات معيّنة من السنة عندما اخترقت أشعّة الشمس الكنيسة بطريقة غير عاديّة. فعلى امتداد عشرين يوماً قبل حلول الاعتدال الربيعي، وثلاثين يوماً بعد الاعتدال الخريفي، كانت أشعة الشمس الذهبية الداخلة من الغرب تمر في المكان المخصّص للكورس وبالكنيسة في خط مستقيم، غامرةً مسافة 450 خطوة وصولاً إلى بيت القربان، وذلك اعتباراً من ساعة الصلاة

المسائية حتى غروب الشمس، محولةً لونها الفضّي إلى ذهبي. ومنذ زمن طويل، لاحظ أحد كهنة بيليم في الأبرشية، وكان طالباً مُحِباً للتاريخ، أن "الشمس تبدو وكأنها تستأذن خالقها الكف عن تأدية هذه المهمّة الشهيرة لمدة الساعات القليلة أثناء الليل، واعدةً بالعودة ثانيةً والشروق عند الفجر."'

قرأ لهم المقطع، ومن ثمّ قال، "يبدو أن الحرّاس ماهرون جداً."

"وتوقيتهم جيّد،" قالت بام. "فقد مرّ أسبوعان على الاعتدال الخريفي."

نزع الصورة من الكتاب وأخذ يفكّر في ما تبقّى من التلميح. '"*جِد المكان الذي هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر.*"'

"كوتون، سبق لك أن تخيّلت الرابط بالتأكيد."

لقد تخيّله بالفعل وكان مسروراً بأن عقل بام يعمل أيضاً.

"'حيث يلاقي نجم مختبئ وردة، ويثقب صليباً خشبياً، ويحوّل الفضة إلى ذهب. جِد المكان."' وأشارت بام إلى الصورة المقتطَعة من الكتاب. "باب بيت القربان؛ بيت لحم؛ ميلاد السيد المسيح؛ هذه بيليم. تذكّر ما قرأنا بعد ظهر اليوم في لندن: إنها الترجمة البرتغالية لبيت لحم. وماذا كتب حدّاد؟ إن الأبحاث العظيمة تبدأ بتجلٍّ في غالب الأحيان."

"أظن أنكِ سوف تحصلين في النهاية على المخاطرة التي تتمنّين،" قال لها.

وفي تلك اللحظة سمعوا صوت تحطم زجاج في البعيد.

"الصوت صادر من الرواق المعمّد المسقوف،" قال ماك كولوم.

اندفع مالون نحو المفتاح الكهربائي وأطفأ مصابيح الهالوجين. فغمرتهم الظلمة من جديد، وأحس أن عينيه بحاجة إلى لحظات قليلة للاعتياد على الظُلمة. وسُمع صوت تحطّم آخر.

فزحف نحو الباب المفتوح وحدّد اتجاه الصوت: الزاوية المنحرِفة عبر الرواق، في الجهة البعيدة، وفي الطابق السُفلي.

وعاين حركة في الظلمة الجزئية، وشاهد ثلاثة رجال يندفعون من مجموعة أخرى من الأبواب الزجاجية.

والكلّ يحمل سلاحاً.

وينتشرون على الشرفة السُفليّة.

الفصل الثاني والخمسون

واشنطن، العاصمة

الساعة 2:45 بعد الظهر

سلّمت ستيفاني المُرافق بطاقتها ودخلت إلى المتحف الوطني للفضاء. لم يكن غرين قد رافقهما لأن وجود المدّعي العام في هذا المكان العام لا يمكن أن يمّر دون ملاحظة من أحد. وكانت ستيفاني قد اختارت مكان اللقاء بسبب الجدران العديدة والشفّافة في المبنى، وبسبب شهرته بأنه المتحف الأكثر تلقّياً للزيارات في العالم، ووفرة الموظّفين الأمنيّين، وأجهزة الكشف عن المعادن. وكانت تشك في قدرة دالي على الاستعانة في ظل هذه الظروف بأي جهة رسمية من شأنها أن تؤدّي إلى طرح أسئلة غير مريحة، ولكنه قد يصطحب معه هينر ديكسون وشركاءه العرب الجدُد.

شقّت طريقها عبر الحشود وألقت نظرة سريعة على الأجنحة الثلاثة الداخلية الطويلة التي يتألّف منها المتحف والمصنوعة من الفولاذ والرخام والزجاج. وكانت السقوف تسمو على ارتفاع مئة قدَم تقريباً، مُحدثةً تأثيراً يُنكَر بحظيرة الطائرات، وعارضةً لتاريخ من الطيران بدءاً بالأخوَين رايت ومروراً بـ روح القديس لويس في ليندبرغ، وانتهاءً بالسفينة الفضائية أبولو 2 *التي* غزت القمر.

"كثير من الناس،" همهمت كاسيوبيا.

مرّتا بالقرب من مسرح أيماكس IMAX ورتل عريض من الزائرين المنتظمين، ودخلتا قاعة الفضاء المليئة بالحشود. كان دالي واقفاً بقرب نموذج مماثل لمركبة قمرية شبيهة بالعنكبوت، موضوعة بالطريقة عينها كما لو أنها على سطح القمر، وعلى درجها الذي يشكل ركائز هبوطها يقف أحد روّاد الفضاء بشكل متوازن.

وكان دالي يبدو هادئاً ومفكّراً، ولم تنجُ أي شعرة من رأسه من زيت الشعر الذي يدهن به رأسه.

"استعددتَ ثيابك،" قالت له وهما تقتربان منه.

"لقد استهنت بكِ، يا ستيفاني. إنه خطئي، ولن أكرّره ثانيةً."

"هل تركتَ كل مرافقيك في المنزل؟" فقد كانت تعلم أن دالي نادراً ما يذهب إلى أي مكان دون حراسه الشخصيين.

"كلهم باستثناء واحد."

وأشار إليه، فاستدارت هي وكاسيوبيا. وظهرت هيذر ديكسون من الجانب الأبعد لمعرض سكايلاب.

"الاتفاق ملغى، يا لاري،" قالت له.

"تريدين معلومات عن لغز الإسكندرية؟ إنها هي التي ستزوّدك بما تحتاجين إليه من معلومات."

سارت ديكسون الهوَيْنى بين الحشد، متّجهةً نحوهم. وكان هناك مجموعة من الأطفال الكثيري الصخَب مسمَّرين أمام المركبة القمرية، معانقين السياج الخشبي الذي يلتفّ حول مكان العرض. واقتادهم دالي إلى مكان قريب من ممرّ ضيّق موازٍ لجدار زجاجي كانت تقوم وراءه الكافتيريا الخاصة بالمتحف.

"ما زلت في عداد الأموات،" قالت لها ديكسون.

"لم آتِ إلى هنا لأتلقّى تهديداتك."

"وأنا هنا فقط لأن حكومتي قد أمرتني بذلك."

"لنبدأ بالأشياء المهمّة،" قال دالي.

أخرجت ديكسون أداة إلكترونية بحجم الهاتف النقّال وشغّلتها. وبعد ثوانٍ قليلة هزّت رأسها. "غير مجهَّزتَين بأجهزة تنصّت."

كانت ستيفاني تعلم كيفية عمل الجهاز. وكان عملاء ماجيلان بيليت يستخدمونه بشكل روتيني. فالتقطت الأداة ووجّهتها نحو ديكسون ودالي.

وكانت النتيجة سلبية أيضاً.

فأعادتها لديكسون. "حسناً، بما أننا بمفردنا فلنتحدّث."

"أنت خبيثة،" قالت ديكسون.

"عظيم. هل يمكننا التطرّق الآن إلى صلب الموضوع في هذه المسرحية؟"

"باختصار وببساطة،" قال دالي. "منذ ثلاثين سنة، كان جورج حدّاد يقرأ صحيفة عربية يوميّة، ويجري بحثاً حول أسماء الأماكن في إحدى الدول العربية، ومترجماً إياها إلى اللغة العِبرية القديمة. لماذا كان يفعل ذلك، لا فكرة لديّ عن الموضوع. يبدو أنه كان يراقب الحبر يجفّ. ولكنه بدأ يلاحظ أن بعض هذه المواقع مذكورة في الكتاب المقدّس."

"العبرية القديمة لغة صعبة،" قالت كاسيوبيا. "ليس فيها حروف علّة، ويصعب ترجمتها، وهي مليئة بالإبهامات. عليك أن تعرفي ما تقومين به."

"هل أنت خبيرة؟" سألت ديكسون.

"بالكاد."

"حدّاد خبير،" قال دالي، "وإليكما المشكلة. هذه الأماكن التي لاحظها والتي تحمل أسماء مذكورة في الكتاب المقدّس، كانت تقع في قطعة أرض مستطيلة بطول أربعمئة ميل وعرض ميل واحد موجودة في الناحية الغربية من هذه الدولة."

واستطرد دالي قائلاً، "لقد أمضى حدّاد سنوات يتفحّص مواقع أخرى بعناية دون أن يعثر في أي مكان آخر من العالم على تجمّع مماثل للأماكن التي تحمل أسماء عبرية قديمة، بما في ذلك فلسطين نفسها."

أدركت ستيفاني أن العهد القديم كان سجلاً لأحداث ماضية مرّ بها اليهود الأقدمون. لذا، فإذا كانت أسماء الأماكن الموجودة في تلك الدولة العربية في الوقت الحاضر هي مواقع مذكورة في الكتاب المقدّس بالفعل بعد ترجمتها إلى العبرية القديمة، فقد يكون لذلك تداعيات سياسية هائلة. "هل تقصد أنه لم يكن هناك يهود في الأرض المقدّسة؟"

"بالطبع لا،" قالت ديكسون. "كنّا هناك. كل ما يقوله إن حدّاد اعتقد أن العهد القديم كان سجلاً للممارسة اليهودية في هذه المنطقة العربية. وذلك قبل أن يهاجر اليهود شمالاً إلى ما يُعرَف حالياً بفلسطين."

"هل أتى الكتاب المقدّس من تلك المنطقة العربية؟" سألت ستيفاني.

"إنها إحدى التكهّنات،" قال دالي. "لقد تمّ التثبّت من استنتاجات حدّاد عندما

بدأ يقارن بين الأماكن الجغرافية. ولأكثر من عقد من الزمن، حاول علماء الآثار العثور في فلسطين على مواقع تنسجم مع الأوصاف المذكورة في الكتاب المقدّس، ولكن أيّاً من المواقع الجغرافية لم تكن مطابقة لتلك الأوصاف. واكتشف حدّاد أنكِ إذا قارنتِ الأماكن المذكورة في الكتاب المقدّس بمواقع في هذه الدولة، وذلك بعد ترجمتها إلى العبرية القديمة، فإن المواقع تتطابق مع بعضها البعض."

كانت ستيفاني ما تزال متشكّكة. "لِمَ لم يلاحظ أحد هذا الأمر من قَبْل؟ فمن المؤكّد أن حدّاد ليس الشخص الوحيد الذي يفهم العبرية القديمة."

"لقد لاحظ آخرون ذلك،" قالت ديكسون. "ثلاثة أشخاص، بين عامَي 1948 و2002."

ولاحظت ستيفاني الحزم في نبرة ديكسون. "ولكن حكومتك تدبّرت أمرهم؟ لهذا السبب كان من الواجب قتل حدّاد؟"

لم تُجِب ديكسون.

فوضعت كاسيوبيا حدّاً لصمت دام لحظات. "كل هذا عائد إلى الادّعاءات المثيرة للنزاع، أليس كذلك؟ أقام الله عهداً مع إبراهيم ومنحه الأرض المقدّسة. ويقول سفر التكوين إن العهد إلى اليهود مرَّ عبر إسحاق ابن إبراهيم."

"طيلة قرون من الزمن،" قال دالي، "جرى الافتراض بأن الأرض التي حدّدها الله لإبراهيم ليست سوى ما يُعرَف الآن بفلسطين. ولكن، ماذا لو لم يكن هذا واقع الحال؟ ماذا لو كانت الأرض التي حدّدها الله في مكان آخر؟ في مكان ما بعيد عن فلسطين؟"

فضحكت كاسيوبيا في سرّها. "إنك غريب الأطوار. جذور العهد القديم هناك؟ في قلب المنطقة العربية؟! منذ بضع سنوات، أثارت فصائل من المسلمين الشغَب في مختلف أنحاء العالم بسبب صور كاريكاتورية تتناول النبي محمد. هل يمكنك تخيّل ما قد تكون ردة فعلهم إزاء هذا الأمر؟"

بدا دالي ثابتاً على موقفه. "لهذا السبب يريد العرب والإسرائيليون حدّاد مَيتاً. فقد قال إن ما يُثبت صحة نظريّته موجود في مكتبة الإسكندرية المفقودة، وقال له شخص ما يُدعى 'الحارس' إن الأمر هو كذلك."

"كما كانت حال أولئك الأشخاص الثلاثة الآخرين،" قالت ديكسون. "فقد تلقّى كل منهم زيارة من قِبَل مُرسَل يُدعى 'الحارس' عرض عليه طريقة للعثور على المكتبة."

"ما قد يكون نوع البرهان؟" سألت ستيفاني.

بدا دالي نافد الصبر. "منذ خمس سنوات، أطلع حدّاد السلطات الفلسطينية على اعتقاده بأنه يمكن استخدام مستندات قديمة للتحقق من صحة استنتاجاته. فقط نسخة من العهد القديم مكتوبة قبل زمن المسيح بالعبرية الأصليّة يمكن أن تحسم الجدَل. فلا تتوافر اليوم نسخة أقدم من تلك العائدة للقرن العاشر. وعلِم حدّاد من كتابات أخرى نجت من التلَف بوجود نصوص من الكتاب المقدّس في مكتبة الإسكندرية. وإن العثور على أحدها قد يكون الطريقة الوحيدة للتثبّت من صحة أي ادّعاءات."

تذكّرت ستيفاني ما قال لها غرين في وقت مُبكِر من صباح الثلاثاء. "لهذا السبب كان العرب خائفين. لم يكونوا راغبين في أن يتمّ اكتشاف أي شيء قد يكون مرتبطاً بالكتاب المقدّس اليهودي."

"ولهذا السبب يريدونك الآن مَيتة،" قالت ديكسون. "إنك تتدخّلين في أعمالهم. لن يجازفوا بالتغاضي عن كل ما من شأنه التسبّب بفشل مخطّطهم."

حدّقت ستيفاني بقاعة الفضاء. وكانت الصواريخ المعروضة تبلغ السقف، وتلامذة المدارس المنفعلين يشقّون طريقهم بين الأشياء المعروضة. ثم حدقت بديكسون. "هل تصدّق حكومتك كل هذه الأمور؟"

"لهذا السبب قُتل أولئك الرجال الثلاثة، ولذلك تمّ استهداف حدّاد."

وأشارت إلى دالي. "إنه ليس صديقاً لإسرائيل، بل يريد استخدام كُل ما يعثر عليه، أيّاً يكن، لتركيع حكومتك."

فضحكت ديكسون. "ستيفاني، إنك تفقدين لمستك الاحترافية."

"لا ريب في أن هذا الأمر هو دافعه."

"لا تملكين أي فكرة عن دوافعي،" قال دالي، وقد ارتفع مستوى غضبه.

"أعرف أنك كاذب."

فحدّق بها دالي مُرتاباً. لقد بدا مُربَكاً إلى حدّ ما، وهو أمر تفاجأت به، لذا سألت، "ما الذي يحدث بالفعل، يا لاري؟"

"أكثر ممّا يمكنك تصوّره."

الفصل الثالث والخمسون

لِشبونة

الساعة 8:45 مساءً

انسحب مالون إلى داخل متجر الهدايا ولكنه أبقى نظره على الرجال الثلاثة المسلَّحين الذين كانوا يتقدّمون عبر الشرفة السُّفلية بحركة تُظهر أنهم مدرَّبون. محترفون، عظيم.

ثم لجأ إلى إحدى الخزائن الزجاجية المجاورة للباب المفتوح للاحتماء بها، وبام بجانبه، واستمرّ بإلقاء نظرة متفحّصة على الرواق المعمَّد المسقوف. وكان ماك كولوم جاثماً وراء طاولة الوسط.

"إنهم في الأسفل ونحن في الأعلى. يُفترَض بهذا الأمر أن يمنحنا دقائق قليلة. فالكنيسة والشرفات كبيرة، البحث وقتاً طويلاً. هل تلك الأبواب مُقفَلة؟" سأل ماك كولوم، مشيراً إلى المجموعة الأخرى من الأبواب الزجاجية المؤدّية إلى خارج المتجر.

"أخشى ذلك، فهي تؤدّي إلى الأسفل ومن ثمّ إلى الخارج. لذا عليهم إقفالها احتراساً."

لم يُعجبه موقعهم. "يجب أن نخرج من هنا."

"كوتون،" قالت بام، وكان انتباهه قد تحوّل إلى الوراء باتجاه الشرفة العُلوية. فقد خرج أحد الرجال من بيت الدَّرَج المؤدّي إلى الأسفل وشرع بالتقدّم نحو متجر الهدايا.

انسلّ ماك كولوم وراءه وهمس له، "خذها إلى صندوق النَّقد واختبئا وراء المنضدة."

إن أي شخص قادر على إطلاق النار على رَجلَين في رأسيهما والاستمتاع من ثمّ بطعام الفطور جدير بالاحترام. لذا، قرّر عدم المجادلة. فأمسك بام بذراعها واقتادها إلى الجانب البعيد من المنضدة.

ورأى ماك كولوم يغطّي السكين براحة يده.

وكانت الخزائن الزجاجية الثلاث موضوعة بجانب بعضها البعض مع فُسحة بين كل منها عريضة بما يكفي لتتّسع لماك كولوم. ومن المفترَض أن تحجبه الظُّلمة أيضاً، أقلّه حتى يفوت الأوان لقيام فريسته بردّة فعل.

وكان الرجل المسلّح يقترب.



كاد صبر ستيفاني ينفد حيال لاري دالي. "ماذا تعني 'أكثر ممّا قد يمكنني تصوّره؟"

"هناك بعض الأشخاص في الإدارة يريدون إثبات صحة نظرية حدّاد،" قال دالي.

وتذكّرت ما كان دالي قد قاله لبرنت غرين عندما ظنّ أنهما بمفردهما. "بمن فيهم أنت."

"هذا ليس صحيحاً."

لم تكن ستيفاني تصدّق ما يقول. "كُن واقعياً، يا لاري. أنت هنا فقط لأنني اكتشفت قذارتك."

لم يبدُ القلق على دالي. "حان وقت الحقيقة، يا ستيفاني. سيقوم إعلاميّونا بتحوير كل ما تقومين به ليغدو رواية مرتكزة على دليل ملفّق اختلقته موظفة خارجة عن السيطرة لإنقاذ وظيفتها. قد يكون هناك بعض الإحراج بالتأكيد، وبعض الأسئلة التي تطرحها وسائل الإعلام، ولكنك لا تملكين من الأدلّة ما يكفي لإذلالي أو إذلال أي شخص آخر. لم أُخبر أحداً بأي شيء. أولئك الذين يمارسون ضغوطاً؟ سوف تدخلين معهم في صراع مؤكّد. إنها معركة خاسرة بالنسبة إليك."

"ربما، ولكنك سوف تكون عرضة للأنظار. لقد انتهت حياتك العملية."

فهزّ دالي بكتفيه. "إنها أخطار المهنة."

كانت كاسيوبيا تتأمّل قاعة العرض، وشعرت ستيفاني بأنها قلِقة. لذا، قالت لدالي، "أُدخل في صُلب الموضوع."

"نريد الانتهاء من كل هذه المسألة." قالت ديكسون. "ولكن شخصاً ما داخل الإدارة يقف حجر عَثرة."

"هذا صحيح، إنه هو." وأشارت إلى دالي.

واتجهت كاسيوبيا نحو نموذج المركبة القمرية حيث كان المراهقون محتشدين حول قاعدته.

"ستيفاني،" قال دالي، "أنت تلومينني بسبب تسرّب معلومات عن لغز الإسكندرية، ولكنك لا تعرفين من هم أصدقاؤك وأعداؤك. أنت تكرهين هذه الإدارة. تظنّين أن الرئيس غبيّ، ولكن هناك آخرون أكثر سوءاً بكثير؛ أشخاص خطرون."

"لا،" قالت له. "جميعهم متعصّبون. إنهم موالون للحزب وقد شاركوا في التعتيم على ما يجري، وهم الآن في وضع يمكّنهم من القيام بأمر ما."

"وإسرائيل هي في رأس جدول أعمالهم في الوقت الحاضر."

"كفى ألغازاً، يا لاري. قل لي ما تريدني أن أعرف."

"إن نائب الرئيس هو وراء هذه المسألة."

هل سمعتْ بشكل صحيح؟ "كن واقعياً."

"لقد اتصل ببعض العرب الأثرياء، وكانوا يموّلونه منذ مدة طويلة. كان حاضراً في كل مكان: في الكونغرس لعدة دورات، وثلاث سنوات وزيراً للخزانة، والآن الرجل الثاني في الدولة. وهو يريد المنصب الأول، ولا يُخفي ذلك أبداً، وتدلّ ثقة الحزب به على أنه سيرشّحه لمنصب الرئاسة. لديه أصدقاء يحتاجون إلى إقامة علاقات جيدة مع أولئك العرب الذين سيزوّدونه بالمال. إنه يختلف مع الرئيس في الرأي حول مسألة الشرق الأوسط. ويُقيم علاقات وثيقة مع بعض الحكام العرب، ولكنه لا يُبقي الأمر سرّاً. قام بانتقادهم مرات قليلة علانيّةً، ولكنه حرص على تزويدهم بمعلومات عن لغز الإسكندرية. إنها دلالة حسن نيّته تجاههم."

إن ما سمعته ستيفاني يناقض ما قاله برنت غرين نظراً إلى أن المدّعي العام هو الذي تحمّل مسؤولية التسرّب.

وعادت كاسيوبيا.

"ما الأمر؟" سألتها ستيفاني.

"أنّهِ هذه المقابلة."

"هل هناك مشكلة؟"

"شعور سيّئ."

"هناك الكثير ممّا يثير فضولك في حياتك،" قالت ديكسون لكاسيوبيا.

"وكثير من الكذب في حياتك."

استدارت ستيفاني نحو دالي تتنازعها الأفكار. "أظنك قلت منذ دقائق قليلة إن شخصاً ما في الإدارة يريد إثبات صحة نظرية حدّاد. والآن تقول إن نائب الرئيس زوّد بعض الحكام العرب بالمعلومات. أيّ من الروايتَين هي الصحيحة؟"

"ستيفاني، ما أخذتِه من منزلي سيكون كفيلاً بالقضاء عليّ. أنا أعمل في الظلّ، ولطالما كنتُ كذلك. ولكن على أحدهم القيام بهذا العمل. هل تريدين النَّيل منّي أم معرفة من وراء كل ما يجري في الواقع؟"

لم يكن ذلك إجابة عن سؤالها. "أريد معرفة كل شيء منك."

"هذا أمر مستحيل. هلّا تستمعين إليّ لمرة واحدة؟ يمكنك أن تضربي جذع شجرة مقطوع بالفأس طوال اليوم، وقد تتمكّنين من قطعه. ولكن دقّي إسفيناً في وسطه فينشطر، وهذا الأمر ينجح على الدوام."

"أنت تحاول إنقاذ المعلومات التي كنتَ تخفيها ليس إلّا."

"أخبريها،" قال دالي لديكسون.

"هناك انقسام في حكومتك. أنتِ ما زلت صديقتنا، ولكن هناك بعض الذين يريدون تغيير ذلك."

لم يؤثّر هذا الكلام في ستيفاني. "هذه هي الحال على الدوام. وجهان لكل شيء."

"الأمر مختلف،" قالت ديكسون. "ما يحدث أكثر من ذلك، ومالون في البرتغال."

فلفت هذا الخبر انتباهها.

"يخطّط الموساد لتدبّر أمره هناك."

مرّر دالي إحدى يدَيه على شعره. "ستيفاني، هناك فصيلان يتحرّكان، أحدهما عربي والآخر يهودي. كلاهما يريدان الشيء نفسه، وللمرة الأولى، يريدانه للسبب عينه. نائب الرئيس مرتبط بالعرب ـ"

وتردّد صدى جهاز الإنذار عبر المتحف الشبيه بالكهف، ومن ثمّ أعلن صوت وضح من خلال جهاز مخاطبة الناس وجوب إخلاء المبنى على الفَور.

وأمسكت ستيفاني بدالي.

"لستُ أنا،" قال بسرعة.



مكث سابر في مكانه بلا حراك كالصخر. وكان بحاجة إلى أن يعمد الرجل المسلّح الذي يحمل سلاحاً إلى دخول متجر الهدايا.

وهذا ما سيقوم به.

وسيكون عليه القيام بذلك.

وتساءل سابر عن مكان وجود الآخرَين، وجاءه الجواب من شعوره بحركة وراء المجموعة الأخرى من الأبواب الزجاجية المُقفَلة.

أمر مثير للاهتمام.

من الواضح أن هؤلاء الثلاثة يعرفون كافة المواقع في ذلك المكان، ويعرفون أيضاً أن متجر الهدايا هو مقصدهم.

ولكن، هل رأوا الأضواء؟

تفحّص الرجلان المسلّحان إلى يساره الأبواب ووجدوا أنها مُقفَلة. فتراجعوا وأطلقوا النار على الزجاج.

لم يُسمَع دويّ الطلقات النارية؛ فقط أصوات مكتومة تشبه ضربات مِطرقة على مسمار. فقد ارتطمت الطلقات بالزجاج دون أن تحطّمه.

زجاج مضادّ للرصاص.

واندفع الرجل الثالث المسلَّح الموجود على الشرفة العُلوية إلى داخل بيت الدَّرَج المفتوح شاهراً سلاحه. انتظر سابر اللحظة التي تردّد خلالها الرجل لتقييم وضعه، واندفع في اتجاهه، وركل بقدمه السلاح الذي يحمل، ورفع السكين وشرط حَلقه. ولم يمنح الرجل أي فرصة لإدراك المصير الذي آل إليه، غارساً النَّصل في مؤخَّرة عُنُقه.

وبعد شهقات مغرغِرة قليلة، انهار الرجل على الأرض.

ثم سُمعت أصوات إضافية مكتومة ترتطم بالأبواب الزجاجية دون أن تُحدث أي فَرق. ومن ثمّ سمع وقع خطى بينما كان المهاجمان ينسحبان عبر السُّلَّم في اتجاه الأسفل.

والتقط سلاح الرجل المَيت.



استمرّ جهاز الإنذار بإطلاق صوته المدوّي. وأسرع مئات الزائرين المنتظمين إلى مداخل المتحف. وكان دالي ما يزال في قبضة ستيفاني.

"لنائب الرئيس حلفاء،" قال لها. "لا يمكنه القيام بهذا الأمر بمفرده."

وكانت تستمع إليه.

"ستيفاني، برنت غرين يعمل معه. إنه ليس صديقك." وتسمّرت عيناها بهيذر ديكسون التي قالت، "إنه يقول الحقيقة. مَنْ غيره كان على عِلم بقدومك إلى هنا؟ لو أردنا موتك، لما حدث ذلك في مكان لقائكما."

كانت ستيفاني تظنّ أنها تتحكّم بالأمور، ولكنها لم تعُد واثقة من ذلك. فغرين هو الشخص الوحيد في الواقع الذي كان على عِلم بوجودهم هناك ـ إذا فإن ديكسون ودالي يقولان الحقيقة.

فأطلقت دالي، الذي قال، "غرين متحالف مع نائب الرئيس. حدث ذلك منذ مدة. لقد وُعد بالمرتبة الثانية في قائمة مرشَّحي الحزب في الانتخابات. لم يكن برنت يأمل في الفوز بأي انتخابات. إنها فرصته الوحيدة للارتقاء."

وطلب إعلان آخر من الحاضرين وجوب إخلاء المبنى. وخرج حارس أمني من الكافتيريا وأعلمهم بوجوب المغادرة.

"ماذا يحدث؟" سأله دالي.

"إنه أمر احتراسي ليس إلّا. يجب مغادرة المبنى."

وعبْر الجدران الزجاجية البعيدة، شاهدت ستيفاني أشخاصاً يتقاطرون بأعداد كبيرة مبتعدين نحو الطريق والأشجار التي تفصل المتحف عن المتنزّه المعشَوشب.

بعض الاحتراس.

فاتجهوا مسرعين نحو المداخل الرئيسية، وكان الناس ما يزالون يتدفّقون عبر الأبواب. كثير من الثرثرة والوجوه القلِقة، ومعظمهم من المراهقين والعائلات الذين يتحدثون عمّا يمكن أن يكون قد حدث.

"لنجد طريقاً آخر،" قالت كاسيوبيا. "لتكن خطواتنا أقل قابليّة للتنبّؤ بها، على الأقل."

فوافقتها، وتقدّمتا. وبقي دالي وديكسون على موقفهما الثابت وكأنهما يحاولان حمل ستيفاني وكاسيوبيا على تصديقهما.

"ستيفاني،" صاح دالي.

فاستدارت.

"أنا صديقك الوحيد. أقصديني عندما تتحقّقين من ذلك."

لم تُعِرْ كلماته أي اهتمام بالرغم من أنها كانت تكره شعور الرِّيبة التي تنتابها.

"علينا الذهاب،" قالت كاسيوبيا.

وانطلقتا مسرعتَين عبر مزيد من صالات العرض المليئة بطائرات برّاقة، ومرّتا بقرب متجر الهدايا، وافترقتا عن الزائرين. وبدت كاسيوبيا عازمة على استخدام أحد مخارج الطوارئ ـ مناورة جيدة سيّما وأن أجهزة الإنذار ما زالت مشغَّلة.

فظهر رجل أمامهما من وراء صندوق للعرض مليء بمجسّمات مصغَّرة للطائرات.

وكان طويل القمة ويرتدي بذلة أعمال قاتمة اللون. فرفع راحة يده اليمنى، وشاهدت ستيفاني سلكاً معدنياً رفيعاً يخرج بشكل لولبي من أُذُنه اليسرى.

فتوقّفت هي وكاسيوبيا والتفتتا إلى الوراء. وكان هناك رجلان آخران يرتديان ثياباً مماثلة ومجهّزان بالمعدات نفسها. لقد عرفت نظراتهم وأسلوبهم.

جهاز المخابرات.

كان الرجل الأول يتحدث من خلال ميكروفون على طيّة صدر سترته وعلى الفور سكت جهاز الإنذار في المبنى.

"هل يمكننا التفاهم بهدوء، آنسة نيل؟"

"لِمَ يُفترَض بي ذلك؟"

تقدّم الرجل منها. "لأن رئيس الولايات المتحدة يريد التكلّم معك."

الفصل الرابع والخمسون

لِشبونة

الساعة 9:50 مساءً

دار مالون حول المِنضدة وجثم في المكان الذي كان ماك فيه كولوم يفتّش جيوب الرجل المَيت. وكان قد راقب هذا الصائد المزعوم للكنوز يقتل مهاجمهم بدقة خبير.

"المسلّحان الآخران يلتفان حول الكنيسة للقدوم إلى هنا،" قال.

"أدرك ذلك،" قال ماك كولوم. "إليك مخزنان احتياطيان للذخيرة، ومسدس آخر. واحزر من هم؟"

"لا بدّ أنهم الإسرائيليون."

"أظنّ أنك قلت إنهم خارج اللعبة."

"وأظنّ أنك قلت إنك هاوٍ. لقد أبديت مهارة عالية."

"عندما تكون حياتك في خطر، فلا بد أن تفعل ما يمليه عليك الواجب."

ولاحظ مالون شيئاً آخر مثبَّتاً على خصر الرجل المَيت. ففكّ الأداة المعدنية.

جهاز لاسلكي. وكان قد استخدم جهازاً مماثلاً مرات عديدة لتعقّب هدف مزوَّد بأداة إلكترونية تشير إلى موقعه. فشغّل شاشة الفيديو وتبين له أن الجهاز يقتفي أثر شيء ما دون إصدار أي صوت. واظهر مؤشّر وامض إلى أن الهدف ليس بعيداً.

"يجب أن نغادر،" قالت بام.

"سيكون هذا الأمر بمثابة مشكلة،" قال مالون. "فالطريق الوحيد للخروج هو عبر تلك الشرفة. ولكن لا بدّ أن يكون المسلّحان الآخران قد باتا الآن قرب السُلَّم. يجب أن نجد طريقاً آخر للنزول."

فوضع جهاز التعقّب في جَيبه، وتسلّلوا إلى خارج متجر الهدايا والأسلحة في أيديهما.

وخرج المسلّحان من ممرّ مقنطَر على بُعد تسعين قدَماً وبدآ بإطلاق النار.

كانت الأصوات تبدو كفرقعة بالونات في الرواق المعمَّد المسقوف.

وانبطح مالون على أرض الشرفة ساحباً بام معه. لم تكن زوايا الجدران قائمة بل كانت تتّسع تدريجياً، لتجعل الرواق ثمانيّ الأضلاع. فاستخدم الزاوية للاحتماء بها.

"اتبع ذلك الطريق،" قال ماك كولوم. "سأُشغلهم عنكما."

كان هناك مقعد حجري طويل قائم على امتداد المحيط الخارجي يربط القناطر ببعضها البعض مشكّلاً درابزيناً مُتقَناً. فأخذ يجري مع بام وهما في وضعيّة الانحناء، مبتعدَين عن متجر الهدايا حيث كان ماك كولوم يُطلق النار على الرجلَين المسلّحَين.

كانت الرصاصات تُصدر أزيزاً وهي تصطدم بالجدار الحجري الذي يبعد إلى يساره وعلى بُعد عشرة أقدام. وكان ظلّا المسلَّحَين في ضوء الشموع الخافتة في الشرفة يكشفان عن وجودهما. فامسك بام وأوقف تقدّمهما، وجثما على الأرض. وسدّد على المصابيح الموجودة أمامه، وأطلق ثلاث رصاصات عليها فأزالها.

وغرقوا في ظلام دامس.

فتوقف ماك كولوم عن إطلاق النار.

والمسلّحون كذلك.

أوما لها وفرّا إلى الأمام وهما ما زالا منحنَين، ويحتميان بالقناطر والمشابك الزُخرفية الحجرية والمقعد الحجري.

ووصلا إلى نهاية الشرفة.

كان الجدار الداخلي للشرفة التالية يمتد أمامهما إلى اليمين، ولم تكن فيه

أبواب. وفي الطرف الأبعد، كان هناك جدار آخر متواصل تقوم إلى يساره مجموعة من الأبواب الزجاجية، وكان أحدها مُشرَّعاً: إنها قاعة الطعام كما يشير ملصَق إعلاني. لعل هناك ممرّ إلى الأسفل.

فأوما لها ودخلا.

وارتطمت ثلاث رصاصات بالجهة الخارجية من الزجاج، ولكن أيّاً منها لم يخترقه؛ مزيد من المواد المقاومة للكسر. حمداً لله على من اختار هذه الأبواب.

"كوتون، إننا نواجه مشكلة،" قالت بام.

فحدّق بداخل قاعة الطعام.

وعبر الظلام الذي لا تقطع انسيابه سوى الأشعة المتسرّبة من النوافذ، رأى مستطيلاً فسيحاً يعلوه سقف مضلّع مماثل لسقف الكنيسة. ويلفّ الغرفة إفريز حجري منخفض، ويمتد تحته موزاييك من الآجرّ الملوَّن. لا أبواب تؤدّي إلى الخارج، وكانت النوافذ ترتفع عن الأرض مسافة عشرة أقدام ولا سبيل للوصول إليها.

ولم يلحظ سوى فتحتَين.

إحداهما في الطرف البعيد. فهرول إلى تلك المكان الذي يبعد خمسين قدَماً ورأى شيئاً يشبه المدفأة ذات مرة، ولكنه أصبح الآن فجوة زُخرفية في الجدار.

وهي مسدودة.

وكانت الفتحة الأخرى أصغر حجماً لا يتعدى طولها خمسة أقدام وعرضها أربعة أقدام، وتخترق الجدار الخارجي مسافة ثلاثة أقدام. كانت قاعة الطعام ذات مرة غرفة طعام الدَّير، ولا بد أن الطعام كان يعدّ في هذا المكان قبل تقديمه.

كانت بام مُحِقّة، فهما كانا يواجهان مشكلة.

"تسلّقي إلى داخل تلك الفتحة،" قال لها.

فلم تجادل، ولوّت جسدها وبلغت رفّاً حجرياً قائماً فوق جُرن فارغ. "لا بد أنني مجنونة لأكون هنا."

"لقد تأخّرتِ قليلاً لملاحظة ذلك."

وأبقى أنظاره على الأبواب المؤدّية إلى الشرفة العُلوية. وظهر ظل في الضوء

الخافت. تحقّق من أن بام باتت في أمان وصعد وراءها مارّاً فوق الجُرن ودافعاً عموده الفِقري بقوّة ليتمكّن من الاختفاء قدر الإمكان داخل الفتحة.

"ماذا ستفعل؟" سألته في أُذُنه.

"ما عليّ القيام به."



كان سابر قد رأى المسلّحَين يتفرّقان. أحدهما قام بمطاردة مالون وانسلّ الآخر داخل الممرّ المقنطَر المؤدّي إلى الكنيسة في الطابق الأرضي. فقرّر أن الطابق العُلوي سيكون أفضل له، لذا اتّجه بحرص شديد إلى بيت الدَّرَج نفسه، آملاً في أن يؤدّي إلى المكان العُلوي لجوقة الترتيل حيث كان مالون وزوجته السابقة قد وقفا في وقت سابق.

كان يحب المطاردة ولا سيّما عندما تبدي الفريسة تحدّياً. وتساءل عن هويّة هؤلاء الرجال. هل هم إسرائيليون كما ظنّ مالون؟ الأمر منطقي. وكان قد علم من جونا أن إحدى فرق الاغتيال قد أرسلت إلى لندن، ولكن أمر جورج حدّاد كان قد تم تدبيره قبل ذلك. وكان قد سمع ذلك اللقاء غير المتوقّع على الشريط، وهذا ما أكّده مالون ذلك. إذاً، ما الذي يفعله الإسرائيليون هناك؟ هل يطاردونه؟ أمر بعيد الاحتمال. ولكن من غيرهم يقوم بمطاردته؟

وبلغ بيت الدَّرَج وانسلّ داخله.

كان دَرَج الكنيسة يقع إلى يساره. وعبر الظلام، سمع وقع خطى في الأسفل.

فدخل إلى المكان المخصّص لجوقة الترتيل ووقف حيث يلتقي الدرابزين بالجدار الحجري الخارجي، ونظر إلى الأسفل بحذَر. كانت النوافذ المرتفعة القائمة في الواجهة الجنوبية للكنيسة متوهّجة بالضوء المحيط بالكنيسة. وكان الشكل المسوَدّ لرجل في يده مسدس ينسّل إلى جناح الكنيسة الممتدّة من طرف المقاعد إلى الجدار الشمالي للكنيسة، ملازماً الظلال، ومحاولاً شقّ طريقه إلى المكان السُّفلي لجوقة الترتيل.

وأطلق سابر طلقَين ناريَّين تردّد صداهما عبر صحن الكنيسة الكهفي.

فأصابت إحداهما الهدف وصرخ الرجل، وترنّح، ومن ثمّ تهاوى على أحد

المقاعد. فأعاد سابر التصويب إلى هدفه بصعوبة بسبب قلّة الإضاءة، وأطلق طلقات إضافية، فخرّ الرجل على الأرض.

لا بأس. ثم أخرج المخزن من المسدس واستبدله بآخر كان في جَيبه.

واستدار للمغادرة؛ لقد حان الوقت للعثور على مالون.

ولكن مسدساً أشهر في وجهه.

"ألقِ سلاحك،" قال الصوت بالإنكليزية.

تردّد وحاول رؤية وجه الشخص، ولكن الظلمة لم تكن تُظهر أي ظل. وأدرك من ثمّ أن الرجل يرتدي قبّعة. وشعر ببرودة وخز ماسورة مسدس آخر على عُنُقه.

مشكلتان.

"أقول لك مرة ثانية،" قال الرجل الأول. "ألقِ سلاحك."

لم يكن أمام سابر أي خيار، وسقط المسدس على الأرض.

وانخفض المسدس المُشهَر في وجهه، ومن ثمّ انطلق شيء ما بسرعة في الهواء واصطدم بجانب جمجمته. وقبل أن يسجّل دماغه أي شعور بالألم، غرق العالم من حوله في سكون.

الفصل الخامس والخمسون

أمسك مالون بالسلاح الأوتوماتي وانتظر. ثم جازف بإلقاء نظرة سريعة في أرجاء الفجوة حيث كان مختبئاً مع بام.

واستمرّ الظل بالتمدّد مع اقتراب الرجل المسلّح.

تساءل مالون عمّا إذا كان المهاجم يعلم بأن لا وجود لمخرج آخر في القاعة. فافترض أن الرجل لا يعرف ذلك، وإلّا فلماذا كان مستمراً بالتقدم؟ فقد كان عليه أن ينتظر على الشرفة ببساطة. ولكنه كان قد أدرك منذ زمن بعيد بأن عدداً كبيراً من الأشخاص الذين مارسوا مهنة القتل في مقابل كَسب الرِزق كانوا مُصابين بنفاد الصبر، فيسارعون إلى إنجاز مهمّتهم دون إبطاء لأن الانتظار يزيد من فرص الفشل.

كانت بام تتنفّس بصعوبة ولم يكن قادراً على لَومها؛ فقلبه أيضاً يخفق بسرعة. وأخذ يحاول إقناع نفسه بالتزام الهدوء: فكّر، كُن جاهزاً.

وكان الظل يمتد عبر جدار قاعة الطعام.

ثم اندفع الرجل إلى الداخل شاهراً مسدسه.

وكان أول شيء يراه غرفة مُظلمة، وفارغة، وخالية من الأثاث. ويُفترَض بالفجوة القائمة في الطرف البعيد أن تُلفت انتباهه على الفَور، وبعد ذلك الفجوة الثانية في الجدار. ولكن مالون لم ينتظر مرور المهاجم بكل هذه المراحل، فخرج من مخبئه وأطلق النار.

مرّت الرصاصة بالقرب من هدفه وأصابت الجدار وارتدّت عنه. بدا المسلّح

مصعوقاً لبرهة من الزمن، ولكنه استعاد رشده بسرعة ووجّه مسدسه نحو مالون، وعندئذٍ أدرك أنه عُرضة للإصابة. ستكون هناك مبارزة.

أطلق مالون النار ثانيةً وأصابت رصاصته فخذ الرَجل. فصرخ من الألم دون أن يقع أرضاً. وغرس مالون رصاصة ثالثة في صدر المسلّح الذي تمايل وهوى بعد ذلك على الأرض وارتطم عموده الفِقري بها.

"إنك رجل صلب العود لتكون قادراً على القتل، يا مالون،" قال صوت نُكوري من وراء المدخل.

فتعرّف إلى صوت الرجل. إنه أدام الذي التقى به في شقة حدّاد. وقد بات يعلم الآن أنهم الإسرائيليون. ولكن كيف عثروا عليه؟

وسمع وقع خطى؛ ها هو يلوذ بالفرار. فتردّد قليلاً، ومن ثمّ هرع إلى المدخل، عازماً على إنهاء ما شرع به في لندن. وتوقّف وأنعم النظر إلى الخارج.

"في هذا الاتجاه، يا مالون،" صاح أدام.

فحدّق في اتجاه قطري عبر الرواق المعمّد المسقوف حيث كان أدام يقف في الجانب البعيد تحت إحدى القناطر. وكان وجهه واضح المعالم.

"أنت رامٍ ماهر، ولكن ليس بمهارتي. لم يبقَ الآن سوى نحن الاثنين."

وشاهد أدام يختفي وراء المدخل المؤدّي إلى الكنيسة في الأسفل.

"بام، لازمي مكانك،" قال لها. "إذا تحديتِ رغبتي الآن فسوف تضطرين إلى التعاطي مع المسلّحين بمفردك."

واندفع خارج قاعة الطعام وانطلق بأقصى سرعة إلى الشرفة السُّفلية. أين ماك كولوم؟ لقد قتل مسلّحان، ولم يكن قد رأى سوى ثلاثة رجال في وقت سابق. هل قتل أدام ماك كولوم؟ 'لم يبقَ'، هذا ما قاله الإسرائيلي.

وقرّر أن اللحاق بأدام إلى الكنيسة يعد ضرباً من الغباء، وعليه القيام بما لا يمكن توقّعه. لذا، قفز على أحد المقاعد الطويلة القائمة على امتداد الحافة الخارجية للشُرفة وحدّق إلى الأسفل. كانت الأشكال والمشبّكات الزُخرفية الحجرية التي تكسو الرواق وافرة ومؤثّرة. فوضع المسدس في حزامه ودلّى جسمه إلى الخارج، ممسكاً بأعلى المقعد الحجري، وباحثاً بقدمَيه عن أحد التماثيل الناتئة التي تسعمل مصرفاً للماء. وانحنى وأمسك بالحجر، محافظاً على توازنه، ودار في مكانه على حافّة ناتئة

هي امتداد لإحدى دعائم القنطرة. ومن هناك، كان على مسافة ستة أقدام من عشب حديقة الرواق المعمَّد المسقوف.

وفجأةً خرج أدام من الكنيسة على الشرفة البعيدة وركض على امتدادها.

التقط مالون المسدس وأطلق النار، أخطأت الرصاصة هدفها ولكنها لفتت انتباه طريدته بالتأكيد.

اختفى أدام بعد انحنائه، مستخدماً لحماية نفسه المقاعد الحجرية نفسها التي احتمى مالون وراءها. ثم ظهر الإسرائيلي وأطلق طلقةً واحدة. قفز مالون بين دعامتَين من المشبَّكات الزُّخرفية الحجرية إلى الشُّرفة السُّفلية وارتطم ببلاط الأرض بقوة. كان بإمكان جسده الذي لم يتعد الثمانية والأربعين من العمر أن يتحمّل المزيد بصرف النظر عمّا كان قد تكبّده من مشقّات يومية. فركض في اتجاه المقعد الحجري وحدّق باحتراس عبر الرواق.

كان أدام يركض مجدَّداً.

وقف مالون على قدمَيه واندفع إلى اليسار، ملتفّاً حول زاوية ومتّجهاً نحو أدام مباشَرةً. واختفى هدفه وراء مجموعة أخرى من الأبواب الزجاجية القائمة بين قنطرتَين مُتقنتَين تحيط بهما التماثيل.

فاتجه نحوها ووقف خارجاً.

وكان هناك لافتة تشير إلى أن المكان المُظلم وراء الأبواب هو المكان الذي كان يعقد فيه الرهبان اجتماعاتهم قديماً، وإن فتح الباب الزجاجي سيكون ضرباً من الغباء. ولم تكن هناك إضاءة كافية لرؤية الجانب الآخر؛ فقط نافذتَان واضحتَا المعالم.

فقرّر الاستفادة مما يعرفه.

وفتح باباً زجاجياً وأبقى جسمه وراء الباب الآخر ليحميه من أي طلقات نارية. ولكن لم تصدر أي رصاصة.

كان هناك ضريح ضخم يملأ وسط المرتفَع المستطيل.

فبحث بنظراته المحدّقة دون أن يرى شيئاً، ولفتت النوافذ انتباهه. كانت المجموعة اليمنى محطَّمة، والزجاج منثور على الأرض، وهناك حبل مرتفع تمّ سحبه من الخارج.

لقد ذهب أدام.

ثم سُمع صوت وقع خطى على البلاط الحجري، ورأى بام وماك كولوم يركضان في اتجاهه. وخرج إلى الشرفة وسأل ماك كولوم، "ماذا حدث لك؟"

"تلقّيت ضربة على رأسي. كان هناك اثنان منهم في المكان المخصَّص لجوقة الترتيل في الأعلى. نلت من أحدهم خارج الكنيسة، ومن ثمّ نالوا منّي."

"لِمَ ما زلت تتنفّس؟"

"لا أعلم، يا مالون. لِمَ لا تسألهم؟"

واحتسب عدد المهاجمين: ثلاثة في الأسفل، واثنان باغتا ماك كولوم كما هو مُفترَض، والمجموع خمسة؟ ولكنه لم يرَ سوى ثلاثة منهم.

فشهر على ماك كولوم المسدس الذي كان يحمل. "هؤلاء الأشخاص اقتحموا المكان، وقاموا بملاحقتنا، وحاولوا قتلي وبام، ولكنهم ضربوك على رأسك وغادروا. في الأمر غرابة، ما رأيك؟"

"ما الذي ترمي إليه، يا مالون؟"

وبحث عن جهاز تحديد الموقع في جَيبه وأخرجه. "إنهم يعملون لحسابك. جاءوا إلى هنا للتخلّص منّا كيلا يكون عليك القيام بذلك."

"أؤكّد لك أني لو أردتُكَ مَيتاً لكنتَ الآن في عداد الأموات."

"لقد توجّهوا إلى الطابق العُلوي مباشَرةً قاصدين متجر الهدايا، وأحاطوا به كالصقور الحائمة. كانوا يعرفون المكان الذي نحن فيه." ورفع جهاز تحديد الموقع. "كانوا يتعقّبوننا. قتلتُ واحداً منهم في الطابق العُلوي وكنتُ على وشك النَّيل من الثالث. ومن ثمّ غادر ببساطة؟ إنها أغرب فرقة اغتيال رأيتها في حياتي."

ونقر بإصبعه على الأداة ووجّهها نحو ماك كولوم. ثم بدّل الإعداد الصامت للأداة، وعلى الفور صدر منها طنين يدل على أن جهاز الاستقبال وجد هدفه.

"لقد كانوا يتعقّبونك. هذا الجهاز سيكشف لنا الحقيقة بالتأكيد."

"هيّا، يا مالون. قُم بما يمليه عليك واجبك."

كانت بام تقف جانباً ملتزمةً الصمت، فقال لها، "مع أني طلبت منك أن تبقي هناك."

"لقد فعلت ذلك إلى أن قدِم، وعلى جانب رأسه كدمة منفّرة يا مالون."

لم يتأثّر بما قالته. "إنه شديد الاحتمال ليتلقّى ضربة من قِبَل معاونيه الذين استخدمهم بهدف تضليلنا."

ووجّه جهاز تحديد الموقع نحو ماك كولوم، ولكن النَبض الإيقاعي للإشارة الصوتية بقي ثابتاً.

"هل أنت راضٍ؟" سأل ماك كولوم.

وأدار الأداة يميناً ويساراً، ولكن الإشارة الصوتية لم تتبدّل. لم يكن ماك كولوم هو المصدر. ومرّت بام بالقرب منه متأمّلةً بمكان الاجتماعات.

فتبدّلت الإشارة الصوتية.

ولاحظ ماك كولوم ذلك أيضاً.

أبقى مالون مسدسه مصوَّباً نحوه، ممّا يعني أنه على ماك كولوم ألّا يبرح مكانه. ثم وجّه الأداة نحو بام، فازدادت الإشارة الصوتية حدّة.

فسمعت ذلك أيضاً واستدارت نحوه.

فأخفض المسدس وتقدّم خطوتَين وهو يواصل تحريك الأداة. كانت الإشارة الصوتية تضعف كلّما حوّل الأداة عن بام، وما تلبث أن تزداد حدّة عندما يوجّهها نحوها.

فارتسمت على وجهها نظرة من الذهول، وسألت، "ما هذا؟"

"لقد كانوا يتعقّبونك. هكذا عثروا على جورج، من خلالك." وانتابه غضب شديد. فرمى جهاز التعقّب، ووضع المسدس في جَيبه، وبدأ بالتربيت عليها.

"ما الذي تقوم به بحق الجحيم؟" صرخت بوجهه.

كانت عصبيّة المِزاج بالتأكيد، ولكنه لم يأبه لمشاعرها.

"بام، سأقوم بذلك حتى ولو اضطُررت إلى تجريدك من ملابسك. سأعثر على ذلك الذي تحملينه. لذا، أخبريني أين هو؟"

وبدت مشوَّشة التفكير. "أين ماذا؟"

"ما الشيء الذي يتعقّبه جهاز تحديد الموقع."

"الساعة،" قال ماك كولوم.

فاستدار نحوه، وكان الرجل الآخر يشير إلى مِعصم بام.

"لا بد أنها الساعة. ففيها مصدر للطاقة، وهي كبيرة بما يكفي لكي تسع أداة طنّانة."

أمسك مِعصم بام، وفك مِشبك الساعة ثمّ رماها على أرض الشرفة. والتقط جهاز التعقّب ووجّهه نحو الساعة. وكان ما يزال يُصدر نبضات متواصلة دلالةً على أن الساعة هي الهدف. وحوّل الأداة في اتجاه بام، فاستقرّ النّبض.

"اللعنة،" تمتمت قائلة. "لقد تسبّبتُ بمقتل الرجل العجوز."

الفصل السادس والخمسون

دخل مالون إلى مركز رجال الأعمال في فندق ريتز فور سيزونز. وكانوا قد غادروا الدَّير عبر المدخل الرئيسي. فقد كانت البوّابة الرئيسية أسرع طريق كانت للخروج نظراً إلى أنها تفتح من الداخل.

وكانوا قد داروا حول مبنى الدَّير واكتشفوا المكان الذي دخل منه أدام ومواطنوه. فقد كانت النوافذ الأنيقة والمزيَّنة برسوم شبكية زُخرفية حجرية قديمة، والتابعة للمكان المخصَّص لعقد الاجتماعات، هي الوحيدة التي لا تحمل قضباناً معدنية، وكانت على ارتفاع ستة أقدام من الأرض في مواجهة شارع جانبي مُظلم. وقد وفّرت لهم شجرتان كثيفتان تغطية ممتازة لاقتحام الدَّير.

بعد ذلك ساروا في اتجاه الشرق بمحاذاة مجمّعات سكنية قليلة داخل منطقة الأعمال في بيليم، وأدركوا حافلة متّجهة إلى وسط لِشبونة. ومن هناك استقلّوا سيارة أجرة إلى الشمال على بُعد أميال قليلة من الفندق، دون أن يلفظ أي منهم كلمة واحدة أثناء الرحلة. وكان مالون في حَيرة من أمره. ففيما ظنّ أن ماك كولوم هو مصدر التهديد بالنسبة إليه، كان الخطر أقرب إليه من أي شيء آخر. ولكنه وضع حداً لأي مطاردة أخرى بعد أن رمى الساعة داخل صف من الشُّجَيرات التي تسيّج حديقة الرواق المعمّد المسقوف.

وكان بحاجة إلى التفكير.

لذا، دخلوا إحدى غرف المؤتمرات في مركز رجال الأعمال وأقفلوا الباب. كان هناك هاتف وحاسوب في انتظارهم على الطاولة، وبجانبهما أقلام وأوراق. وكان يحب هذا النوع من الخدمات التي يقدّمها الفندق. أطلب ما تريد فتحصل عليه.

"كوتون،" قالت بام على الفَور. "تلك الساعة كانت هدية من الرجل الذي كنتُ أقابله. لقد أخبرتك بالأمر."

وتذكر بالفعل أنها قالت له ذلك في لندن: ساعة مرتفعة الثمن، وكان متأثّراً بذلك. "من هو؟"

"محامٍ في شركة أخرى؛ شريك متقاعد."

"كم دام اهتمامكما ببعضكما البعض؟" وخرج السؤال من فمه وكأنه مهتمّ بالأمر، ولكنه لم يكن كذلك.

"بضعة أشهر. هيّا، يا مالون. كيف تسنّى له أن يعرف أن أيّاً من هذا قد يحدث؟ لقد أعطاني الساعة منذ أسابيع."

كان بودّه أن يصدّقها، ولكن زوجات العملاء كنّ عرضة للشُّبُهات في ما مضى. فتناول الهاتف وطلب أتلانتا ووكالة ماجيلان بيليت. ثم عرّف عن نفسه وما يريد إلى المتكلّم في الطرف الآخر من الخط. فطُلب منه أن ينتظر. وبعد دقيقتَين، قال صوت ذكوري في أُذُنه، "كوتون، أنا برنت غرين، لقد تمّ تحويل اتصالك إليّ."

"أريد أن أتحدّث إلى ستيفاني."

"إنها غير موجودة. كثير من الأمور تحدث هنا، عليك أن تتعامل معي."

"ما شأن المدّعي العام بأعمال وكالة بيليت؟ لقد عودتنا على عدم التدخل في تلك الأمور."

"الأمر معقّد، يا كوتون. لقد أُعفيت ستيفاني من مهامها، ونحن معاً وسط معركة."

لم يفاجئه الأمر. "وكل ذلك مرتبط بما أقوم به هنا."

"بالضبط. هناك أشخاص في هذه الإدارة عرّضوا ابنك للخطر."

"من هم؟"

"لا نعرف من هم بالتأكيد، هذا ما تحاول ستيفاني اكتشافه. هل يمكنك إطلاعي على ما يجري هناك؟"

"نقيم حفلة راقصة، حفلة تِلوَ الأخرى، وكانت الحفلة التي أقمناها في لِشبونة هي الأكثر صخَباً."

"هل هناك سبب لتهكّمك؟"

"يمكنني التفكير بعدد لا يُحصى من الأسباب. ولكنني بحاجة إلى أن تفعل شيئاً ما لأجلي. تحقّق من شخصيّة رجل يُدعى جايمس ماك كولوم. يقول إنه كان في الجيش، في عداد القوات الخاصة." ثم زوّد غرين بوصف جسدي سريع. "اريد أن أعرف ما إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي، إضافةً إلى خلفيّته." وفيما كان يتقدّم باستفساره، كان يحدّق بماك كولوم مباشَرةً، ولكن الرجل لم يكن متأثّراً بما يجري.

"ماذا يحدث مع ستيفاني؟"

"يحتاج الأمر إلى وقت طويل لإخبارك، ولكننا نريد أن نعرف ما الذي تقوم أنت به. فهذا الأمر قد يساعدها."

"لم أعرف أبداً أنك تُبدي هذا القَدْر من الاهتمام."

"لم أتمكّن أبداً من معرفة السبب الذي يحمل الجميع على الظنّ بأنني اكره تلك المرأة. والواقع أنها تملك العديد من الميزات الهامّة، ولكنها تواجه متاعب في الوقت الحاضر. لم أتلقَّ منها أو من الآنسة فيت أي اتصال منذ عدة ساعات."

"كاسيوبيا هناك؟"

"مع ستيفاني. لقد أرسلها صديقك هنريك ثورفالدسن."

كان غرين مُحقّاً، فقد كان يحدث الكثير هناك. "لدي مشكلة عالقة أيضاً مع زوجتي السابقة. يبدو أن الإسرائيليين كانوا يتعقّبونها."

"نحن على عِلم بذلك. الرجل الذي كانت تقابله في أتلانتا متعاطف مع الإسرائيليين. وقد طلب منه الموساد إهداءها بعض الأشياء: ساعة، وعقد، وخاتماً للمناسبات غير الرسمية. وكانت كلّها تعتمد تقنية تحديد المواقع بواسطة الأقمار. أن الفكرة تقضي بأن تقوم بارتداء أحدها في مناسبة ما أو في أخرى."

"هذا يعني أن الإسرائيليين كانوا يعلمون بأن أمراً ما سيلحق بابني، ولذلك استعدّوا للاستفادة من الأمر."

"استنتاج سليم. ألم يتمّ العثور على لغز الإسكندرية بعد؟"

"لم اكن أعرف بأنك على عِلم بذلك الأمر."

"انا على عِلم به الآن بالفعل."

"كان الإسرائيليون مهتمّين بذلك الأمر طيلة يوم أمس، وبصورة مستمرّة، وكادوا أن ينالوا منّا منذ مدة قصيرة." والآن عليه فعلاً أن يفكّر. "يجب أن أنصرف. هل لديك رقم هاتف يمكّنني الاتصال عليه بك مباشَرة؟" فأعطاه غرين الرقم. "إبقَ يقظاً. سأعاود الاتصال بك قريباً."

"كوتون،" قال غرين. "المحامي الذي كانت زوجتك السابقة تقابله قد قتل. لقد أُطلقت عليه النار منذ أيام. ولم يترك الموساد أي أثر يؤدّي إليهم."

وفهم كوتون الرسالة.

"لو كنت مكانك لبقيتُ بالقرب منها،" قال غرين. "إنها هدف طليق هي أيضاً."

"أو أكثر من ذلك."

"إنها مشكلة في كلتا الحالتَين."

ثم أقفل الخط، وكانت بام تحدق به. "عشيقكِ مات. لقد تدبّرت إسرائيل أمره. كان يعمل معهم."

بدّلت الصدمة معالم وجهها. لم يكن بإمكانه التعاطي مع هذا الموضوع إلا بهذه الطريقة. فذلك الرجل شارك في تعريض حياة غاري للخطر. "هذا ما يحدث عندما تداعبين أفعى مجلجلة. كنت أتساءل عن كيفية تعقّبنا إلى الفندق في لندن. لم تكن هناك طريقة للّحاق بنا من شقة حدّاد."

ولاحظ مدى استيائها، ولكن لم يكن هناك وقت لمشاعرها. فالقلق حيال الأمور المتعذّرة أو المستحيلة قد يودي بك إلى الهلاك. ثم استدار نحو ماك كولوم. "لقد سمعتني. إني أتحقق من هويّتك."

"من خلال التمثيل المسرحي؟ تذكر، ما زلت أملك بقيّة الضالّة ولا نعرف المكان التالي الذي سنقصده."

"من يقول ذلك؟" وأخرج الصورة التي اقتطعوها من الكتاب في متجر الهدايا وفضّها. "'جِد *المكان الذي* هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن العثور على مكان آخر'. حسناً، لقد وجدنا المكان حيث تتحوّل الفضة إلى ذهب: ميلاد السيد المسيح، بيت لحم، بيليم. ما الذي يملك عنواناً دون مكان؟" وأشار إلى الحاسوب. "هناك كثير من العناوين دون أن تكون مرتبطة بأي مكان. العناوين على شبكة الانترنت."

وجلس أمام الجهاز.

"لا بد أن الحرّاس كانوا يملكون طريقة للتحكّم بالتلميحات ولا يبدو أنهم ممّن يضعون الألغاز ويذهبون. فما إن يبلغ أحد المدعوّين أو الغرباء هذا الحد، حتى يصبحون بحاجة إلى طريقة لحمله على إيقاف البحث إذا ما أرادوا ذلك. وهل هناك طريقة أفضل من أن تكون التلميحات الأخيرة في موقع يسيطرون عليه في الانترنت."

وأدخل جملة BETHLEHEM.COM، ولكنه كان عنوان موقع تجاري مليء بالتفاهات. ثم جرّب إدخال العنوان BETHLEHEM.NET ووجد المزيد من التفاهات نفسها. وبعد ذلك، وفي الموقع BETHLEHEM.ORG غدت الشاشة بيضاء وظهر سؤال بحروف سوداء.

ما الذي تبحث عنه؟

كانت المزلقة تومض في خانة الاستفسار في الأسفل فوق خط أسود، دلالةً على استعدادها لتلقّي الجواب في تلك الخانة. فادخل جملة **مكتبة الإسكندرية**. وارتعشت الشاشة قليلاً، ثمّ تبدّلت.

لا شيء أكثر؟

فادخل ما كان يظنّ أنهم يريدون سماعه،

المعرفة

وتبدّلت الشاشة مرّة ثانية.

28° 41.41 N
33° 38.44 E

كان مالون يعرف ماذا تمثّله تلك الأعداد. ’جِد المكان *الذي* هو بمثابة عنوان بلا مكان، حيث يمكن *العثور* على مكان *آخر*. ‘ "إنه المكان الآخر."

"إحداثيات في النظام العالمي لتحديد المواقع،" قال ماك كولوم.

فوافقه الرأي، ولكنه كان بحاجة إلى معرفة المكان الذي تجسّده هذه الأعداد، لذا دخل موقعاً على الانترنت وأدخل الأرقام.

وما هي الاّ ثوان قليلة حتى ظهرت خارطة.

فعرف الشكل على الفَور ـ مثلّثات مقلوبة متساوية الساقَين، وإسفين يشقّ أفريقيا عن آسيا، مجموعة فريدة من الجبال والصحاري مُحاطة بخليج السويس الضيّق إلى الغرب، وخليج العقَبة الأكثر ضيقاً إلى الشرق، والبحر الأحمر إلى الجنوب.

صحراء سيناء.

وكانت الإحداثيات تحدد مكاناً في أقصى المنطقة الجنوبية، في الجبال القائمة بالقرب من رأس المثلّث المقلوب.

"يبدو أننا عثرنا على المكان."

"وكيف تخطط للوصول إلى هناك؟" سأل ماك كولوم. "تلك أرض مصرية قريبة من إسرائيل تجوبها دوريات تابعة للأمم المتحدة."

وتناول مالون الهاتف. "لا أظن أن هذا الأمر يطرح مشكلة."

القسم الرابع



الفصل السابع والخمسون

فيينا

الساعة 10:30 قبل الظهر

جلس ثورفالدسن في القاعة الكبيرة للقصر يراقب افتتاح الدورة الشتوية لجمعية الجِزّة الذهبية. وكان، على غرار الأعضاء الآخرين، يشغل كرسيّاً مذهّباً قديم الطِّراز. وكان الجميع جالسين في صفوف من ثمانية مقاعد، والحلقة أمامهم، وكرسيّ ألفرد هرمن القائمة في الوسط مكسوّة بحرير أزرق. وكان الكل يبدو متشوّقاً للكلام، وقد تمحورت المناقشة بسرعة حول الشرق الأوسط وما كانت اللجنة السياسية قد اقترحته في الربيع السابق. في ذلك الوقت، لم تكن المخططات نهائية، ولكن الأمور قد تغيرت الآن، ولم يكن الجميع موافقاً عليها.

وفي الواقع، كان الخلاف أكبر ممّا توقعه ألفرد هرمن. فقد تدخّل شاغل الكرسي الأزرق مرّتَين في النقاش، وهو أمر نادر الحدوث. وكان ثورفالدسن يعلم أن هرمن يبقى صامتاً في العادة.

"إن طرد اليهود أمر مستحيل ومدعاة للسخرية،" قال أحد أعضاء الجمعية. وكان ثورفالدسن يعرف الرجل، وهو رجل أعمال نروجي ذو مكانة مرموقة في مجال صيد الأسماك في شمال الأطلسي. "وتوضح السجلات التاريخية أن الله اختار اورشليم وقدّس الهيكل هناك. أنا أعرف كتابي المقدّس. قال الملوك الأوائل إن الله منح سليمان سِبطاً، لذلك سيكون لداوود سراج يُضيئه له تعالى في أورشليم، المدينة التي اختارها الله لنفسه. ولم تتمّ إعادة تأسيس إسرائيل الجديدة صُدفةً. ويعتقد الكثيرون أنها حدثت بوحي سماوي."

وردّد عدد من الأعضاء الآخرين هذه الملاحظة مستندين إلى مراجع في الكتاب المقدّس مستقاة من السجلات التاريخية والمزامير.

"وماذا لو كان كل ما اقتبستموه غير صحيح؟"

جاء التساؤل من الجهة الأمامية من القاعة. فوقف شاغل الكرسي الأزرق وقال، "هل تتذكرون متى أُسّست دولة إسرائيل الحديثة؟"

لم يُجب أحد عن سؤاله.

"في 14 أيار/ مايو 1948، الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر. وقف دافيد بن غوريون في متحف تل أبيب وقال إنه '*بحكم الحقوق الطبيعية والتاريخية للشعب اليهودي*' أُسّست دولة إسرائيل."

"وقد أوضح النبي أشعيا أن أُمّة ستولد في يوم،" قال أحد الأعضاء. "لقد وفى الله بوعده؛ الوعد الإبراهيمي؛ لقد عادت أرض اليهود إليهم."

"وكيف عرفنا بوجود الوعد؟" سأل هرمن. "من مصدر واحد فقط: العهد القديم. وقد عاد العديدون منكم اليوم إلى نصوصه. وكان بن غوريون قد تكلم عن *الحق الطبيعي والتاريخي للشعب اليهودي*. فهو أيضاً كان يستند إلى العهد القديم إنه الدليل الوحيد الموجود الذي يذكر هذه الإلهامات الإلهية ـ ولكن صحّته موضع شك بجدّيّة."

وألقى ثورفالدسن نظرة شاملة على الغرفة.

"لو كنت أملك صكوك تمليك بكل ملكية من ممتلكاتكم، وهي مستندات تعود لعقود مضت، ومترجمة من اللغة الأصليّة لكلّ منكم من قبل أشخاص تُوفّوا منذ زمن بعيد. ولم يكونوا قادرين حتى على التكلّم بلغتكم، ألا يتساءل كل منكم عن صحّة هذا الصك؟ ألستم ترغبون بإثبات أكبر من ترجمة غير مصدّقة ولم يتمّ التثبّت من صحّتها؟" وتوقّف هرمن قليلاً. "ومع ذلك قبِلنا بالعهد القديم دون أي تساؤل، وكأنه كلمة الله المُطلَقة. وقد قَولبت نصوصُه في النهاية العهدَ الجديد، وما تزال لكلماته عواقب سياسية."

وبدا أن التجمّع كان ينتظر من هرمن أن يتطرق إلى النقطة الأساسية.

"منذ سبع سنوات، قام رجل يُدعى جورج حدّاد، وهو بحّاثة فلسطيني في موضوع الكتاب المقدّس، بوضع بحث نشرته جامعة بيروت. وقد ادّعى فيه أن ترجمة العهد القديم ليست صحيحة."

"إنها فرضيّة ليس إلّا،" قال أحد الأعضاء. ثم وقفت المرأة الأكثر رصانة وقالت. "إنّي أنظر إلى كلمة الرب بجدّيّة أكبر ممّا تفعل."

وارتسمت على وجه هرمن ملامح الهزل. "حقاً؟ ماذا تعرفين عن كلمة الله؟ هل تعرفين تاريخها؟ واضعها؟ مترجمها؟ منذ آلاف السنين، كتب تلك الكلمات كتّاب مجهولون بالعبرية القديمة، وهي لغة بائدة منذ أكثر من ألفَي عام. ماذا تعرفين عن العبرية القديمة؟"

لم تقُل المرأة شيئاً.

فأومأ هرمن برأسه. "يمكن تفهم افتقارك إلى المعرفة. كانت لغة مطّاطة إلى حدّ كبير تحدَّد فيها معاني الكلمات انطلاقاً من سياقها في الجملة لا من تهجئتها. وقد تحمل الكلمة نفسها معانٍ عديدة مختلفة وفقاً لكيفيّة استخدامها. ولم يقم البحّاثة اليهود بترجمة تلك الكلمات إلى العبرية المعتمَدة في ذلك الزمن إلّا بعد قرون من كتابة العهد القديم للمرة الأولى، ومع ذلك لم يكن أولئك البحّاثة يُجيدون التكلّم بالعبرية القديمة. لقد خمّنوا المعنى ببساطة، أو بدّلوه في أسوأ الحالات. ومرّت قرون من الزمن بعد ذلك، وقام مزيد من البحّاثة، كانوا مسيحيين هذه المرة، بترجمة الكلمات ثانيةً. وهم أيضاً لم يكونوا يُجيدون التكلّم بالعبرية القديمة، لذلك قاموا بالتخمين كذلك. ومع الاحترام الذي أُكنّه لمعتقداتكم، فإننا لا نملك أي فكرة عن كلمة الربّ."

"أنت مجرّد من الإيمان،" قالت المرأة.

"لست كذلك في هذه الحالة لأن الله ليس له علاقة بذلك. فهذا من عمل الإنسان."

"ما هي حجة حدّاد؟" سأل رجل آخر توحي نبرته باهتمامه بالموضوع.

"لقد افترض بشكل صحيح أنه عندما تمّت في بادئ الأمر رواية قصص الوعد الذي قطعه الله لإبراهيم، كان اليهود يقطنون في أرض الميعاد ـ ما يُعرَف الآن بفلسطين. وبالطبع، فقد حدث هذا الأمر بعد عدة قرون من قطع الوعد الفعلي كما هو مُفترَض. ووفقاً للفرضيّة التي يقدّمها الكتاب المقدّس، قيل إن أرض الميعاد تمتدّ من نهر مصر إلى نهر الفرات الكبير. وأُطلقت أسماء عديدة على أماكن في هذه المنطقة. ولكن عندما قام حدّاد بمقارنة أسماء الأماكن الواردة في الكتاب المقدّس مع المواقع الحالية بعد إعادة ترجمتها إلى العبرية القديمة، اكتشف أمراً غير عادي."

وتوقف هرمن قليلاً، مسروراً بنفسه كما يبدو. "كانت أرض الميعاد الخاصة بموسى وأرض إبراهيم تقعان كلاهما خارج فلسطين."

"فلسطين المعروفة حالياً؟" سأل أحد الأعضاء.

فأومأ هرمن برأسه مؤكّداً الأمر. ووجد ثورفالدسن أن العديد من الأعضاء فهموا معنى ذلك على الفَور.

"هذا مستحيل،" قال أحد الأعضاء.

"في الواقع،" قال هرمن، "يمكنني أن أثبت ذلك."

ثم أومأ برأسه، وتدلّت شاشة من حامل مثبّت في السقف. ثم أديرت آلة عرض الصور، وظهرت خارطة للبحر الأحمر وهو يشقّ طريقه كالحيّة على امتداد خط ساحلي مثلّم من الشمال إلى الجنوب. وأظهر مقياس بالأمتار أن المنطقة كانت بطول أربعمئة كيلومتر وعرض ثلاثمئة متر تقريباً. وتمتدّ المناطق الجبلية إلى الشرق مسافة مئة كيلومتر من الساحل، وتغدو بعد ذلك منبسطة عند أطراف الصحراء.

"كنت أعلم أنه سيكون بينكم أشخاص متشكّكون." وابتسم هرمن لدى تردّد ضحكة وسط الجمعية تنمّ عن مِزاج عصبي.

ثم أشار بيده وتبدّلت الشاشة.

"إذا أظهرنا حدود أرض الميعاد على الخارطة كما جاءت في الكتاب المقدّس، واعتمدنا الأماكن التي حدّد جورج حدّاد مواقعها، فإن الأماكن المذكورة في الكتاب المقدّس تتلاءم مع الأنهار والمدن والجبال الموجودة في هذه المنطقة، وبصورة تامّة، بعد إعادة ترجمة أسمائها إلى العبرية القديمة. وما يزال العديد منها يحتفظ بتسمياتها وفقاً للّغة العبرية القديمة ـ بعد تكييفها بالطبع مع اللغة العربية. هل سألتم أنفسكم عن سبب عدم العثور أبداً على دليل جغرافي قديم أو آثاري يُثبت وجود الأماكن المذكورة في الكتاب المقدّس في فلسطين؟ الجواب بسيط. إن تلك الأماكن غير موجودة هناك".

"ولِمَ لم يلاحظ أحد أبداً هذا الأمر في السابق؟"

قدّر ثورفالدسن هذا السؤال حقَّ قدره، وكان يفكّر بالشيء نفسه.

"هناك بضعة بحّاثة فقط على قَيد الحياة يستطيعون فهم العبرية القديمة

بصورة فعّالة. لم يكن أي منهم كما يبدو، بمن فيهم حدّاد، يملك ما يكفي من الفضول للتحقّق من الأمر. ولكن للتأكد من ذلك، قمت منذ ثلاثة أعوام باستخدام أحد أولئك الخبراء لإثبات صحة النتائج التي توصّل إليها حدّاد. وقد تمكّن من القيام بذلك حتى أدق التفاصيل."

"هل يمكننا التحدّث إلى خبيرك؟" سأل أحد الأعضاء بسرعة.

"لسوء الحظ، كان متقدّماً في السنّ وتُوفّي العام الماضي."

وفكّر ثورفالدسن أنه تمّ تسهيل موت الرجل على الأرجح. ذلك أن آخر ما يحتاج إليه هرمن هو بحّاثة ثانٍ يدّعي حدوث انقلاب مدهش في ما يتعلّق بالمعلومات الواردة في الكتاب المقدّس.

"ولكنني أملك تقريراً مكتوباً مفصّلاً يمكن التمعّن به. إنه مقنع تماماً."

لاحظ ثورفالدسن أن هرمن بدا مستمتعاً بنفسه وكأنه كان قد استعدّ لهذه اللحظة منذ زمن بعيد. ولكنه تساءل عمّا إذا كانت خطوته غير المرتقَبة حيال مارغريت قد تكون قد سرّعت جدول أعمال مضيفه. ولاحظ أيضاً أنه كلما غدت الجمعية أكثر انتباهاً، بات هرمن أكثر ثقة بنفسه.

"ألم تحدث هناك اكتشافات تربط فلسطين بالكتاب المقدّس؟"

"كان هناك بعض الاكتشافات، ولكن أيّاً من النقوش المستخرَجة من باطن الأرض لم يُثبت أي شيء حتى الآن. وتتحدّث البلاطة المُوابية التي عُثر عليها عام 1868 عن حروب دارت بين مُواب وإسرائيل كما هو مذكور في سفر الملوك. ويشير عمل من صنع الإنسان عُثر عليه في وادي الأردن عام 1993 إلى الأمر نفسه. ولكن أيّاً من الأثرَين لا يذكر أن إسرائيل كانت قائمة في فلسطين. وتتحدّث السجلات الأشورية والبابلية عن غزوات في إسرائيل، ولكن أيّاً منها لا يذكر مكان إسرائيل. ويقول سفر الملوك إن جيوش إسرائيل ويهوذا وإدوم سارت سبعة أيام في صحراءٍ لا ماء فيها. ولكن الوادي التصدُّعي في فلسطين الذي يُعتبَر صحراء عموماً، يمكن اجتيازه في أقل من يوم واحد ويحتوي على كثير من الماء."

وها هي كلمات هرمن تخرج من فمه بانطلاق وكأنه احتفظ بالحقائق لمدة طويلة من الزمن.

"لم يتبقَّ أي شيء من هيكل سليمان. لم يتمّ العثور على أي شيء أبداً، عِلماً

أن سفر الملوك يقول إنه استخدم أحجاراً ضخمة، أحجاراً مكلّفة، أحجاراً منحوتة. ألم تنجُ أي كتلة حجرية؟"

وها هو قد بلغ النقطة الأساسية.

"ما حدث هو أن البحّاثة سمحوا لأفكارهم المُسبَقة بتحريف تفسيراتهم. أرادوا أن تكون فلسطين أرض اليهود القدامى الذين ذكرهم العهد القديم، بحيث تسيطر الغاية على الوسيلة. أما الواقع فمختلف تماماً. وقد أثبت علم الآثار أمراً واحداً ـ وهو أن فلسطين المذكورة في العهد القديم تتألف من شعب يعيش في قرى صغيرة أو بلدات صغيرة، وكانوا مزارعين بصفة رئيسية لا يتمتّعون بثقافة عالية. كان مجتمعاً ريفياً لا يتمتّع بالفطنة الشديدة التي كان يتمتّع بها الإسرائيليون في مرحلة ما بعد سليمان. هذه حقيقة علمية."

"ماذا يقول المزمور؟" سأل أحد الأعضاء. "'الحقيقة سوف تنبثق من الأرض'."

"ماذا تريد أن تفعل؟" سأل أحدهم.

ومن الواضح أن هرمن قدّر السؤال. "بصرف النظر عن رفض الحكام العرب السماح بإجراء أي بحث أثري، فقد كان حدّاد واثقاً بأن هناك دليلاً لنظريّته ما يزال موجوداً. نحاول الآن تحديد موقع ذلك الدليل. إذا كان بالإمكان إثبات نظريّته ـ أقلّه إبداء الارتياب بما يكفي بصحّة وعود العهد القديم ـ فكّروا بالنتائج. لن يتزعزع استقرار اسرائيل فقط، بل العرب أيضاً. وسيكون الأمر مماثلاً لجبل الهيكل في القدس الذي تطالب به الأديان الرئيسية الثلاث. وقد تسبّب ذلك الموقع باضطرابات لآلاف من السنين، وقد يكون من غير الممكن كذلك تصوّر مدى الاضطراب الذي سيحدث في تلك المنطقة."

كان ثورفالدسن قد بقي صامتاً مدة طويلة. فوقف وقال، "لا يمكنك الاعتقاد بأن هذه البيّنات، وإن ثبتت صحّتها، ستكون لها تلك التأثيرات الكبيرة. ما هي الأمور الأخرى التي تهمّ اللجنة السياسية؟"

حدّق به هرمن بازدراء لا يفهمه إلا الرجلَين وحدهما. فقد اتخذت الحلقة إجراءً في حق كوتون مالون، واختطفت إبنه. وها هو الآن يتخذ بدوره إجراءً في حق هرمن. بالطبع، لن يُظهر شاغل الكرسي الأزرق أبداً ذلك الضعف. وقد لعب ثورفالدسن ورقته الرابحة بحكمة في هذا المكان، في الجمعية، حيث يجب على

هرمن التزام الحذَر. ولكن هناك ما يُنبئه بأن النمساوي ما زال يملك ورقة رابحة.

وإن الابتسامة التي ارتسمت على شفتَي الرجل المسنّ حملت ثورفالدسن على التوقف قليلاً.

"هذا صحيح، يا هنريك. هناك جانب آخر من شأنه إقحام المسيحيين أيضاً في المعركة."

الفصل الثامن والخمسون

فيينا

الساعة 10:50 مساءً

أقفل ألفرد هرمن باب شقته الخاصة وخلع حلّته الرسمية والقلادة التي في عنقه. فقد كان وزنها مجتمعةً يُرهق أطرافه المُتعَبة. ثم بسط ثيابه على سريره مسروراً بما حدث في الجمعية. فبعد ثلاث ساعات، بدأ الأعضاء أخيراً يدركون الموضوع. وكانت خطة الجماعة مَهيبة ونكيّة في آن. وكل ما يحتاجه الآن هو دعم الشرح الذي قدّمه بدليل كان على وشك الحصول عليه.

ولكنه بدأ يشعر بقلق متزايد.

والسبب أن أي اتصال من سابر لم يرده منذ وقت طويل.

بدأ القلق يؤثّر في معدته، وانتابه شعور غير مألوف. ولكي يستعيد زخمه، سيكون عليه تسريع جدول أعماله. قد يكون منصبه هذا المنصب الأخير كشاغل للكرسي الأزرق، لأن ولايته باتت تشرف على الانتهاء. وكانت جماعة الجِزّة الذهبية على وشك الحصول على الفرصة المناسبة وتحقيق النجاح. فقد تمّ تبديل حكومات عديدة، والإطاحة بعدد قليل منها، في سبيل نجاح العمل الجماعي وازدهاره. ومن شأن ما دبّره من مؤامرات أن يركّع مزيداً من الأشخاص وحتى الأميركيين أنفسهم إذا تصرّف بمهارة.

كان يعلم بأن ثورفالدسن قد يشكل مشكلة بالنسبة إليه، ولذلك طلب من سابر أن يحضّر ملفاً مالياً عنه. فعندما كان جالساً في الـ شمترلينغهاوس في اليوم السابق يشاهد سابر وهو يوافق على القيام بالمهمة طوعاً، لم يكن يظنّ أبداً أن

ثورفالدسن سيكون بهذه العدوانية. فقد كانت معرفتهما ببعضهما البعض قديمة العهد ولم يكونا بالضرورة صديقَين حميمَين، غير أنهما كانا مواطنين بالتأكيد. ولكن الدانماركي استطاع أن يربط بسرعة، وبطريقة ما، ما حدث في كوبنهاغن به وبالجماعة.

ولم يكن يتوقّع وجود أي أثر يؤدّي إليهم.

ممّا جعله يطرح تساؤلات حول سابر.

هل كان الرجل مهملاً؟

أم إن الأمر كان مقصوداً؟

وتنكّر تحذيرات مارغريت له من سابر: 'قدر كبير من الحريّة، قدر كبير من الثقة'. لِمَ لم يقدم رجله على الاتصال؟ فآخر ما بلغه من معلومات هو أن سابر كان في طريقه إلى لندن مارّاً بروثنبرغ للعثور على جورج حدّاد. وكان قد حاول الاتصال به مرّات عدة، ولكن محاولاته باءت بالفشل. إنه بحاجة إلى سابر، هنا والآن.

سمع الباب يقرع بصوت خفيف.

فاتّجه نحوه وأدار المِقبض.

"لقد حان الوقت لمزيد من الحديث،" قال له ثورفالدسن.

فوافقه الرأي.

دخل ثورفالدسن وأقفل الباب وراءه. "لا يمكنك أن تكون جدّيّاً بكل ما قلتَه، يا ألفرد. هل تملك أي فكرة عن عواقب ما تخطّط له؟"

"إنك تتكلّم كيهودي، يا هنريك. هذا عَيبك، فقد أعمتك وعود الله المزعومة؛ ما تعتبرونه حقّاً مكتسَباً."

"إني أتكلم ككائن بشري. من يعلم إذا كان العهد القديم صحيحاً أم لا؟ لا أملك أي فكرة عن ذلك بالتأكيد. ولكن العالم الإسلامي لن يكون متساهلاً إزاء أي إيحاء يفيد بأن منطقة أخرى من أرضهم كانت مرتعاً لليهودية. ستكون ردة فعلهم عنيفة."

"سوف يعطى العرب فرصة للمساومة قبل الإفصاح عن أية معلومات،" قال

له، وأضاف، "هذه هي طريقتنا، وأنت تعرف ذلك. سيكون العنف خطأهم لا خطأنا. وهدفنا تحقيق الربح ليس إلّا. وباعتقاد اللجنة السياسية أنه يمكن الحصول على امتيازات اقتصادية عديدة وكبيرة تعود بالفائدة على أعضائنا. وقد وافقتُ على ذلك."

"هذا جنون،" أكّد ثورفالدسن.

"وما الذي تخطط للقيام به؟"

"كل ما يمليه عليّ واجبي."

"لا تملك العزيمة لهذا القتال، يا هنريك."

"قد أفاجئك."

أصيب هرمن بالدهشة، ولذلك قرّر مواجهته بتحدٍّ. "ربما ينبغي عليك أن تكون أكثر قلَقاً حيال ظروفك الخاصة. لقد تحققتُ من وضعك المالي، ولم أفهم أبداً كيف يمكن لصناعة الزجاج أن تكون غامضة إلى هذا الحد. فمؤسسة أدلغايد غلاسفاركر التابعة لك تعتمد في نجاحها على مجموعة منوَّعة من العوامل المتقلّبة."

"وتظنّ أن بإمكانك التأثير في تلك العوامل؟"

"أنا واثق فعلاً بأنني قادر على أن أسبب لك المشاكل."

"إن ثروتي الصافية تضاهي ثروتك بسهولة."

فابتسم. "ولكنك تعظّم تلك الشهرة. فمن غير المحتمَل أن تتعرض إحدى شركاتك إلى الفشل."

"يمكنك أن تحاول، يا ألفرد."

وكان مُدركاً أن كلاًّ من الأعضاء يملك مليارات من اليورو التي جمعها أسلافهم، وأن كلاًّ منهم بات قيّما موثوقاً على تلك الممتلكات، وليس أخرق.

"تذكّر،" قال ثورفالدسن. "أن ابنتك عندي."

فهزّ كتفَيه. "وأنت والفتى عندي."

"حقاً؟ هل أنت مستعدّ لتعريض حياتها للخطر؟"

لم يكن هرمن قد قرر بعد كيف يجيب عن هذا السؤال، ولذا سأل، "هل الأمر متعلّق بإسرائيل؟ أعرف أنك تميل إلى أن تكون مواطناً إسرائيلياً."

"وأعلم أنك متعصّب مغلق الذهن."

فانتابه غضب شديد. "لم يسبق لك أن كلّمتني بهذه الطريقة."

"لطالما أدركتُ طريقة شعورك، يا ألفرد. فمعاداتك للساميّة واضحة. إنك تحاول إخفاء ذلك ـ بالرغم من كل شيء، هناك العديد من اليهود في الجماعة ـ ولكن الأمر واضح."

حان الوقت للكفّ عن التظاهر. "دينكم هو بمثابة مشكلة، ولطالما كان كذلك."

فهزّ ثورفالدسن بكتفَيه. "ليس أكثر من الدين المسيحي. فقد تخلّينا عن أساليب التحذير وشاهدنا ما يكفي من المسيحيين الذين يُقتلون باسم الإله القائم من بين الأموات."

"لستُ رجلاً متديّناً، وأنت تعلم ذلك، يا هنريك. الأمر متعلّق بالسياسة والربح. وأولئك اليهود في الجماعة؟ هذا ما يقلقون بشأنه أيضاً، ولم يعترض أي منهم إبّان انعقاد الجمعية. فإسرائيل تعرقل مسيرة التقدّم، والصهاينة مروَّعون من معرفة الحقيقة."

"ماذا تعني بأن المسيحيين متورّطون أيضاً؟"

"إذا تمّ العثور على مكتبة الإسكندرية، فهناك نصوص قد تكشف عن الزّيف والخداع في الكتاب المقدّس."

لم يبدُ ثورفالدسن مقتنعاً. "لعلك ستكتشف أن بلوغ تلك النتيجة أمر صعب بعض الشيء."

"أؤكّد لك ذلك، يا هنريك. لقد فكّرت بالأمر تماماً."

"أين هو مخالب النسر؟"

ورمق الدانماركي نظرة إطراء. "محاولة جيدة، ولكنه خارج سيطرتك."

"وخارج عن سيطرتك أيضاً."

فقرّر التطرّق إلى لبّ الموضوع. "لا يمكنك الفوز. لديك ابنتي، ولكن ذلك لن يردعني."

"لعلي مضطر أن أكون أكثر وضوحاً. لقد عانت عائلتي من الاحتلال النازي للدانمارك، وقُتل العديد منهم وقتلنا العديد من الألمان. واجهت تحدّياً تِلوَ الآخر، ولا

يُهمّني أمر مارغريت. فهي امرأة متكبّرة، ومدلّلة، وغير نكيّة. ما يهمّني هو صديقي كوتون مالون، وابنه، ووطني بالتبنّي. إذا اضطُررتُ لقتلها فسوف أفعل."

كان هرمن قلقاً بشأن التهديدات من الخارج، ولكن القلق المباشَر انبثق من الداخل. يبنغي تطييب خاطر هذا الرجل، أقلّه لفترة قصيرة.

"يمكنني أن أُثبت لك أمراً ما."

"يجب أن يتوقف هذا الأمر."

"يوجد هنا أمور على المِحك أكثر من مجرّد تعزيز مصالحنا العمليّة."

"إذن أثبت لي."

"سأتدبّر الأمر."

الفصل التاسع والخمسون

مريلاند

الساعة 4:50 بعد الظهر

كانت ستيفاني جالسة في المقعد الخلفي لسيارة رباعية الدفع، وبجانبها كاسيوبيا. مرّت السيارة عبر البوّابة الرئيسية دون أن تتوقف، ثم مرت بسرعة أمام الحرّاس المسلّحين. وكانوا قد اتّجهوا شمالاً من واشنطن إلى ريف مريلاند الوَعْر، وعرفت ستيفاني وجهتهم على الفَور:

كامب ديفيد، المعتزَل الرئاسي لعطلة نهاية الأسبوع.

وبعد مرورها بمزيد من الحرّاس وبحاجز تفتيش آخر، توقّفت السيارة أمام كوخ أنيق من جُذوع الشجر، مُحاطاً بالأشجار ومطوَّقاً برواق خارجي مسقوف. وكان الوقت بعد الظهر من يوم معتدل البرودة. فلوّح عميل جهاز المخابرات الذي اقتادهما من المتحف، وفُتح الباب الأمامي.

ثم خرج الرئيس روبرت إدوارد دانيلز الإبن من الكوخ.

كانت ستيفاني تعلم أن الرئيس لا يستخدم أبداً اسمه الحقيقي. وكان قد اختار لقباً مختصَراً هو داني. ولما كان يتمتع بروح اجتماعية وصوت جَهير مدوٍّ، فقد أنعم الله على داني دانيلز في الفوز بالانتخابات. كان قد شغل منصب حاكم لثلاث ولايات متتالية، ومنصب سناتور لولاية واحدة قبل ترشّحة لمنصب الرئاسة. ثم أعيد انتخابه لولاية رئاسية ثانية في العام السابق، وبسهولة.

"ستيفاني، لطف منك أن تأتي إلى هنا،" قال دانيلز وهو ينزل درجات الكوخ قَفزاً. وكان يرتدي جينزاً، وقميصاً من التويل، وحذاء عالي الساق.

استجمعت شجاعتها وتقدّمت إلى الأمام. "هل كان لديّ خيار آخر؟"

"ليس تماماً، ولكن من الجيّد أنك قدمتِ. قيل لي إنك تعانين من بعض المشاكل."

أضاف دانيلز إلى كلامه ضحكة مكبوتة باردة، ولكنها لم تكن في مِزاج ملائم - ولا حتى في حضرة قائد العالم الحر. "الفضل يعود إلى جماعتك."

فرفع يدَيه باستسلام ساخر. "يبقى علينا النظر في الأمر، حتى أنك لم تستمعي إلى ما سأقوله لك. والمظهر الجديد؟ الشعر والثياب؟ لقد أعجبَني."

ومن دون أن يمنحها أي فرصة للإجابة، استدار نحو كاسيوبيا وقال:

"لا بد أنك الآنسة فيت، لقد سمعت الكثير عنك. تعيشين حياة ساحرة. وماذا عن ذلك القصر الذي تعيدين بناءه في فرنسا؟ أرغب في رؤيته."

"يجب أن تأتي. سأُريك إيّاه."

"قيل لي إنك تبنينه بالطريقة التي كانت متبعة تماماً منذ ستمئة عام. أمر مثير للدهشة."

وأدركت ستيفاني أن دانيلز يوجّه لها رسالة. فقد كانوا هنا، وتمّ تزويده بالمعلومات، وكان مبتهجاً جداً.

حسناً، حان الوقت للتحقّق إلى أين سيؤدّي الأمر.

"خلافاً لما تفكرين به، يا ستيفاني،" قال دانيلز. "لست غبياً."

كانا يجلسان في الرواق الخارجي الأمامي للكوخ، كلّ منهما على كرسيّ خشبيّ هزاز عالي الظهر. وكان دانيلز يهزهزه بعَزم، مُجهداً الألواح الأرضية بقاعدة الكرسيّ البالغ طولها ستة أقدام وثلاث إنشات.

"لا أظن أبداً أنني دعوتك مغفّلاً،" قالت له.

"لقد اعتاد والدي أن يخبر والدتي أنه لن يدعوها أبداً ساقطة وجهاً لوجه." ورمقها بنظرة غاضبة. "وكان أمراً صحيحاً."

لم تقُل شيئاً.

"مررتُ بمشاكل عدة لأحملك على مغادرة ذلك المتحف بتلك الطريقة. إنه أحد أماكني المفضَّلة. أحب الطائرات والفضاء. لقد درست كل شيء عنها عندما كنت أصغر سنّاً. أمر عظيم أن يكون المرء رئيساً؟ يمكنكِ الذهاب ومراقبة عملية إطلاق إلى الفضاء متى رغبتِ في ذلك." ووضع الرئيس ساقاً فوق ساق وأسند ظهره على الكرسيّ. "إني أواجه مشكلة، يا ستيفاني. مشكلة جدّيّة."

"ما يجعلنا اثنَين نواجه المشاكل. إنني عاطلة عن العمل، وبحسب نائب مستشار الأمن القومي التابع لك، قَيد الاعتقال. أوَلم تقُم بطردي؟

"لقد فعلت. طلب منّي لاري ذلك. فوافقت. وكنت مضطراً لذلك، وإلّا لما كنتِ هنا الآن."

كانت كاسيوبيا تجلس بعيداً عنهما قليلاً. "لقد تساءلت، ولكنني أدركت الأمر الآن. إنك تعمل مع الإسرائيليين، أليس كذلك؟ كنت أحاول جمع الوقائع للخروج باستنتاج. الآن بات الأمر مفهوماً. لقد لجأوا إليك."

"قيل لي إن والدك كان من أحد الرجال الأكثر ذكاء في إسبانيا. لقد بنى أمبراطورية مالية من لا شيء، تلك التي تقومين بإدارتها الآن."

"ليست هدفي الوحيد."

"ولكنني سمعت أنك رامية ماهرة وشجاعة مع حاصل ذكاء ينمّ عن عبقرية."

"وفي الوقت الحاضر، أجد نفسي في ورطة سياسية."

وتغضّنت عينا دانيلز لشعوره بالتسلية والترفيه. "ورطة، هذا ما نواجهه بالتحديد. وأنتِ مُحقّة، لقد اتصلت بي إسرائيل بالفعل. فكوتون مالون يُثير أعصابهم."

كانت ستيفاني تعلم أن دانيلز مُنحاز إلى مالون. فمنذ عامَين تورّط مالون في محاولة قتل في مكسيك العاصمة ـ وكان الضحية زميل دانيلز في غرفة. وكانت قد أرسلت مالون إلى هناك للتأكد من إدانة الفاعل، ولكن أثناء استراحة الغداء وجد نفسه وسط نيران متقاطعة أتت إلى مقتل المدّعي العام المكسيكي وابن هنريك ثورفالدسن. أردى مالون المهاجمين، وعاد إلى الوطن مصاباً برصاصة في كتفه، ولكنه مع ذلك تمكّن من إدانة الفاعلين. وعندما أراد الاستقالة بسبب ما حصل، سمح له دانيلز شخصياً بالتخلّي عن مهمّته المكلَّف بها في البحرية.

"ماذا عنك، يا سيدي؟" سألت. "هل يثير مالون أعصابك أيضاً؟"

"سيدي؟ إنها المرة الأولى التي تنادينني فيها بهذا الأسلوب. لقد لاحظت خلال المرات القليلة التي كنّا فيها معاً أنك لم تستخدمي هذه الكلمة أبداً."

"لم أكن مُدركة بأنك تتنبه لأدقّ التفاصيل."

"ستيفاني، إني أتنبّه جيّداً للعديد من الامور. على سبيل المثال، اتصل كوتون مالون منذ فترة وجيزة بماجيلان بيليت. بالطبع، كنتِ مشغولة، لذلك تمّ تحويل الاتصال إلى برنت غرين نزولاً عند طلب المدّعي العام شخصياً."

"ظننت أن دالي هو المسؤول؟"

"وأنا كذلك. لِمَ فعل غرين ذلك؟"

"كيف تعرف أنه هو من قام بذلك؟" سألت كاسيوبيا.

"إننا نتنصّت على اتصالاته الهاتفية."

هل سمعت ستيفاني جيداً؟ "هل أمرتَ بمراقبة اتصالاته الهاتفية؟"

"هذا صحيح، هو وقلّة آخرون، وأحدهم لاري دالي."

وانتابتها موجات من الشك، وحاولت التركيز. من الواضح أن هذه الأُحجية تتألف من عدة أجزاء.

"ستيفاني، لقد عملتُ طوال حياتي للوصول إلى هذا المنصب. إنه منصب يمكن للمرء فيه أن يفعل شيئاً ما، وقد أفلحتُ في ذلك. أصبحت البطالة في أدنى مستوى لها في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولا وجود للتضخّم، ومعدلات الفوائد معتدلة. حتى أنني دفعت باتجاه تخفيض الضرائب منذ عامَين."

"بوجود لاري دالي الذي يضغط على الكونغرس، يستحيل عليك الفشل." لم يعد بإمكانها الكتمان. قد يكون هذا الرجل الرئيس، ولكن قدرتها على الاحتمال كانت معدومة في تلك الظروف.

كان دانيلز يهزهز كرسيه مهدوء، محدّقاً بالغابات الكثيفة. "تذكرين فيلم روكي 3".

فلم تُجِب.

"لقد أحببتُ تلك الأفلام. كان روكي يصارع على الدوام حتى الإجهاد، ثم تُعزف تلك الموسيقى العظيمة، وتُطلَق الأبواق، وغيرها. كان يرى كل شيء بوضوح، فيحبس أنفاسه ثانيةً، ويوجّه ضربةً موجعة للرجل الآخر."

كانت تستمع إليه بشيء من الاستمتاع.

"في روكي 3، يكتشف أن مدرّبه ميكي كان يُعِدّ له مباريات سهلة، فيفوز بالتأكيد، وذلك بهدف احتفاظ روكي بلقبه دون أن يُصاب بأذى. لعب ستالون ذلك الدور بشكل عظيم. كان يريد مواجهة السيد تي، ولكن ميكي كان يرفض ذلك قائلاً له إنه سيقتلك. وأُصيب روكي بغضب شديد عندما أدرك أنه قد لا يكون جيداً كما كان يعتقد. وبالطبع، تُوُفّي ميكي وانتصر روكي على السيد تي في نهاية المطاف."

كانت كلمات الرئيس تحمل نبرة تنمّ عن احترام.

"دالي هو ميكي الخاص بي،" قال بما يشبه الهمس. "لقد أعدّ معاركي. وأنا مثل روكي، لا أحبّه."

"وأنت ألم تكن تعلم ذلك؟" سألته.

فهزّ رأسه معبّراً عن مزيج غريب من الاستياء والفضول. "كنت أعمل على اعتقاله بنفسي عندما اكتشفتُ أنك تقومين بتحرّياتك. هل استخدمت مومساً؟ أمر صعب التصور. لم تكن جماعتي تتمتّع بهذا المستوى من الإبداع. عليّ القول إن رأيي فيك قد تبدّل في ذلك اليوم عندما أُعلمت بذلك."

وكانت بحاجة إلى معرفة أمر ما، "كيف علمتَ أنني أقوم بهذا العمل؟"

"يحب أتباعي أجهزة التنصّت وكاميرات الفيديو. فكانوا يراقبون ويستمعون. كنّا نعلم بأمر الذاكرات الأصبعية، وكنّا نعرف أيضاً المخبأ. لذلك كنّا ننتظر فحسب."

"هذه التحرّيات جرت قبل أشهر. لماذا لم تتحرّك؟"

"لِماذا لم تتحرّكي أنتِ؟"

كان الجواب واضحاً. "لا يمكنني طرده. أنتَ يمكنك ذلك."

وضع دانيلز قدمَيه على الأرض وانحنى إلى الأمام مثبّتاً الكرسيّ الهزّاز على حافّته الأمامية. "الفضيحة أمر قاسٍ ومُشين، يا ستيفاني. لن يصدّق أحد في هذا

البلد أنني لم أكن على عِلم بما يقوم به دالي. كان عليّ التخلّص منه ولكن دون ترك بصمات."

"لذلك، كان على دالي الانزلاق إلى المأزق بنفسه،" قالت كاسيوبيا.

فاستدار دانيلز نحوها. "كانت تلك الطريقة الفُضلى. ولكن دالي متخصّص بفنون البقاء، وعليّ الاعتراف بأنه ناجح في هذا المجال."

"ماذا لديه ضدّك؟" سألت ستيفاني.

بدت جرأتها سارّةً بالنسبة إليه لا مدعاةً للغضب. "عدا عن تلك الصور المشبوهة التي أظهر فيها مع عنزة، ليس هناك ما يدعو للقلق."

فابتسمت ابتسامة عريضة. "أمر يدعو للتساؤل."

"أجل، وهو كذلك. أدرك الآن لِمَاذا يقولون عنك إنك تتركين الأمور لكي تتفاقم. ما رأيك لو نعود إلى سؤالي الذي يبدو أن كلَيكما لا تعتبرانه هاماً. لِمَ أراد برنت غرين التحدث إلى كوتون مباشَرةً؟"

تذكرت ما قاله دالي في المتحف. "قال لي دالي إن برنت يناضل ليكون نائب الرئيس القادم."

"ممّا يوصلنا إلى الهدف من هذا الاجتماع." ثم أسند دانيلز ظهره على الكرسي وبدأ بالهزهزة ثانيةً. "أُحب أن ألعب دور الفتى الصالح؛ إنه جزء من تنشئتي الريفية في تينيسي. وهو أحد الأسباب التي تحملني على حبّ كامب ديفيد كثيراً؛ فهي تذكّرني بموطني. ولكن حان الوقت الآن لكي أتصرّف كرئيس. لقد قام أحدهم باقتحام ملفاتنا السرية وتمكّن من إلقاء نظرة على لغز الإسكندرية. ومن ثمّ سرّب تلك المعلومات لحكومتَين أجنبيّتَين هما الآن في اضطراب. والإسرائيليون مستاؤون جداً في الواقع. أجل، نبدو في العلَن وكأننا في صراع، ولكنني أحب أولئك الناس في السرّ. ليس مسموحاً لأحد بالعبث مع إسرائيل تحت أنظاري، وأنا أعني ذلك. ولسوء الحظ، هناك بعض الأشخاص في إدارتي يفكرون بطريقة مختلفة."

أرادت أن تسأل عن هويّة هؤلاء الأشخاص، ولكنها قرّرت عدم مقاطعته.

"أمر ما يحدث الآن، وقد بدأ عندما تمّ اختطاف ابن كوتون مالون. ولحسن الحظ، أن هؤلاء الأشخاص لا يملكون أي فكرة عن الرجل الذي يتعاملون معه، أي مالون. وهذا الوضع يؤمّن لنا فرصة مناسبة للتدقيق بالأمور. لقد اعتاد أحد أعمامي

على القول، 'تريد قتل الأفاعي؟ الأمر بسيط. أشعل النار في الشُّجَيرات وانتظر خروجها. وعندها يمكنك سحق رؤوسها'. هذا ما سنقوم به هنا."

فهزّت كاسيوبيا رأسها. "كما سبق وقلت، أنت في ورطة، يا سيدي الرئيس. لم يمضِ على تورطي في هذه المسألة سوى يوم أو يومَين، ولكن لا فكرة لديّ عمّن يقول الحقيقة."

"بمن فيهم أنا؟"

وضاقت عينا كاسيوبيا الزمرّدتين. "بمن فيهم أنت."

"جيد. يُفترَض بك أن تكوني متشكّكة." وبدا الصدق في صوته. "ولكني أحتاج إلى مساعدتكما. لهذا السبب قمتُ بطردك، يا ستيفاني. كنتِ بحاجة إلى حرّيّة الحركة، وأنتِ تملكينها الآن."

"للقيام بماذا؟"

"للعثور على من قام بخيانتي."

الفصل الستون

فيينا

الساعة 11:20 مساءً

نزل ثورفالدسن مع غاري من الطابق الثاني إلى الطابق الأرضي للقصر. لم يكن قد تحدّث إلى ألفرد هرمن ثانيةً منذ محادثتهما الوجيزة في وقت سابق. وكان غاري قد قضى فترة المساء مع عدد قليل من الضيوف الآخرين. فقد اصطحب عضوان أولادهما المراهقين معهما، وتدبّر هرمن أمر تناولهم طعام العشاء في الحديقة الزجاجية الواقعة في الجهة الخلفية من المنزل.

"كان الأمر رائعاً،" قال غاري. "فالفراشات تحطّ على طبقك مباشرة."

كان ثورفالدسن قد زار الـ شمترلينغهاوس عدة مرات ووجده ساحراً، حتى أنه فكّر بإضافة غرفة زجاجية مماثلة إلى كريستيانغيد.

"إنها كائنات غير عاديّة تتطلّب عناية كبيرة."

"كان المكان كغابة استوائية."

لم يكن بإمكان أيّ منهما الخلود إلى النوم. كان غاري شخصاً مُحبّاً للسهَر كما يبدو، لذا توجه الإثنان إلى مكتبة هرمن.

كان ثورفالدسن قد سمع في وقت سابق أن شاغل الكرسي الأزرق يعتزم عقد لقاء اللجنة الاقتصادية. ويُفترَض بتلك المناقشات أن تتواصل لفترة طويلة نسبيّاً، ممّا يمنحه الوقت للقراءة والاستعداد. فجمعيّة اليوم التالي ستتخذ قرارات، ولذلك يجب على النقاش أن يكون دقيقاً ومتعلّقاً بالفكرة المعروضة على البحث. ثم

يغادر الجميع يوم الأحد. لم تكن الجمعية أبداً حدَثاً مطوَّلاً، إذ إن هيئة الموظفين الإداريين واللجان تحصر المواضيع المطروحة بتلك التي تتطلّب اقتراعاً جماعياً فقط. بعدئذٍ، يتمّ عرض هذه المواضيع، ومناقشتها، واتخاذ قرارات بشأنها - وهي قرارات تشكل مسار الجمعية للأشهر القادمة وحتى الربيع.

لذا كان عليه أن يكون مستعداً.

كانت المكتبة الكهفية الشكل بارتفاع طابقَين، وجدرانها مكسوّة بألواح لمّاعة من خشب الجوز. كان يوجد فيها مِدفأة من الرخام الأسود تحيط بها تماثيل باروكية صغيرة، إضافةً إلى المطرَّزات الجدارية الفرنسية التي تغطي أحد الجدران. وكانت الرفوف تغطي الجدران المتبقّية، والغرفة بأكملها متوَّجة بلوحة مثيرة مرسومة على السقف تجعلها وكأنها مفتوحة على السماء.

وكان هناك دَرَج لولبيّ الشكل يرتفع في اتجاه الرفوف العُلويّة. فتشبّث ثورفالدسن بدرابزين حديدي أملس وصعد ببطء قوائم الدرجات الضيّقة.

"ماذا نفعل هنا؟" سأل غاري عندما بلغا قمة الدرج.

"أريد قراءة شيء ما."

كان يعلم بأمر المِنصّة الموجودة في مكتبة هِرمن، والتي يُعرَض عليها كتاب مقدّس بديع. وكان هرمن يتباهى بأن هذا الكتاب هو إحدى النسخ الأولى المطبوعة. فاقترب ثورفالدسن من المجلَّد الكبير القديم وأخذ يتأمّل في غلافه المُتقَن.

"الكتاب المقدّس هو أول كتاب تمّت طباعته بعد اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر. وقد أنتجت مطبعة غوتنبرغ العديد من الكتب المقدَّسة، وهذا أحدها. وكما قلتُ لك في وقت سابق، يجب أن تقرأه."

حدّق غاري بالكتاب، وعرف ثورفالدسن أن الفتى غير قادر على تقدير أهميّة الكتاب حق قَدْره، لذا قال له، "هذه الكلمات بدّلت مسار التاريخ الإنساني. لقد غيّرت التطور الاجتماعي للجنس البشري وأوجدت أنظمة سياسية. ولعل هذا الكتاب والقرآن هما الكتابان الأكثر أهمية على وجه الأرض."

"كيف يمكن للكلمات أن تكون بهذه الأهميّة؟"

"إنها ليست مجرّد كلمات، يا غاري. فالأمر متعلّق بطريقة استخدامنا لها. بعد أن بدأ غوتنبرغ الطباعة على نطاق واسع، انتشرت الكتب بسرعة. ولم تكن رخيصة

الثمن، ولكنها أصبحت شائعة بحلول العام 1500. وإن مزيداً من الوصول إلى المعلومات كان يعني مزيداً من الشّقاق، ومزيداً من المنقاشات المبنيّة على معرفة واسعة، ومزيداً من انتقاد السلطة الحاكمة على نطاق واسع. لقد بدّلت المعلومات العالم وجعلته مكاناً مختلفاً." وأشار إلى الكتاب المقدّس. "وهذا الكتاب قد بدّل كل شيء."

وفتح بعناية الغلاف الأمامي.

"ما هي هذه اللغة؟" سأل غاري.

"اللاتينية." وألقى نظرة على الفهرس.

"هل تستطيع أن تقرأها؟"

فابتسم لنبرة غاري المتشكّكة. "لقد تعلّمتها في طفولتي." وربّت على صدر الفتى. "ينبغي عليك أن تتعلّمها أيضاً."

"ما الذي سأفعله إن تعلّمت اللاتينية؟"

"أمر واحد، يصبح بإمكانك قراءة الكتاب المقدّس."

وأشار إلى الفهرس. "تسعة وثلاثون كتاباً، واليهود يبجّلون الكتب الخمسة الأولى: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية. فهي تروي قصة شعب إسرائيل القديم منذ خلق العالم، مروراً بالطوفان والخروج من مصر والتيه في الصحراء، وانتهاءً بالشريعة المُنزَلة من الله إلى موسى في صحراء سيناء: يا لها من ملحمة حقيقية."

كان يعلم بأن تلك الكتابات تعني الكثير لليهود، كما كان حال الجزء التالي، سفر الأنبياء ـ سفر يشوع، سفر القضاة، سفر صموئيل، سفر الملوك ـ الذي يروي قصة الإسرائيليين منذ عبورهم نهر الأردن، إلى استيلائهم على كنعان، وقيام وسقوط مملكاتهم العديدة، وهزيمتهم على أيدي الأشوريين والبابليين.

"هذه الكتب،" قال لغاري، "تخبرنا كما هو مفترَض كيف تكشّفت أحداث التاريخ لشعب إسرائيل منذ آلاف السنين قبل المسيح. كانوا شعباً يرتبط مصيرهم بالله مباشَرةً وبالوعود التي قطعها."

"ولكن ذلك قد حدث منذ وقت طويل؟"

فأومأ برأسه مؤكّداً الأمر. "منذ أربعة آلاف سنة. ولكن العرب واليهود تقاتلوا مع بعضهم البعض منذ ذلك الحين وهو يحاولون إثبات صحة هذه الوعود."

وأخذ يقلّب صفحات سفر التكوين ببطء وعثر على المقطع الذي جاء لدراسته. "*قال الرب لأبرام، ارفع عينَيك انظر من المكان الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن كل الأرض التي تراها لك أُعطيها ولنسلك إلى الأبد.*" وتوقّف قليلاً. "تلك الكلمات تسبّبت بإزهاق ملايين الأرواح."

وقرأ ثانيةً، وبصمت، الكلمات الخمس الأكثر أهمية.

"ما هذا؟" سأل غاري.

فحدّق بالفتى. كم من مرّة سأله ابنه كاي الأمر نفسه؟ فقد تعلّم ابنه اللاتينية، وقرأ الكتاب المقدّس، ومارس الإيمان اليهودي. كان إنساناً صالحاً ولكنه مات ضحيّة أخرى للعنف الذي لا يميّز أحداً.

"الحقيقة هامّة،" قال ذلك لنفسه أكثر منه لغاري.

'*من المكان الذي أنت فيه*'.

"هل تلقّيت أي اتصال من والدي؟" سأل غاري.

فحدّق بالفتى وهزّ رأسه. "ولا أي كلمة. إنه بعيد عن الأنظار لأمر ما مشابه لما يُحيط بنا: مكتبة، يمكن أن تحمل في طيّاتها مفتاح فهم كلمات الكتاب المقدّس هذه."

ولفت انتباهه صوت جلبة في الأسفل. كان باب المكتبة مفتوحاً، وكان بإمكانه سماع أصوات منه، وقد عرف أحدها؛ كان صوت ألفرد هرمن.

أومأ برأسه إلى الفتى، وانسحبا إلى فجوة نافذة تقطع استمرارية الرفوف العُلويّة. كانت الطوابق السُّفليّة مضاءة بشكل خافت بواسطة تشكيلة غريبة من المصابيح، وكانت الشرفة العُلوية مضاءة بواسطة مصابيح مثبَّتة ومبيَّتة في السقف. فأشار إلى غاري طالباً منه التزام الصمت، وأومأ الفتى له برأسه موافقاً.

وأخذ ينصت.

كان الرجل الآخر يتكلّم بالإنكليزية. إنه اميركي.

"هذا أمر هام، يا ألفرد إنه أكثر من هام في الواقع إنه حيويّ."

"إنّي مُدرك لوضعك،" قال هرمن. "ولكنه ليس أكثر حيويّة من أمورنا."

"مالون في طريقه إلى صحراء سيناء. قلتَ إن الأمور ستكون على ما يُرام."

"وستكون كذلك. هل أسكب لك بعض الشراب؟"

"هل تحاول تهدئتي؟"

"أحاول أن أسكب لك الشراب."

فأومأ ثورفالدسن لغاري بملازمة مكانه وزحف خارج الفجوة مجازفاً بإلقاء نظرة سريعة إلى ما وراء الدرابزين الحديدي المزخرَف. كان ألفرد هرمن واقفاً في الأسفل يسكب شراباً من قنّينة، وبجانبه رجل أصغر سنّاً قد يكون في أوائل العقد السادس من العمر، ويرتدي بذلة قاتمة اللون. الوجه كان رأسه مكلّلاً بجزّة سميكة من الشعر الأشقر، ووجهه محلوقاً حلاقة جيدة، ويوحي بالنشاط - أي المثاليّ لممثل أو لموضوع رّام للوجوه.

كان هذا لوجهه مألوفاً.

وكان ثورفالدسن يعرف هذا الرجل.

إنه نائب رئيس الولايات المتحدة.

الفصل الحادي والستون

كامب ديفيد، مريلاند

علقت كلمات الرئيس في ذهن ستيفاني. "ماذا تقصد بالخائن"؟"

رمقها دانيلز بنظرة قلقة. "بعض أفراد هذه الحكومة يعبثون معي. وهم يزكّون سياساتهم الخاصة، ويضعون أهدافهم الخاصة نصب أعينهم ظنّاً منهم بأني بطيء الفهم، أو في حالة يُرثى لها، أو أخرق جداً لا أفقه شيئاً مما يجري. ولكن الأمر لم يعد يتطلّب ذكاءً خارقاً لاكتشاف رئيس عصابة المتآمرين: أي المدعوّ نائب الرئيس الوفيّ، إنه مغفّل طموح."

"سيدي الرئيس ـ" قالت.

"والآن، هذه هي المرة الأولى أيضاً التي تقولين لي فيها سيدي *الرئيس*. لعلّ هناك تقدّماً في علاقتنا."

"كانت لي تحفظاتي حيالك وحيال هذه الإدارة."

"هذه هي مشكلة البيروقراطيين المهنيين. نحن السياسيون نأتي ونذهب، ولكنكم تبقون إلى ما لا نهاية، ممّا يعني أنكم تملكون الكثير من المعلومات لكي تقارنوا في ما بينها. ولكن، لسوء حظي، فإنك تُثبتين لي أنك من هؤلاء البيروقراطيين. أنا مُحاط بالخوَنة، ونائب الرئيس متحرّق لنيل هذا المنصب لدرجة أنه لم يعُد باستطاعته الانتظار. ولكي يحصل عليه، فسوف يكون مستعداً للاتفاق مع الشيطان." وتوقّف دانيلز قليلاً ولكنها لم تقطع أفكاره. "جماعة الجِزّة الذهبية."

هل سمعت كلماته جيداً؟

"إنه الآن هناك بالذات، يلتقي أحد رؤسائها؛ رجل يُدعى ألفرد هرمن."

كانت قد استهانت بداني دانيلز مثلما استهانت ببرنت غرين. فالرجلان يعلمان الكثير من الأمور. وكانت كاسيوبيا تهزهز كرسيّها، ولكن ستيفاني كانت مُدركة بأنها تنصت للحديث باهتمام بانتباه؛ فقد أخبرتها عن الجماعة.

"كان والدي عضواً فيها،" قالت كاسيوبيا.

لم يأت أحد على ذكر هذا الأمر عندما تحدّثنا في وقت سابق.

"كان يحضر الاجتماعات مع هنريك طيلة سنوات. وقد اخترت أن أواظب على هذه العضوية بعد وفاته."

"خطوة جيدة،" قال دانيلز. "تلك المجموعة مرتبطة بعدد من القلاقل العالمية. وهم جيّدون في ذلك، لا يتركون وراءهم أي بصمات. بالطبع، يلقى اللاعبون الأساسيون حتفهم في نهاية المطاف. وهم مثل أي عصابة جيدة، يملكون ذراعاً لتنفيذ مخططاتهم بالقوة: رجل يدعى مخالب النسر. إنهم مثال للأوروبيين النموذجيين وهم الذين اختطفوا ابن مالون."

"وها أنت تُخبرنا بالأمر الآن؟"

"أجل، يا ستيفاني. فإحدى مكتسباتي كرئيس للعالم الحر هو أنني قادر على القيام ما يحلو لي." ورمقها بنظرة متفحّصة. "كثير من الأمور تجري هنا بسرعة، ومن جوانب مختلفة. لقد قمتُ بأفضل ما يمكن في ظل هذه الظروف."

وأعادته إلى الموضوع الأساسي. "ما الذي يربط نائب الرئيس بشاغل الكرسي الأزرق؟"

"شاغل الكرسي الأزرق؟ من الجيّد أن تكوني أيضاً مطّلعة على الأمور. وكنت آمل ذلك أساساً؛ نائب الرئيس يبيع نفسه. وتلك الجماعة تبحث عن مكتبة الإسكندرية بصفة خاصة. إنهم يبحثون عن دليل لإثبات صحة نظريّة ما، وبالرغم من أنني ظننت أن الأمر برمّته غريب، إلا أنه بات يتّخذ أبعاداً خطيرة."

"ماذا يقول الإسرائيليون؟" سألت كاسيوبيا.

"إنهم غير راغبين في أن يتمّ اكتشاف أي شيء. لتبقَ الأمور على حالها. يبدو أن الجماعة كانت تضغط طيلة عقود من الزمن على حكّام دولة عربية، وقد قرّروا الآن إدخال الجميع في دوّامة وإغاظة اليهود والعرب على السواء. ليست

خطوة سيئة في الواقع. فقد عُرف عنّا إننا نفعل الشيء نفسه. ولكن هذا الأمر سيتفاقم، ويصعب التنبؤ بخطوات المتعصّبين سواءً كانوا عرباً أو يهوداً ـ" وتوقف قليلاً. "ـ أو أميركيين."

"ماذا تريدني أن أفعل؟" سألت ستيفاني.

"دعيني أطلعك على أمر آخر تجهلينه. لقد أجرى كوتون اتصالاً آخر بغرين، وكان بحاجة إلى خدمة. وبالتالي هل تصدقين أن غرين قد وافق على تأمين انتقال جوّي لمالون وزوجته السابقة ورجل ثالث إلى صحراء سيناء، إنهم الآن في طريقهم إلى هناك، ونظنّ أن الرجل الثالث هو الرجل الذي تستخدمه الجماعة. وقد طلب مالون أيضاً من غرين التحقق من هويّة شخص ـ وبالمناسبة، تجاهل المدّعي العام هذا الأمر. ولم يُجرِ أية تحقيقات حول ذلك الشخص. لذلك قمنا نحن بالتحقيق الموضوع. الاسم الذي أعطاه مالون لغرين هو جايمس ماك كولوم. والأوصاف المتوافرة غير متطابقة، ولكن هناك رجل بهذا الاسم، وهو جندي سابق ومرتزق مأجور في الوقت الحاضر. يبدو أن سجله الشخصي مناسب لكي يعمل لصالح الجماعة، أليس كذلك؟"

"كيف أصبح على علاقة بمالون؟" قالت كاسيوبيا.

هزّ دانيلز رأسه. "لا أعلم، ولكنني سعيد بأن مالون هو الشخص الذي يرافقه. لسوء الحظ، لا يسعنا القيام بأي شيء لمساعدته."

"يمكننا الاتصال بطائرة النقل باللاسلكي،" قالت كاسيوبيا.

هزّ الرئيس رأسه. "لا سبيل إلى ذلك. لا يمكننا أن نكشف لأي كان بأننا على علم بما يجري. أريد الذين قاموا بخيانتي. ولكي أنال منهم، علينا أن نعمل بصمت."

"والمتبقّون للتصفيات النهائية،" قالت، "هما لاري دالي وبرنت غرين."

أمال دانيلز رأسه إلى الأعلى دلالةً على أن الإجابة خاطئة. "الرابح في هذه المباراة يحصل على رحلة مدفوعة بالكامل إلى السجن الفدرالي مباشَرةً، وذلك بعد أن أقوم شخصياً برَكل مؤخّرته."

وبدا أنه استعاد عادة إصدار الأوامر.

"أنتما الاثنتان تمثلان كل ما لديّ لمعرفة الإجابة عن سؤال اليوم. لا يمكنني إشراك أي عميل آخر لأسباب واضحة تعرفانها. لقد سمحتُ بحدوث كل تلك الأمور

لك لكي تحصلي على فرصة لمساعدتي. ستيفاني، كنت أعرف أنك تلاحقين دالي، ولكنك لم تتّخذي أي إجراء ضده لحسن الحظ. الآن، نحن بحاجة إلى معرفة الحقيقة."

"وهل تظنّ فعلاً أن المدّعي العام متورّط؟" سألت كاسيوبيا.

"ليس لدي أية فكرة. فبرنت يلعب دور الرجل الورِع بإتقان، وقد يكون مسيحياً مؤمناً يخشى الله ويلتزم بإرشادات الكتاب المقدّس. ولكنه أيضاً رجل لا يريد التخلي عن منصب النفوذ والتأثير ليغدو محامياً يحرّف الحقائق في إحدى مكاتب المحاماة في واشنطن. لهذا السبب بقي لولاية ثانية. قد يقبل أي شخص آخر ذو ماضٍ حكومي خالٍ من الشوائب بعقد صفقات مشبوهة تحت غطاء نزاهته، باستثناء غرين."

عندئذٍ شعرت أنها بحاجة ماسة إلى القول: "لقد أخبرني بأنه سرّب معلومات عن لغز الإسكندرية، وأنه يبحث عن الخائن بنفسه."

"تبًّا. قد يكون الأمر كذلك، لا أعلم. كل ما أعرفه هو أن نائب مستشار الأمن القومي يرشو الكونغرس، وأن نائب الرئيس يتآمر مع أحد الرجال الأكثر ثراءً في العالم، وأن هناك بلدين في الشرق الأوسط يتعاونان لعرقلة عملية العثور على مكتبة يعود تاريخها لألف وخمسمئة عام، رغم أنهما يحتقران بعضهما بعضاً هل كوّنتِ رأياً صائباً عن المسألة، يا ستيفاني؟"

"أجل، سيدي الرئيسي. أصبحت الصورة واضحة."

"إذن، اعثري على الخائن."

"هل لديك اقتراح بكيفية عمل ذلك؟"

فابتسم لطبيعة سؤالها الحازمة.

"لقد فكّرت بالأمر ملياً. دعونا نأكل شيئاً ما، ومن ثمّ تخلدان للراحة لبعض الوقت. كلاكما تبدوان مرهقتَين. ويمكنكما الاستراحة هنا في أمان."

"لا يمكن تأجيل هذه المسألة للصباح،" قالت.

"بلى، يمكن تأجيلها. هل تعرفين ما الذي يُنضج طبقاً من البرغل؟ ليس السَّلق بالطبع، بل الغلي الهادئ في إناء مغطّى على نار خفيفة. هذا ما يحوّل كسارات القمح القاسية إلى مَذاق يُشعرنا بسعادة قصوى. والآن لندع الطبخة تغلي بهدوء لساعات قليلة، ومن ثمّ أقول لكما ماذا يجول في خاطري."

الفصل الثاني والستون

فيينا

انسلّ ثورفالدسن نحو فجوة النافذة ولكنه ظلّ يصغي إلى المحادثة التي تجري في الطابق السفلي. فعرف أن نائب الرئيس الأميركي موجود هنا، في قصر هرمن، وأنه يطرح مجموعة كبيرة من الاحتمالات الجديدة. فألقى نظرة سريعة على غاري ووضع إصبعه على شفتَيه، مُشيراً إليه بمواصلة التزامه بالهدوء.

وكانت الأقداح ترنّ في الأسفل.

"نَخب صداقتنا،" قال هرمن.

"هذا ما يُعجبني فيك، يا ألفرد: الوفاء. فهو نادر في هذه الأيام."

"لعل رئيسك يشعر بالطريقة عينها."

فضحك الرجل الآخر في سرّه. "دانيلز أحمق. لديه نظرة مبسَّطة عن الحياة والعالم."

"وهل بإمكانك القول إنك وفيّ؟"

"تماماً. لقد عانيت طوال خمس سنوات من داني دانيلز. فقد كان يقوم بما يحلو له، وكنت أبتسم، وأدافع عنه، وأمارس ضغوطاً لأجله. ولكني لم أعد قادراً على الاستمرار على هذا النحو. لم يعُد بوسع الأميركيين تحمّله أبداً."

"آمل في ألّا يكون الوقت قد ذهب هباءً."

"لقد أمضيتُ السنوات أقيم التحالفات، وأجمع الأصدقاء، وأسترضي الأعداء. كنت أملك كل ما أحتاج إليه ـ"

"باستثناء المال."

"لا يمكنني قول ذلك. لديّ التزامات عديدة لإبقاء الأمور في مسارها، وأصدقائي العرب يظهرون لي كل سخاء."

"والجماعة أيضاً ممتنّة لأولئك الذين يُظهرون الدعم لها. لم يُظهر رئيسك الودّ للأعمال العالمية. ويبدو أنه يحب التعرفات الجمركية، والقيود التجارية، والأعمال المصرفية المفتوحة."

"ما يشكّل مشكلة أخرى بحدّ ذاتها. أؤكّد لك أن هناك الكثيرين في واشنطن ممّن يخالفون دانيلز الرأي."

كانت الأصوات الصادرة من الأسفل تشير إلى أن الرجلَين كانا جالسَين. فتسلّل ثورفالدسن إلى أقرب مكان من الدرابزين. كان هرمن جالساً في كرسيّ، ونائب الرئيس على أحد المقاعد الطويلة. وكان الرجلان يحملان بيديهما أقداح الشراب.

"تحاول إسرائيل اكتشاف ما يحدث،" قال نائب الرئيس. "فهم يعلمون بأن لغز الإسكندرية بات معرّضاً للكشف."

"لقد بلغني ذلك،" قال هرمن. "لديّ شريك يتعامل مع هذا الوضع فيما نتحدّث."

"أخبرني رئيس الأركان أن فريق مراقبة إسرائيلي قد اختفى في ألمانيا وأن أحد مسؤوليهم وجد في وزارة الخارجية مَيتاً في روثنبرغ، وكان يُشتبَه بأنه يبيع المعلومات. لقد أُرسل فريق اغتيال إلى لندن. من الغريب أن تل أبيب تريد فعلاً أن نكون على عِلم بالأمر."

"مجدداً يا صديقي، أقول لك إني أنا على عِلم بالأمر."

"إذاً، أنت على عِلم بالتأكيد بأن أحد عملائنا السابقين، كوتون مالون، هو في طريقه إلى سيناء مع زوجته السابقة ورجل آخر."

لم يقُل هرمن شيئاً.

"كنا فضوليين،" قال نائب الرئيس. "ولذلك أخذنا بصمات الرجل الآخر عن درابزين الذي لمسه أثناء صعوده إلى الطائرة التي أقلّتهم إلى لِشبونة. إنه أميركي يُدعى جايمس ماك كولوم. هل تعرفه؟"

"إسمه المستعار دومينيك سابر. إنه يعمل لصالحنا."

"وبما أنك صديقي، يا ألفرد، سأقول لك بكل احترام إنك خيّبتَ ظنّي. لم تكن تعرف أن رجلك متّجه إلى سيناء."

ساد الصمت مرة ثانية.

"لم يكن مطلوباً منه أن يبقيني على اطّلاع على كل شيء. النتائج هي كل ما يهمّ."

"إذاً، قل لي، ما الذي يفعله مع كوتون مالون، وهل سيتمكّن من العثور على المكتبة؟"

"قلتَ سيناء. لا بدّ أنهم في مكان يسهّل عليهم مهمّة العثور على ما يبحثون عنه، فهو مكان قريب من الإسكندرية بما يكفي لتسهيل عملية نقل المخطوطات القديمة. ولكنه أيضاً مكان معزول. وكانت طرق التجارة موجودة هناك قبل المسيح وبعده. وقد أقام الفراعنة مناجم للتنقيب عن النحاس والفيروز. فمصر تعرف سيناء جيداً."

"إنك تعرف تاريخك."

"المعرفة أمر جيد، ولا سيّما هنا."

"ألفرد، هذا ليس تمريناً ذهنياً، إني أسعى إلى تغيير السياسة الخارجية للولايات المتحدة بشكل جوهري. لقد خضتُ صراعات مع دانيلز حول هذا الأمر، وبات بإمكاني الآن القيام بأمر ما في هذا الشأن. لقد حان الوقت لنأخذ شؤون العرب في الحسبان كما كانت حالنا على الدوام مع إسرائيل. وكما هي حالك مع مساعدِك المأجور، فأنا مثلك مهتمّ أيضاً بالنتائج فقط. أنت وجماعتك تسعون إلى تحقيق الربح، وأريد أن أكون مسؤولاً عن ذلك."

"ونحن نرغب في أن تتولّى منصب الرئاسة."

"إذاً، أخبرني، يا ألفرد. متى سيلقى رئيس الولايات المتحدة حتفه؟"

وأخذت أصابع ثورفالدسن الطويلة والنحيفة تداعب عموده الفِقري المُحدَودب بعد أن دخلت كلمات نائب الرئيس في أذنه.

"تبدو متحمّساً للفكرة،" قال هرمن.

"لقد أقنعتَني."

"وقد تمّ تدبّر الأمر،" قال هرمن. "فرحلة دانيلز غير المُعلَن عنها إلى كابول ستشهد نهاية مثيرة."

"ما إن يصبح في الجو،" قال نائب الرئيس، "سيتمّ التأكيد على كافة الأمور من خلال الوسائل التي قمنا بمناقشتها. وتُشير المعلومات حتى الآن أنه سوف يغادر يوم الثلاثاء القادم في مثل هذا الوقت. ولا يعرف بالأمر سوى أربعة أشخاص: الرئيس، وأنا، ورئيسا الأركان التابعان لنا. حتى أن الرئيس الأفغاني ليس على عِلم بالرحلة. ولن يتمّ إعلامه إلا قبل هبوط الرئيس الأميركي مباشَرةً. والأمر كله مندرج في إطار العلاقات العامة التي يخطِّط لها فريق الاتصالات في البيت الأبيض. فمن شأن زيارة الجنود في أفغانستان تعزيز نتائج الاقتراع."

"الصواريخ جاهزة في مكانها،" قال هرمن. "وقد تم الاتفاق مع أحد المساعدين الرئيسيين لبن لادن، وكان ممتنّاً جداً. ستكون هذه الضربة ضربتهم الكبيرة الأولى ضد أميركا بعد سنوات. لقد تعاملنا مع هؤلاء الأشخاص قبل ذلك، وهم ينجزون أهدافهم على الدوام باحتراس، ولكن بنجاح."

"ما زلت قلقاً من أن يعمد العرب إلى قتل دانيلز. ولكن العرب قالوا لي إن معظمهم ضاقوا ذَرعاً ببن لادن أيضاً. فهم يودّون لو يُزيلونه من الوجود لأن سلوكه الغريب يبدّل الرأي العام العالمي بطريقة لا محدودة ويجعله أكثر تشدّداً. كما لا يمكنهم إقامة علاقات معنا طالما بقي المبدأ القائل 'إما السلام على طريقة إسرائيل أو لا إمكانية للتفاهم'. ولكن بإزاحة دانيلز وإدخال تبديل واضح في السياسة، سوف ينضمون إلينا في القضاء على بن لادن."

"تظنّ لجنتي السياسية أن العرب سيكونون أكثر من مستعدّين للتفاوض."

"هل يعلمون بهذا الأمر؟" سأل نائب الرئيس والدهشة بادية في صوته.

"بالطبع لا، إنهم يستعرضون السيناريوهات المحتمَلة ببساطة - وإحداها تبدّل السياسة الخارجية الأميركية. لطالما أردنا حدوث ذلك."

"والآن، يا ألفرد، هل تعرف ما يجول في خاطري؟"

ضحك هرمن ضحكة خافتة. "لن نخلّف وراءنا أي أثر. المبعوثون الذين استخدمناهم في التفاوض حول الاتفاق مع بن لادن سوف يلقون وجه ربهم خلال

الأسبوع القادم. وذلك الشريك الذي أشرتَ إليه سيتولّى المسألة شخصياً. لن يكون هناك أي دليل يمكن أن يورطنا في المسألة."

"إنك تُولي ذلك الرجل الكثير من الثقة،" قال نائب الرئيس.

"إنه لم يخذلنا أبداً."

"من الضروري جداً أن لا يشرع الآن بهذا العمل. سوف أكون في شيكاغو يوم مغادرة دانيلز. والبيت الأبيض لا يعلن عن أي شيء. كما لو أن الرئيس موجود في واشنطن يقوم بأعماله، ثم يظهر في النشرات الإخبارية في أفغانستان. بعدئذٍ يقومون بإخفائي إلى أن يعود. إنه الإجراء المعياري بعد حادثة سبتمبر."

"ما الذي ستفعله بعد إسقاط الطائرة؟" سأل هرمن.

"أداء اليمين وتولّي الحكم للسنوات الثلاث القادمة. وسأشارك في الانتخابات الرئاسية بعد ذلك وأحصل على ولاية أخرى من أربع سنوات، ثم أذهب في سبيلي."

"أريدك أن تفهم أننا إذا نجحنا في تحديد مكان المكتبة المفقودة، فإن ما خطَّطنا له سيدخل مباشَرةً حيّز التنفيذ."

"أنت محق فكلما أسرعنا كان الأمر أفضل. أريد أن أتجنّب الإسرائيليين والعرب. سأربّت لهم - وأنت توجّه ضربة قوية لهم. سوف يكون العرب مضطرين إلى عقد اتفاق معنا. لا يمكنهم أن يتحمّلوا مشاهدة بلدهم ينفجر، وسأعمل على تخفيض أسعار النفط إلى أدنى درجة ممكنة. فتوفير القليل من الدولارات في البرميل الواحد يبدّل ناتجنا الإجمالي المحلّي بما يوازي بلايين الدولارات. سأعبّئ أميركا للانتقام لموت دانيلز، ولن يعارضني أحد في ذلك. وسينضمّ العالم بأسره إلينا، وسيتوسّل العرب للحصول على أصدقاء، وعندها سينضمّون إلينا ويفوز الجميع."

"تعتقد لجنتي السياسية بأنه ستكون هناك حالة زعزعة للاستقرار على نطاق واسع."

"من يأبه لذلك؟ إن نتائج الاقتراع لصالحي ستتخطى كل التوقّعات. لا شيء ينشّط الأميركيين أكثر من التحلّق حول العلم، وأنا أخطّط لقيادة هذا البلد للسنوات السبع التالية. والعرب يحبّون عقد صفقات، وسيُدركون أن الوقت قد حان للتعاون سيّما إذا كان هذا الأمر يؤذي إسرائيل."

"يبدو أنك فكّرت بالأمر مُسبَقاً."

"لقد فكّرت بأمور أخرى في الأشهر القليلة الماضية. حاولت أن أحمل دانيلز على تبديل مواقفه، لكنه لا يلين عندما يتعلّق الأمر بالإسرائيليين. فهذه الدولة التافهة التي لا تتعدى مساحتها مساحة بعض المقاطعات الأميركية ستكون سبب دمارنا كلّنا، ولا أنوي السماح بحدوث هذا الأمر."

"عندما نلتقي في المرة القادمة،" قال هرمن، "ستكون أنت رئيس الولايات المتحدة."

"الفرد، إلى جانب الإرهابيين الذين يتولّون هذه المهمة، نحن الشخصان الوحيدان على الأرض اللذان يعرفان ما سيجري. لقد تأكدت من ذلك."

"كما سبق لي أن فعلت."

"إذاً، لندع الأمر يحدث ونستمتع معاً بالمكافأة."

الفصل الثالث والستون

حاول هرمن أن يقيّم الرجل الجالس على مقربة منه. كان نائب رئيس الولايات المتحدة بالفعل، ولكنه لم يكن مختلفاً عن عدد كبير من السياسيين النفعيّين الآخرين في مختلف أنحاء العالم الذين كان قد اشتراهم وباعهم؛ رجال ونساء توّاقون إلى السلطة ويفتقرون إلى الضمير. ويحب الاميركيون وصف أنفسهم بأنهم فوق ذلك النوع من اللوم، ولكن أيّاً منهم لم يكن قادراً على مقاومة الطموح. وهذا الرجل الموجود هنا، في مكتبته، في ليلة انعقاد الدورة الشتوية للجماعة، لم يكن استثناء. فقد تحدّث عن أهداف سياسية نبيلة وتبديلات في السياسة الخارجية، ولكنه كان منذ البداية مستعداً لخيانة بلده، ورئيسه، ونفسه.

حمداً لله.

لأن جماعة الجِزّة الذهبية قد ازدهرت بمعزل عن افتقار الآخرين إلى الأخلاق.

"الفرد،" قال نائب الرئيس. "أصدقني القول، هل فعلاً هناك دليل على عدم أحقيّة إسرائيل بالأرض المقدّسة وفقاً لما جاء في الكتاب المقدّس؟"

"بالطبع. لقد كان العهد القديم مصدراً رئيسياً للدراسة في مكتبة الإسكندرية. وقد تمّ تحليل العهد الجديد أيضاً، وبالتفصيل، في أواخر عهد المكتبة. ونحن نعلم ذلك انطلاقاً من المخطوطات التي نجت من التلف. ومن المنطقي الافتراض أن نصوص الكتاب المقدّس، بنسخته الأصلية الموضوعة بالعبرية القديمة، والتحاليل المرتبطة به، ما تزال موجودة."

ثم تذكّر ما جاء في التقرير الذي أرسله إليه سابر من روثنبرغ. فقد اغتالت إسرائيل ثلاثة آخرين ممن قام الحارس بزيارتهم، وكان كل واحد منهم قد شارك في

دراسة العهد القديم. وكان حدّاد نفسه قد تلقّى دعوة، وهل يمُنح هذا الشرف لسبب آخر؟ ولِمَ تحرّكت إسرائيل لقتل الفلسطيني؟

لا بدّ من وجود رابط.

"كنت في إنكلترا مؤخَّراً" قال نائب الرئيس، "ورأيت الكتاب المقدّس الذي خُطّ في سيناء. وقد قالوا لي إن تاريخه يعود للقرن الرابع، وهو أحد الكتب الأولى التي ما زالت موجودة للعهد القديم، وقد كُتب باليونانية."

"هناك سابقة مماثلة،" قال. "هل تعرف القصة؟"

"ليس تماماً."

أخبر هرمن ضيفه عن البحّاثة الألماني تيشندورف الذي كان يجول الشرق عام 1844 بحثاً عن مخطوطات قديمة. فزار دَير القديسة كاترين في سيناء وشاهد سلّة مليئة بثلاث وأربعين صفحة قديمة مكتوبة باليونانية القديمة. وقد قال له الرهبان إنهم سيحرقونها كوقود كما كان يفعل آخرون في السابق. وقد تبين لتيشندورف أن الصفحات منتزَعة من الكتاب المقدّس، وأن الرهبان سمحوا له بالاحتفاظ بها. وبعد خمسة عشر عاماً، عاد إلى دير القديسة كاترين نزولاً عند طلب القيصر الروسي. فسلّموه ما تبقّى من صفحات الكتاب المقدّس وتدبّر أمر إعادتها إلى روسيا. وفي النهاية، وبعد الثورة، باع الشيوعيون المخطوطات لبريطانيا التي لا زالت تقوم بعرضها حتى يومنا هذا."

"الكتاب المقدّس الذي خُطّ في سيناء،" قال هرمن، "هو إحدى المخطوطات الأولى التي نجت من التلَف. وقد ظنّ البعض أن قسطنطين نفسه منح تفويضاً بإعداده. ولكن لا تنس أنه مكتوب باليونانية، ولذلك قام شخص غير معروف من قِبَلنا بترجمته إلى العبرية استناداً إلى مخطوط أصلي غير معروف أيضاً. فماذا نستنتج من هذا الأمر في الواقع؟"

"أن رهبان دير القديسة كاترين ما يزالون يُصرّون بعد أكثر من مئة عام على أن كتابهم المقدّس لم تتمّ إعادته إليهم. وطوال عقود من الزمن، كانوا يلتمسون من الولايات المتحدة التدخل لدى بريطانيا. ولهذا السبب، ذهبتُ لرؤية ما تبقّى من الكتاب المقدّس، رغبةً منّي في معرفة سبب كل هذه الجلَبَة."

"إني أصفق لتيشندورف بسبب تمكّنه من الحصول عليه. فهؤلاء الرهبان كانوا لِيُحرقوه أو لِيدَعوه يتعفّن. ولسوء الحظ، فقد لقي كمّ كبير من معارفنا مصيراً مماثلاً. ولا يسعنا سوى أن نأمل في أن يكون الحراس أكثر حذَراً."

"إنك تصدّق هذا الأمور، أليس كذلك؟"

وفكّر ملياً في ما إذا كان يُفترَض به قول المزيد. فالأمور تتطوّر بسرعة، وهذا الرجل الذي سيصبح رئيساً في وقت قريب بحاجة إلى فهم الوضع.

فوقف وقال له.

"دعني أُريك شيئاً."



شعر ثورفالدسن فجأةً بالاهتمام عندما قام ألفرد هرمن من كرسيه ووضع كأسه على الطاولة. وجازف باستراق نظرة أخرى إلى الأسفل، وشاهد النمساوي يقود نائب الرئيس عبر الأرضيّة الخشبية باتجاه الدَرَج اللولبي. فعاين بسرعة الممرّ العُلوي الضيّق ووجد أن لا طريق آخر يؤدّي إلى الأسفل. كان هناك مزيد من الفجوات المخصَّصة للنوافذ تقطع استمرارية الرفوف في الجدران الثلاثة المتبقّية، ولكن لم يكن بإمكانه وغاري اللجوء إلى أيّ منها.

لا شك أن اكتشاف أمرهما سيتم بعد لحظات. غير أن هرمن ونائب الرئيس تجاهلا الدَّرَج وتوقّفا أمام خزانة زجاجية.



أشار هرمن إلى الخزانة المُضاءة، وكان في داخلها مخطوط قديم ظهرت الحُفَر على غلافه الخشبي وكأن الحشرات قامت بمهاجمته.

"إنه مخطوط يعود تاريخه أيضاً للقرن الرابع. وهو بحث يتناول تعاليم الكنيسة الأولى وضعه أوغسطين نفسه. وقد اشتراه والدي قبل عقود من الزمن، وهو لا يحمل أي معنى تاريخي ـ فهناك عدة نسخات عنه ـ ولكنه يبدو مثيراً للإعجاب."

فمدّ يده تحت المنصّة وضغط على زرّ يشبه أحد البراغي المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ. ومن محور قائم في إحدى الزوايا، فتح الثلث الأعلى من الخزانة بطريقة منفصلة عن البقيّة. وكانت تملأ ثلثيها تسع ملاءات من ورق البَرْدي الهش.

"من ناحية ثانية، هذه المعلومات ثمينة فعلاً. لقد اشتراها والدي منذ عقود من الشخص نفسه الذي باعه المخطوطة. وقد كتب بعضها يوسيبيوس جيرونيموس سوفرونيوس الذي عاش في القرنَين الرابع والخامس. وكان من آباء الكنيسة الكبار. لقد ترجم الكتاب المقدَّس من العبرية إلى اللاتينية مُنجزاً ما يُعرَف بالنسخة اللاتينية للكتاب المقدَّس التي اعتُمدت مرجعاً نهائياً. ويدعوه التاريخ باسم آخر، جيروم."

"إنك رجل غير عادي، يا ألفرد. فأغرب الأمور تثيرك. كيف يمكن لتلك الأوراق القديمة المتغضنة أن يكون لها أي معنى في الوقت الحاضر؟"

"أؤكد لك أنها ذات صلة وثيقة بالموضوع بما يكفي لإدخال تغيير على تفكيرنا ربما. فقد كتب بعضها أوغسطين أيضاً، وهي رسائل متبادَلة بين جيروم وأوغسطين." ثم لاحظ أن الأميركي لم يتأثّر بعد بما قال.

"هل كان هناك بريد في تلك الأيام؟"

"نوع بدائي من الخدمات البريدية. كان المسافرون في الاتجاه المناسب ينقلون الرسائل ذهاباً وإيّاباً. والرسائل هي أحد أفضل السجلات المتبقّية لنا منذ تلك الزمن."

"الآن أصبح الأمر مثيراً للاهتمام."

وبلغ هرمن النقطة الرئيسية. "هل تساءلت يوماً كيف ظهر الكتاب المقدَّس؟"

"لا، ليس بصفة خاصة."

"ماذا لو كان الأمر كله كذبة؟"

"إنها مسألة إيمان، يا ألفرد. ما المهمّ في الموضوع؟"

"إنه أمر مهم جداً. ماذا لو قرّر آباء الكنيسة الأوائل ـ أشخاص كجيروم وأوغسطين ممن حددوا منحى التفكير الديني ـ تغيير بعض الأمور؟ تذكر زمانهم: أربعمئة عام بعد المسيح، بعد وقت طويل من قيام قسطنطين بإجازة الدين المسيحي الجديد، فيما كانت الكنيسة تنبثق وتتجاهل الفلاسفة الذين يناقضون تعاليمها. كان العهد الجديد ينشأ آنذاك ويتمّ استيعاب مجموعة متنوعة من الأناجيل وترتيبها بطريقة توجَّه من خلالها رسالة موحَّدة: الله مُحِبّ ومتسامح، ولذا أرسل المسيح. ولكن كان هناك العهد القديم آنذاك الذي يؤمن به اليهود وأراد المسيحيون أن يكون جزءاً من دينهم أيضاً. ولحسن حظ آباء الكنيسة أولئك، كانت نصوص العهد القديم قليلة وكلّها مكتوبة بالعبرية القديمة."

"ولكنك قلتَ إن جيروم هذا ترجم الكتاب المقدَّس إلى اللاتينية."

"هذه هي فكرتي الأساسية بالتحديد." ومدّ يده إلى الخزانة وأخرج إحدى الملاءات ذات اللون الأسمر المائل إلى الصُّفرة. "كُتبت هذه باللاتينية، وهي اللغة المعتمَدة في عصر جيروم آنذاك." وكان تحت ورق الرَقّ صفحات مطبوعة، فأخرجها. "لقد عهدتُ إلى ثلاثة خبراء مختلفين بترجمة الرسائل بهدف التأكد من المحتوى. أريد أن أقرأ لك شيئاً ما، وعندها أعتقد أنك ستفهم ما أشير إليه."

'إني مُدرك لأهمية القدرة الضرورية لإقناع المتكبّر بمدى عظمة فضيلة التواضع التي ترفعنا لا بعجرفة بشرية بل بنعمة إلهيّة. إن مهمّتنا هي التأكيد على أن الروح البشرية تُرفَع وأن الرسالة واضحة من خلال كلمات المسيح. وقد ثبت أن أقوالك صحيحة عندما بدأتُ هذه المهمة. سيكون هذا العمل الذي أعمل عليه الترجمة الأولى للمخطوطات القديمة إلى لغة يمكن حتى لأكثر الأشخاص أميّة فهمها، فيبدو الرابط بين القديم والجديد منطقياً، وتبدو هذه المخطوطات أنها تأتي بعكس النتيجة المرجوّة في حال تضاربها وأنها لن تؤدّي إلاّ إلى ارتقاء الفلسفة اليهودية إلى مقام أعلى لأنها ظهرت قبل ظهور إيماننا بوقت بعيد. ومنذ آخر اتصال لنا في المرة الأخيرة، بذلت جهداً كبيراً لتحقيق تقدّم في ما يتعلّق بالنص القديم وذلك بسبب ازدواجية المعاني. مرة أخرى، ألتمس عونك في مسألة حسّاسة. القدس هي المدينة المقدّسة في النص القديم، وغالباً ما تُستخدَم كلمة أورشليم لتحديد المكان، ولكنني لاحظت أنها لم تُستخدَم أبداً في النص القديم، ومن الواضح أنها تعني "مدينة القدس". دعني أشرح لك المشكلة. باللغة العبرية، وفي سفر الملوك، قال يَهوَه لسليمان، "القدس، المدينة/ العاصمة التي اخترتُ فيها." وفي مكان آخر، يقول يَهوَه، "لتُحفَظ المدينة في القدس التي تُحيي ذِكرى داوود أمامي ـ المدينة التي اخترتُ لترسيخ اسمي." أخي، هل يمكنك ملاحظة المُعضلة؟ فالنص القديم يتحدث عن القدس لا كمدينة بل كموقع، وهي على الدوام "المدينة في القدس" لا القدس نفسها. ويتكلّم صموئيل عنها في الواقع كمنطقة فيُقال بالعبرية "إنطلق الملك ورجاله نحو القدس لمواجهة الذين كانوا يقيمون في المنطقة." لقد بذلت جهداً كبيراً في

الترجمة آملاً في اكتشاف بعض الأخطاء، ولكن المعنى متساوق وفقاً لاستخدامات اللغة العبرية. وتُستخدَم كلمة أورشليم للإشارة على الدوام إلى مكان يحتوي على عدد من المدن، ولا يوجد مدينة واحدة تحمل تلك الاسم.'

توقف هرمن عن القراءة وحدّق بنائب الرئيس. "كتب جيروم هذه الرسالة لأوغسطين بينما كان يترجم العهد القديم من العبرية إلى اللاتينية. دعني أقرأ لك ما كتب أوغسطين لجيروم في إحدى المراحل."

وبحث عن إحدى الترجمات الأخرى.

'أخي المطّلع، يبدو عملك شاقاً وعظيماً. كم من المشوّق الكشف عمّا دوّنه الكتّاب، وكل ذلك لمعونة إلهنا الأكثر عظمة. أنت على عِلم بالتأكيد بما نكابده جميعاً في هذه الأزمنة الأكثر خطورة. فإلهة الأوثان في زوال، وتنمو رسالة المسيح وتبدو كلمات السلام والرحمة والحب صادقة. ويكتشف العديدون رسالتنا الجديدة لأنها تصبح مُتاحة ببساطة، ممّا يجعل مسعاك لإحياء الكلمات القديمة أكثر أهمية. شرحت رسائلك بوضوح المشكلة التي تواجه، ولكن مستقبل هذه الكنيسة وإلهنا متروك لنا. وتكييف رسالة العهد القديم مع رسالة العهد الجديد لا يُعتبَر خطيئة. وكما قلتَ، تملك الكلمات العديد من المعاني المزدوجة، لذا من يمكنه القول إن أيّاً منها هو الصحيح؟ لا أنت أو أنا بالتأكيد. طلبتَ المساعدة، لذا سوف أمنحك إيّاها. إجعل الكلمات القديمة متماشية مع الكلمات الجديدة لأن القديم إذا كان مختلفاً عن الجديد فإننا سنواجه بالتأكيد خطر إرباك المؤمنين وإيقاد نيران الاستياء التي يعمل العديد من أعدائنا على إبقائها متّقدة. مهمّتك كبيرة، وإن تمكّن الجميع من قراءة الكلمات القديمة سيعني الكثير. لن يستأثر بعد اليوم البحّاثة والحاخامات بهذا النص الهام. لذا يا أخي، ابذل قُصارى جهدك ونحن على ثقة بأنك تقوم بعمل الله'.

"تقول إنهم غيّروا العهد القديم عَمداً؟" سأل نائب الرئيس.

"بالتأكيد. فمجرّد الإشارة إلى القدس هو خير مثال على ذلك. وترجمة جيروم التي ما تزال تُعتبَر صحيحة اليوم تشير إلى أن القدس مدينة. وسفر الملوك وفقاً لترجمة جيروم يقول، 'القدس، المدينة التي اخترتُ. وهذا مناقض تماماً لما كتب جيروم في رسالته. 'القدس، المدينة/ العاصمة التي اخترتُ فيها'. هناك فرق كبير، أليس كذلك؟ وهذا الوصف للقدس مذكور في كل مكان من الترجمة التي وضعها

جيروم. وأصبحت قدس العهد القديم المدينة القائمة في فلسطين لأن جيروم جعلها كذلك."

"هذا جنون، يا ألفرد. لن يقبل أحد بأي من هذه الأمور."

"من غير الضروري أن يقبل أحد بها. ما إن يتمّ العثور على البرهان حتى ينتفي أي إنكار."

"مثل ماذا؟"

"يُفترَض بمخطوط للعهد القديم كُتب قبل المسيح أن يكون حاسماً. عندها، يمكننا قراءة الكلمات كما هي دون تدخّل الفكر المسيحي."

"أتمنّى لك التوفيق."

"دعني أقول لك شيئاً. سأترك لك مهمّة حكم أميركا، واترك لي هذه القضيّة."



كان ثورفالدسن يراقب هرمن وهو يُعيد الملاءات إلى داخل خزانة العرض ويُقفل الحُجَيرة. بقي الرجلان في المكان لبضع دقائق ثمّ غادرا المكتبة. وكان الوقت قد بلغ ساعة متأخرة من الليل، ولكنه لم يكن يشعر بالنُّعاس.

"سيقومون باغتيال الرئيس،" قال غاري بعصبيّة.

"أعلم ذلك. تعالَ، علينا المغادرة."

نزلا الدّرَج اللولبي. وكانت المصابيح ما تزال مُضاءة في المكتبة. وتذكّر كيف كان هرمن يحب التباهي بوجود حوالى خمسة وعشرين ألف كتاب، العديد منها بنسخاتها الأصلية ويعود تاريخها لمئات السنين.

اقتاد غاري إلى الخزانة التي تحتوي على المخطوط. لم يكن الفتى قد شاهد بعد ما يملكه هرمن. فمدّ يده إلى الأسفل وبحث عن مفتاح كهربائي، ولكنه لم يشعر بشيء. والانحناء أمر صعب بالنسبة إلى ثورفالدسن لأنه من المصابين بعاهة في عموده الفقري.

"ما الذي تبحث عنه؟" سأل غاري.

"هناك طريقة لفتح هذه الخزانة. ألقِ نظرة وتحقّق ممّا إذا كان هناك زر في الأسفل."

فجثا غاري على ركبتَيه وبحث.

"أشك في أن يكون المفتاح ظاهراً بصورة جليّة." وحوّل انتباهه من الخزانة إلى الباب آملاً في ألا يدخل أحد فجأة. "هل وجدتَ شيئاً؟"

ثم سُمعت تكّة، وعلى أثرها فتح الجزء السفلي من الخزانة الذي يشكل ثلث ارتفاعها.

وقف غاري. "أحد البراغي. أمر مُتقَن تماماً. إذا لم تضغط عليه، فلن تعرف أبداً أنه مفتاح."

"عمل جيد."

كشف ثورفالدسن عن الحُجَيرة المخبّأة، وشاهد ملاءات البردي المتيبّسة وعليها الكتابات التي تحملها. فأحصاها: تسع ملاءات. ثم حدّق من حوله في رفوف الكتب ورأى الأطالس الأكبر حجماً من المعتاد. فأشار إليها، "أحضر لي أحد تلك الكتب الكبيرة."

سحب غاري كتاباً من الخزانة. ووضع ثورفالدسن بعناية أوراق البَرْدي والترجمات بين الصفحات لإخفائها وحمايتها في آن. وأعاد إقفال الخزانة.

"ما هذا؟" سأل غاري.

"هذا ما جئنا من أجله، كما آمل."

الفصل الرابع والستون

الجمعة، 7 تشرين الأول/ أكتوبر
الساعة 9:15 صباحاً

أسند مالون ظهره إلى الجدار الفاصل في طائرة النقل سي 130 إتش الواسعة. وكان برنت غرين قد عمل بسرعة على تدبّر أمر سفرهم بشكل متطفّل على متن رحلة تابعة للقوات الجوّيّة تنقل المؤن من إنكلترا إلى أفغانستان. وكانت هذه الطائرة قد توقفت في القاعدة الجوية مونتيجو في لِشبونة لإجراء تصليحات ثانوية وكما هو مفترَض. وهذا ما أتاح لهم الصعود على متنها دون أن يلاحظ أحد ذلك. وكانت الملابس جاهزة بانتظارهم، فارتدى مالون وبام وماك كولوم اللباس الرسمي الذي يتميز بدرجات مختلفة من البيج والأخضر والبنّي، إضافةً إلى الجزمات المخصصة للسير في الصحراء والمظلّات. كانت بام متخوّفة من الهبوط بالمظلّة، ولكنها قبلت بالتفسير الذي أعطاه لها مالون بأن هذ التجهيزات عادية.

استغرقت الرحلة من لِشبونة إلى سيناء ثماني ساعات، تمكّن خلالها مالون من الخلود إلى النوم لفترة قصيرة. فتذكّر من دون أي حنين الرحلات الجوّيّة الأخرى التي قضاها في وسائل نقل مختلفة، كما أن الستار الكثيف من الدخان الذي ينبعث من محرّك الطائرة النفّاثة أعاد إلى ذاكرته المرحلة التي كان فيها أصغر سنّاً. فقد كان يبقى بعيداً عن المنزل أكثر ممّا يتواجد فيه، وها هو الآن يكرّر الأخطاء التي تسبّب له ألماً.

من الواضح أن بام لم تحب الساعات الثلاث الأولى من الرحلة، وهو أمر مفهوم نظراً إلى أن توفير وسائل الراحة يعد من آخر اهتمامات القوات الجوية. ولكنها تقبّلت الأمر أخيراً واستغرقت في النوم.

أما ماك كولوم فكان مسألة أخرى.

فقد بدا مرتاحاً جداً، وقد ارتدى مظلته بدقة خبير. لعله كان في السابق منتسباً إلى القوات الخاصة. ولم يكن مالون قد تلقّى أي اتصال من غرين حول خلفية ماك كولوم، ولكن أيّاً تكن المعلومات، فإنها ستكون قليلة الأهميّة. فقد كانوا خارج أي اتصال، وفي خضم المجهول.

حدّق خارج النافذة.

كانت الأرض القاحلة المغطّاة بالغبار تمتدّ في كل اتجاه وكأنها نَجْد غير مستوٍ يتّجه صعُداً فيما تغدو شبه جزيرة سيناء أكثر ضيقاً وتتحوّل بعد ذلك إلى جبال شديدة الانحدار ذات ألوان بنية ورماديّة وحمراء بلون الغرانيت. ومن المفترَض أن تكون العلّيقة المحترقة وتجلّي يَهوَه قد حدثا هناك في الأسفل حيث قَفْر الخروج المديد والرهيب من مصر. وكان الرهبان والنسّاك قد اختاروا هذا المكان ملجأ لهم وكأن وحدتهم تقرّبهم من السماء؛ ولربما كانت كذلك. وتذكّر بطريقة غريبة تصوّر سارتر الذي اعتبر أن الجحيم ليس سوى الناس الآخرين.

ابتعد عن النافذة ورأى ماك كولوم يسير نحوه ويجلس على مقعد على إطار الألومينوم القائم على امتداد الحاجز العمودي. كانت بام مستلقية في الجهة المقابلة على بُعد عشرة أقدام، وما تزال نائمة. وكان مالون يتناول إحدى الوجبات الجاهزة - شرائح اللحم بالفُطر - ويشرب الماء من القنّينة.

"هل أكلت؟" سأل ماك كولوم.

"أثناء نومك. دجاج بالصلصة والتوابل، ليس سيّئاً. يذكّرني تماماً بالمآكل الجاهزة."

"تبدو معتاداً على الأمر."

"طالما قمتُ بمثل المهام."

وكانا قد انتزعا سِدادات الأذُن التي لا توفّر إلّا عزلاً محدوداً لهدير المحرّكات المستمر. وكانت الطائرة محمَّلة بمنصات لنقل قطع العربات إلى أفغانستان. وتخيّل مالون وجود العديد من الرحلات الجوية المماثلة كل أسبوع. وفيما كانت وسائل الإمداد تعتمد ذات مرة على الخيول، وعربات النقل المفتوحة والشاحنات، بات الجوّ والبحر يوفّران الآن الطرق الأسرع والأكثر أمناً.

"تبدو وكأنك معتاد على هذه الأسفار،" قال ماك كولوم.

"يذكرني هذا المكان بأمور عديدة."

وكان يختار كلماته بحذَر. فماك كولوم ما زال شخصاً مجهولاً حتى وإن كان قد ساعدهما على الخروج من بيليم سالمَين، إضافةً إلى أنه يقتل بدقة خبير ودون وازع ضمير. فما هو السبب الذي يدعوه للتعاون معه؟ إن بحوزته ضالّة البطل.

"لديك عدد وافر من العلاقات الجيدة،" قال ماك كولوم. "هل تدبّر المدّعي العام نفسه كل هذا العناء؟"

"لديّ أصدقاء بالفعل."

"إما أن تكون من السي آي إيه، أو المخابرات العسكرية، أو أي وكالة حكومية مماثلة."

"لا شيء ممّا ذكرتَ. أنا متقاعد."

وضحك ماك كولوم في سرّه. "إنك لا تحيد عن هذه الرواية؛ أنا أحبّها. متقاعد؛ صحيح. إنك غارق في أمر ما."

أنهى وجبة الطعام ولاحظ أن أحد أفراد الطاقم المسؤولين عن أعمال الشحن يراقبه بدقة. وتذكر أنهم قد يغدون سريعي الغضب بسبب طريقة رمي النفايات المتبقّية من المآكل الجاهزة. فأومأ الرجل وفهم مالون، وكانت الحاوية في الجانب الأبعد من المقعد الطويل.

ومن ثمّ، فتح الرجل المسؤول يده وأطبقها أربع مرات.

عشرون دقيقة.

فأومأ مالون برأسه.

الفصل الخامس والستون

فيينا

الساعة 8:30 صباحاً

جلس ثورفالدسن داخل الـ شمترلينغهاوس وفتح الأطلس. كان قد استيقظ مع غاري قبل ساعة، واستحمّا، وتناولا فطوراً خفيفاً. ثم توجّها إلى منزل الفراشات لا لتفادي أجهزة التنصُّت الإلكترونية فحسب، بل لانتظار ما هو محتّم أيضاً. فلن يمضي وقت قبل أن يكتشف هرمن السرقة.

كان الصباح وقتاً حرّاً بالنسبة إلى الأعضاء لأن الاجتماع التالي للجماعة لن يُدرج في جدول الأعمال حتى وقت متأخر من بعد الظهر. وكان ثورفالدسن قد أبقى طوال الليل، وتحت سريره، أوراق الرقّ داخل الأطلس. وهو الآن متشوّق لمعرفة المزيد. وبالرغم من كونه قادراً على قراءة اللاتينية، إلا أن معرفته باللغة اليونانية لا تعدو كونها في حدودها الدنيا، كما أن معرفته باليونانية القديمة معدومة وهي بالتأكيد لغة جيروم وأوغسطين. وكان ممتنّاً لأن هرمن أجرى الترجمات.

كان غاري جالساً قُبالته على كرسي آخر. "قلتَ الليلة الماضية إن هذه الأشياء هي التي جئنا من أجلها."

فقرّر أن الفتى يستحق معرفة الحقيقة. "لقد اختُطفت لكي يجبروا والدك على العثور على شيء ما خبّأه منذ سنوات. أظن أن ذلك الشيء وهذه الأوراق مرتبطة ببعضها البعض."

"وما هي؟"

"رسائل بين رجلَين مثقّفين؛ أوغسطين وجيروم، عاشا في القرنَين الرابع والخامس وعملا على صياغة الدين المسيحي."

"التاريخ. لقد بدأت أحب هذه المادة ولكن هناك الكثير من الأشياء التي علينا معرفتها."

فابتسم هنريك. "المشكلة اليوم هي أننا لا نملك إلا مستندات قليلة حول ذلك الزمن. لقد أتلفت الحروب والسياسات والزمن وإساءة الاستعمال تلك السجلات، ولكن هناك مدوَّنات مستقاة مباشَرةً من عقلَي الرجلَين المثقَّفين."

كان يعلم شيئاً ما عن الرجلَين. فقد وُلد أوغسطين في أفريقيا من والدة مسيحية ووالد وثنيّ. وفي النهاية، ارتدّ إلى الدين المسيحي في سنّ البلوغ ودوّن ما حقّقه من نجاحات في شبابه في *'الاعترافات'*، وهو كتاب كان يعلم ثورفالدسن أنه ما زال من الواجب قراءته في معظم الجامعات. ثم أصبح أسقفاً على هيبو، وقائداً مفكراً للكاثوليكية الأفريقية، ومدافعاً قوياً عن صحة المعتقَد، وقد نُسبت إليه صياغة معظم الآراء الأولى للكنيسة.

أما جيروم فهو أيضاً ابن عائلة وثنية وأمضى شبابه بطريقة غير سليمة. كان مثقَّفاً كذلك وانتهى به الأمر إلى أن بات يُعتبَر المفكر الأكبر بين كل آباء الكنيسة. عاش كناسك وكرّس ثلاثين سنة من حياته لترجمة الكتاب المقدَّس. ومنذ ذلك الحين، انكبّ على المكتبات لدرجة أنه أصبح شفيعاً لمالكيها.

ومن القليل الذي عرفه ثورفالدسن تلك الليلة أن هذين الرجلين اللذين عاشا في أنحاء مختلفة من العالم القديم كانا على اتصال ببعضهما البعض كما يبدو بينما كان جيروم يصوغ عمل العمر. وكان هرمن قد عبّر لنائب الرئيس عن إمكانية التلاعب بالكتاب المقدَّس، ولكنه كان بحاجة إلى فهم الوضع بشكل تام. لذا، عثر على الصفحات المترجَمة وشرع بالتمعّن بها، قارئاً المقاطع الإنكليزية بصوت مرتفع.

'أخي المطَّلع أوغسطين، اعتقدتُ في مرحلة من المراحل بأن النسخة اليونانية للعهد القديم عملاً رائعاً. قرأتُ ذلك النص في مكتبة الإسكندرية. وإن الاطّلاع على أفكار أولئك الكتّاب وهم يروون المتاعب التي مرّ بها الإسرائيليون أحيا في نفسي الإيمان الذي طالما ملأ روحي. ولكن هذا الفرح استُبدل الآن بالإرباك. ففي عملي لترجمة النص القديم، اتّضح لي وجود تحريفات كبيرة للحقيقة في النسخة اليونانية في العهد القديم بسبب وجود أخطاء متكرّرة. فالقدس ليست

مكاناً واحداً بل منطقة تحتوي على أماكن عدة. والأردن الذي هو الأكثر قداسة بين الأنهر ليس نهراً بل جُرفاً جبلياً. أما بالنسبة إلى أسماء الأماكن، فمعظمها مغلوط. والترجمة اليونانية غير مطابقة للأصل العبري، وكأنه تمّ تغيير المقطع بكامله لا عن جَهل بل عَمداً.

جيروم، إن مهمّتك صعبة، فابذُل ما بوسعك إكراماً لرسالتنا العظيمة. فما اكتشفتَه لم يمرّ مرور الكرام. لقد أمضيتُ أنا أيضاً قدراً كبيراً من الوقت في مكتبة الاسكندرية، والعديد منّا تمعّنوا في تلك المخطوطات. قرأتُ رواية لهيرودوتس الذي زار فلسطين في القرن الخامس قبل تجسّد ربّنا، وقد اكتشف أن المنطقة التي كانت تحت الحكم الفارسي يقطنها سوريون. لم يلاحظ وجود إسرائيليين أو يهود، لا القدس أو يهوذا. وجدت ذلك الأمر غير عادي نظراً إلى أن العهد القديم يذكر أنه، في ذلك الوقت، كان يتمّ إعادة بناء الهيكل اليهودي في القدس وكانت يهوذا تتمتّع بصفة الولاية الكبيرة. ولو حدثت هذه الأمور لكان ذلك اليوناني المثقّف قد لاحظ ذلك بسبب سمعته كمراقب شديد الحماسة. وقد وجدت أن مصدر المطابقة الأولى لإسرائيل القديمة مع ما ندعوه فلسطين هو الروماني سترابو. فـ 'سجلاته التاريخية' رواية مُتقَنة، واعتبرتُ قراءتها في المكتبة امتيازاً لي. وقد اكتمل عمل سترابو بعد ثلاثة وعشرين عاماً من ولادة ربّنا، لذا قام بالكتابة أثناء حياة المسيح على الأرض في الواقع. وأشار إلى أن اسم يهوذا أُطلق في بادئ الأمر على فلسطين إبّان الحكم اليوناني، والكلمة اليونانية التي تعني بلداً يهودياً هي لودايا *loudaia*. كان ذلك قبل قرن من ولادة ربّنا. لذا، وفي وقت ما بين زيارات هيرودوتس وسترابو التي كان يفصل بينها أربعمئة عام تقريباً، رسّخ يهود فلسطين وجودهم. وقد كتب سترابو بنفسه عن جماعة كبيرة من الإسرائيليين فرّوا من الأرض إلى الجنوب واستوطنوا في فلسطين. لم تتّضح الأرض التي انتقلوا منها، ولكنه استنتج منطقياً أن الخروج يجب أن يكون قد حدث من هناك إلى فلسطين نظراً لقرب مصر وسهولة دخول فلسطين. ولكن لا وجود لما يُثبت ذلك الاستنتاج. فقد أشار سترابو إلى أن مصدر قصته هم

يهود الإسكندرية الذين قضى بينهم كثيراً من الوقت. كان طَلْق اللسان بالعبرية ودوّن في 'سجلاته التاريخية' أنه وجد أيضاً أخطاء في النسخة اليونانية للعهد القديم. وكتب أن البحّاثة في مكتبة الإسكندرية الذين ترجموا النص القديم إلى اليونانية قاموا ببساطة بربط النص القديم بما علموا به من اليهود في ذلك الوقت. وقد كتب سترابو أن يهود الإسكندرية كانوا قد نسوا ماضيهم وبدا لهم أن من المريح ابتكار تاريخ آخر.

أخي المطّلع أوغسطين، لقد قرأت مدوّنات فلافيوس جوزفوس، وهو يهودي كان يكتب بثقة كبيرة. وقد عاش بعد قرن من ولادة ربّنا. من الواضح أنه يعتبر فلسطين والأرض المذكورة في النص القديم المكان نفسه، مشيراً إلى أن المنطقة هي المكان الوحيد الذي علم بوجود كيان سياسي يهودي فيه. وفي مرحلة لاحقة، أظهر يوسيبيوس القيصري تطابق أسماء مذكورة في النص القديم مع مواقع في فلسطين، وذلك لصالح أمبراطورنا الأكثر تبجيلاً قسطنطين. لقد قرأت كتابه 'حول أسماء الأماكن في النصوص المقدّسة'. ولكن بعد دراسة نص من العهد القديم بالعبرية، اتّضح لي أن عمل يوسيبيوس يشوبه عَيب ما. يبدو أنه استخدم بخفّة معانٍ نسبها إلى أسماء أماكن، وقام بالتحرّز ببساطة في بعض الحالات، ولكن عمله ذو أهمية كبيرة. فالمتديّنون والحجّاج الذين هم سريعو التصديق استخدموه دليلاً لهم.

أيها الصديق جيروم. يجب علينا إنجاز هذا العمل بمثابرة كبيرة. فديننا في طور التشكّل وهناك تهديدات من كل الجوانب. إن ما تحاول القيام به هو أمر حاسم بالنسبة إلى وجودنا. فمن شأن ترجمة النص القديم إلى اللاتينية السماح للكثيرين بقراءة تلك الكلمات. أحثّك على عدم تغيير ما بدأ به أولئك الذين وضعوا النسخة اليونانية للعهد القديم. لقد عاش المسيح ربنا في فلسطين، وعلينا أن نكون على رأي واحد خدمة لرسالة العهد الأحدث التي نقوم بصياغتها. أُدرك ما سبق لك أن قلت: إن النص القديم لا يبدو سجلاً تاريخياً للإسرائيليين في ما ندعوه فلسطين. لِمَ علينا تعليق أهميّة على تلك المسألة؟ فهدفنا

مختلف كثيراً عن هدف أولئك الذين وضعوا النسخة اليونانية للعهد القديم. ويجب على عهدنا الأحدث أن يكون مكمّلاً للقديم. فبهذه الطريقة فقط سيرقى معنى رسالتنا إلى مكانة أعلى من مكانة العهد القديم. وإنّ ربط القديم بالجديد سيُثبت مدى حيوية المسيح ربنا وأهميّة رسالته. والأخطاء التي لاحظتَ وجودها في النسخة اليونانية للعهد القديم ليست بحاجة إلى تصحيح. فكما كتبتَ، لقد نسي اليهود الذين ساعدوا أولئك المترجمين تاريخهم. فهم منذ زمن بعيد يعرفون شيئاً عن وجودهم باستثناء ما كان يحدث من حولهم في ذلك الوقت. لذلك، يُفترَض بفلسطين التي نعرف أن تبقى في ترجماتك فلسطين في العهدَين القديم والجديد. هذا هو واجبنا، يا أخي العزيز، هذه هي مهمّتنا. ومستقبل ديننا، والمسيح ربنا، أمانة بين أيدينا وهو يُلهمنا للعمل وفقاً لمشيئته.

وتوقّف ثورفالدسن عن القراءة.

فقد كان أمام أبوَين للكنيسة، ولعلهما الأكثر براعة بين الجميع، يبذلان جهداً لترجمة العهد القديم إلى اللاتينية. من الواضح أن جيروم كان عليماً بوجود مخطوط كُتِب بالعبرية الأصلية، وأشار إلى أخطاء في الترجمة السابقة إلى اليونانية. وكان أوغسطين على عِلم بهيرودوتس وسترابو - يُعرف عن الأول بأنه أب التاريخ، والثاني أب الجغرافيا؛ الأول يوناني، والآخر روماني؛ رجلان عاشا في قرون مختلفة وبدّلا العالم بشكل جوهري. وكانت 'جغرافيا' سترابو ما تزال موجودة وتُعتبَر من النصوص القديمة الأكثر قيمة، كاشفةً عن الكثير حول ذلك العالم وزمنه، ولكن 'سجلاته التاريخية' فُقِدت.

إذ لا وجود لأي نسخة منها.

ولكن أوغسطين كان قد قرأها في مكتبة الإسكندرية.

"ماذا يعني كل ذلك؟" سأل غاري.

"الكثير."

فإذا قامت الكنيسة الأولى بتلفيق ترجمة العهد القديم، مكيّفةً كلماته لكي تتلاءم مع أهدافه، فقد يكون لذلك معانٍ ضمنية كارثية.

كان هرمن مُحِقاً؛ فالمسيحيون سينضمّون إلى المعركة بالتأكيد.

دخل عقله في سباق مع ما كان يخطط شاغل الكرسي الأزرق له. كان يعلم من المحادثات التي جرت بينهما على مرّ السنين أن هرمن غير مؤمن، فهو ينظر إلى الدين كأداة سياسية، وإلى الإيمان كعُكاز للضعيف. وكان يشعر بمتعة كبيرة في مشاهدة الديانات الثلاث الرئيسية تناضل في مواجهة المعاني الضمنية التي تعتبر العهد القديم أمراً مختلفاً تماماً.

كانت الصفحات التي يحملها ثورفالدسن قيّمة. فهي تشكّل جزءاً من دليل هرمن، ولكن شاغل الكرسي الأزرق سيكون بحاجة إلى المزيد. من هنا الأهمية الكبرى لمكتبة الإسكندرية. فإذا كانت ما تزال موجودة، فقد تكون المصدر الوحيد الذي يمكنه تسليط الضوء على المسألة. وكانت تلك مشكلة مالون لأنه في طريقه إلى سيناء كما يبدو.

فتمنّى الخير لصديقه.

ثمّ إن، هناك رئيس الولايات المتحدة. فاغتياله مخطط ليوم الثلاثاء القادم.

وهذه مشكلة ثورفالدسن.

فأخرج هاتفه النقّال من جَيبه وطلب رقماً.

الفصل السادس والستون

شبه جزيرة سيناء

أيقظ مالون بام، فانتصب في كرسيّها وانتزعت سِدادات الأذن.

"لقد وصلنا،" قال لها.

ففركت عينَيها وتنشّطت. "هل بدأنا الهبوط؟"

"لقد وصلنا،" قال ثانيةً وسط هدير المحركات.

"كم مضى على نومي؟"

"بضع ساعات."

فوقفت وكانت مظلّتها ما تزال مشدودة إلى ظهرها. وكانت طائرة النقل تتخبط في الجوّ وتشق طريقها عبر هواء الصباح. "ما هو الوقت الباقي للهبوط؟"

"سنخرج من هنا قريباً. هل تناولت الطعام؟"

فهزّت رأسها نافيةً الأمر. "لا رغبة لي في ذلك. كنت أشعر بالغثيان ولكنني هدأت أخيراً."

"اشربي بعض الماء." وأشار إلى الحاملة.

ففتحت القنّينة وابتلعت بعض الجرعات. "هذا الشيء أشبه بركوب شاحنة من شاحنات سكّة حديدية."

فابتسم لها. "تشبيه جيد."

"هل أنت معتاد على السفر على متن هذه الطائرات؟"

"على الدوام."

"لا بد أن عملك كان قاسياً."

كانت هذه المرة الأولى التي يسمع فيها تسليماً بمهنته السابقة. "أنا الذي سعيت إلى ذلك."

"لقد بدأت أفهم الوضع فحسب. وما زلت مذهولة من تلك الساعة المزوَّدة بأداة تعقّب. ما أغباني حين ظننت أن الرجل يحبّني."

"لعله كان يحبك فعلاً."

"أنت مُحِق. لقد استغلّني، يا كوتون."

بدا الإقرار بالواقع مؤلماً. "استغلال الناس جزء من هذا العمل." وتوقف قليلاً، ثمّ أضاف، "جزء لم أحبّه أبداً."

وشربت مزيداً من الماء. "لقد استغللتك، يا كوتون."

كانت مُحِقّة في ذلك؛ فقد قامت بذلك حقاً.

"كان يُفترَض بي أن أخبرك بأمر غاري، ولكنني لم أفعل. وبالتالي من أكون لأحكم على أي كان؟"

لم يكن الوقت مناسباً لهذه المناقشة، ولكنها بدت له منزعجة بسبب كل ما حدث. "لا تقلقي، لننه هذا الموضوع. سنتحدث عنه في وقت لاحق."

"لست قلقة. أردتُ فقط أن تُدرك شعوري."

كانت هذه المرة الأولى أيضاً التي تقول فيها مثل هذه الأمور.

كان هناك أزيز مزعج في مؤخّرة الطائرة يرافق فتح الباب الخلفي المنحدِر. ثم دخل هواء لطيف في منطقة الحمولة.

"ماذا يجري؟" سألت.

"يقومون ببعض المهام الروتينية. تذكّري، ما زالت رحلتنا مستمرة. تراجعي في هذا الاتجاه وتوقفي حيث يقف المسؤول عن الشحن."

"لماذا؟"

"لأنهم يطلبون منا ذلك. سآتي معك."

"كيف حال صديقنا؟" سألت.

"فضولي. علينا نحن الإثنان أن نراقبه."

ثم أخذ يراقبها وهي تتجه إلى المؤخّرة، ثم عبر إلى القاطع العمودي في الجهة المقابلة وقال لماك كولوم، "حان وقت المغادرة."

وكان قد لاحظ أن ماك كولوم يراقبهما وهما يتحدّثان.

"هل تعلم؟"

"ليس بعد."

"الأمر قاسٍ عليها قليلاً، أليس كذلك؟"

"ليس إذا كنتَ على معرفة بها."

هزّ ماك كولوم رأسه. "ذكّرني بألا أثير الجانب السيّىء من شخصيتك."

"في الواقع، إنها نصيحة جيّدة."

ولاحظ المغزى من كلام مالون. "هو أمر مؤكّد، يا مالون. لستُ سوى الشخص الذي أنقذ حياتكما."

"ولهذا السبب أنت هنا."

"هذا كرم من قِبَلك باعتبار أنني أملك الضالّة."

وأخذ مالون يوضّب الحقيبة التي كان قد وضع فيها ما تركه جورج حدّاد إضافةً إلى كتاب القديس جيروم، وكانا قد استردّاها من المطار قبل مغادرة لِشبونة. ثم علّق الجعبة بصدره. "هنا يوجد ما حصلتُ عليه. لذا، فنحن متعادلان."

علّق ماك كولوم جعبة أخرى بصدره أيضاً، وكانت تحتوي على مؤن قد يكونون يحتاجون إليها: ماء، وحصص غذائية، وأجهزة لتحديد المواقع. ووفقاً للخارطة، فهناك قرية تقع على بُعد ثلاثة أميال من المكان الذي يتجهون إليه. فإذا لم يجدوا شيئاً، فبإمكانهم السير إلى هناك وسلوك طريق تمتدّ عشرين ميلاً تؤدّي إلى مطار بالقرب من جبل موسى ودَير القديسة كاترين، وكلاهما موقعان سياحيان شعبيّان.

فوضعا نظّارات واقية وخوذات واتجها إلى مؤخّرة الطائرة.

"ماذا سيفعلون؟" سألت بام بينما كان مالون يقترب منها.

كان عليه التسليم بأنها تبدو مُتعَبة جداً. "عليهم الهبوط بالمظلّات للقيام بعملية ما."

"مع هذه الحمولة؟ هل يرمونها إلى مكان محدَّد في الخارج؟"

انخفضت سرعة الطائرة إلى 120 عُقدة كانت ذاكرته صحيحة، ومالت مقدّمتها إلى الأعلى.

فوضع خوذة على رأس بام وشَبكَ بسرعة حزام العُنُق الخاص بها.

"ماذا تفعل؟" قالت بصوت مُرتبَك.

ثم وضع زوج نظّارات على عينَيها وقال، "لقد فُتح الباب الخلفي للطائرة. وعلينا جميعاً أن نفعل ذلك. إنه تدبير وقائي للحفاظ على السلامة."

ثم تحقّق من عدّتها وتأكد من أن الأحزمة الأربعة مثبّتة بمِشدّ الإطلاق السريع. وكان قد تحقّق من سلامة تجهيزاته أيضاً. فربط نفسه وبام بالحبل الأستاتيّ الذي كان أحد طرفَيه مشدوداً إلى مِظلّة الهبوط والآخر إلى الطائرة. ورأى أن ماك كولوم قد ربط نفسه أيضاً.

"كيف نهبط وذلك الباب الخلفي مفتوح،" صرخت.

فالتفت إليها وقال "لن تهبط بنا الطائرة."

ولاحظ أنها استوعبت الأمر على الفَور. "أنت تمزح، لا تتوقّع منّي أن ـ"

"سوف تُفتح تلقائياً. ليس عليك سوى التشبّث بها والاستمتاع بالرحلة. سيكون الهبوط بطيئاً. عندما تصطدمين بالأرض، سيكون الأمر أشبه بسقوط من ثلاثة أو أربعة أقدام."

"كوتون، لقد فقدتَ عقلك. ما يزال كتفي يؤلمني. لا مجال ـ"

وأشار لهم المسؤول عن الهبوط بأنهم باتوا قريبين من الإحداثيات التي أعطيت له. لذلك لم يكن هناك وقت للجدال. فرفعها من الخلف ببساطة ودفعها إلى الأمام.

فحاولت أن تتنصل من هذا الوضع. "كوتون، أرجوك. لا يمكنني القيام بذلك. أرجوك."

وألقى بها خارج الباب الخلفي للطائرة.

وسرعان ما خبا زعيقها.

كان يعلم بما تعانيه. ذلك أن قطع مسافة الخمسة عشر قدماً الأولى يعد سقوطاً غير خاضع لأي قيود، وكان المرء يدخل في حالة من انعدام الوزن، لأن الحبل الأستاتيّ يرافق الشخص الهابط حتى تلك المسافة قبل أن تفتح المِظلّة؛ وسوف تشعر بأن قلبها ينبض في مؤخّرة حَلقها. إنه في الواقع اندفاع كبير نحو الأسفل؛ سوف تشعر بشدّ عنيف بعد ذلك عندما يفتح الحبل الأستاتيّ المِظلّة. وكان مالون يراقب بام وهي تندفع في كبد سماء الصباح.

وجسمها يهتزّ بعنف. وبعد مرور أقل من خمس ثوان، أخذت تتجه برِفق نحو الأرض.

"سوف تشعر بخوف شديد،" قال ماك كولوم في أُذُنه.

وأبقى نظره على هبوطها. "أجل، لطالما أردتها أن تفعل ذلك."

الفصل السابع والستون

كان سابر متمسكاً بحبال المظلّة يستمتع بالانسياق نحو الأرض. وكان هواء الصباح والمظلّة الحديثة الطراز عاملين مساعدين لأن تكون عملية الهبوط بطيئة. وكان مالون قد أخبره عن المظلات التي تختلف كثيراً عن تلك التي كان يستخدمها من قَبل عندما كان يشعر لدى هبوطه كأنه حجر ساقط ويأمل في ألّا يكسر ساقه.

كان يتبع بام بانظاره مع مالون وقد اختفت بسرعة في الناحية الشرقية من السماء. أما طاقم الطائرة فلم يكن مهتمّاً بما إذا كان هبوطهم ناجحاً أم لا؛ فقد قاموا بعملهم على أكمل وجه.

وكان سابر يحدق بالبيئة بالفسيحة تحتهم.

أرض منبسطة وواسعة من الرمال والحجارة تمتدّ في كافة الاتجاهات. وكان قد سمع ألفرد هرمن يتحدّث عن جنوبي سيناء. إنها الصحراء الأكثر قدسيّة على وجه الأرض. فهي مهد الحضارة، والصلة بين أفريقيا وآسيا، ولكن المعارك تركت فيها ندوباً عميقة. إنها الأرض التي تعرّضت لأطول مدة من الحصار في العالم، وغزاها السوريون، والحثيّون، والأشوريون، والفُرس، والإغريق، والرومان، والصليبيون، والأتراك، والفرنسيون، والإنكليز، والمصريون، والإسرائيليون. وكان قد استمع مرات عدة إلى هرمن يتحدث عن أهمية المنطقة، وهو الآن على وشك اختبار الأمر مباشَرةً.

لعله الآن على بُعد ألف قدم من الأرض. كانت بام مالون تتحرّك بخفّة تحته، ومالون فوقه. كان الهدوء يطنّ في أُذُنيه - تباين واضح مع ضجيج الطائرة الذي لا يلين ولا يستكين. وتذكر الهدوء الذي كان يرافق هبوطه بالمظلات في الماضي. لم

يكن يُسمع هدير أي محرك؛ وكانت وحدها الريح قادرة على تعكير صفو الهدوء، ولكنها اليوم كانت ساكنة أيضاً.

على بُعد ربع ميل من المنظر الطبيعي القاحل ظهرت له تلال من الغرانيت القاتم لا تحمل أي علامات مميَّزة؛ فقط مزيج عشوائي وغير متناسق من القمم المستدقّة والصخور الشديدة الانحدار. هل مكتبة الإسكندرية هناك؟ بالتأكيد، فكل الدلائل تشير إلى ذلك.

وكان يواصل طيرانه باتجاه الأسفل.

وبالقرب من قاعدة إحدى التلال المسنَّنة الأطراف، وعلى بُعد ربع ميل تقريباً، شاهد مبنى منخفضاً. فعدّل مسار حبال توجيه المظلة ليهبط بالقرب من المكان التي ستهبط فيه بام مالون: وهو عبارة عن رقعة صحراوية واسعة لا حدود لها، وليس فيها صخور. أمر جيّد.

نظر إلى الأعلى وشاهد مالون فوقه.

لعل قتل هذا الرجل أصعب ممّا كان يظنّ في بادئ الأمر، ولكنه يحمل سلاحاً على الأقل. فقد احتفظ بالمسدس الذي حصل عليه في الدَّير، تماماً كما فعل مالون، إضافةً إلى مخازن احتياطية للذخيرة. وعندما استعاد وعيه في الكنيسة إثر ضربة على رأسه، كان مسدسه ما يزال بجانبه، ووجد هذا الأمر غريباً. ماذا كانت الغاية من ذلك الهجوم؟

من يأبه لذلك؟

إنه مستعد على الأقل.



جذب مالون حبال التوجيه ووجّه هبوطه نحو مكان معيَّن. كان معلّم القفز في قاعدة لِشبونة الجويّة قد أخبره بأن المظلات الجديدة مختلفة، وكان مُحِقّاً بذلك؛ فقد كانت قيادتها بطيئة وسلِسة. ولم يكن المسؤولون راغبين في أن تكون بام ضمن فريق البحث ـ فهي مجرد مبتدئة لن تستوعب عملية القفز إلّا بعد فوات الأوان ـ ولكن بما أن الأمر بالتعاون معها صدر عن البنتاغون مباشَرةً، لم يكن بإمكان أحد المجادلة.

"تبّاً لك، يا كوتون،" سمع بام تصرخ. "اذهب إلى الجحيم."

فألقى نظرة سريعة إلى الأسفل. كانت لا تزال تبعد خمسمئة قدم عن الأرض.

"إلوي ساقَيك فقط عندما تصطدمين بالأرض،" قال منادياً. "إنك تُبلين بلاء حسناً. ستقوم المظلّة بما تبقّى من عمليّة الهبوط."

"سوف أنتقم منك،" صرخت.

"لقد اعتدت ذلك، ولكن الأمر لم ينجح. استعدّي."

ثم راقبها وهي تصطدم بالأرض وتتدحرج عليها، بينما كانت المظلّة تتهاوى خلفها. ورأى ماك كولوم يفك حقيبة التجهيزات الخاصة به، فتتدلّى أمامه، ومن ثمّ تسقط على الأرض عند قدمَيه. فشدّ مالون حبال التوجيه وأبطأ هبوطه إلى أقصى حدّ. وفكّ حقيبة التجهيزات، وشعر بأن جزمتَيه تخترقان الرمال. فقد هبط هو أيضاً واقفاً على قدمَيه. وبالرغم من أنه لم يقفز بالمظلة منذ مدة، فقد كان سعيداً لمعرفته أنه ما زال قادراً على القيام بالأمر. فكّ قيود المظلّة وتحرّك متلوّياً للتخلّص من الأحزمة. كان ماك كولوم يقوم بالأمر نفسه، فيما كانت بام مستلقية على الأرض. لقد استخف بمشاعرها، عالماً بردة فعلها.

وقفت على قدمَيها منتصبة. "أيها الأحمق. لقد رميتني خارج تلك الطائرة اللعينة." وحاولت الاندفاع نحوه ولكنها لم تكن قد تخلّصت بعد من مظلّتها التي كانت تعمل كالمرساة، مقيِّدةً تحرّكها. فبقي مالون بعيداً عن متناولها.

"هل فقدتَ عقلك؟" صرخت. "لم تقل أبداً أي كلمة عن القفز من الطائرة."

"كيف كنتِ تظنّين أننا سنبلغ هذا المكان؟" سأل بهدوء.

"ألم تسمع أبداً عن الهبوط بالطائرة؟"

"إنها أرض مصرية. ووضعنا سيّئ بما في الكفاية لأنه كان علينا القفز في النهار، حتى أنني وجدتُ أن القفز في الليل أمر قاس."

فامتلأت عيناها الزرقاوان غضباً لم يسبق أن رأى مثيلاً له من قَبل.

"كان علينا الوصول إلى هنا دون أن يعلم الإسرائيليون بذلك، والهبوط بالطائرة أمر مستحيل. آمل في أنهم ما زالوا يقتفون أثر ساعتك التي لا تؤدّي إلى أي مكان."

"أنت معتوه، يا كوتون. معتوه بكل معنى الكلمة. لقد رميتني خارج تلك الطائرة."

"لقد فعلتُ، أليس كذلك؟"

وبدأت تتلمّس عدّة الهبوط، محاولةً تحرير جسمها من المظلّة.

"بام، هل ستهددني؟"

واستمرّت بالبحث عن المِشدّ المحرِّر، ومن ثمّ توقفت.

"كان علينا بلوغ هذا المكان،" قال لها. "وسيلة النقل تلك كانت مثالية لهذه الغاية. ما قمنا به هو أننا اضطُررنا للقفز لقطع المسافة المتبقية. هذه أرض جرداء ملائمة؛ أقل من ثلاثة أشخاص في الميل المربع. أشك في أن يرانا أحد. وكما قلتُ في السابق. أردتِ دائماً معرفة ما أقوم به. حسناً، هذا هو عملي."

"كان حريّاً بك أن تتركني في البرتغال."

"فكرة غير جيدة. قد يعتبرك الإسرائيليون لقمةً سائغة. من الأفضل لك التواري عن الأنظار معنا."

"لا، أنت لا تثق بي. من الأفضل لك أن أكون هنا حيث يمكنك مراقبتي."

"فكرتُ بهذا الأمر أيضاً."

ثم التزمتْ الصمت لبرهة من الزمن وكأنها بدأت تفهم الغاية من هذا الهبوط. "حسناً، يا كوتون،" قالت بنبرة هادئة وبطريقة مثيرة للدهشة. "لقد سجّلتَ موقفك. نحن هنا الآن سالمون. والآن، هل يمكنك إخراجي من هذا الشيء؟"

فاقترب منها وفكّ عدة الهبوط. فرفعت ذراعَيها وتركت الجعبة تقع أرضاً. ثم ركلته بركبتها اليمنى بين ساقَيه. فشعر بألم كالكهرباء يمتدّ عبر عموده الفِقري وصولاً إلى دماغه. وارتعدت ساقاه وانهار على الأرض، وكاد يُغمى عليه من الألم. لم يُلحق به أحد هذا العذاب منذ وقت طويل. فثنى جسمه كالجنين وانتظر لكي يزول الألم.

"آمل أن يكون هذا الأمر مفيداً لك أيضاً،" قالت وهي تبتعد عنه.

الفصل الثامن والستون

فيينا
الساعة 9:28 قبل الظهر

دخل هرمن إلى مكتبته وأقفل الباب. لم يكن قد نام جيداً، وكان أمامه القليل ممّا يمكن القيام به قبل أن يقوم ثورفالدسن باقتراف خطأ ما. ولكنه سوف يكون مستعداً لدى حدوث ذلك. لعله خسر سابر ولكن لا زال بإمكان أن يستخدم كادراً من الرجال الذين ينفّذون ما يأمرهم به بالتحديد. فقد أوضح له رئيس حرسه، وهو إيطالي، في أكثر من مناسبة أنه يرغب في أن يشغل منصب سابر. ولم يكن هرمن قد فكّر أبداً بطلبه مليّاً، ولكنه كان بحاجة إلى المساعدة بعد أن فقد كل أثر لمخالب النسر، لذا طلب من الرجل الاستعداد لتولّي المنصب.

كان يسعى إلى اعتماد الدبلوماسية أولاً كونها الخيار الأفضل على الدوام. فقد يتمكّن من إقناع ثورفالدسن إذا تيقّن الدانماركي من أن تقديم دليل للعالم يشير إلى تحوير العهد القديم قد يكون أداة سياسية فعّالة - إذا ما تمّ التعاطي مع الأمر بالشكل المناسب. وما أكثر المرات في التاريخ التي تُرجم فيها التشوّش والإرباك بشكل مكاسب ومنافع. فكل ما يثير الشرق الأوسط يؤثّر في أسعار النفط. ولن يتخلّى أعضاء الجماعة عن جني أرباح طائلة إدراكاً منهم بأن الآتي لن يقدَّر بثمن بعد التحقق من قيمته التي لا يمكن تصوّرها.

وسينال حليفهم الجديد في البيت الأبيض حصته من المكاسب أيضاً.

ولكن هرمن كان بحاجة إلى سابر لإنجاز كل هذه الأمور.

فما الذي يفعل في سيناء؟

وبرفقة كوتون مالون؟

بدا له ذلك فألاً حسناً. فقد كان مخطط سابر ينص على استدراج مالون للعثور على لغز الإسكندرية. وكان النجاح يعتمد بعد ذلك على مالون. وفي الحالتين سوف يتمكنان من جمع المعلومات ثم التخلص منه أو مشاركته لمعرفة إلى أين سيؤدّي بهما هذا الأمر. ومن الواضح أن سابر اعتمد الخيار الأخير.

كان يفكّر طيلة سنوات بما قد يحدث بعد وفاته، لأنه يعلم بأن مارغريت قد تكون سبب خراب العائلة. والأسوأ من ذلك أنها غافلة عن عدم كفاءتها. لقد حاول تعليمها، ولكن جهوده باءت بالفشل. والحق يُقال، إن فكرة احتجازها من قبل ثورفالدسن قد أعجبته. لعله يستطيع التخلص من المشكلة؟ ولكنه يشك في ذلك؛ فالدانماركي ليس قاتلاً مهما بلغ مدى حبّه للتظاهر بالشجاعة.

لقد بات في الواقع يميل إلى سابر. فهذا الرجل بشير نجاح. وهو يُصغي بانتباه ويتحرّك بسرعة، ولكن ليس بشكل اعتباطي. وكان قد فكر في كثير من الأحيان بأنه من الممكن أن يكون خلَفاً ممتازاً له؛ فلا وجود لأفراد آخرين من عائلة هرمن، ويجب عليه ضمان بقاء ثروته.

ولكن لِماذا لم يتصل به سابر؟

هل كانت تحدث أمور أخرى؟

طرد هذه الأفكار من رأسه وأخذ يركّز على وضعه الحالي. فالجمعية ستلتئم مجدّداً في وقت لاحق. وكان قد ألمح إلى المخطط في اليوم السابق، مشوّقاً الأعضاء لمعرفة المزيد، وسيتطرّق اليوم إلى النقطة الأساسية.

واتجه نحو حافظة أوراق تشكّل جزءاً من القسم السفلي من خزانة، وكان يحتفظ في داخلها. بخارطة كان قد كلّف بحّاثة بإعدادها قبل ثلاث سنوات. وهو البحّاثة نفسه الذي كان قد أوكله مهمّة التأكد من صحة نظرية حدّاد حول العهد القديم فوضع نتائج بحثه على خارطة. وكان قد أعلمه بمدى تطابق المواقع المذكورة في الكتاب المقدّس مع السِمات الجغرافية لمنطقة الصحراء.

نزع الخارطة.

وكانت صورتها قد خُزِّنت في ذاكرة الحاسوب في قاعة الاجتماعات، وسوف يرى الأعضاء قريباً ما كان قد أُعجب به منذ مدة طويلة. حتى أن مسألة الأبواب

الستة والعشرين لمدينة القدس المذكورة في أسفار العهد القديم كسفر الملوك، وسفر زكريا، وسفر نحميا، قد حُلَّت. فمدينة مسوَّرة بأربعة جدران لن يكون لها على الأرجح أكثر من أربع بوّابات، كلّ منها يقود إلى اتجاه. لذا، كانت الأبواب الستة والعشرين موضع شك منذ البدء. ولكن الكلمة العبرية المستخدَمة في العهد القديم والتي تعني "بوّابة" هي شعَر (*shaar*). وعلى غرار الكثير من الكلمات الأخرى، فإن لتلك الكلمة معنى مزدوج، أحدهما "ممرّ أو مضيق بين جبلَين". ومن المثير للاهتمام وجود ستة وعشرين معبراً على امتداد الجُرف الجبلي الذي يفصل القدس عن أرض يهوذا. وتذكر اندهاشه عندما تمّ شرح تلك الحقيقة له. فبوّابة المَلك، وبوّابة السجن، وبوّابة الينبوع، وبوّابة الوادي، وكل البوّابات الأخرى التي ذُكرت في العهد القديم يمكن ربطها بدقة تامّة تقريباً ـ من خلال قربها من القرى التي ما تزال موجودة حتى اليوم ـ بالممرّات الجبلية عبر جُرف الأردن القائم في الصحراء. فلا وجود لشيء مماثل في فلسطين، وإن بشكل طفيف. ويبدو الدليل غير قابل للنقاش.

ولم تَجرِ أحداث العهد القديم في فلسطين، بل حدثت عوضاً عن ذلك على بُعد مئات الأميال إلى الجنوب في الصحراء. كان جيروم وأوغسطين على عِلم بذلك، ولكنهما لم يكتفيا بإبقاء الأخطاء الواردة في النسخة اليونانية للكتاب المقدّس، بل ساعدا على توسيعها، مبدّلَين أكثر فأكثر في وقائع العهد القديم بحيث تبدو محتوياته نبوءة غير قابلة للجدَل بالنسبة إلى أناجيل العهد الجديد. ولم يكن مقدَّراً لليهود الاستمتاع باحتكار كلمة الله؛ فقد كان المسيحيون بحاجة إلى رابطٍ ما لينمو دينهم ويزدهر.

لذا، قاموا بابتكار هذا الرابط.

إن مجرد العثور على كتاب مقدَّس بالعبرية منذ ما قبل المسيح قد يُثبت أنه مخطوط غير قابل للجدَل، ولكن نسخة السجلّات التاريخية لسترابو قد تُجيب عن العديد من الأسئلة. وإذا كانت المكتبة ما تزال موجودة، فهو يأمل في أن يكون قد تمّ الاحتفاظ بأحد المخطوطَين.

اتّجه نحو الخزانة الزجاجية التي عرضها لنائب الرئيس في الليلة السابقة لم يكن الأميركي متأثراً بها، ولكن من يأبه لذلك؟ فالرئيس الجديد لأميركا سوف يشهد الفوضى العامّة التي سيُحدِثونها. ومع ذلك، فما زال يأمل في أن يكون ثورفالدسن أكثر تأثّراً بها لدى رؤيتها. انحنى وضغط على الزر، وفتح الخزانة، وظنّ للوهلة الأولى أن عينَيه تخدعانه.

فقد كانت فارغة.

لقد اختفت الرسائل والترجمات. ولكن كيف؟ لم يكن الفاعل نائب الرئيس، فقد رأى موكب السيارات التابع له يغادر القصر، ولا أحد غيره يعرف المخبأ.

ثمة تفسير واحد معقول.

ثورفالدسن.

فانطلق غاضباً نحو مكتبه مباشَرةً، ورفع سمّاعة الهاتف واتصل برئيس الحرس. ومن ثمّ فتح دُرجاً وتناول مسدسه.

تبّاً لمارغريت.

الفصل التاسع والستون

شبه جزيرة سيناء

بقيت ساقا مالون مترنحتَين وهو يشعر بألم بين ساقَيه. لم تقل بام الكثير منذ صدامهما، ولم يتدخّل ماك كولوم بالشجار، وكان تصرّفه ينمّ عن حكمة. ولم يكن بإمكان مالون التذمّر؛ فهو الذي سعى إلى هذه المواجهة، وقد استجابت بام لها.

وأخذ يحدّق في كل اتجاه بالهدوء الموحِش. كانت الشمس قد أشرقت بسرعة، والهواء حارّ كالفرن. وكان قد أخرج جهاز تحديد الموقع من جعبته وحدد موقع الإحداثيات الدقيقة التالية 28̊ 41.41N شمالاً، 33̊ 38.44E، ووجد أنها على بُعد أقل من ميل واحد.

"حسناً، يا ماك كولوم. ماذا نفعل الآن؟"

أخرج الرجل الآخر قطعة ورق من جَيبه وقرأ بصوت مرتفع: "'ومن ثمّ، وعلى غرار رعاة الرسام بوسّان، *الذين يُربكهم اللُغز*، سيغمرك نور الإلهام. أعد تجميع *الحجارة الأربع عشرة*، واعمل من ثمّ *بالزاوية القائمة والبركار* للعثور على *الطريق*. عند الظهر، تحسّس وجود *الضوء الأحمر*، وانظر *إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً*. ولكن انتبه للحروف. *الخطر يُحدِق* بالذي يصل بسرعة كبيرة. وإذا بقي مسارك صحيحاً، فإن *الطريق ستكون آمنة*."

"هذا كل ما تبقّى من الضالّة،" اختتم ماك كولوم.

أخذ مالون يقلّب الكلمات السرّيّة في ذهنه.

وارتمت بام على الأرض وشربت بعض الماء. "كان محور العجلة في إنكلترا

يحتوي على صورة لبوسّان. فماذا كانت؟ هل هو ضريح من نوع ما يوجد عليه كتابة؟ من الواضح أن توماس باينبريدج ترك عدداً قليلاً من التلميحات أيضاً."

كان مالون يفكّر بالأمر نفسه.

"هل ترى ذلك المبنى على الطريق هناك؟" سأل مالون ماك كولوم. "إلى الغرب، على بُعد ربع ميل تقريباً. تشير الإحداثيات إلى ذلك المكان."

"يبدو أن الدرب خالٍ من العقبات."

فوضع جعبته على كتفه، ووقفت بام فسألها، "كل ما تفعلينه ليس إلا تسجيلاً للمواقف؟"

فهزّت كتفَيها. "إرمني من طائرة أخرى وسترى ما الذي يحدث."

"هل أنتما على هذه الحال على الدوام؟" سأل ماك كولوم.

وكان قد همّ بالسير. "فقط عندما نكون معاً."

اقترب مالون من المبنى الذي رآه من الجوّ، وكان مؤثّراً: قليل الارتفاع وعريضاً، مع سقف من القرميد البالي، أساساته متقوّضة وكأن التراب يستعيدها. كانت الجدران الخارجية متساوية في الارتفاع والطول ولا يقطع تواصلها سوى نافذتَين مجردتين من أي شيء وتعلوان حوالى عشرة أقدام. كان الباب الأمامي لوحاً بالياً من خشب الأرز السميك معلّقاً بمفاصل حديدية سوداء مُعوجّة.

فركل الباب.

لم يرحّب بهم أحد سوى عِظاءة تبحث عن ملجأ لها على أرض ترابية.

"كوتون."

فاستدار. كانت بام تشير إلى نتوء صخري آخر. فاتّجه نحوه وهو يطحن بقدمَيه الرمل الجاف.

"إنه يشبه الضريح على ذلك النَّقش في باينبريدج هول،" قالت له.

ملاحظة جيدة. وأخذ يتمعّن بالمستطيل الذي يعلو بمقدار أربع كتل حجرية ويوجد فوقه سطح حجري مستدير. تفحّص جوانب النقوشات باحثاً عن أحرف معيَّنة ولا سيّما *'Et in arcadia ego'* لم يجد شيئاً، ولم يفاجئه ذلك لأن الصحراء كانت قد محت كل أثر منذ وقت طويل.

"إننا في الإحداثيات الصحيحة، وهذا الشيء يبدو مشابهاً للضريح نفسه الموجود على محور العَجلة."

فتنكّر ضالّة البطل: *'ومن ثمّ، وعلى غرار رعاة الرسام بوسّان، الذين يُربكهم اللُّغز، سيغمرك نور الإلهام.*

واتّكأ على الحجارة البالية.

"ماذا الآن، يا مالون؟" سأل ماك كولوم.

كانت بعض الربوات الصغيرة القائمة إلى يسارهم ترتفع شيئاً فشيئاً، وباطّراد، لتغدو جبالاً جرداء تقوم بين صخورها السوداء دروب عميقة. وكانت السماء متّقدة بتوهّج متزايد بينما تزحف الشمس مرتفعةً في كبد سماء منتصف النهار.

وأخذ يقلّب في عقله مزيداً ممّا جاء في الضالّة.

'أعِد تجميع الحجارة الأربع عشرة، واعمل من ثمّ بالزاوية القائمة والبِركار لإيجاد الطريق. عند الظهر، تحسس وجود الضوء الأحمر، وانظر إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً'.

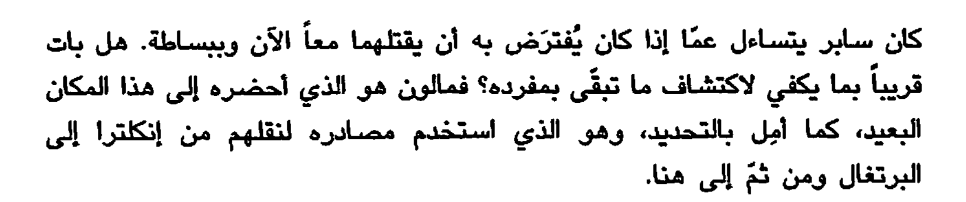
كان كل شيء في بيليم جليّاً في الواقع - مزيج من التاريخ والتكنولوجيا، وهذا المزيج هو الماركة المسجّلة للحرّاس كما يبدو. وبالرغم من كل شيء، كان يُراد للمدعو أن ينجح في مسعاه. وكان هذا الجزء يشكّل تحدّياً.

ولكن التغلّب على هذا التحدّي ليس مستحيلاً.

فأخذ يتفحص البناء المتصدّع والضريح المؤقّت.

ومن ثمّ رآها وأحصى عددها.

أربعة عشر.



كان سابر يتساءل عمّا إذا كان يُفترَض به أن يقتلهما معاً الآن وببساطة. هل بات قريباً بما يكفي لاكتشاف ما تبقّى بمفرده؟ فمالون هو الذي أحضره إلى هذا المكان البعيد، كما أمِل بالتحديد، وهو الذي استخدم مصادره لنقلهم من إنكلترا إلى البرتغال ومن ثمّ إلى هنا.

ولكنه آثر التروّي. فلم يكن قادراً على حلّ الضالّة بمفرده وبهذه السرعة.

لا شك في أن شاغل الكرسي الأزرق هو الآن بصدد البحث عنه بالتأكيد. فالجمعية في انعقاد، لذا أمِل في أن يمنحه هذا الأمر بعض الوقت حتى اليوم التالي. وكان يدرك مدى رغبة هرمن في معرفة ما إذا كان بحثه سيؤدّي إلى نتيجة. ويعرف كذلك ماذا يخطط له الرجل المُسنّ أيضاً، وكم أن مشاركته ستكون بالغة الأهمية وحاسمة في الأسبوع التالي. وكان قد تمّ استخدام ثلاثة مبعوثين للتفاوض مع بن لادن، فزار الثلاثة، وقتل اثنَين منهم وأبقى على حياة شخص واحد.

وهو يعتزم استخدام هذا الشخص مع المكتبة للمقايضة بهما.

لكن كل شيء حتى الآن يفترض العثور على شيء ما في هذا المكان.

فإذا لم يعثروا على شيء فسوف يقتل مالون وزوجته السابقة، ويأمل في أن يتمكّن من إكمال طريقه بعيداً عن المتاعب.



حدّق مالون بإحدى جهات المبنى المتصدّع. وعلى ارتفاع عشرة أقدام، لاحت له إحدى الفتحات غير المُغلَقة. فسار إلى الجهة الأخرى واستطلع البوّابة الثانية القائمة على الارتفاع نفسه.

ثم عاد بعد ذلك إلى حيث كان يقف كل من ماك كولوم وبام وقال، "أظنّ أنني اكتشفت الأمر. المبنى مربّع الشكل كما هي حال تلك الفتحتَين."

"'*إعمل بالزاوية القائمة والبِركار*'،" قالت بام.

وأومأ، وقال، "هاتان الفتحتان هم المفتاح."

"ماذا تعني؟" قال ماك كولوم. "من الصعب جداً الوصول إلى هناك."

"ليس بالضرورة. انظر حولك." كانت الجلاميد والصخور مبعثرة على الرمل. "هل تلاحظ أي شيء في الصخور؟"

صعدت بام على إحداها وجثمت فوقها. وكان يشاهدها وهي تلاطف جوانبها. "مربّعة الشكل ويبلغ طول كافة أطرافها حوالى القدَم؟"

"هذا صحيح. تذكري الإلماعة. '*أعِد تجميع الحجارة الأربع عشرة*، واعمل

من ثمّ بالزاوية القائمة والبركار لإيجاد الطريق. هناك أربعة عشر من تلك الأشياء المبعثَرة في هذا المكان."

فوقفت بام. "من الواضح أن لهذه الضالة بُعد ماديّ. لم يكن بإمكان أي شخص إعادة جمع هذه الحجارة. وأعتقد أن علينا أن نكدسها فوق بعضها البعض لبلوغ النافذة؟"

أسقط مالون جعبته.

وفعل ماك كولوم الأمر ذاته وقال، "هناك طريقة واحدة لمعرفة ماذا يوجد في الداخل."

تطلبت عملية جمع الأحجار المكعَّبة الشكل على صورة هرم عشرين دقيقة؛ ستة في الأسفل، ثمّ خمسة، وأخيراً ثلاثة. وإذا لزم الأمر يمكن وضع أحد الأحجار الثلاثة العلوية فوق الحجَرين الآخرَين للحصول على مزيد من الارتفاع، ولكن مالون قدّر أن هذه الركيزة ستفي بالغرض.

فصعد إلى الأعلى ووقف بشكل متوازن.

وحرص ماك كولوم وبام على أن يبقى الهرم ثابتاً.

أخذ مالون يحدّق عبر الفتحة المربّعة الشكل القائمة في جدار متقوّض. ورأى عبر الفتحة المقابلة، والتي تبعد اثنَي عشر قدَماً عن الأولى، جبالاً تبعد مسافة نصف ميل. *'عند الظهر، تحسس وجود الضوء الأحمر، وانظر إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً'*.

كان البناء المنكمش ذو السقف المنحدر موجَّهاً عن عمد من الشرق إلى الغرب.

لا، لم يكن هذا المبنى للسكن. بل كان بمثابة بوصلة موجَّهاً من الشرق إلى الغرب، تماماً مثلما كانت النافذة الوردية في بيليم.

إعمل من ثمّ بالزاوية والبوصلة لإيجاد الطريق.

تحقّق من ساعته.

في غضون ساعة من الآن، سوف يقوم بما هو مطلوب منه.

الفصل السبعون

مريلاند
الساعة 7:30 صباحاً

كانت ستيفاني تقود سيارة الرانج روفر التي أعطاها كان الرئيس دانيلز. وكان قد أعطاها مسدّسَين تابعَين لجهاز المخابرات ومخازن احتياطية من الذخيرة. لم تكن واثقة تماماً من المكان المتوجهّة إليه، ولكن من الوضح أنه كان يريدهما أن تبقيا على أهبة الاستعداد.

"تدركين أن هذه العربة يمكن تتبّعها إلكترونياً على الأرجح،" قالت كاسيوبيا.

"لا يمكننا سوى أن نأمل ذلك."

"وتدركين كذلك أن هذا الأمر ضرب من الجنون. ليس لدينا أي فكرة عمّن يمكننا الوثوق به، بمن فيهم رئيس الولايات المتحدة."

"لا إمكانية لنا للتحقق من ذلك. نحن بيدقان على رقعة من الشطرنج. ولكن يمكن للبيدق أن يهزم الملك إذا كان في موقع مناسب."

"ستيفاني، لقد جعلوا منّا طُعماً."

وافقتها الراي، ولكنها لم تقُل شيئاً.

ثم انطلقتا بسرعة معتدلة داخل مدينة صغيرة تبعد حوالى ثلاثين ميلاً شمال واشنطن، وهي إحدى الضواحي المأهولة والعديدة التي تُحيط بالعاصمة. وتبعاً للتوجيهات التي أُعطيت بها، وجدت المطعم ذا الواجهة الزجاجية القابع تحت ظلّة من الأشجار المورقة.

مطعم أونت بيز.

واحد من حد الأمكنة المفضّلة عند لاري دالي.

أوقفت السيارة ودخلتا إليه، واستقبلتهما الرائحة الحادّة للحم المشوي والبطاطا المقليّة. كان هناك بوفيه تتصاعد منها الأبخرة، وتتعرّض لهجوم من قِبَل أشخاص متلهّفين إلى تناول الطعام. اجتازنا مكان الصندوق وشاهدتا دالي جالساً بمفرده.

"تناولا شيئاً من الطعام،" قال لهما، "على حسابي." وكان أمامه طبق مليء بالبيض والبرغل وشريحة من اللحم المقلي.

وكما اتفقتا مسبقاً، انتقلت كاسيوبيا إلى طاولة أخرى حيث يمكنها مراقبة الغرفة. وجلست ستيفاني مع دالي. "لا شكراً." ولاحظت لافتة ملوّنة بالقرب من خط البوفيه تحمل صورة ثَورين باللون المرقط وبحجم أكبر من المعتاد محاطَين بشعار 'استرجع سُمنتك عند أونت بيز'. وأشارت إلى اللافتة. "ألهذا السبب تتناول طعامك هنا؟ لاستعادة سُمنتك."

"أحب هذا المكان، فهو يذكّرني بطعام والدتي. أعلم أنه يصعب عليك تصديق هذا الأمر، ولكنني بشر."

"لِمَ لا تقوم بإدارة وكالة بيليت؟ فأنت المسؤول الآن."

"لقد تمّت مناقشة الموضوع. إننا نواجه مشكلة أكثر إلحاحاً."

"كإنقاذك من المأزق الذي أنت فيه."

وأخذ يقطع شريحة اللحم. "هذه الأشياء رائعة. يجب أن تتناولي البعض منها. أنت بحاجة إلى بعض السُّمنة، يا ستيفاني."

"لطيف منك أن تلاحظ مظهري الأنيق. أين صديقتك؟"

"ليس لدي أي فكرة. أعتقد أنها كانت تضاجعني لكي تتمكّن من الحصول على المعلومات، وهو أمر لا أهمية له. وكنت أقوم بالشيء نفسه. مرة ثانيةً، وخلافاً لما تظنّين، لست أبلهاً بكل معنى الكلمة."

وكانت ستيفاني قد اتصلت بدالي منذ ساعتَين بناء لطلب دانيلز وطلبت لقاء معه. فوافق بحماسة. إلا أن الأمر الذي كان يزعجها هو أنه لو كان دانيلز يريدها أن تتحدث إلى دالي لما قام بمقاطعة لقائهما في المتحف. ولكنها أضافت ذلك الأمر المحيّر إلى لائحة الأمور المحيِّرة المتزايدة. "لم ننهِ محادثتنا بعد."

"حان الوقت لمراجعة الوقائع، يا ستيفاني. ما الذي تملكينه ضدي؟ احتفظي به؛ استخدميه؛ لا يهمّني الأمر. إن غرقت، سيغرق معي الرئيس أيضاً. أُصدِقك القول، اريد منكِ أن تعثري على ما أنا بصدده."

وجدت هذا الأمر صعب التصديق.

"أعرف كل شيء عن تحرّياتك. تلك المومس الذي وضعتها في طريقي؟ لستُ على هذه الدرجة من الحماقة. هل تظنّين أنها المرة الأولى التي تحاول فيها امرأة معرفة أمور عنّي؟ كنت أعرف أنك تجمعين معلومات عني، لذا سهّلتُ عليك عملية العثور على ما تريدين. ولكن الأمر تطلّبك مدة طويلة من الزمن."

"محاولة جيدة، يا لاري. ولكنك لن تستطيع إلهائي عن الحقيقة."

واعدّ مزيجاً من البيض والبرغل. "أعلم أنك لن تصدّقي أيّاً من هذه الأمور. ولكن هلّا نسيتي لمرة واحدة كرهك لي واستمعتِ إليّ فحسب؟"

"ولأجل ذلك أتيت".

"كنت أقوم ببعض الاستطلاعات المتطفّلة، والكثير من المراهنات والأعمال الغريبة. لست عليماً بأسرار الطُّغمة الحاكمة، ولكنني قريب بما يكفي من كشف بعض الأمور. عندما اكتشفتُ أنك تتحرَّين عنّي، حسِبتُ أنك ستفاتحينني بما توصّلتِ إليه، وعندها يمكننا التوصل إلى اتفاق."

"لِمَ لم تطلب المساعدة منّي فحسب؟"

"كوني واقعية. أنت لا تُطيقين الجلوس معي في الغرفة نفسها، فهل ستساعدينني؟ حسِبتُ أنك ما إن تطّلعين على أموري وترَين ما يحدث، تصبحين إذاك أكثر انفتاحاً وتقبّلاً للأمور، كما هو حالك الآن."

"هل ما زلت تقوم برشوة أعضاء الكونغرس؟"

"نعم، أنا وحوالى ألف شخص آخر من ممارسي الضغوط. تبًّا، يُفترَض بهذا الأمر أن يكون رياضة أولمبية."

ألقت نظرة سريعة على كاسيوبيا ولم تلحظ وجود ما يدعو لاتخاذ جانب الحذَر. فالعائلات والأزواج المسنّون يشغلون كافة الطاولات.

"إنسَي كل ذلك. فهذا آخر ما نهتمّ بشأنه،" قال دالي.

"لم أكن أعلم أن لدينا اهتمامات مشترَكة."

"تحدث أمور عديدة." وتناول جرعات قليلة من عصير الليمون. "تبّاً، لقد أضافوا إليه الكثير من السكّر، ولكنه جيد."

"إذا كنت تتناول كل هذه الكميّة من الطعام دائماً، فكيف تحافظ على رشاقتك؟"

"التوتّر. أفضل نظام غذائي في العالم." ووضع الكوب على الطاولة. "هناك مؤامرة جارية، يا ستيفاني."

"وما هو هدفها؟"

"تغيير الرئيس."

هذه معلومة جديدة.

"إنه الشيء المنطقي الوحيد." ودفع بطبقه جانباً. "نائب الرئيس موجود في أوروبا لحضور قمة اقتصادية. ولكن قيل لي إنه غادر فندقه في وقت متأخّر من ليلة أمس وذهب للقاء رجل يُدعى ألفرد هرمن. يُفترَض أنها زيارة مُجامَلة، ولكن نائب الرئيس ليس رجل مجاملات؛ إنه يقوم بأعماله لسبب ما. كان قد التقى هرمن قبل ذلك. لقد تحقّقت من الأمر."

"واكتشفتَ أن هرمن يرأس منظمة تُدعى جماعة الجِزّة الذهبية."

ارتسمت على وجه دالي نظرة اندهاش. "علمت أنك ستقدّمين المساعدة. إذاً كنت على عِلم بذلك."

"ما أريد معرفته هو سبب أهميّة أيّ من هذه الأمور."

"هذه المجموعة تسعى للحصول على نفوذ سياسي، وقد حقّقت ذلك في مختلف أنحاء العالم. هرمن ونائب الرئيس صديقان منذ مدة. لقد سمعت كلاماً عنه وعن الجماعة، ولكن نائب الرئيس يحتفظ بأفكاره لنفسه. أعرف أنه يريد أن يصبح رئيساً. وهو يقوم بخطوات متسارعة للمشاركة في الانتخابات الرئاسية، ولكنني أظن أنه يبحث عن طريق مختصَرة."

لم يكن دانيلز قد ذكر أي شيء عن هذا الموضوع.

"ما زلتِ تملكين تلك الذاكرات الأصبعية التي أخذتِها من منزلي؟"

فاومات براسها مؤكَدةً الأمر.

"يوجد على إحداها بعض التسجيلات الرقمية لمحادثات هاتفية. هناك القليل منها، ولكنها مثيرة للاهتمام. إنها مكالمات مع رئيس الأركان التابع لنائب الرئيس - غبيّ حقيقي إذا ما وجد أحد بهذه المواصفات. لقد سرّب المعلومات المتعلّقة بلغز الإسكندرية لألفرد هرمن مباشَرةً."

"وكيف تمكّنتَ من معرفة هذه الأمور؟"

"كنتُ هناك."

لم تُظهر على وجهها أي أمارات انفعال.

"كنتُ هناك معه. لذا قمت بتوثيق اللقاء بأكمله. لقد التقينا هرمن في نيويورك منذ خمسة أشهر، وزوّده بكافة المعلومات. عندها، أشركت ديكسون في هذا الأمر."

وهذه معلومة جديدة أيضاً.

"أجل، قصدتُها وأخبرتُها بما كان يجري للّغز. أخبرتُها أيضاً عن اللقاء مع هرمن."

"لم تكن خطوة نكيّة من جانبك."

"بدا الأمر كذلك في ذلك الحين. كان الإسرائيليون الحليف الوحيد الذي يمكنني السيطرة عليه. ولكنهم اعتقدوا أن ما يسعى إليه هرمن لن يسبّب لهم سوى المتاعب. وكل ما حصلتُ عليه هو أن أصبحت ديكسون حاضنة لي." وتناول مزيداً من جرعات العصير. "ولم يكن الأمر سيئاً."

"الآن بدأت أشعر بالغثَيان."

هزّ دالي رأسه. "لقد حدث ذلك بعد شهر من وجودي بمفردي مع رئيس الأركان. إنه غبيّ بالفعل، فما زال يحب التفاخر وهذا ما يوقع الأشخاص عادةً في المشاكل. تناولنا قليلاً من المشروب وصدرت عنه بعض التعليقات. حتى ذلك الوقت، كانت تنتابني بعض الشكوك. لذا، احتفظت بمسجلة جَيب معي، وقد حصلتُ تلك الليلة على معلومات جيدة."

وقفت كاسيوبيا وسارت في اتجاه الجدار الزجاجي. في الخارج، كانت السيارات تصل إلى الموقف المظلّل وتغادره.

"لقد تكلّم عن التعديل الخامس والعشرين، وكيف كان يدرسه ويطّلع على التفاصيل. سألني عمّا أعرف عنه، ولكن معلوماتي كانت محدودة. فادّعيت أنني غير مهتمّ بالموضوع وثمل، عِلماً أنني لم أكن كذلك."

كانت ستيفاني تعرف ما ينصّ عليه التعديل الخامس والعشرون.

'في حالة إقصاء *الرئيس* عن منصبه أو وفاته أو استقالته، يصبح نائب الرئيس رئيساً'.

الفصل الواحد والسبعون

شبه جزيرة سيناء

تحقق مالون من ساعته: وكانت تشير إلى 11:58 قبل الظهر. وكان قد ألقى نظرة سريعة عبر الفتحتَين مرة واحدة دون أن يرى شيئاً. وكانت بام وماك كولوم واقفَين في الأسفل بينما كان يقف بشكل متوازن فوق الأحجار الأربعة عشر.

حان وقت الظهر وسمعت جَلجَلة أجراس في البعيد.

"هذا مخيف،" قالت بام. "هنا في وسط المجهول."

فوافقها الرأي. "يبدو أنه صادر من مكان بعيد."'كأنه من *الجنّة*'، قال في نفسه.

وتوهّجت الشمس فوقه، وكان جسمه وبِزّته مبلَّلَين بالعرَق. فحدّق مجدَّداً عبر الفُتحتَين.

على امتداد أشعّة الشمس التي تتواصل إلى قمم الجبال، ظهر للعيان ما كان يبدو أنها كهوف للنساك تشبه العيون السوداء متناثرة في الجدار الصخري. ثمّ لاحظ أمراً ما: درب صخري متّجه نحو أعلى التلال الصغيرة. درب للجمال؟ وكان قد تحقّق من هذا المكان في لِشبونة قبل مغادرتهم وعرف أن جبال هذه المنطقة تُخفي في حناياها تجويفات خِصبة يدعوها البدو المحليّون فارش، وهذا يعني عادةً وجود ينبوع يعمد المقيمون في هذه البقعة من الأرض، مهما كان عددهم قليلاً، إلى استخراج المياه منه. كان دير القديسة كاترين القائم إلى الجنوب بالقرب من جبل موسى يشغل إحدى هذه التجويفات. وكان مالون قد افترض وجود المزيد منها في محيط الدِّير.

وشاهد اختفاء الظلال ولون جبال الغرانيت يتحول من اللون القصديري إلى الأحمر الشمندري. وظهر المسار الملتوي للطريق الذي يتجه نحو أعلى سفح التلة وقد بات كستنائيّ اللون يشبه الثعبان. وكانت الفتحتان تشكلان إطاراً للمشهد تجعلان منه لوحة.

'انظر إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً'.

"هل ترى شيئاً؟" سألت بام.

"كل شيء."



حدقت ستيفاني في وجه لاري دالي. "هل تقول لي إن نائب الرئيس يخطط لاغتيال الرئيس؟"

"هذا بالضبط ما أعتقد أنه يحدث."

"وكيف حدث أنك الوحيد على وجه الأرض الذي لاحظ هذا الأمر؟"

"لا أعلم، يا ستيفاني. قد أكون رجلاً ذكياً، ولكنني أعرف أن أمراً ما يحدث."

كانت تنوي معرفة المزيد. ولهذا السبب قام دانيلز بإرسالها.

"لاري، أنت تحاول إنقاذ نفسك ليس إلّا."

"ستيفاني، إنك كالشخص الذي يقوم بالبحث عن قطعة نقود ضائعة تحت ضوء الشارع. فيمرّ به رجل ويسأله عمّا يفعل، فيقول، 'أبحث عن قطعة نقود ضائعة'. فيقول الرجل، 'أين فقدتَه؟' ويشير الشخص إلى البعيد ويقول، 'هناك'. فيقول الرجل محيَّراً، و'لِمَ تبحث هنا؟' فيجيبه الشخص، 'لأن الضوء موجود هنا'. هذا هو حالك، يا ستيفاني. كُفّي عن البحث حيث يوجد الضوء، وابحثي في المكان الصحيح."

"إذاً، أعطني أموراً ملموسة."

"ليتني كنت قادراً على ذلك. الأمور الصغيرة هي التي تتجمّع معاً: لقاءات تجنَّب نائب الرئيس حضورها في حين أنه يُفترَض بمرشّح عدم تفويتها؛ وتخلّيه عن أشخاص يفترض أنه سيكون بحاجة إليهم؛ وعدم الاكتراث للحزب؛ ولا شيء

علني. أمور صغيرة لا يلاحظها إلا مُدمن مثلي على السياسة. هناك عدد قليل منّا فقط داخل حلقة الطُّغمة الحاكمة يعرفون هذه الأمور. هؤلاء الرجال يُبقون معلوماتهم سرّيّة."

"هل برنت غرين أحد أولئك الرجال؟"

"لا فكرة لديّ عن هذا الأمر، فبرنت رجل غريب، وهو بالنسبة إلى الجميع الشخص الذي يُتوقَّع فوزه. حاولتُ أن أضغط عليه يوم أمس وأهدّده، ولكنه لم يحرّك ساكناً. أردت أن أعرف ردة فعله. وعندما ظهرتِ بعد ذلك في منزلي وعثرتِ على الكتاب، علمتُ أن عليك أن تكوني حليفتي."

"قد يكون اختيارك خاطئاً، يا لاري. لا أصدّق كلمة واحدة ممّا تقول. فقتل رئيس أمر غير سهل."

"لا أعرف شيئاً عن ذلك الموضوع. ولكن كل من قام باغتيال رئيس ما أو كان يُعِدّ لذلك، كان مجنوناً أو أخرق أو محظوظاً. تخيّلي مدى احترافيّة هؤلاء الأشخاص."

وكان يُلمح إلى أمر ما.

"أين الذاكرات الإصبعية تلك؟" سألها.

"إنها بحوزتي."

"آمل ذلك لأنه إذا حصل عليها أي شخص آخر وقعنا في مشكلة. سيعرفون أنني ماضٍ في إثرهم، وسيكون من المستحيل عليّ شرح تسجيل محادثات رئيس الأركان التابع لنائب الرئيس. يجب أن تعيديها إليّ، يا ستيفاني."

"لن يحدث هذا الأمر. ولديّ اقتراح لك يا لاري. لِمَ لا تتخلّ عن الأمر وتعترف بقيامك برشوة الكونغرس وتطلب حماية فدرالية؟ عندها، يمكنك الكشف عن كل هذه الأمور لأي شخص مستعدّ للاستماع."

أسند ظهره إلى الكرسي. "تعلمين، ظننت أننا قد نكون قادرَين، ولو لمرة واحدة، على إجراء حديث بيننا ينمّ عن تمدّن. ولكن لا، فأنت تحبّين الزهوّ بالنفس. لقد قمتُ بما يمليه عليّ واجبي القيام به، يا ستيفاني، لأن هذا ما أراده الرئيس."

الآن، بدت مهتمّة.

"هل كان على عِلم بما كنتَ تفعل بالكونغرس؟"

"كيف ارتفعت برأيك أسهمي في البيت الأبيض؟ كان يريد لبعض الأمور أن تحدث، وقد حرصت بنفسي على حصولها. كان هذا الرئيس ناجحاً في الكونغرس، ممّا يفسّر أيضاً سهولة تمكّنه من الحصول على ولاية ثانية."

"هل تملك دليلاً على تورّطه؟"

"كتسجيل حديث لدانيلز على شريط؟ لا. هذه هي الحقيقة، يا ستيفاني. على أحدهم أن يتكفل الأمور. هكذا تجري الأمور في العالم. أنا رجل دانيلز. أعرف ذلك، وهو يعرف ذلك."

فألقت نظرة سريعة على كاسيوبيا وتذكرت ما قالته المرأة الأخرى وهما في طريقهما إلى ذلك المكان: إنهما لا يعرفان حقاً بمن تثقان، بمن في ذلك الرئيس.

وقف دالي ورمى دولارَين على الطاولة بقشيشاً. "في ذلك اليوم، ظننتِ أنت وغرين أن كل ذلك مرتبط بتخليد اسم دانيلز. لقد أخبرتك بما أردتِ سماعه لأهزهز لك وأساعدك على النوم." وهزّ دالي رأسه. "الأمر متعلّق باستمرارية دانيلز. أنتِ مجرّد مضيعة للوقت. سأعالج هذا الأمر بطريقة أخرى."



سار مالون أمام زوجته السابقة وماك كولوم في اتجاه أعلى الجَرف النحيل. كانت النسور والصقور الحائمة تجوب السماء فوقهم، وأشعة الشمس الذهبية تخترق دماغه وتغمر جسمه المتعرّق. وعلى امتداد الدرب، كانت طبقة رقيقة من الصخور تنتشر بشكل متبعثر، وكانت التربة السطحية الجافّة مؤلَّفة من رواسب غنيّة بالرمال والطَمي.

سلك مالون الطريق المتعرّجة نحو الأعلى حيث تداعت ثلاثة جلاميد ضخمة منذ زمن بعيد مشكّلةً نفقاً عبر القمّة. كانت ذرّات التراب الدقيقة تتساقط من الصخور مُحدثةً صوتاً يشبه صوت الماء. وبالرغم من حرارة الشمس، فقد كان الممر بارداً وافر الظلّ. ولاح الجانب الآخر على بُعد ثلاثين قدماً.

وأمامه، شاهد فجاةً وميضاً أحمر.

"هل ترَين ذلك الشيء؟" سألها.

"أجل،" قالت بام.

فتوقّفوا وشاهدوا الأمر يحدث ثانيةً. كانت أشعة شمس الظهيرة، أثناء مرورها بين الصخور الثلاثة الساقطة، تتلألأ على الغرانيت الاحمر وتُضفي على النفق اللون القرمزي. ظاهرة مثيرة.

'انظر إلى اللفافة اللامتناهية للحيّة المحمرّة غضَباً'.

"من الواضح أن هناك الكثير من الحيّات الحمراء الغاضبة في هذا المكان."

وفي منتصف الطريق، شاهد كلمات محفورة في الغرانيت. فتوقف وقرأ الكتابة اللاتينية، مترجِماً إيّاها بصوت مرتفع.

"لا تقترب من هنا: إخلع نعلَيك، فالمكان الذي تقف فيه أرض مقدَّسة." كان يعرف هذا المقطع. "إنه مأخوذ من سفر الخروج؛ ما قال الله لموسى عن العُلّيقة المشتعلة."

"هل حدث ذلك الأمر هنا؟" سألت بام.

"الله أعلم. لقد سلّمت الأديان الثلاثة بأن جبل موسى القائم إلى الجنوب على بُعد عشرين ميلاً هو المكان الذي شهد حدوث ذلك الأمر. ولكن من يعلم؟"

في آخر النفق، غمره وهج مفاجئ من الدفء، وأخذ يحدّق بينبوع تحيط به أشجار متفرقة من السَّرو. كانت السحب البيضاء الرقيقة تطارد بعضها البعض في السماء الصافية كالعشب المتطاير.

وعلى سفح التلّة الصغيرة البعيدة، ووسط جُروف صخريّة مدهشة، كانت تنبثق جدران ومبانٍ متلاصقة كأنها جزء من صخر. وكانت ألوانها - الأصفر، والبنّي، والأبيض - ممتزجة في عمل تمويهي، وكانت أبراج المراقبة تبدو وكأنها تطفو فوقها. كانت أشجار السَّرو بأشكالها المخروطية النحيلة ولونها الأخضر متباينة مع قرميد السقف البرتقالي الداكن. لم يكن هذا التباين في الحجم والشكل مرتبطاً بأساس منطقي. وكانت هذه الأشكال المجمَّعة تنكّر مالون بالفوضى الساحرة لقرية إيطالية قائمة على سفح تلّة.

"دَير؟" سألته بام.

"أشارت الخارطة إلى وجود ثلاثة أديرة في هذه المنطقة. لا يكشف أيّ منها عن سرّ كبير."

وكان هناك درب نُحتت أدراجها في الصخر تؤدي إلى الأسفل. كانت قوائم

الدَرج مرتفعة. وتتوالى الدرجات في مجموعات ثلاثية بين فسحات ممتدّة ومنحدرة من صخر أملس. وفي الأسفل. يجتاز درب آخر الينبوع مروراً ببحيرة صغيرة قائمة بين شجرات السّرو. ويتّجه بخط متعرّج نحو الأعلى في اتجاه مدخل الدَّير.

هذا هو المكان."

راقبت ستيفاني دالي وهو يغادر المطعم. فتوجّهت إليها كاسيوبيا وجلست إلى الطاولة، وسألتها، "هل من معلومات مفيدة؟"

"يقول إن دانيلز على عِلم بكل ما يقوم به."

"ماذا يستطيع أن يقول غير ذلك؟"

"لم ينكر دالي أبدا أننا كنا في كامب ديفيد ليلة أمس."

"لم يشاهدنا أحد باستثناء أولئك العملاء ودانيلز."

هذا صحيح. فقد نامتا في الكوخ بمفردهما، وكان هناك عميلَين في الخارج. وكان الطعام في الفرن بانتظارهما عندما استيقظتا. وقد اتصل دانيلز نفسه بهما وطلب منهما تدبّر أمر اللقاء مع دالي. فإمّا أن يكون دالي جاهلاً بأمر لقائهما مع الرئيس، أو أنه يرفض التكلّم عنه.

"لِمَاذا يريدنا الرئيس أن نلتقي به إذا كان يعرف أن دالي قد يُنكر صحة المعلومات التي أطلعنا عليها؟" سألت، وكان السؤال موجَّهاً إلى نفسها أكثر منه إلى كاسيوبيا.

"أضيفي ذلك السؤال إلى القائمة."

وأخذت تراقب دالي عبر الزجاج الأمامي وهو يجتاز بجهد موقف السيارات المفروش بالحصى، قاصداً سيارته اللاند روفر. لم يسبق لها أن أحبّت هذا الرجل أبداً، وعندما تأكد لها ذلك في نهاية الأمر شعرت بسعادة كبيرة.

ولكنها لم تكن واثقة من الأمر الآن.

وصل دالي سيارته في الجانب الأبعد من الموقف وصعد إليها.

وكانتا مضطرتين إلى المغادرة أيضاً. فقد حان الوقت للعثور على برنت غرين ومعرفة ماذا يحمل من معلومات. لم يكن دانيلز قد طلب منهما التحدّث إلى غرين، ولكنها ظنّت أنه من الأفضل لها القيام بذلك.

ولا سيّما الآن.

إلا أن انفجاراً هزَّ أساسات المبنى.

وبعد هَول الصدمة أدركت أن المطعم ما زال سليماً. ثم همدت الأصوات العالية التي ملأت المكان عندما أدرك الباقون بأن المبنى لم يُصَب بأذى.

كان كل شيء على ما يُرام.

باستثناء حدث في الخارج.

فحدّقت عبر الزجاج ورأت سيارة لاري دالي اللاند روفر تلتهمها النيران.

الفصل الثاني والسبعون

شبه جزيرة سيناء

اقترب مالون من البوّابة الخشبية المصفحة بالمعدن. كانت جدران الغرانيت الأحمر التي أحمتها حرارة الشمس والتي تقوم أساساتها على دِعامات ضخمة تنحدر باتجاه شرفة في منخفضة تنتصب فيها أشجار السَّرو والبرتقال والليمون والزيتون. وكانت الكروم تغطي قواعدها، والريح الدافئة تبعثر الرمل في جميع الاتجاهات.

لم يكن هناك ما يشير إلى الحياة.

فوق البوّابة، شاهد مالون مزيداً من الكتابات اللاتينية، وكانت هذه المرة مأخوذة من المزمور 118، وقرأ الإعلان:

هذه بوّابة الربّ
التي سيدخلها الأبرار

"ما الذي نفعله؟" سألت بام. ولاحظ أن الطبيعة العدائية للأرض تضاهي التدهور السريع لطبعها.

"أفترض أن هذا الحبل موجود لهذه الغاية،" قال لها. مُشيراً بيده.

في أعلى البوّابة، كان هناك جرس حديدي قائم داخل بُرج مفتوح. داس عليه وجذبه بقوة فرنّ الجرس عدة مرات. وكان على وشك أن يقرعه ثانيةً عندما فُتحت نافذة في أعلى البوّابة وظهر منها شاب ملتح يرتدي ثوباً من القش.

"كيف يمكنني مساعدتكم؟" سأل بالإنكليزية.

"لقد أتينا لزيارة المكتبة،" قال ماك كولوم.

"هذا ليس سوى نَير، مكان للعُزلة. ليس لدينا مكتبة."

كان مالون قد تساءل عن الكيفية التي تجعل الحراس واثقين من أن الشخص الذي يظهر أمام البوّابة هو مدعوّ. فقد تستغرق الرحلة وقتاً كبيراً، ولكنهم لم يواجهوا أي قيود في أي مرحلة من مراحل البحث. لذلك، لا بد من مواجهة تحدٍّ نهائي لم تُشر إليه الضالّة.

"نحن مدعوّون وقد أكملنا حلّ الضالّة،" صاح مجيباً. "نلتمس الدخول إلى المكتبة."

وأُقفل باب المدخل.

"كان هذا عملاً فظّاً،" قالت بام.

مسح مالون العرَق عن جبينه. "لن يفتحوا البوّابات لأيّ كان."

ثم فُتح باب المدخل ثانيةً وسأل الشاب، "ما اسمك؟"

همّ ماك كولوم بالكلام، ولكن مالون أمسكه من ذراعه. "دعني أقوم بالأمر،" قال له هامساً. ونظر إلى الأعلى وقال، "جورج حدّاد."

"من هم الذين برفقتك؟"

"شركائي."

ثبّت الشاب نظره على مالون وكأنه يحاول التأكد مما إذا كان رجلاً جديراً بالثقة.

"سؤال، إذا سمحتَ؟"

"إطرح ما شئت من الأسئلة."

"ما هي الطريق التي اتّبعتَ للوصول إلى هنا؟ أخبرني."

"إلى بيليم أوّلاً ونَير جيرونيموس، ومن ثمّ إلى موقع الانترنت Bethlehem.org، وأخيراً إلى هنا."

أُقفلت النافذة.

وسمع مالون صوت إزالة القضبان من وراء البوّابة، وبعد ذلك فُتحت الألواح الخشبيّة السميكة وخرج الشاب المُلتحي ماشياً الهُوَينى. كان يرتدي سروالاً

فضفاضاً يزداد ضيقاً حتى بطّة الساق، وجُبّة خمريّة اللون مثبّتة عند نطاق الخصر، وحزاماً بشكل جبل. وكان ينتعل خُفَّيْن في قدميه.

ثم توقّف أمام مالون وانحنى له. "أهلاً وسهلاً، سيد جورج حدّاد. لقد أتممتَ رحلة بحثك. هل ترغب في زيارة المكتبة؟"

"أرغب في ذلك."

وابتسم الشاب. "إذاً أدخل وجِد ما تبحث عنه."

ثم تبعوه في صفّ واحد عبر البوّابات إلى داخل ممرّ مُظلِم على جانبَيه جدارَان حجريّان مرتفعَان يمنعان أشعّة الشمس من بلوغ المكان. ثلاثون خطوة، ثمّ استداروا إلى اليمين وبلغوا ضوء النهار مجدّداً داخل الجدران في مكان مزدهر بالنباتات الخضراء وأشجار السَّرو والنخيل والكُروم والأزهار - حتى أن طاووساً كان يجول في المكان متباهياً.

ثم سمعوا صوتاً شبيهاً بعزف الناي يُطلق لحناً مهدّئاً. نظر مالون إلى مصدر الصوت فرأى موسيقيّاً يجلس على إحدى الشرفات المرتكزة إلى أقواس خشبيّة سميكة. كانت الأبنية قريبة من بعضها البعض، وكل منها مختلف عن الآخر في الحجم والشكل. وشاهد باحات، وأدراج، ودرابزين من الحديد، وقناطر مقبّبة، وسقوفاً مخروطية، وممراتٍ ضيّقة. وكان هناك قنطرة مائية صغيرة توجه الماء من ناحية إلى أخرى. بدا وكأن كل شيء قد برز مصادفةً، وذكّره الأمر بالقرى العائدة للعصور الوسطى.

وراحوا يتبعون صاحب قبعة القَش.

لم يرَ مالون سوى عازف الناي بالرغم من أن المجمّع نظيف ومرتّب. كانت أشعة الشمس تكافح لاختراق الستائر التي تحمي النوافذ، ولكنه لم يلاحظ أي حركة وراء الألواح الزجاجية. كانت هناك صفوف من المشاتل المُثقَلة بالبندورة ما تزال في حالة جيدة. ولفت انتباهه أمر واحد: ألواح شمسية مثبّتة على السطوح بتكتّم شديد، وعدد من الهوائيات اللاقطة يكمن كل منها وراء ستار خشبي أو حجري مظلّل بحيث تبدو وكأنها جزء من المباني - أشبه بعالم ديزني، قال مالون في نفسه، حيث تكون الحاجات الأساسية غير مرئيّة بسهولة.

توقّف صاحب القبعة أمام باب خشبي وفتح قفله بمفتاح نحاسي أكبر من المعتاد. فدخلوا قاعة طعام كهفيّة مزدانة بلوحات جدارية دينية عن موسى. وكانت

تفوح من الهواء رائحة النقانق والملفوف المتخمّر. كانت ألوان الألواح الخشبيّة في السقف تتناوب بين لون الشوكولا ولون الزبدة الصفراء، ويفصل بين اللوح والآخر لوح مطلي باللون الأزرق المرقط بالنجوم الذهبية.

"كانت رحلتكم طويلة بالتأكيد" قال صاحب القبعة. "لدينا المأكل والمشرَب."

كان يوجد على إحدى الطاولات صينيّة تحتوي على أرغفة سمراء وطاسات مليئة بالبندورة والبصل والزيت. وكان البلَح مكدَّساً في إحدى الطاسات، فيما تحتوي طاسة أخرى على رمّانات كبيرة، وتنبعث الأبخرة من إبريق للغلي، فاشتمّ رائحة الشاي.

"هذا لطف منك،" قال مالون.

"لطف حقيقي،" أضاف ماك كولوم. "ولكننا نرغب في رؤية المكتبة."

وكشف الوجه الأعجف للشاب عن سرعة غضبه، ولكن لبرهة من الزمن فقط. "نفضّل أن تأكلوا وترتاحوا. لعلكم تريدون أيضاً أن تغتسلوا قبل الدخول."

خطا ماك كولوم خطوة إلى الأمام. "لقد حللنا ضالّتك، ونرغب في رؤية المكتبة."

"في الواقع إن السيد حدّاد هو الذي حلّ الضالّة ويستحق الدخول. لم توجَّه الدَّعوة لك أو للمرأة." ثم التفت صاحب القبعة إلى مالون وقال . "بإشراك هذَين الإثنَين، تصبح الدعوة الموجَّهة إليك عادة باطلة."

"إذاً لِمَاذا أنا موجود هنا؟"

"لقد اعتبرناها حالة استثنائية."

"كيف عرفتَ من أكون؟"

"لقد عرفتَ طريق ضالّتك."

لم يُضِف صاحب القبعة أي شيء وغادر قاعة الطعام مقفلاً الباب وراءه. فوقفوا صامتين.

قالت بام أخيراً، "أني جائعة."

وكان مالون جائعاً أيضاً. فوضع جعبته على الطاولة. "إذاً لنلبّي حسن ضيافتهم."

الفصل الثالث والسبعون

مريلاند

اندفعت ستيفاني وكاسيوبيا إلى خارج المطعم. ولم يكن بإمكانها عمل أي شيء لإنقاذ لاري دالي. كانت سيارته المتفحّمة تحترق. وقد اقتصر الانفجار على السيارة دون غيرها، ولذلك كانت الأضرار اللاحقة بالسيارات الأخرى طفيفة.

ضربة موجَّهة.

"يجب أن نغادر هذا المكان،" قالت كاسيوبيا.

فوافقتها الرأي. سارعتا إلى سيارة الرانج وقفزتا إلى داخلها وجلست ستيفاني وراء المِقوَد. فأدخلت المفتاح، ولكنها تردّدت وسألت، "ماذا تعتقدين؟"

"ما لم يكن الرئيس قد وضع في سيارته متفجّرة، فنحن بخير. لم يقترب منها أحد بينما كنا في داخل المطعم."

أدارت المفتاح، وبدأ المحرّك بالهدير. ولم تبتعدا إلا قليلا حينما انعطفت إحدى سيارات الشرطة من إحدى الزوايا واندفعت إلى داخل موقف السيارات.

"ماذا أخبرك؟" سألت كاسيوبيا.

أوجزت ما دار بينهما من حديث. "أظن أنه مليء بالمفاجآت؛ مؤامرات لقتل دانيلز. ولكن الآن ـ"

ومرّت سيارة إسعاف بسرعة بقربهما في المجاز الآخر.

"لا حاجة بهم للاستعجال،" قالت. "لن يعرف أبداً ما الذي أصابه."

"أمر مأساوي تماماً" قالت كاسيوبيا. "هناك طرق عديدة أكثر هدوءاً لقتله."

"إلا إذا أرادوا لفت الانتباه إلى الحادثة. سيارة نائب مستشار الأمن القومي مفخَّخة؟ سوف تكون حدثاً كبيراً."

كانت تقود ببطء وبسرعة دون أن تتجاوز الحدّ الأقصى المسموح به، وتتبع طريقاً مؤدّياً إلى خارج المدينة ثمّ سلكت الطريق العام. وتوقفت عند أحد التقاطعات وانعطفت جنوباً.

"إلى أين نذهب الآن؟" سألت كاسيوبيا.

"يجب أن نعثر على غرين."

وبعد أن قطعتا خمسة أميال، ظهرت في المرآة سيارة تتبعهما وتقترب منهما بسرعة. وتوقَّعت ستيفاني أن تمرّ بجانبهما وتخفّف من سرعتها في المجاز الثاني على الطريق العام الفارغ تقريباً. وبدلاً من ذلك، بقيت سيارة الفورد الرياضية على مسافة قريبة جداً من المِصدّ الخلفي للرانج. ورأت شخصَين يجلسان في المقعد الأمامي للسيارة.

"لدينا رفقة."

وكانتا تسيران بسرعة ستين ميلاً في الساعة على طريق متعرجة عبر الريف الحرجيّ الذي تتوزع منه بعض المزارع هنا وهناك.

وظهر مسدس خارج نافذة المقعد الأمامي، وانطلقت رصاصة أصابت الزجاج دون أن تحطمه.

"بارك الله جهاز المخابرات،" قالت. "هذا الزجاج مضاد للرصاص."

"ولكن الإطارات ليست كذلك."

كانت كاسيوبيا مُحِقّة. فزادت من سرعتها ولكن الفورد أسرعت الخطى أيضاً. فانعطفت إلى اليسار سالكةً المجاز المخصَّص للسيارات القادمة، ثم أبطأت من سرعتها، لكي تسمح لسيارة الفورد باجتيازها. وعندئذٍ أخذ الرجل يطلق النار على جانب الرانج، ولكن الرصاصات كانت ترتد.

"السيارة مصفَّحة أيضاً،" قالت كاسيوبيا.

"يا لها من دبّابة. هل لديك فكرة عن هويّتهما؟"

"مطلق النار هو الذي كان يطاردنا في مركز التسوّق ذلك اليوم. لذا أعتقد أن العرب قد عثروا علينا."

"لا بدّ أنهما من أتباع دالي، وقد ظهرنا في الوقت غير المناسب."

"كم إننا محظوظتان."

أعادت سيارة الرانج إلى المجاز المتّجه جنوباً، وانطلقت في أثر سيارة الفورد. ثم أنزلت كاسيوبيا زجاج بابها وحطَمت زجاج سيارة الفورد الخلفي بطلقتَين. وحاولت سيارة الفورد القيام بمناورة مماثلة، سالكةً الجانب الآخر من الطريق، ولكن كان عليها العودة إلى المجاز المتجه جنوباً لتفادي الاصطدام بشاحنة مقتربة. واستفادت كاسيوبيا من الوضع لإطلاق رصاصة أخرى على الزجاج الخلفي. فأخرج الشخص الجالس بجانب السائق مسدسه من الخلف وصوّبه نحوها، ولكن كاسيوبيا أسكتته برصاصة أخرى.

"نواجه مزيداً من المشاكل،" قالت ستيفاني. "وراءنا سيارة أخرى."

كانت السيارة الأخرى ثابتة في مكانها على مَقرُبة من المِصَد الخلفي، وفيها رجلان أيضاً. فاستمرت بزيادة سرعتها لأن توقفها سيجعلها تحت رحمة أربعة مسلَحين.

بدت كاسيوبيا وكأنها تقيّم الوضع لاتخاذ قرار. "سأحاول أن أصيب إطارات السيارة التي أمامنا، ثم ننظر في أمر السيارة التي خلفنا."

وانطلقت رصاصة من الخارج، ومن ثمّ سُمع صوت دويّ.

شعرت ستيفاني بأن الجانب الخلفي الأيمن من الرانج ينحرف، وأدركت فجاةً ما الذي حدث. لقد أُصيب إطار سيارتهما. فضغطت على الفرامل محاولة أن تبقي العربة تحت سيطرتها.

وانطلقت رصاصة أخرى وارتجّ الجانب الخلفي الأيسر.

كانت تعرف أن الطلقات العادية لا تفجّر الإطارات بل تفرغها من الهواء، وأنه ليس أمامها سوى بضع دقائق قبل أن تصبح ختارات الإطارات على الأرض. فحافظت على سرعة السيارة مدركة أن ذلك يمنحهما ميلاً آخر تقريباً قبل التوقف أو نحو ذلك.

أعطتها كاسيوبيا مسدساً وبدّلت مخزن الذخيرة في سلاحها. فهما قادرتان

على استخدام دفاعات الرانج للاحتماء بها، وبعد ذلك ستكون هناك معركة حاسمة، خصوصاً أن الوقت المُبكر من الصباح والموقع الريفي قد وفّرا العُزلة والسريّة التامّة للمهاجمين.

انخفضت مؤخّرة السيارة، وأعلمها صوت صَقع المعادن بأن الرحلة قد انتهت.

أوقفت الرانج والتقطت المسدس.

وانزلقت الفورد الأمامية وتوقّفت بجانبها.

فيما اتّخذت السيارة الخلفية الجانب الآخر.

وخرج رجال مسلّحون من السيارتَين.



أجهز مالون على الرمّانات، وهي إحدى الفواكه المفضّلة لديه، وابتلع كوباً آخر من الشاي المرّ. كانوا قد بقوا بمفردهم لمدة خمس وأربعين دقيقة، رغم أنه لم يكن قادراً على التخلص من الشعور بأنهم مراقَبون. أخذ يستكشف المحيط بحذَر، محاولاً معرفة ما إذا كانت الغرفة مزوّدة بكاميرات للفيديو. كانت كل الطاولات فارغة، وحتى الخزانة القائمة إلى الحائط. وأخذ يتخيّل طقطقة الأطباق، واحتكاك الشوكات، والثرثرة المتعددة اللغات التي ترافق كل وجبة بالتأكيد. كان هناك باب مقفل من الجهة المقابلة افترَض مالون أنه يؤدّي إلى المطبخ. وكانت قاعة الطعام نفسها باردة ـ بفضل الجدران الحجرية السميكة، كما استنتج.

ثم فُتح الباب الخارجي ودخل صاحب القبّعة.

لاحظ مالون أن الشاب يتصرّف كالخادم، كما أنه يركّز على فكرة واحدة فقط قبل الانتقال إلى أخرى.

"سيد حدّاد، هل أنت جاهز لدخول المكتبة؟"

فأومأ مالون برأسه موافقاً. "معدتي مليئة وقد أخذت قسطاً كبيراً من الراحة."

"إذاً يمكننا الذهاب."

فجأة وثب ماك كولوم من كرسيّه، وكان مالون ينتظر ردّة فعله. "هل تمانع إذا ذهبنا إلى الحمّام أولاً؟"

فأومأ صاحب القبعة برأسه موافقاً على الطلب. "يمكنني اصطحابك إلى هناك، ولكن عليك العودة إلى هنا. السيد حدّاد هو المدعوّ."

ولوّح ماك كولوم بيدَيه موافقاً على الشرط. "حسناً، خذني فقط إلى الحمام."

"سيد حدّاد، هل تريد استخدام الحمامات؟" سأل صاحب القبعة.

فهزّ مالون رأسه. "هل أنت حارس؟"

"أجل."

وأخذ يتأمّل الوجه المستدير للشاب. كانت بشرته ناعمة بشكل مميَّز، وعظام وجنتَيه عالية، وعيناه البيضاويتا الشكل تنمّان عن مظهر شرقي. "كيف يمكنك تدبّر أمر هذا المكان مع هذا العدد القليل من الناس؟ لم نشاهد سوى شخص واحد."

"لم نواجه أي مشكلة أبداً."

"ماذا عن المتطفّلين؟" سأل ماك كولوم.

"السيد حدّاد رجل مثقَّف. فلا شيء يدعونا للخَشية."

تجاهل مالون الملاحظة. "اصطحبه إلى الحمّام. سننتظر هنا."

والتفت الحارس إلى بام.

"أنا بخير،" قالت له.

"سوف نعود في وقت قريب".



استعدّت ستيفاني لخوض المعركة. فقد قتل لاري دالي على يد أحد الأشخاص، وهم يريدون الآن قتلها. وكانت تشعر بغضب شديد بسبب إقحام كاسيوبيا في هذا النزاع، ولكن صديقتها اختارت ذلك بملء إرادتها. ولم ترَ أي خوف أو ندم بادياً عينَيّ كاسيوبيا، بل عزماً وتصميماً.

تقدّم الرجال الأربعة من سيارة الرانج.

"تولّي أمر الإثنَين في الأمام،" قالت كاسيوبيا. "سأتعامل مع الإثنَين الآخرَين في الخلف."

فأومأت برأسها موافقة.

واستعدّتا لفتح بابَيهما وإطلاق النار، فذلك أفضل من مجرد الجلوس وتمكين الرجال من مهاجمتهما متى شاؤوا. ولعل عنصر المفاجأة يمنحهما الأفضليّة لتحقيق النصر، على أنهما ستستخدمان الباب والنافذة دِرعاً لهما لأطول مدة ممكنة.

فجأةً سُمع صوت مكتوم أخذ يزداد حدة وبدأت السيارة بالاهتزاز.

شاهدت ستيفاني الرجلَين في الأمام يتفرّقان مع اندفاع موجة عارمة من الهواء فوق السيارة، وظهرت طوّافة تنحدر في اتجاههم.

ثمّ اقتربت سيارة أخرى وتوقّفت بسرعة، مُصدرةً صوتاً حاداً.

وسمعت دويّاً سريعاً من الطلقات سقط على أثرهما المسلّحان الموجودان في الأمام بسرعة جثّتَين هامدتَين. ألقت نظرة سريعة في المرآة القائمة أمامها لرؤية ما الذي يحدث في الخلف، ورأت السيارة الأخرى تحاول المغادرة وأحد المسلّحَين ملقى على الأرض مَيتاً على الطريق العام.

حاولت السيارة أن تستدير.

وكانت الطوّافة ثابتة في الهواء على ارتفاع خمسين قدماً. ثم فُتح باب جانبي فيها وظهر منه رجل يحمل بندقية. انطلقت الطوّافة بموازاة السيارة الفارّة، وانطلقت من بندقية الرجل عدة طلقات. وانحرفت السيارة بقوة إلى اليسار واصطدمت بشجرة وتحطّمت.

كان الرجلان في الأمام ممدَّدَين على الرصيف وهما ينزفان.

ففتحت باب الرانج.

"هل الجميع بخير هناك؟" قال صوت نُكوري.

فاستدارت، ورأت رجل المخابرات الذي التقت به في المتحف يقف إلى جانب السيارة الأخرى المتوقفة.

"أجل. نحن بخير."

ورنّ هاتفها النقّال داخل الرانج. فالتقطته وأجابت.

"فكّرتُ أنك قد تحتاجين إلى بعض المساعدة،" قال دانيلز.



تبع سابر الحارس إلى الخارج مروراً بممرّات ضيّقة وملتوية وسط مجموعة من الأبنية الهادئة. وكانت الشمس تورف ظلالاً طويلة على امتداد السطوح وعبر الشارع الوّعِر. إنها مدينة أشباح، قال في نفسه؛ مدينة ميتة، ومع ذلك فهي حيّة.

ثم اصطحبه الحارس إلى مبنى آخر يوجد في داخله حمّام مرصوف بالرصاص. كان فيه وعاء قصديري مدلّى من السقف يزود الحمّام بالماء. فقرّر أن الوقت قد حان، واستل المسدس الذي حمله معه من الدَّير، وخرج من الحمّام، ووجه ماسورة المسدّس إلى وجه الشاب.

"إلى المكتبة."

"لستَ المدعوّ."

فقال موضحاً، "ما رأيك بهذا؟ أُطلق النار على رأسك وأعثر عليها بنفسي."

بدا الرجل الآخر مُربكاً أكثر منه خائفاً.

"اتبعني."

الفصل الرابع والسبعون

فيينا

عِلم هرمن بسرعة أن ثورفالدسن قد توجّه قبل ذلك الحين إلى الـ شمترلينغهاوس. فتوجّه بنفسه أيضاً إلى المكان يتبعه رئيس حرسه، وهو رجل قويّ البنية ذو بشرة بلون زيتوني داكن وشخصية متحمّسة. ولم يكن يرغب في لفت انتباه الآخرين، ولذلك بقي على مسافة منه يبتسم ويحيّي الأعضاء الذين كانوا يتنقّلون بشكل غير منتظم في الحديقة القريبة من المنزل.

كان يحب المكان الذي قصده ثورفالدسن، وكان هذا المبنى بعيداً بما يكفي ليتمكّن من معالجة مشكلته بسريّة. وهذا ما كان بحاجة إليه بالضبط.



رأى ثورفالدسن مضيفه قادماً من خلال النبتات والجدران الزجاجية. ولاحظ مِشيته العازمة وسلوكه الذي يعبّر عن قصد معيّن. وعرف أيضاً رئيس الحرس.

"غاري، السيد هرمن في طريقه إلى هنا. أريد منك أن تنسحب إلى الجهة الخلفية والاختباء بين النباتات لأنه سوف يكون على الأرجح في مزاج سيّئ وعليّ التعاطي معه. لا أريدك أن تتدخل إلا متى استدعيتك. هل يمكنك القيام بهذا الأمر لأجلي؟"

فأومأ الفتى برأسه موافقاً.

"انصرف وابقَ هادئاً."

هرول الفتى على درب شقّت طريقها عبر ممرّ وعِر وسط الغابة المطريّة المغروسة، واختفى بين أوراق الشجر.



توقف هرمن في الخارج. "انتظر هنا،" قال لرئيس الحرس. "لا أريد إزعاجاً من أحد، وعليك أن تؤمن لي ذلك."

ثمّ فتح الباب الخشبي وشقّ طريقه عبر الستارة البلاستيكية. وأخذت الفراشات تطير في مسارات متعرّجة صامتة عبر الهواء الدافئ، ولم تكن الموسيقى المصاحبة لها قد شُغِّلت بعد. كان ثورفالدسن يجلس في إحدى الكراسي التي جلس عليها مع سابر منذ يومَين. وشاهد على الفور الرسائل وأخرج مسدسه من جَيبه.

"لديك أشياء تخصّني،" قال بنبرة حازمة.

"هذا صحيح، ويبدو أنك تريد استرجاعها."

"لم يعُد الأمر مسلّياً، يا هنريك."

"لديّ ابنتك."

"قرّرت أن بإمكاني العيش بدونها."

"أنا واثق من أنك قادر على ذلك. وأتساءل إن كانت قادرة على ذلك."

"أقل ما في الأمرِ أن لديّ وريثاً."

أثّر هذا الكلام في نفس ثورفالدسن كثيراً. "هل تشعر بتحسّن لدى قولك هذا؟"

"إلى حدّ بعيد. ولكن كما سبق لك أن قلت، وكنتَ على صواب في هذا الشأن، ستكون مارغريت على الأرجح سبب خراب هذه العائلة بعد وفاتي."

"ربما كانت تُشبه والدتها؟ وعلى ما أذكره فقد كانت امرأة عاطفية أيضاً."

"من عدة نواحٍ. ولكنني لن أدع مارغريت تقف في طريق نجاحنا. إن كنت تنوي إلحاق الأذى بها، افعل ذلك. أريد استعادة ما يخصّني."

لوّح ثورفالدسن بالرسائل. "أفترض أنك قرأت هذه؟"

"عدة مرات."

"لطالما كنت تتكلم بشكل قاطع عندما يتعلّق الأمر بالكتاب المقدّس. كانت انتقاداتك مُلفتة للانتباه، وعليّ القول إنها مُقنعة جداً." وتوقف ثورفالدسن قليلاً ثم أضاف: "كنت أفكر بأمر ما. هناك مليارا مسيحي، وأكثر بقليل من مليار مسلم، وحوالى 15 مليون يهودي. والكلمات الموجودة على هذه الصفحات ستُغضبهم جميعاً."

"هذا عَيب الدين: لا احترام للحقيقة. فأيّ من هذه الأديان لا يكترث لما هو حقيقي، بل لما يُصوَّر للناس بأنه الحقيقة."

هزّ ثورفالدسن كتفَيه. "سيكون على المسيحيين أن يواجهوا واقع أن كتابهما المقدّس، بعهدَيه القديم والجديد، مختلَق. وسيعلم اليهود أن العهد القديم هو سجلّ لسيرة أسلافهم في مكان آخر غير فلسطين. وسينتهي المسلمون إلى الارتياب في معرفة الموقع الصحيح لأماكنهم المقدّسة."

"لا وقت لديّ لذلك، يا هنريك. أعطني الرسائل، وعندئذٍ سوف يرافقك رئيس الحرس إلى خارج القصر." .

"وكيف سيتمّ شرح ذلك للأعضاء؟"

"لقد استُدعيت للعودة إلى الدانمارك؛ أعمال طارئة." وألقى نظرة سريعة من حوله. "أين ابن مالون؟"

هزّ ثورفالدسن كتفَيه. "يسلّي نفسه في مكان ما من القصر. لقد طلبتُ منه أن يبقى بعيداً عن المشاكل."

"كان يُفترَض بك أن تأخذ بتلك النصيحة بنفسك. أنا على عِلم بصلاتك بإسرائيل، وأفترض أنك أخبرتهم بما نخطط له. ولكنني واثق من أنهم أخبروك أننا نبحث عن مكتبة الإسكندرية مثلهم. لقد حاولوا منعنا ولكنهم فشلوا في ذلك حتى الآن، وبات من المستحيل عليهم تحقيق أي نجاح."

"إنك تثق برجُلِك ثقة تامّة. قد يخذلك."

لم يكن بإمكان هرمن الإفصاح عن رَيبته. ولكنه أعلن عِوَضاً عن ذلك بوقاحة، "أبداً."



وقف مالون وأخرج مسدسه من جعبته.

"كنت أتساءل عن المدة التي ستبقى فيها جالساً هنا،" قالت بام.

"بما يكفي لمعرفة أن صديقنا لن يعود."

علّق جعبته بكتفه وفتح الباب الخارجي. لم يسمع أي همهمة، أو طقطقة حوافر، أو نغمات ناي. فقد بدا المجمّع مقدَّساً وغامضاً في آن.

وجلجلت الأجراس معلنةً حلول الساعة الثالثة بعد الظهر.

فشقّ طريقه عبر مجموعة منوَّعة من المباني التي تمتاز بلون وملمس الأوراق اليابسة. وكان هناك برج مَهيب يعلو سطحاً محدَّباً ذا لون رمادي مُصفَرّ. ويكشف الشارع الوَعِر عن عمره. وكانت الملابس المدلّاة من إحدى الشرفات الدليل الوحيد على وجود سكان في هذا المكان.

شاهد مالون عند إحدى الزوايا، وعلى بُعد مئة قدم، ماك كولوم والشاب يجتازان ساحة صغيرة تتوسّطها نافورة. من الواضح أن للدَّير بئراً بسبب توافر الماء. وينطبق الأمر نفسه على الطاقة نظراً لعدد اللوحات الشمسية وأطباق التقاط الاستقبال الفضائي.

كان ماك كولوم يصوِّب مسدَّسه إلى رأس صاحب القبعة.

"من الجيد أن نعرف أننا كنا مُحِقين بشأن شريكنا،" قال هامساً.

"أظن أنه يريد إلقاء نظرة قبل الجميع."

"إنك تتكلّم الآن بفظاظة تامّة. هلّا نذهب؟"



أبقى سابر مسدسه مُشهَراً من الخلف على رأس الحارس. ومرّا بمزيد من المباني، واتّجها إلى عمق المجمّع بالقرب من مكان تلتقي فيه الأشياء الاصطناعية بالأشياء الطبيعية.

وكان مشمئزاً من هذا الهدوء العارم.

وكان هناك كنيسة متواضعة طُليت باللون الأصفر الفاتح تقوم بالقرب من

الواجهة الصخرية. وفي الداخل، كان صحن الكنيسة المقنطَر مُضاء بشكل طبيعي ومكتظاً بالأيقونات، وباللوحات الثلاثية، واللوحات الجصّيّة. وتقوم غابة معلّقة من الثريّات الفضيّة والذهبيّة فوق أرضيّة من الفسيفساء ذات تفاصيل دقيقة. ويظهر الثراء في تباين بارز مع الواجهة الخارجية البسيطة.

"هذه ليست مكتبة،" قال له.

ثم ظهر رجل عند المذبح. وكانت بشرته بلون زيتوني داكن أيضاً، ولكن قصير القامة، وشعره أبيض مائل إلى الرمادي، وأكبر سنّاً؛ قد يكون في العقد الثامن من العمر.

"أهلاً،" قال الرجل. "أنا أمين المكتبة."

"هل أنت المسؤول؟"

"الشرف لي في أن أكون كذلك."

"أريد أن أرى المكتبة."

"لكي تقوم بذلك، عليك إطلاق سراح الرجل الذي تحتجزه."

ودفع سابر الحارس بعيداً. "حسناً." وشهر السلاح على أمين المكتبة. "خذني أنت إليها."

"بالتأكيد."



دخل مالون وبام إلى الكنيسة. وكان هناك صفّان من أعمدة الغرانيت الضخمة المطليّة باللون الأبيض يحملان تيجاناً مذهّبة، وقد عُلّقت عليها ميداليات كبيرة لأنبياء العهد القديم ورسل العهد الجديد. ويظهر موسى في لوحات جصّيّة على الجدران وهو يتلقّى الشريعة في مواجهة العُلّيقة المشتعلة. وتوجد أوعية للذخائر المقدّسة، وصحون القربان، وكؤوس القربان، والصلبان، داخل خزائن ذات واجهات زجاجية.

لا دليل على وجود ماك كولوم أو الشاب صاحب القبعة.

وشاهد مالون إلى يمينه قفصَين برونزيّين داخل فجوة في الجدار، وكان

أحدهما يحتوي على مئات الجماجم بلون الحجر الرملي مكدَّسة فوق بعضها في كومة مخيفة. ويحتوي الآخر على تشكيلة منفِّرة من العظام موضوعة بطريقة تشريحية.

"الحرّاس؟" سألت بام.

"لا بدّ أن الأمر كذلك."

ولفت انتباهه شيء ما حيال صحن الكنيسة التي تغمره أشعة الشمس. إذ لا وجود للمقاعد. وتساءل عمّا إذا كانت الكنيسة أرثونكسية، إذ يصعب معرفة ذلك انطلاقاً من الزخارف التي تبدو مزيجاً انتقائياً لعدة مذاهب.

ثم عبر الأرضية المغطاة بالفسيفساء باتجاه الفجوة المقابلة.

وكان في داخلها هيكل عظمي متّشح برداء مطرَّز أرجوانيّ اللون وعلى رأسه قُلُنسوة، ويتخذ وضعيَّة الجلوس على رفّ حجري تقوم خلفه نافذة ملوَّنة برّاقة، ورأسه مائل قليلاً وكأنه يطرح سؤالاً. وكانت عظام أصابعه التي ما زالت مغطاة بأجزاء صغيرة من اللحم والأظافر تمسك عصا ومسبحة. وكان هناك ثلاث كلمات منحوتة في حجر الغرانيت تحته:

CVSTOS RERVM PRVDENTIA

"الفطنة هي حارس الأشياء،" قال، مترجماً، ولكن لغته اليونانية كانت جيدة بما يكفي لمعرفة أن الكلمة الأولى يمكن ترجمتها أيضاً بكلمة "حكمة". وفي كلتا الحالتَين، تبدو الرسالة واضحة.

ومن وراء فاصل أيقوني قائم في الجهة الأمامية للكنيسة تردَّد صدى ما بدا أنه صوت باب يُفتح ثمّ يُغلَق. فقبض على المسدس بإحكام، وانسلّ إلى الأمام وعبَر المدخل القائم وسط لوحة مزيَّنة بإتقان.

كان هناك باب واحد في الجانب البعيد.

فاقترب منه.

وكانت الألواح من خشب الأرز، وقد نقشت فوقها الكلمات المأخوذة من المزمور 118. '*هذا باب الرب، فيه يدخل الأبرار*'.

وأمسك بمِقبض الحبل وشدّه؛ ففُتح الباب بصوت مشابه لصوت الرهبان المتنافر النغمات. ولكنه لاحظ أمراً آخر. كان اللوح القديم مجهَّزاً بإضافة حديثة -

قفل إلكتروني في الجهة المقابلة. ويمتدّ منه سلك معدني على نحو متلوٍّ وصولاً إلى المُفصلة، ويتوارى بعد ذلك داخل ثقب في الحجر الصخري.

وقد رآته بام أيضاً.

"أمر شديد الغرابة،" قالت له.

فوافقها الري.

ومن ثمّ حدّق إلى ما وراء المدخل وقد تضاعف حدّة ارتباكه.

الفصل الخامس والسبعون

مريلاند

قفزت ستيفاني من الطوّافة التي أعادتها مع كاسيوبيا إلى كامب ديفيد، واتّجهت نحو دانيلز مباشَرةً بعد أن أقلعت الطائرة في كبد سماء الصباح وتوارت بين أعالي الأشجار.

"قد تكون رئيس الولايات المتحدة،" قالت بنبرة حادّة، "ولكنك أخرق تماماً. لقد أرسلتنا إلى هناك بالرغم من عِلمك بأننا سنتعرّض لهجوم."

بدا دانيلز غير مصدّق ما يسمع. "أنّى لي أن أعرف ذلك؟"

"وهل إن وجود طوّافة مع رامٍ ماهر في الجِوار محض مصادفة؟" قالت كاسيوبيا.

فأومأ الرئيس. "لنقُم بنزهة."

وأخذوا يتمشّون على درب واسعة، يتبعهم ثلاثة عملاء من المخابرات على بُعد عشرين متراً.

"أخبريني ماذا حدث،" قال دانيلز.

هدأت ستيفاني، ولخّصت له ما جرى في الصباح، وانتهت قائلة، "كان يعتقد أن أحد الأشخاص ما يتآمر لقتلك." وكان تحدّثها عن دالي في صيغة الماضي أمراً غير اعتيادي.

"إنه مُحِق."

وتوقّفوا.

"لقد اكتفيت،" قالت له. "لم أعُد أعمل لصالحك بعد الآن، ولكنك حملتني على العمل دون أن تزودني بأي معلومات. كيف تتوقع منّي القيام بذلك؟"

"أنا واثق من أنك راغبة في استعادة عملك، أليس كذلك؟"

لم تُجب على الفور، ولكن صمتها المُرفَق بشيء من الانزعاج كشف عن رغبتها في الأمر. فهي التي وضعة صيغة وكالة ماجيلان بيليت وباشرتها، مترئّسةً إيّاها منذ تأسيسها. ولم تكن متورّطة في بادئ الأمر بما كان يحدث، ولكن الأشخاص الذين لم تكن تكنّ لهم أي محبة أو إعجاب كانوا يستغلّونها. لذا، أجابت الرئيس بصدق. "لا أرغب في استعادة عملي إذا كان عليّ تقبيل مؤخّرتك." وتوقفت قليلاً. "أو تعريض كاسيوبيا لمزيد من المخاطر."

بدا دانيلز غير مُحبَط. "تعالَيا معي."

وساروا بصمت بين الغابات إلى كوخ آخر. وفي داخله، التقط الرئيس سوّاقة أسطوانات مدمجة محمولة، وقال:

"استعما إلى هذا."

'"برنت، لا يمكنني شرح كل شيء، سوى القول إنني سمعت مصادفةً مساء يوم أمس حديثاً بين نائب رئيسك والفرد هرمن. فالجماعة، أو بالتحديد، هرمن يخطط لقتل رئيسكم."

"هل سمعتَ تفاصيل؟" سأل غرين.

"دانيلز يقوم بزيارة غير معلَنة إلى افغانستان في الأسبوع القادم. وقد تعاقد هرمن مع أشخاص تابعين لبن لادن وزوّدهم بالصواريخ التي هم بحاجة إليها لتدمير الطائرة."

"هذا اتهام خطِر، يا هنريك."

"لست معتاداً على توجيه الاتهامات. لقد سمعت ذلك بنفسي، كما سمعه ابن مالون. هل يمكنك إبلاغ الرئيس؟ ليُلغِ الرحلة فحسب. فهذا من شأنه أن يحلّ المشكلة العاجلة."

"بالتأكيد. ما الذي يجري هناك، يا هنريك؟"

"أكثر ممّا يمكنني شرحه. سوف أتصل بك."'

"سُجّل هذا الحديث على الشريط منذ خمس ساعات،" شرح دانيلز. "لم يرِدني أي اتصال من المدّعي العام الذي هو موضع ثقة. لعلك تعتقدين أنه قد يكون حاول الاتصال على الأقل. يصعب عليّ معرفة ذلك."

وكانت تريد أن تعرف، "من قتل دالي؟"

"لاري، ليرحم الله روحه، كشف النقاب عن الأمر. ولكن من الواضح أنه كان رجلاً كثير المشاغل. علِم بحدوث شيء ما واختار عدم الإفصاح عنه. كان ذلك خطأه. وماذا عن الأشخاص الذين يملكون الذاكرات الإصبعية؟ إنهم الذين قتلوا لاري."

فحدّقت ستيفاني وكاسيوبيا ببعضهما البعض. وأخيراً قالت، "غرين."

"يبدو أننا وجدنا الرابح في مباراة معرفة الخائن."

"إذاً اعتقله،" قالت.

هزّ دانيلز رأسه. "نحتاج إلى مزيد من الأدلة. فالبند الثالث من الفقرة الثالثة في الدستور واضح جداً. إن خيانة الولايات المتحدة تتمثّل بتقديم المساعدة والعَون للعدوّ. والأشخاص الذين يريدون موتي هم أعداؤنا. ولكن لا يمكن اتهام أحد بالخيانة إلا بشهادة شاهدَين على العمل العلني الصريح. نحتاج إلى المزيد."

"أظن أنه يجدر بك أن تغادر على متن تلك الرحلة إلى أفغانستان، وبعد تفجير الطائرة في السماء، سنحصل على العمل العلني والصريح الذي نحن بحاجة إليه. يمكن لكاسيوبيا وأنا أن نكون الشاهدين."

"فكرة جيدة، يا ستيفاني. حسناً، لقد كنتِ الطُعم، ولكنني كنت أحمي ظهرك."

"هذا لطفٌ منك."

"لا يمكنك طرد العصافير من الأجَمات دون كلب جيد. وإن إطلاق النار قبل حدوث ذلك هو مضيعة للخُردُق."

ففهمت. لقد أمرتْ هي أيضاً بالقيام بالشيء نفسه عدة مرات.

"ماذا تريد منّا أن نفعل؟" وكان التسليم واضحاً في صوتها.

"رؤية برنت غرين."



كان مالون يحدّق بمشهد مُربك. فباب الكنيسة يفتح على واجهة جبل. وهناك، تقوم قاعة مستطيلة الشكل تقريباً بطول حوالى خمسين قدَماً وبعرض مماثل إلى حدّ ما. وكانت جدران الغرانيت المضاءة بحاملات مصابيح جدارية فضيّة تعكس أنوارها الخافتة، والأرضية مرصوفة بفسيفساء حسنة المظهر، والسقف مزيَّن بحواشٍ وزخارف عربية حمراء وبنّيّة. وفي الجانب المقابل للغرفة ستة صفوف من الأعمدة المغطاة برخام رمادي وأسود رُبطت عليها شرائط ذات لون أصفر شاحب. وهناك سبعة مداخل بين الأعمدة يشبه كل منها فكّاً مُظلماً. وفوق كل بوّابة واحد من الأحرف الرومانية ـ V S O V O D A نُقش فوقها مقطع آخر من الكتاب المقدّس باللاتينية مأخوذ من سفر الرؤيا.

وترجمه بصوت عالٍ.

"لا تبكِ: انظر إلى أسد سِبط يهوذا يفوز بفتح الكتاب ويفضّ الأختام السبعة منه."

ثم سمع وقع خُطى يتردّد صداها من وراء المداخل، وكان من المستحيل معرفة المدخل الذي صدر عنه الصدى.

"ماك كولوم في الداخل،" قالت بام. "ولكن أين؟"

فسار في اتجاه أحد المداخل وعبره. في الداخل، كان هناك نفق يخترق الصخر، وكان هناك المزيد من حاملات المصابيح الجدارية الكهربائية الباهتة يفصل بينها مسافة عشرين قدماً. ألقى نظرة سريعة إلى داخل الفُتحة المجاورة التي تؤدّي أيضاً إلى داخل الجبل، ولكن من خلال نفق مختلف.

"هذا مدهش؛ اختبار آخر، سبع طرق محتمَلة." وأنزل الجعبة من على كتفَيه. "ماذا حلّ بالأيام التي كنت فيها تحصلين على بطاقة لزيارة مكتبة؟"

"ربما ذهبتُ إلى المكان نفسه عندما كنّا لا نغادر الطائرة إلّا عندما تهبط."

فابتسم ابتسامة عريضة. "لقد كان أداؤك جيداً في تلك القفزة."

"لا تنكّرني."

وحدّق بالمداخل السبعة.

"كنتَ تعلم أن ماك كولوم سيتّخذ خطوة ما، أليس كذلك؟ لهذا السبب سمحتَ له بمرافقة الحارس."

"لم يأتِ لأجل الممارسة الذهنية، كما أنه ليس صائد كنوز. ذلك الرجل محترِف."

"تماماً كذلك المحامي الذي كنت أواعده، والذي كان أكثر من محامٍ."

"لقد تلاعب الإسرائيليون بك. لا تشعري بالسوء. فقد تلاعبوا بي أيضاً."

"هل تظن أن كل ما حدث كان مدبَّراً؟"

فهزّ رأسه. "مزيد من الأمور المدبَّرة. لقد استعدنا غاري بسهولة كبرى. ماذا لو كان قيامي بقتل أولئك الخاطفين أمراً مُعَدّاً لغرض ما؟ فعندما ذهبتُ لرؤية جورج قاموا بملاحقتي بسهولة. بالطبع كنتِ هناك وكان الإسرائيليون يقتفون أثرك. وهكذا تأكّدوا من قيامي باصطحابك معي من خلال ترويعي في المطار والفندق. جميع تلك الأمور تبدو منطقية. بتلك الطريقة، قتل الإسرائيليون جورج. إن الذي خطف غاري يتتبّعنا للعثور على المكتبة، ممّا يعني أن برنامج عمل الخاطفين مختلف إلى حدّ بعيد عن برنامج عمل الإسرائيليين."

"هل تظنّ أن ماك كولوم هو من اختطف غاري؟"

"هو، أو على الأقل شخص يعمل لصالحه."

"إذاً، ماذا نفعل؟"

بحث في الجعبة عن خزنات الذخيرة الخاصة بمسدسه ووضعها في ثيابه. "لنلحق به."

"من أي باب؟"

"لقد أجبتِ عن ذلك السؤال بنفسك في لِشبونة عندما قلتِ إن توماس باينبريدج خلّف وراءه تلميحات. وقد قرأت روايته على متن الطائرة. لا شيء يشبه من قريب أو بعيد ما خبرناه. فقد وُجدت مكتبته المفقودة جنوبي مصر. لا وجود لضالّة البطل؛ لا شيء على الإطلاق. ولكن محور العجَلة ذلك في حديقته مسألة أخرى. كنت أتساءل حول الجزء الأخير من الضالّة التي أعطانا إيّاها ماك كولوم. فما أن نصل لن يكون للبحث في هذا المكان أي معنى."

"إلا إذا كان هناك مسدس مصوَّباً على رأس أحدهم."

"هذا صحيح. ولكن هناك خَطْب ما." وأشار إلى المداخل. "مع هذا النوع من

وسائل الحماية، يمكنهم بسهولة تضليل أي دخيل. أين الجميع؟ هذا المكان مهجور."

وقرأ ثانيةً الأحرف فوق الأبواب: V S O V O D A.

وعرف.

"اعتدتِ إزعاجي على الدوام، متسائلةً عن جدوى امتلاك المرء ذاكرة قوية لتذكّر الصور."

"لا، كنت أتساءل عن سبب عدم تمكنك من تذكّر تاريخ الذكرى السنوية لعيد ميلادي."

ابتسم ابتسامة عريضة. "هذه المرة، لقد أثبتت الذاكرة الجيدة جدواها. تذكري الجزء الأخير من الضالة. '*إنتبه للرسائل*'؛ محور العجَلة في باينبريدج هول. الحروف الرومانية."

وتذكّرها جيّداً: M VVAVSOVO D.

"تذكري، لقد سألتِ عن سبب تباعد حرفَي D و M عن الأحرف الثمانية الأخرى." وأشار إلى المداخل. "الآن بتنا نعلم، أحدهما يُدخلنا والآخر يُخرجنا كما أفترض. إنه الجزء الأوسط الذي لست واثقاً منه، ولكننا بتنا قريبين من اكتشاف ذلك."

الفصل السادس والسبعون

فيينا

أخذ ثورفالدسن يقيّم وضعه. كان بحاجة إلى التفوق على هرمن، وكان قد وضع المسدس تحت كنزته الصوفية لهذه الغاية بالتحديد. ما زالت رسائل القديس أوغسطين والقديس جيروم بحوزته، ولكن هرمن يحمل سلاحاً أيضاً.

"لماذا خطفتَ غاري مالون؟" سأل.

"لا أحبّذ فكرة استجوابي من قبلك."

"لِمَ لا تُسايرني للحظة بما أنني سأغادر قريباً؟"

"لكي ينفّذ والده ما أردنا منه القيام به، وها قد نجح الأمر. لقد قادنا مالون إلى المكتبة مباشَرةً."

وتذكر ظنّ نائب الرئيس في الليلة السابقة وقرّر التركيز على هذه النقطة. "وأنت على علم بذلك؟"

"أنا على عِلم بكل ما يجري على الدوام، يا هنريك. هذا هو الفارق بيننا. لهذا السبب أرأس هذه المنظمة."

"لا يملك الأعضاء أي فكرة عمّا تخطط له. يعتقدون فقط أنهم يفهمون." كان يحاول استدراجه لمعرفة المزيد. وكان قد أرسل غاري للاختباء لسببَين، أوّلهما لإبعاد أيّة إمكانية للبَوح بما سمعاه مصادَفةً الليلة السابقة، ممّا يعرّضهما لخطر تام؛ الثاني معرفته بأن هرمن يحمل معه سلاحاً، وأنه بحاجة للتعاطي مع التهديد القائم بمفرده.

"لقد وضعوا ثقتهم بالحلقة،" قال هرمن، "ولم نخذلهم أبداً."

ولوّح بالأوراق. "هل هذه الأوراق هي التي كنتَ تخطط لتُريني إياها؟"

هزّ هرمن رأسه مؤكداً الأمر. "كنت آمل في أنك ما إن تتيقّن من أن الكتاب المقدّس ينشر اعتقاداً خاطئاً وأن فيه عيوباً متأصّلة، فسوف تدرك بأننا نخبر العالم بما كان يُفترَض إخبارهم به منذ ألف وخمسمئة عام."

"وهل العالم مستعدّ لذلك؟"

"لست مهتمّاً بمناقشة هذا الأمر، يا هنريك." ودفع ذراعه نحو الأمام ورفع سلاحه. "ما أريد معرفته هو أنك كيف عرفتَ بهذه الرسائل؟"

"أنا مثلك، يا ألفرد، على علم بكل ما يجري أيضاً."

بقي المسدس مصوَّباً نحوه. "سأُريك. هذا موطني وأعرف كيفية التعاطي مع الأمر بعد موتك. بما أنك تحتجز ابنتي، يمكنني استخدام هذا الأمر ذريعةً لقتلك؛ مؤامرة ما للابتزاز أعددتَها وباءت بالفشل. لن يكون للأمر أي أهمية، ولن تُضيرك هذه الإشاعة."

"أعتقد أنك تفضّل رؤيتي ميتاً في الواقع."

"بلا شك، فموتك يسهّل الأمور من كافة النواحي."

سمع ثورفالدسن وقع خطوات شخص يعدو في الوقت نفسه الذي رأى فيه غاري يندفع بسرعة من بين النباتات ويمسك بألفرد هرمن. كان الفتى طويل القامة وصلب العود. وقد أدّى زخمه إلى قلب الرجل المسنّ من قدمَيه ووقوع السلاح من يده.

فدحرج غاري خصمه والتقط السلاح.

وبدا هرمن مصعوقاً بالهجوم، فركع على ركبتَيه لالتقاط أنفاسه.

وقف ثورفالدسن وأخذ المسدس من غاري، ودون أن يمنح هرمن الوقت للوقوف، برم يده وضرب جانب رأسه بالمسدس.

فانهار النمساوي على التراب.

"كان عملاً أخرق،" قال لغاري. "كنت قادراً على التعاطي مع الأمر."

"كيف؟ كان يصوِّب المسدس عليك."

لم يكن يرغب في القول إن الفرص كانت تنفذ منه في الواقع، لذا ربّت على كتف الفتى فحسب. "لقد أصبت، أيها الفتى. ولكن لا تُعِد الكرّة ثانيةً."

"بالتأكيد، يا هنريك. لا مشكلة. في المرة القادمة سأدع كلَّ من يُشهر سلاحاً في وجهك يُطلق النار عليك."

فابتسم. "أنت كوالدك تماماً."

"ماذا الآن؟ هناك شخص آخر في الخارج."

فاقتاد غاري إلى مكان قريب من المخرج وقال بصوت هادئ، "أُخرج وأخبره بأن السيد هرمن بحاجة إليه. ثمّ دعه يدخل أولاً، وسأتكفّل بالباقي."



سلك مالون النفق المُشار إليه بالحرف D. كانت الطريق ضيّقة وتتّسع لشخصَين فقط، وتمتدّ إلى عمق جوف الصخر. كانت هناك انعطافتان في الطريق، وكان الضوء يصدر من حاملات مصابيح جدارية يشعّ منها نور شاحب. كان الهواء البارد والغامض يحمل رائحة حادّة لسعت عينَيه. وبعد انعطافات قليلة أخرى، دخلا غرفة مزيّنة بجداريات رائعة. فأُعجب بتألّقها: الدينونة الأخيرة، الجحيم ينفث ألسنة لهب في اتجاه النهر، شجرة عائلة يَسّى. وكان في الجدار الذي دخلوا منه سبعة مداخل، فوق كل منها حرف روماني واحد. وفي الجدار المقابل، هناك سبعة مداخل أخرى فوق كل منها حرف واحد أيضاً.

D M V S O A L.

"سنختار المدخل المُشار إليه بالحرف O، صحيح؟" قالت بام.

فابتسم. "لقد فهمت المعنى بسرعة. محور العجلة هو مرشدنا في هذه المتاهة. سيكون هناك سبع نقاط اتصال مماثلة أخرى: V O S V A V V. هذا ما تبقّى. لقد خلّف باينبريدج وراءه تلميحة هامّة لا تحمل أي معنى إلّا متى وصل الشخص إلى هنا. لهذا السبب تخلّى عنها الحرّاس طيلة ثلاثمئة عام؛ فلا معنى لها."

"إلّا إذا كنتَ في هذه المتاهة الغادرة."

واصلا مسيرتهما عبر أُحجية المسالك، متجنّبين الممرّات والطرق المسدودة. وذُهل مالون بالوقت والطاقة اللذَين خُصِّصا لبناء هذه الأنفاق. ولكن الحرّاس كانوا قد شرعوا بمهمّتهم منذ أكثر من ألفَي عام ـ وقد تسنى لهم الكثير من الوقت ليكونوا مُبدِعين ومُتقِنين.

ثم ظهرت سبع نقاط اتصال أخرى، وسُرّ برؤية حرف آخر من الحروف المنقوشة على محور العجَلة يظهر في كل مرة فوق أحد الأبواب. وأبقى مسدسه في متناول يده، ولكنه لم يكن يسمع أي صوت صادر من سابر أو الشخص الذي يصطحبه. كانت كل نقطة اتصال تحتوي على مشاهد رائعة مختلفة من الحروف الهيروغليفية، والأُطر المزخرفة، والحروف الأبجدية المنقوشة، والرموز المسمارية.

وبعد أن اجتازا التقاطع السابع ودخلا نفقاً آخر، علما أنهما يسلكان الطريق الأخير.

فانعطفا عند إحدى الزوايا، وكان الضوء الصادر من المخرج القائم أمامهما أكثر إشعاعاً من نقاط الاتصال الأخرى. قد يكون ماك كولوم هناك منتظراً، لذا وضع بام وراءه وانسلّ إلى الأمام.

عند نهاية الطريق، بقي في الظل وأنعم النظر في الداخل.

كانت الغرفة فسيحة، قد تصل مساحتها إلى حوالى أربعين قدَماً مربَّعاً، وتحتوي على ثريّات مدلّاة من الأعلى. وكانت الجدران بارتفاع عشرين قدَماً ومغطاة بخرائط من الفسيفساء: مصر، فلسطين، القدس، بلاد ما بين النهرين، منطقة البحر الأبيض المتوسط. كانت التفاصيل قليلة والكتابة باللغة اليونانية، وتتوارى الخطوط الساحلية بالتدريج في المجهول. وفي الجدار المقابل، كان هناك سبعة أبواب إضافية. من المؤكد أن الباب المُشار إليه بحرف M يفتح على المكتبة نفسها.

فدخلا الغرفة.

"أهلاً وسهلاً، أيها سيد مالون،" قال صوت نُكوري.

وخرج رجلان من الظلمة من أحد المداخل الأخرى. كان أحدهما الحارس الذي صوّب ماك كولوم المسدس على رأسه في وقت سابق، ولكن بدون قبّعته المصنوعة من القش؛ والآخر آدم الذي التقاه في شقة حدّاد ومن ثمّ في الدّير في لِشبونة.

فشهر مالون سلاحه.

لم يتحرّك أي من الحارس أو آدم؛ فقد كانا يحدّقان به ببساطة وعلى وجهَيهما تعابير من القلق.

"لست عدوّك،" قال آدم.

"كيف عثرت علينا؟" سألت بام.

"لم أعثر عليكما؛ انتما عثرتما عليّ."

فكّر مالون كيف أن هذا الرجل الواقف أمامه قد قام بإرداء جورج حدّاد. ثم لاحظ من ثمّ أن آدم يرتدي ثياباً مماثلة للحارس الأصغر سنّاً ـ بنطلوناً فضفاضاً يزداد ضيقاً حتى بطّة الساق، وجُبّة مثبّتة عند نطاق الخصر، وحزامًا من الحبال، وخفّين. ولم يكن أي من الرجلَين مسلّحاً.

فأنزل مسدسه.

"هل أنت حارس؟" قال موجّها بسؤاله إلى آدم.

"خادم أمين."

"لِمَ قتلتَ جورج حدّاد؟"

"لم أقتله."

ولفتت انتباهه حركة خلف الرَّجُلَين، ورأى شخصاً آخر يخرج من المدخل.

إنها إيف التي التقاها في شقة حدّاد، وكانت حيّة وبصحّة جيدة.

"سيد مالون،" قالت له، "أنا مساعدة أمين المكتبة ونحن ندين لك بعض الشرح، ولكن يجب أن يكون سريعاً."

فحافظ على رباطة جأشه.

"لقد كنا هناك في لندن لخلق اعتقاد باطل. كان من الضروري أن تتابع بحثك، وقد اعتقد أمين المكتبة أن الخُدعة هي الوسيلة الفضلى لبلوغ ذلك الهدف."

"أمين المكتبة؟"

فأومأت برأسها. "هو الذي يقودنا. لسنا كثيري العدد، ولكن طالما كان عددنا كافياً لحماية هذا المكان. لقد خدم العديد من الحرّاس في هذا المكان، وأنا واثقة من

أنك رأيت عظامهم في الكنيسة. ولكن العالم يتبدّل، والاستمرار بمهمّتنا يزداد صعوبة، وتكاد الموارد المالية تفرغ منا، وكانت عملية ضمّ أعضاء جدد إلى صفوفنا فاشلة مؤخَّراً. بعد ذلك بدأنا نواجه تهديداً."

وكان ينتظر إكمال شرحها.

"هناك أشخاص يبحثون عنا منذ سنوات عديدة، حتى أنهم أشركوا حكومات في عملية البحث. إن الحادث الذي تعرّض له جورج حدّاد منذ خمس سنوات ـ عندما كنت قادراً على إبقائه بعيداً عن الأنظار ـ كشف عن هويّته بصفته أحد المدعوّين. ولم يحدث هذا الأمر من قَبل. فكل المدعوّين السابقين حافظوا على عهد التكتّم باستثناء واحد ـ توماس باينبريدج. ولكننا محظوظون لأن انتهاكه هذا كان مفيداً. فقد تمكّنتَ من إتمام بحثك بسبب افتقار باينبريدج إلى الأخلاق الحميدة."

"كنتم تعلمون أننا قادمَين؟" سألت بام.

"كنا السبب في معظم مراحل رحلاتكم، باستثناء العدوانية التي أظهرها الإسرائيليون لدى محاولة العثور عليك. حتى أن الأميركيين شاركوا في الأمر ولكن لأسباب مختلفة كما يبدو. كان الجميع يسعى لعقد صفقة معنا. فقرّر أمين المكتبة تحريك الأحداث التي نقوم بالتحكم بها والتي قد توصل اللاعبين ذوي الصلة إلى هنا مباشَرةً."

"كيف يكون ذلك ممكناً؟" سأل.

"أنت هنا، أليس كذلك؟"

"ذهبنا إلى لندن،" قال آدم، "لحثّك على التحرّك. استخدمنا بعض المؤثّرات المسرحيّة الخاصة لإقناعك بأن عمليات إطلاق النار حقيقية." والتفت آدم إلى بام. "كان إطلاق النار عليك محض مصادَفة. لم اكن أتوقّع منكِ أن تكوني في الخارج."

"هذا يجعلنا اثنَين،" قال مالون. ولكن هناك شيئاً آخر. ثم وقف مواجهاً إيف. "جورج أطلق النار عليك، فأخذت مسدسه وكان محشواً بذخيرة حيّة."

"أجل أحمد الله على تسديده الجيد".

"ومن ثمّ ذهبنا إلى لِشبونة،" قال آدم، "للقيام بالشيء نفسه وإلهاء الإسرائيليين في الوقت نفسه. كنا بحاجة إلى أن تأتوا أنتم الثلاثة إلى هنا بمفردكم.

والآخرون الذين ظهروا في الدَّير كانوا جزءاً من العملية التي قامت بها وحدة الاغتيال التابعة للموساد. ولكنك قضيت عليهم."

ألقى مالون نظرة سريعة على بام. "من المؤكّد أنكِ لست الشخص الوحيد الذي تمّ التلاعب به."

"الرجل الذي قدِم إلى هنا معك يُدعى دومينيك سابر،" قالت إيف، "بالرغم من أن الاسم الذي أُطلق عليه لدى ولادته هو جايمس ماك كولوم. إنه يعمل لصالح منظَمة معروفة باسم جماعة الجِزّة الذهبية، وقد جاء للاستيلاء على المكتبة."

"وأنا الذي أتيت به،" قال مالون.

"لا،" قال آدم. "نحن الذين سمحنا لك باصطحابه."

"أين أمين المكتبة هذا؟" سألت بام.

أشار آدم إلى المداخل. "هناك في الداخل. لقد أخذه سابر تحت تهديد السلاح."

"كوتون،" قالت بام. "هل تُدرك ما يقولون؟ إن لم تُقتَل إيف، إذاً ـ"

"أمين المكتبة هو جورج حدّاد."

أومأت إيف برأسها مؤكدةً الأمر، واغرورقت عيناها بالدموع. "سوف يموت."

"لقد اصطحب سابر إلى الداخل،" قال الحارس الأصغر سنّاً، "عالماً بأنه لن يعود."

"كيف يعرف ذلك؟" سأل مالون.

"من يريد هذا الموقع لنفسه هي إمّا الجماعة أو سابر. تُرى، من منهما يريدها لنفسه؟ يبقى علينا الانتظار لمعرفة ذلك. ولكننا سنُقتل جميعاً بصرف النظر عمّن سيحصل عليها. وبما أن عددنا قليل، فلن يكون القضاء علينا أمراً صعباً."

"ألا يوجد أسلحة في هذا المكان؟"

هزّ آدم رأسه. "غير مسموح بها هنا."

"هل ما يوجد في الداخل يستأهل الموت لأجله؟" سألت بام.

"بلا شك،" قال آدم.

كان مالون على علم بما يجري. "أمين مكتبتكم كان مسؤولاً عن موت حارس منذ زمن بعيد. وهو يظنّ أن موته سيكون تكفيراً عن تلك الخطيئة."

"أعلم،" قالت إيف. "هذا الصباح، كان يشاهدكم وأنتم تهبطون بالمظلات وعلم أنه يومه الأخير. لقد أخبرني بما كان عليه القيام به." وخطت إلى الأمام والدموع تنهمر على خدّيها. "قال إنك سوف توقف ما يجري. لذا قُم بإنقاذه؛ لا ضرورة لموته. انقذنا كلّنا."

التفت مالون إلى المدخل المُشار إليه بحرف M وأمسك بمسدسه بإحكام. وألقى جعبته على الأرض وقال لبام، "انتظري هنا."

"لا،" قالت، "أنا آتية."

التفت إليها. فهذه المرأة التي أحبّها وكرهها في نفس الوقت كانت تبدو، كحدّاد، على مفترَق طرق.

"أريد تقديم المساعدة،" قالت.

لم يكن يملك أي فكرة عمّا قد يحدث في الداخل. "غاري يحتاج إلى أحد والديه على الأقل."

وركّزت نظرها عليه. "ذلك الرجل المُسنّ بحاجة إلينا أيضاً."

الفصل السابع والسبعون

مريلاند

كانت ستيفاني تستمع إلى أخبار إذاعة فوكس وهي تبثّ تقريراً عن حادث تفجير السيارة ذُكر فيه رقم تسجيل السيارة وهويّة دالي. كان الزبائن داخل المطعم قد أدلوا بمعلومات عن مظهره الخارجي وعن مظهر امرأة كانت جالسة معه. وقد ذكر بعض الشهود كيف أن المرأة فرّت مع امرأة أخرى ذات بشرة داكنة من مسرح الأحداث قبل وصول الشرطة.

ومن غير المدهش أن الصحافة لم تورِد خبر العثور على رجال مسلّحين على بُعد أميال قليلة من مسرح الانفجار. فقد كان تنظيف جهاز المخابرات لآثار الاشتباك سريعاً ومُتقَناً.

كانتا تقودان سيارة حكومية أخرى من طراز شيفي تاهو قام دانيلز بتزويدهما بها. فقد أرادهما الرئيس بعيدتَين عن كامب ديفيد قبل قيام ستيفاني بإجراء الاتصال. وعندما باتتا على بُعد سبعين ميلاً إلى الجنوب من ضواحي واشنطن، أمسكت هاتفها النقّال وطلبت رقم غرين.

"كنت في انتظارك،" قال غرين عندما أجاب. "هل بلغتك أخبار دالي؟"

"كنا نجلس المقاعد الأمامية." وأخبرتُه بما حدث في المطعم.

"ماذا كنت تفعلين هناك؟"

"نتناول طعام الفطور. كان يعقد صفقة."

"هل هناك سبب معيّن لتصرّفك بخفّة؟"

"إن مشاهدة رجل يموت أمر يُنهك تفكيرك."

"ماذا يجري؟" سأل غرين.

"الأشخاص أنفسهم الذين قتلوا دالي حاولوا قتل كاسيوبيا وقتلي، ولكننا تمكنّا من الإفلات. من الواضح أنهم كانوا يتعقّبون دالي، وقد ارتدّوا علينا بعد مغادرتنا المطعم."

"يبدو أنك تملكين أكثر من حياة واحدة، يا ستيفاني."

"لقد أخبرني دالي بأمور عدة، يا برنت. كثير من الأمور تجري هنا كان على علم بها، وهو يملك الدليل أيضاً."

"هل كان هو الخائن؟"

"بالكاد، فقد حصل نائب الرئيس على لقب البطولة. كان دالي قد جمع الكثير من المعلومات حول نائب الرئيس."

وكانت تقود السيارة وتستمع في الوقت نفسه إلى الصمت الذي يسود عند الطرف الآخر من الخط.

"دليل قوي؟"

"جيد بما يكفي لصحيفة *الواشنطن بوست*. فقد كان مروّعاً. لذلك التقاني. كان يريد المساعدة، وقد زوّدني ببعض المعلومات."

"إذاً، حياتك في خطر، يا ستيفاني."

"سبق لنا أن تحدّثنا بهذا الموضوع. الآن، نحن بحاجة إلى مساعدتك."

"بالطبع، ستحصلين عليها. ماذا تريدين أن أفعل؟"

"الذاكرات الإصبعية التي أخذناها من منزل دالي لها علاقة بالدليل الذي أملك، وهذان الأمران كافيان للإيقاع بنائب الرئيس. فما إن ينهار حتى نعرف البقيّة، علماً أنني أشك في أنه سيقبل بالسقوط بمفرده. فالخيانة تقابَل بعقوبة قاسية، والموت هو أحد الخيارات المطروحة أمام هيئة المحلّفين."

وساد مزيد من الصمت.

"هل تعلم فيما إذا كان مالون قام بالاتصال؟" سألت.

"لم يُعلمني أحد بأنه اتصل. لم أسمع بذلك من أي شخص. ماذا عن ثورفالدسن؟ هل اتصل بكاسيوبيا؟"

"ولا أي كلمة."

وشعرت بالاكتئاب لدى إدراكها بأن برنت غرين مشارك بما يجري، ولم تتمكّن من إخفاء الألم البادي على وجهها أمام كاسيوبيا.

"يجب أن نتقابل، يا برنت، وبشكل سرّي، أنت وأنا وكاسيوبيا فقط. ما هو جدول أعمالك؟"

"ليس هناك موعد لا يمكنني تغييره."

"حسناً، كان دالي يملك دليلاً إضافياً. أشياء تُظهر بشكل حاسم من هم الأشخاص الآخرون المتورّطون. وكان يجمعها منذ مدة طويلة. وتلك الذاكرات الإصبعية تحتوي على محادثات لرئيس الأركان التابع لنائب الرئيس مسجَّلة على شريط، ويتكلّم فيها عن خلافة الرئيس بعد موته. ولكن هناك المزيد. يجب أن نلتقي في منزل دالي، هل يمكنك الوصول إلى هناك؟"

"بالطبع. هل تعرفين المكان الذي تخبّأ فيه المعلومات؟"

"لقد أطلعَني عليه."

"إذاً، لنقم بالأمر."

"تلك هي الخطة. أراك هناك بعد نصف ساعة." وأقفلت الخط.

"أنا آسفة،" قالت كاسيوبيا.

لم تكن تريد التحدّث مطوّلاً عن فشل الآخرين. "علينا البقاء يقظتَين. لقد قَتَل غرين دالي، وبتنا على عِلم بذلك. وهو يتآمر أيضاً لقتل الرئيس."

"وقتلِنا،" قالت كاسيوبيا. " كان أولئك الرجال يعملون لصالح العرب. والظاهر أن العرب يظنّون أن غرين ونائب الرئيس يقفان إلى جانبهم. ولكن نائب الرئيس يعقد أيضاً صفقة مع الجماعة، ممّا يعني أن العرب لن يحصلوا على شيء أبداً؛ ستحصل الجماعة على كل شيء وتستخدمه كما يحلو لها."

وبينما كانتا تقتربان من وسط واشنطن حصل ازدحام في السير على الطريق العام الذي يربط الولايات ببعضها البعض. فأبطأت ستيفاني من سرعة سيارتها وقالت، "لنأمل في أن يفهم العرب ذلك قبل أن يتخذوا قراراً بتصفيتنا."

الفصل الثامن والسبعون

شبه جزيرة سيناء

قاد جورج حدّاد جلّاده إلى داخل مكتبة الإسكندرية. وكانت الغرفة القائمة تحت الأرض والمضاءة بشكل برّاق تبهر البصر لدى مشاهدتها للمرة الأولى. وكانت الجدران زاخرة بالفسيفساء التي تعرض لمشاهد من الحياة اليومية ـ مزيّن يحلق، واختصاصي بالعناية بالأقدام، ورسّام، وأشخاص يصنعون الكتّان. كان ما يزال يتذكر زيارته الأولى، ولكن مهاجمه لم يكن يبدو متأثّراً بالمشهد.

"من أين تأتي الطاقة؟"

"هل تحمل اسماً؟" سأل حدّاد.

"هذا ليس جواباً."

قطّب حاجبَيه الثخينَين بطريقة مُربكة. "إنّي رجل عجوز ولا أشكل أيّ تهديد لك. إني مجرّد فضوليّ فحسب."

"اسمي دومينيك سابر."

"هل قدِمت لأمر يعنيك أم يعني الآخرين؟"

"لأمر يعنيني شخصياً. قرّرت أن أصبح أمين مكتبة."

فابتسم له. "ستجد في هذا العمل تحدّياً."

كان سابر يبدو مسترخياً ويحدّق في كل ما هو حوله. وكانت الغرفة شبيهة بالكاتدرائية، بجدرانها المائلة وسقفها الأسطوانيّ الشكل، وكان الغرانيت الأحمر

المصقول يلمع كالجواهر. وكانت الأعمدة المنحوتة في الصخر ترتفع من الأرض إلى السقف وكل واحد منها مزيَّن بحروف ووجوه ونبتات وحيوانات. ذات يوم، كانت جميع هذه الغرف والأنفاق مناجم للفراعنة، وقد تمّ هجرها طيلة قرون في زمن المسيح، ثم قام رجال تستحوذ المعرفة على عقولهم بإدخال تعديلات عليها في القرون التالية. بعد ذلك أتى الضوء من المصابيح الكهربائية. ولم يتمّ التخلّص من التلوّث الفحمي وإعادة ترميم هذا المجال الطبيعي إلا من خلال التكنولوجيا التي توافرت في السنوات المئة الأخيرة.

أشار سابر إلى شعار من الفسيفساء يظهر بشكل بارز في الجدار البعيد. "ما هذا؟"

"الناحية الأمامية لزلّاجة مصرية كبيرة مزيَّنة برأس ابن آوى، وهو بمثابة كتلة ثقيلة على الزلّاجة؛ إنها الحرف الهيروغليفي المعبّر عن الدهشة. فكل غرفة من غرف المكتبة تحمل رمزاً هو بمثابة اسم للغرفة. هذه غرفة الأعاجيب."

"لم تُطلعني بعد على مصدر الطاقة."

"الطاقة الشمسية. فالجهد الكهربائي منخفض ولكنه كاف لتزويد المصابيح والحواسيب وتجهيزات الاتصالات. هل تعلم أن مفهوم الطاقة الشمسية وُلد قبل أكثر من ألفَي عام؟ تحويل النور إلى طاقة. ولكن تمّ التغاضي عن الفكرة حتى السنوات الخمسين الأخيرة عندما أعاد أحد الأشخاص التفكير بها."

وأومأ سابر بمسدسه. "إلى أين يؤدّي ذلك المدخل؟"

"إلى الغرف الأربع الأخرى: غرفة حقول الاختصاص، والأبديّة، والحياة، وغرفة القراءة. وكل منها يحتوي على لُفافات ورقية كما ترى. هناك عشرة آلاف لُفافة تقريباً في هذه الغرفة."

انتقل حدّاد عرَضاً إلى الوسط، وكانت هناك صناديق حجرية معينيّة الشكل، مستديرة الأطراف، وتحتوي على صفوف طويلة كُدِّست عليها اللفافات بطريقة غير مُحكَمة. "لم يعُد بالإمكان قراءة العديد من هذه اللفافات. فقد ألحق بها الزمن أضراراً، ولكن هناك الكثير منها هنا. كتابات لأُقليدس في الرياضيات، وهيروفيلوس في الطب، والسجلات التاريخية لمانيتو عن الفراعنة الأوائل، وكاليماخوس الشاعر وعالم النَّحو."

"إنك تتكلّم كثيراً."

"ظننتُ أنه يُفترَض بك أن تبدأ بتعلّم كيفية تحمّل مسؤوليّتك بما أنك تعتزم أن تصبح أمين المكتبة."

"كيف نجت كل هذه اللفافات من التلف؟"

"كان اختيار الحرّاس الأوائل لهذا المكان جيداً. فالجبل جاف، والرطوبة نادرة في سيناء، والماء العدوّ الأكبر ـ ناهيك عن النار، بالطبع." وأشار إلى مطافئ الحريق القائمة في أرجاء الغرفة على مسافات منتظمة. "لقد جهّزنا أنفسنا لذلك."

"لنلق نظرة على الغرف الأخرى."

"بالتأكيد، يُفترَض بك رؤيتها كلها."

واصطحب سابر في اتجاه المدخل، مسروراً.

من الواضح أن مهاجمه لا يملك أي فكرة عن هويّته.

من العزاء أن شأن ذلك أن يرجح كفة الميزان لصالحه.



فتح هرمن عينَيه. كانت هناك ثلاث فراشات على كمّ ثوبه، وذراعه ممدودة على أرض الـ شمترلينغهاوس الصفراء. شعر بألم في رأسه فتذكر الضربة التي وجّهها إليه ثورفالدسن. لم يكن يعلم بأن الدانماركي قادر على استخدام عنف مماثل.

بذل جهداً للوقوف على قدمَيه، وشاهد رئيس حراسه ممدَّداً على وجْهه على بُعد عشرين قدَماً منه.

ولم يعثر على مسدسه.

فاتجه مترنّحاً نحو موظّفه، ممتنّاً لعدم وجود أحد في الجوار. وألقى نظرة سريعة على ساعته: لقد مرّت عشرون دقيقة على غيابه عن الوَعي. كان صُدغه الأيسر ينبض، وتتبّع برِفق الخط الكفافي لعُقدة حبل رُبط به رئيس حراسه.

سوف يدفع ثورفالدسن ثمن هذا الاعتداء.

كان العالم ما يزال مزعزعاً في نظره، ولكنه حافظ على توازنه وأزال الغبار عن ثيابه. ثم انحنى وهزّ رئيس حراسه وأيقظه.

"يجب أن نغادر المكان،" قال له.

ففرك الرجل الآخر جبينه ووقف.

ثبّت هرمن نفسه وأمره قائلاً، "لا تقُل أي كلمة لأحد عمّا حصل."

فأومأ خادمه برأسه موافقاً.

وسار نحو الهاتف ورفع السمّاعة. "اعثروا لي على هنريك ثورفالدسن."

ولكنه تفاجأ عندما أجابه الصوت في الطرف الآخر من الخط إنه على عِلم بمكان وجود الرجل.

"إنه في الجهة الأمامية من المنزل يستعدّ للرحيل."

الفصل التاسع والسبعون

شبه جزيرة سيناء

لم يكن بإمكان سابر أن يصدّق ثروته الضخمة بعد أن عثر على مكتبة الإسكندرية. كانت تحيط به اللفافات، ومخطوطات البَردي، وورق الرقّ، والكتب التي أطلق عليها الرجل العجوز اسم مجموعة مخطوطات - كتب صغيرة ذات صفحات بنْيَة هشّة موضوعة بشكل مسطّح على الرفوف بجانب بعضها كالجثث.

"لِمَ الهواء منعش إلى هذا الحدّ؟" أراد أن يعرف.

"لأن مراوح التهوئة تنقل الهواء الجاف من الخارج إلى هنا فيبرّده الجبل. إنه ابتكار إضافي آخر من العقود الأخيرة. كان الحراس قبلي مُبدِعين. لقد تحمّلوا مسؤوليّاتهم بجديّة. هل ستكون كذلك؟"

ووقفا في الغرفة الثالثة المسمّاة 'غرفة الأبديّة' والتي يعبِّر عنها حرف هيروغليفي آخر من الفسيفساء موضوع في أعلى الجدار - رجل يجلس القرفصاء ويرفع ذراعَيه كحكَم يومئ لطائرة بالهبوط. كان هناك مزيد من المخطوطات الموضوعة على الرفوف على امتداد الغرفة، مع ممرّات ضيّقة بين كلّ من الرفوف. وكان أمين المكتبة قد شرح قائلاً إن هذه الكتب تعود للقرن السابع للميلاد، أي قبل أن يستولي المسلمون أخيراً على مكتبة الاسكندرية.

"تمّ إنقاذ الكثير في الأشهر التي سبقت ذلك التبدّل في الحكم السياسي،" قال أمين المكتبة. "لا توجد هذه المدوّنات في أي مكان آخر من هذا الكوكب. وقد تتبدّل الوقائع والأحداث التي يعتبرها العالم تاريخاً إذا تمّت دراسة هذه المستندات."

كان سابر مسروراً بالكلام الذي يسمعه؛ يصبّ في خانة واحدة: النفوذ. وكان

بحاجة إلى سماع المزيد وبسرعة. لعل مالون قد أجبر حارساً آخر على اصطحابه عبر هذه المتاهة، ولعل خصمه ينتظر أيضاً خروجه. وبدا الاحتمال الثاني منطقياً أكثر من الأول. وكان سابر قد وضع علامة X على كل من الأبواب التي ولجها. وسيكون العثور على طريق العودة سهلاً، وعندها سيتعامل مع مالون.

ولكنه كان أولاً بحاجة إلى معرفة الإجابة على سؤال الفرد هرمن المحتمل.

"هل المخطوطات الموجودة هنا تتناول العهد القديم؟"



كان حدّاد مسروراً لأن ضيفه قد تطرق أخيراً إلى الموضوع الأساسي الذي كان سبب زيارته. لقد عانى الكثير لبلوغ هذه المرحلة. فبعد وفاته الزائفة في لندن، انتظر في شقّته المزوَّدة بأسلاك لمراقبة الصوت والصورة لمعرفة ما إذا كان سيدخلها شخص آخر. وكان واثقاً تماماً من أن الرجل الذي يشهر السلاح عليه كان قد عثر على المعلومات الموجودة في الحاسوب والشريط الصوتي.

وفي باينبريدج هول، كان حدّاد قد انتظر مالون لأن المعلومات التي تركها تحت سريره تؤدّي إلى هناك مباشَرةً. شكّل مجيء سابر مفاجاةً له خصوصاً أن قيامه بقتل الرجلَين اللذَين كان قد أرسلهما إلى المتحف يؤكّد نواياه السيّئة.

وكان أحد الحراس قد تمكن من تتبّع خطوات مالون إلى فندق سافوي وشاهده يتناول طعام الفطور مع سابر. ثم تابعت هاتَين العينَين مراقبة الرجلين، إضافةً إلى زوجة مالون السابقة، وهم يستقلّون الرحلة إلى لِشبونة. وبما أن حدّاد نفسه قام بصياغة الضالّة التي حصل عليها مالون، فقد كان يعلم وجهة الثلاثة بالتحديد.

ولهذا السبب أُرسل آدم وإيف إلى لِشبونة للتأكد من أن لا شيء يمنع مالون وحليفه الجديد من شقّ طريقهما إلى سيناء.

فقد ظن حدّاد أن مصدر التهديد هو الحكومات ـ الإسرائيلية والعربية والأميركية. ولكنه بات يدرك الآن أن الخطر الأكبر مصدره الرجل الواقف على بُعد مترَين منه. وأمِل في أن يكون سابر يعمل لحسابه الخاص. ومن خلال مراقبة عنصر الترقّب في كلمات الرجل الآخر وأعماله، بات واثقاً من أنه بالإمكان احتواء التهديد.

"لدينا العديد من النصوص المتعلّقة بالكتاب المقدّس،" قال له. "كان هذا أحد المواضيع التي أبدت المكتبة اهتماماً كبيراً في دراستها."

"العهد القديم. بالعبرية. هل يوجد مخطوطات بهذا الشأن هنا؟"

"ثلاث، اثنتان منهما نُسختا على ما يُظنّ من النصوص الأولى، والثالثة أصلية."

"أين هي؟"

أشار إلى المدخل الذي كانا قد ولجاه. "وراءنا بغرفَتين؛ غرفة حقول الاختصاص. إذا كنت تعتزم أن تكون أمين المكتبة، سيكون عليك أن تتعلّم أمكنة تخزين المواد."

"ماذا تقول هذه الكتب المقدّسة؟"

فتظاهر بالجَهل. "ماذا تعني؟"

"لقد رأيت رسائل من جيروم وأوغسطين. وهي تتحدث عن تغيير طرأ على النص الأصلي للعهد القديم، أي أن الترجمات بُدِّلت معانيها. كان هناك مدعوّون آخرون، أربعة، قاموا بدراسة هذا الأمر كذلك. أحدهم رجل فلسطيني قال منذ خمس سنوات إن العهد القديم هو السجل التاريخي لليهود ليس في فلسطين بل من مكان آخر من البلاد العربية. ماذا تعرف عن هذا الموضوع؟"

"مقدار كبير. وهؤلاء الأشخاص مُحِقّون. فترجمات الكتاب المقدّس المعترَف به خاطئة، والعهد القديم هو بالفعل السجل التاريخي لليهود في مكان آخر غير فلسطين. قرأت عدداً كبيراً من المخطوطات هنا في المكتبة تُثبت وجهة النظر هذه. حتى أنني شاهدت خرائط قديمة للصحراء تشير إلى مواقع مذكورة في الكتاب المقدّس."

وبات المسدس مصوَّباً بشكل مباشَر عليه. "أرِني إيّاها."

"لن تعني لك شيئاً ما لم تكن قادراً على قراءة العبرية أو العربية."

"للمرة الأخيرة أيها العجوز، أرِني إيّاها وإلا قتلتك وجرّبت حظّي مع موظّفيك."

فهزّ كتفَيه. "إني أحاول تقديم المساعدة ليس إلّا."



لم يكن لدى سابر أي فكرة حول ما إذا كانت الملاءات والمخطوطات التي ستُعرَض عليه هي التي يسعى ألفرد هرمن وراءها. ولكن لا أهميّة للأمر، فقد كان يعتزم فحص كل ما يحيط به.

"هناك أبحاث وضعها في القرن الثاني فلاسفة درسوا في الإسكندرية." قال أمين المكتبة. "كان اليهود آنذاك قد بدأوا لتوّهم يشكلون قوة سياسية في فلسطين، مؤكّدين حضورهم القديم المفترَض، ومبشّرين بالحق الممنوح لهم بهذه الأرض. هل يبدو الأمر مألوفاً؟ ثم قرّر هؤلاء البحّاثة أن لا وجود لما يسمّى وجود قديم. فقد درسوا النصوص العبرية للعهد القديم التي تحتفظ بها المكتبة، واستنتجوا أن الروايات كما رواها اليهود في ذلك الوقت مختلفة كثيراً عمّا جاء في النصوص، ولا سيّما الأكثر قِدَماً منها. ويبدو أنه مع مرور الزمن، أصبحت الروايات أكثر تكيّفاً مع وطن اليهود المزعوم آنذاك والذي أصبح فلسطين. لقد نسوا تاريخهم في الصحراء ببساطة. ولولا أسماء الأماكن التي لم تتبدّل، والعهد القديم بلُغته العبرية الأصلية، لما تمّ اكتشاف ذلك التاريخ أبداً."

ثم أشار أمين المكتبة إلى إحدى المخطوطات.

"تلك المخطوطة هي أقدم عهداً، فهي تعود للقرن الخامس عندما قرّر المسيحيون إضافة العهد القديم إلى كتابهم المقدّس. ويوضح هذا البحث أنه تمّ إدخال تغييرات على الترجمات لكي يتطابق العهد القديم مع العهد الجديد الناشئ. محاولة مقصودة لتعديل الرسالة باستخدام التاريخ والدين والسياسة."

حدّق سابر بالكتب.

وأشار أمين المكتبة إلى كومة أخرى من ورق الرَّق موضوعة داخل مستوعَب بلاستيكي شفّاف. "هذه هي أقدم نسخة نملكها من الكتاب المقدّس. لقد كُتبت بالعبرية قبل أربعمئة عام من ميلاد المسيح، ولا وجود لمثيل لها في العالم. أظن أن الكتاب المقدّس الأقدم عهداً الموجود خارج هذه الغرفة يعود تاريخه لتسعمئة عام بعد ميلاد المسيح. هل هذا ما تسعى إليه؟"

لم يقل سابر شيئاً.

"إنك رجل غريب الأطوار،" قال أمين المكتبة فجأةً.

"ماذا تعني؟"

"هل تعرف عدد المدعوّين الذين جازفوا للقدوم إلى هنا؟ عدة آلاف على مرّ القرون. إنّ سجلّ ضيوفنا مؤثّر. لقد بدأ في القرن الثاني عشر مع ابن رُشد، وهو الفيلسوف العربي الذي انتقد بكتاباته أرسطو وتحدّى أوغسطين. وقد درس هنا في هذا المكان. وقد قرّر أولئك الحراس أن الوقت قد حان لمشاطرة هذه المعارف، ولكن بشكل انتقائي؛ كثير من الأسماء غير المعروفة ـ رجال ونساء يتمتّعون بذكاء

استثنائي لفتوا انتباه الحراس؛ مقدرات عقلية ساهمت بشكل فردي في معارفنا. وفي الأيام التي سبقت ظهور الإذاعة والتلفزيون والحاسوب، كان الحرّاس يُقيمون في مدن رئيسية ينتظرون التقاء من يوجّهون إليهم الدعوة: توماس الأكويني، دانتي، بترارك، بوكاتشيو، بوسّان، تشوسر - رجال كهؤلاء وقفوا في هذه الغرفة. وكتب مونتيني بحوثه الأدبية هنا، وصاغ فرنسيس بيكون جملته الشهيرة 'حملتُ كل المعرفة إلى حقل اختصاصي' هنا في غرفة حقول الاختصاص.

"هل يُفترَض بكل هذه الأشياء أن تعني لي شيئاً؟"

هزّ الرجل المُسنّ كتفَيه. "أحاول أن أشرح لك مسؤوليتك. قلتَ إنك تريد أن تكون أمين المكتبة. عندها، ستُمنَح امتيازاً حصرياً إلى حدّ ما. فأولئك الذين خدموا المكتبة في الماضي إلتقوا كوبرنيكوس، وكبلر، وديكارت، وروبسبيير، وبنيامين فرانكلين. كل أولئك الأشخاص المثقّفين استفادوا من هذا المكان، واستفاد العالم من قدرتهم على الفهم والتوسّع."

"ولماذا يقل أحد منهم أبداً إنه كان هنا؟"

"لِمَ يفعلون ذلك؟ نحن لا نسعى وراء أي فخر. بذلك يحصلون في النهاية على الاعتراف بما يقدّمون للعالم. وهل قدّمنا لهم المساعدة؟ تلك كانت مهمّتنا، وطالما كان الأمر مجرّد الإبقاء على أهمية المكتبة. هل يمكنك مواصلة ذلك التقليد؟"

وبما أنه لم يكن يرغب في السماح لأي شخص آخر برؤية هذا المكان، فقد سأل عمّا يريد معرفته بالتحديد. "ما هو عدد الحراس هنا؟"

"تسعة. لقد استُنفدت أعدادنا إلى حدّ كبير."

"أين هم؟ لا أرى سوى اثنين في الخارج."

"الدّير واسع الأرجاء. إنهم يقومون بواجباتهم."

وأومأ بالمسدس. "لنعُد أدراجنا إلى الغرفة الأولى. أريد رؤية شيء آخر."

وهم الرجل المُسنّ بالمسير.

وفكّر سابر بقتله هنا، ولكن لا بدّ أن يكون مالون قد اكتشف ما يحدث. فإما أنه ينتظره عند الطرف الآخر من المتاهة أو إنه في طريقه للوصول إليه.

وبصرف النظر عن ذلك، قد يكون هذا الرجل المُسنّ مفيداً.

الفصل الثمانون

انعطف مالون عند الزاوية الأخيرة وشاهد مدخلاً مؤلَّفاً من أسدَين مجنَّحَين برأس إنسان. كان يعرف معنى هذا الرمز: عقل الإنسان، وقوة الحيوان، وكلّيّة الوجود عند الطائر. وكانت الأبواب الرخامية مفتوحة ومعلَّقة بمفاصل برونزية.

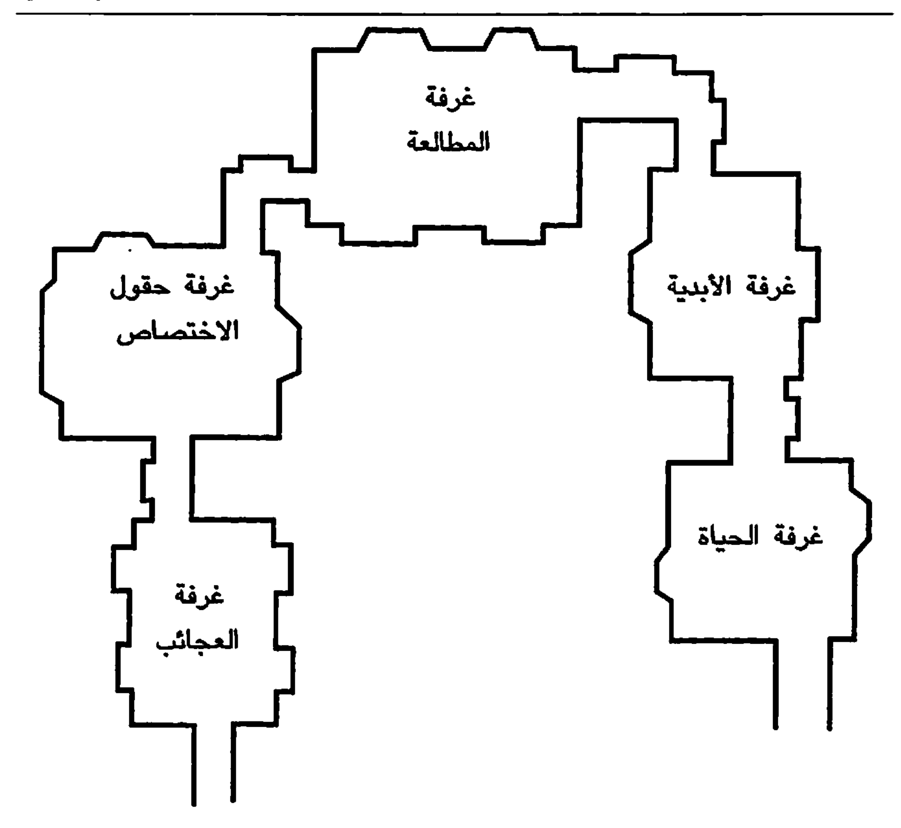
فخطيا إلى الداخل وحدّقا بهذا المكان الفخم.

وذهل بالوقت الذي قد استغرقه بناء أشياء مماثلة غير عادية. كانت هناك صفوف من الصناديق الكبيرة المعينية الشكل الطافحة باللفافات الورقية عند حدود جانبَي الأرض المبلَّطة تقطع تسلسلها ممرّات ضيّقة. فاتّجه نحو إحدى الصناديق وسحب اللفّة العليا. كان المستند في حالة رائعة ولكنه لم يجرؤ على فتحه. وألقى نظرة سريعة في داخل اللفافة فتبين له أن الكتابة ما تزال مقروءة.

"لم أكن أعلم أبداً بإمكانية وجود شيء مماثل،" قالت بام. "هذا الأمر يتخطى إدراكنا."

وكان قد رأى أموراً مدهشة، ولكنها لم تكن بروعة مشاهدة كل ما تحتوي عليه هذه الغرفة من أشياء. ولاحظ حروفاً لاتينية في أعلى أحد الجدران الحمراء المشعّة: *'AD COMMUNEM DELECTATIONEM'*، أي 'في سبيل متعة الجميع'. "لقد حقّق الحراس أمراً استثنائياً."

ولاحظ نقشاً على أحد الجدران. فتقدم نحوه وتفحّص بدقة خارطة للغرف مُشار إليها باللاتينية. وأخذ يترجم كل كلمة منها بصوت مرتفع لبام.



"خمس غرف،" قال لها. "قد تكون في أي مكان."

ولفتت انتباهه حركة عند المدخل البعيد.

فرأى جورج حدّاد، ومن ثم ماك كولوم.

"انخفضي،" قال لبام، وشهر سلاحه.

فشاهده ماك كولوم ودفع حدّاد إلى الأمام، وهو يصوّب مسدسه مطلقاً النار. فانخفض مالون متخذاً من الرفوف القائمة بينهما حماية له. واصطدمت الرصاصة بعواميد الغرانيت الموجودة وراءه.

"إنك تتحرك بسرعة،" قال ماك كولوم عبر الغرفة.

"لم أرغب في أن تكون وحيداً."

"لقد لازمني أمين المكتبة."

"هل تعرّفتما إلى بعضكما البعض؟"

"إنه لا يحب الثرثرة كثيراً، ولكنه يعرف هذا المكان."

وكان يريد أن يعرف، "ماذا الآن؟"

"أخشى أنه سيكون عليك وعلى زوجتك السابقة أن تلقيا حتفكما."

"لقد طلبت منك عدم التعرّض للجانب السيّىء من شخصيتي."

"لنحسم ذلك بسرعة، يا مالون. لقد بلغتُ هذا الحد، ولا أنوي أن أخسر الآن. إليك رأيي، لنُجرِ مبارزة عادلة بيني وبينك، وهنا بالذات. إذا ربحت، يكون الرجل المُسنّ وزوجتك السابقة في أمان. اتفقنا؟"

"أنت الذي يضع الشروط. فلنعمل وفقاً لها."



كان حدّاد يستمع إلى الحديث المتبادل بين سابر ومالون. وكان الإثنان مضطرين لحسم الخلافات فيما بينهما، في حين أنه كان هو بحاجة إلى تسديد دَيْنه. وراح يفكر مجدَّداً بالحارس بعد كل هذه العقود من الزمن عندما كان الرجل الصغير السنّ يحدق به بعينَين ملؤهما العزم. لم يكن يفهم معنى ذلك آنذاك. أما الآن، وبعد أن رأى المكتبة وبات أميناً عليها، فقد عرف ماذا كانت تعلم تلك النفس التي واجهت قدرها المحتوم.

لقد قتل ذلك الرجل الصالح بلا سبب.

وأحسّ بالندم على تصرّفه طيلة حياته.



"قف،" قال سابر لأمين المكتبة، وأخذ يراقب الرجل المُسنّ وهو ينهض. "حسناً، يا مالون. ها إني أتصرف بالطريقة المناسبة. إنه يتّجه نحوك." وأومأ بمسدسه. "إذهب."

اجتاز أمين المكتبة ببطء الممرّ القائم بين الصناديق المعينية الكبيرة. وبقي

سابر في مكانه رابضاً وراء أحد الصفوف.

وبعد أن قطع أمين المكتبة مسافة ثلاثين قدماً توقف أمين المكتبة واستدار.

وكانت النظرات المحدّقة به تخترقه في الصميم. فأخذ يتساءل عن هذا الرجل المُسنّ. كان هناك أمر يُشير إلى خطر مُحيق، وكأن الروح القائمة خلف هاتَين العينَين واجهت هذا السيناريو من قَبل ولم تكن تخشى شيئاً. وفكّر ملياً بقتل أمين المكتبة، ولكن من شأن ذلك إغاظة مالون.

وهذا ما لم يكن راغباً في القيام به.

ليس بعد.

فمالون هو العقبة الوحيدة المتبقّية، وما إن يتخلص منه حتى تصبح المكتبة له. لذا فقد، شعر بالارتياح عندما تابع الرجل المُسنّ سيره.

الفصل الحادي والثمانون

واشنطن، العاصمة

أوقفت ستيفاني سيارتها في الشارع الذي يقع فيه منزل لاري دالي، وسارت هي وكاسيوبيا المسافة المتبقّية للوصول إليه. لا دلالة على وجود برنت غرين أو أي شخص آخر. فاقتربتا من الباب الأمامي ثم كسرت كاسيوبيا الأقفال مجدَّداً وقامت ستيفاني بتعطيل جهاز الإنذار. ولاحظت أن كلمة السّر لم تتبدّل. فقد تركها دالي على حالها حتى بعد نجاحهما بالدخول في المرة السابقة. لقد أساءت الحكم على الرجل إمّا بسبب حماقتها أم افتقارها إلى مزيد من الأدلة.

كان داخل المنزل هادئاً، فقامت كاسيوبيا بتفتيش كل غرفة بشكل دقيق للتأكد من أنهما بمفردهما. توقفت ستيفاني عند البهو الصغير الذي يستخدم مكتباً حيث كانتا قد وجدتا الذاكرات الإصبعية ثمّ انتظرتا عند الباب الأمامي.

وبعد عشر دقائق، توقفت إحدى السيارات في الخارج.

أمعنت ستيفاني النظر عبر الستائر وشاهدت غرين يظهر من وراء السيارة ويسير في اتجاه الباب الأمامي بمفرده. فأومأت برأسها لكاسيوبيا وفتحت الباب.

كان غرين يرتدي بذلة سوداء عادية وربطة عنق. وما إن دخل المدّعي العام حتى أغلقت الباب وراءه وأقفلته، واتخذت كاسيوبيا موقعاً لها بقرب إحدى النوافذ.

"حسناً، يا ستيفاني. هل يمكنك أن تخبريني بما يجري؟"

"هل اصطحبتَ معك الذاكرات الإصبعية؟"

فمدّ يده إلى داخل جَيب سترته وأخرجهما.

"هل استمعتَ إلى التسجيلات؟"

فأومأ برأسه مؤكّداً الأمر. "بالطبع، فالمحادثات مشوّقة ولكنها لا تشكّل دليلاً جُرمياً. هناك حديث عن التعديل الثاني والخمسين ليس إلّا؛ مجرّد حديث. لم تتمّ مناقشة أي مؤامرة بشكل صريح أو ضمني."

"لهذا السبب، قام دالي بجمع المزيد،" قالت له. "فقد أخبرني بأنه كان ينظر في هذا الأمر بعناية منذ مدة."

"يتفحّص ماذا؟"

ولاحظت نوبة من الانزعاج تعتريه.

"المؤامرة، يا برنت. نائب الرئيس يخطط لقتل دانيلز. لقد أعدّ لحدوث الأمر أثناء زيارة مفاجئة سيقوم بها دانيلز إلى أفغانستان في الأسبوع القادم." وكانت تراقب كيف أن الكلمات استحوذت عليه، ممّا يُؤكد له أنها كانت على عِلم بما تتحدّث عنه.

حافظ غرين على هدوئه. "ما هو الدليل الذي عثر عليه دالي؟"

"مزيد من المحادثات. لقد وضع جهاز تنصّت في مكتب نائب الرئيس في الواقع. لم يكن الأمر صعباً عليه لأنه الشخص المسؤول عن التأكد من أن نائب الرئيس غير مراقَب. ويبدو أن نائب الرئيس على صلة بجماعة الجِزة الذهبية. فقد تدبّر رئيسها، ألفرد هرمن، أمر مهاجمة طائرة الرئيس بالصواريخ بعد أن عقد بنفسه اتفاقاً مع أشخاص تابعين لبن لادن."

"ستيفاني، آمل أن يكون دالي قد جمع أدلّة دامغة؛ إنها اتهامات لا تصدَّق."

"قلتَ إن الإدارة برمّتها بؤرة فساد، وأنك تريد النَّيل منهم. هذه هي فرصتك."

"كيف نُثبت ذلك؟"

"التسجيلات موجودة هنا، وقد أطلعني دالي عليها. وقال إنها تُظهر كل من هو متورّط في المؤامرة. كنا على وشك القدوم إلى هنا عندما انفجرت السيارة."

كان غرين يقف في الردهة قبالة الدرج الذي وقف عليه دالي وهيذر ديكسون في اليوم السابق. وكان يبدو مستغرقاً في التفكير ومصمّماً على الاستمرار بخدعته. بالطبع، كانتا بحاجة إلى دليل مادّي بالرغم من أنه كذب عليها بشأن ثورفالدسن ولم يُطلع الرئيس على أي من المعلومات التي اكتشفها هنريك.

"إني أعرف أين خبّأ التسجيلات،" قالت له.

أخيراً، ظهر على عينَي غرين بعض الاهتمام. أما كاسيوبيا فبقيت واقفة بالقرب من النافذة.

اصطحبت ستيفاني غرين إلى بهو المكتب الذي يحتوي على مكتب صغير ورفوف ضيّقة. وكان يوجد على أحد الرفوف كدسة من الأسطوانات المدمجة داخل علبها البلاستيكية. وكانت الموسيقى التي تحتوي عليها هذه الأسطوانات من النوع الذي يعزف على آلات ومن بلدان متنوّعة، حتى أنه كان هناك بعض الأناشيد الغريغورية الغريبة. مدّت يدها إلى إحدى العلب 'عجائب التيبت' وفتحتها. كان في داخل العلبة قرص آخر بدلاً من الأسطوانة الموسيقية، فسحبتها بنقرة إلى الخارج وقالت، "إنه يحب أن يخفي أغراضه بالقرب منه."

"ماذا يوجد في تلك الأسطوانه بالتحديد؟"

"يقول إنه الدليل على المشاركين في المؤامرة. وقد قال إنها بلغت مستوى لا يمكن لأحد الارتياب بصحتها." وكانت أعصابها مثارة من شدة اضطرابها. "هل تريد الاستماع؟"

لم يقُل غرين شيئاً.

"لِماذا سرّبت المَلفّ المتعلق بلغز الإسكندرية؟" سألته.

"لقد أخبرتك السبب سابقاً، للعثور على الخائن. لقد أدّى هذا الأمر إلى كشف النقاب عن أمور عدة؛ هكذا اكتشفنا الصلة الإسرائيلية ببام مالون. إن تسريب ذلك الملف قد حرّك كل شيء."

"وهل كنتَ على اطّلاع على محتوياته؟"

"لِمَ كل هذه الأسئلة، يا ستيفاني؟"

"لأنني لم أكن على عِلم بأنك تعرف أموراً عن لغز الإسكندرية، أم أنك تعرف تفاصيل أقلّ لا تمكّنك من الظن بأنها ستكون طعماً وضعته إسرائيل."

أمال غرين رأسه إلى الجانبَين بطريقة غريبة. "هذا أمر غير مقبول. هل هو استجواب في محكمة؟"

لم تكن تنوي استفزازه. أقلّه ليس الآن. "عندما تحدّثنا عن الأمر في المرة الأولى، أوضحتَ لي إنك قمت بتسريب الملف عَمداً وأنه يحتوي على أمور قليلة

أخرى غير الإشارة إلى أن مالون يعرف مكان إقامة جورج حدّاد. ولكنك أشرت بصفة خاصة إلى الوعد الإبراهيمي. كيف عرفت بذلك؟"

"لم يكن الملف سرّيّاً إلى هذا الحد."

"حقاً؟ لم يقل دالي ذلك. لقد أصرّ على أن المعلومات الموجودة في داخله قليلة جداً ولا يعرفها إلا عدد قليل من الأشخاص من ذوي المناصب العُليا." وأضافت إلى كلماتها طابعاً من الوقاحة. "لم تكن على تلك اللائحة، ومع ذلك فأنت تعرف قَدْراً كبيراً من المعلومات."

خرج غرين من البهو واتجه نحو المكتب.

فلحقت به.

وكانت كاسيبوبيا قد اختفت.

فنظرت حولها وشعرت بالقلق.

"لقد تولّى أمرها شركائي،" قال لها غرين.

لم يُعجبها هذا التصريح. "ومن يتولّى أمري؟"

مدّ غرين يده تحت سترته وأخرج مسدساً. "لقد أُوكلت تلك المهمة إليّ، ولكنني أرغب في التحدث معك على انفراد أوّلاً."

"للتحقّق من مقدار ما أعرف؟ ومقدار ما تعرفه كاسيوبيا؟ ومن غيرنا على عِلم بذلك؟"

"أشك في أن يكون هناك من يقدم لك المساعدة. بالرغم من كل شيء، يا ستيفاني، لستِ الشخص المفضَّل في هذه الحكومة. حاول دالي استمالتك، ولكن الأمر لم ينجح."

"أنت من خطَّط للأمر؟"

فاومأ غرين برأسه مؤكّداً الأمر. "لقد فخخنا السيارة بالمتفجّرات وانتظرنا الوقت المناسب. إنه جزء من الهجوم الإرهابي التي ستتعرّض له هذه الأمّة، وقد بدأ بدالي وسوف ينتهي بدانيلز. سيعاني هذا البلد اضطراباً شديداً."

"وهو أمر سيستغلّه نائب الرئيس بعد تقلّده منصب الرئاسة. وسيحتاج بعد ذلك إلى نائب للرئيس، وهنا يأتي دورك."

"لم نعد نملك فرصاً عديدة للارتقاء إلى مناصب عليا، يا ستيفاني. يجب أن نقبل ما يُعرَض علينا. سأكون الخيار الأمثل لمواجهة الأزمة. سيكون هناك إجماع لتسلّمي هذا المنصب."

"أنت مثير للشفقة."

ورمقها بتعبير ينتقص من قَدْرها. "سوف أقبل بذلك. وبالرغم من كل شيء، فإن حياتكِ لن تستمّر أكثر من دقائق قليلة أخرى. بالمناسبة، كان من المفترَض بك أن تكوني جزءاً من الهجوم. فعندما ظهرتِ في ذلك المطعم، قرّرتُ أن أشدِّد المراقبة عليك، ولكنك تمكّنت نوعاً ما من الإفلات من الرجال الذين أُرسلوا لهذه الغاية. لم أزل أجهل كيف استطعت تنفيذ ذلك."

"التدريب الجيد يُحدث كل الفرق."

وارتسمت على فمه ابتسامة غير ودّيّة. "سأشتاق إلى سرعة الخاطر تلك."

"هل تُدرك ما أنت فاعل؟ استخدام العنف للإطاحة برئيس منتخَب بالطريقة الصحيحة؟"

"أظنّ أنها تُدعى خيانة. ولكن داني دانيلز رجل ضعيف، وغير كفؤ، ولا يعرف صالح هذا البلد. إنه صديق لإسرائيل أيّاً تكن النتائج، وهذا ما أصاب دبلوماسيتنا بالشلل في الشرق الأوسط. حان الوقت لتغيير المحسوبية الأميركية. ولدى العرب الكثير مما يقدّمونه لنا أكثر الإسرائيليون."

"وهل مكتبة الإسكندرية هي التي ستفي بهذا الغرض؟"

فهزّ كتفَيه. "لا أدري. هذه مشكلة الرئيس الجديد، وهو يقول إن الأمور تحت السيطرة."

"تريد التسكّع حول ذلك الرجل السيّئ؟"

"لا أسمّي كوني نائباً للرئيس تسكّعاً. وبما أني قدّمت المساعدة لانتقال السلطة بهذه الطريقة الحسّاسة. ستكون لي علاقة فريدة مع الرئيس: كثير من المسؤوليات وقليل من الظهور."

وأشارت إلى السلاح. "هل ستقدم على قتلي؟"

"لا خيار لي. تلك الأسطوانة المدمجة تدينني بالتأكيد. لا يمكنني التغاضي عن الأمر، ولا يمكنني إطلاق سراحك."

وأخذت تتساءل عن مكان وجود كاسيوبيا. فالأمر لم يجر وفقاً للمخطط الموضوع، ولم تكن تتوقع أن يحمل غرين نفسه سلاحاً. والتمعت في ذهنها فكرة.

اللجوء إلى الحيلة.

"هل سيُطلق المدّعي العام في الولايات المتحدة النار عليّ؟"

"لقد فكّرت في هذا الأمر طوال اليوم، ولكن لا لوجود خيار آخر أمامي لسوء الحظ."

"ماذا عن كل تلك القِيَم المسيحية التي سمعتك تتكلّم عنها كثيراً؟"

"المعركة على أشُدّها والقواعد أصبحت مختلفة. إنها مسألة حياة أو موت، يا ستيفاني. لقد استمعتُ في الواقع إلى التسجيلات التي وضعها دالي على الذاكرة. وكان رئيس الأركان التابع لنائب الرئيس يتحدث كثيراً عن الخلافة الرئاسية، وقد استفاض في حديثه كثيراً. ولكن هذا الأمر لا يجرّم أحداً، بل من شأنه طرح أسئلة. من الواضح أن دالي كان يتحرّى عن الموضوع، وتلك الأسطوانة التي تحملين تحتوي على معلومات إضافية. علينا وضع حدّ لهذا الأمر. بالطبع، لن يتمّ العثور على جثّتك أبداً؛ هناك نعش في الانتظار في سفارة دولة عربية فقد مات أحد ملحقيها الدبلوماسيين وأوصى بدفنه في الوطن. سترافقينه إلى بلده في رحلة دبلوماسية."

"لقد أعددتَ لكل شيء، أليس كذلك؟"

"قد يؤدّي لنا الأصدقاء خدمات كبيرة، وأنا أتعلّم ذلك. لقد اعتدتُ الاتّكال على نفسي منذ زمن طويل، ولكنني أحب أن أكون جزءاً من فريق. لا يريد العرب سوى تدمير إسرائيل، وقد وعدناهم بأنه يمكن إنجاز هذا الأمر. ويظنّ الإسرائيليون أن العرب يعملون معهم في هذه المسألة، ولكن العكس هو الصحيح. فهم يعملون معنا، وهكذا كانت الحال منذ البداية."

"لا فكرة لديهم أنهم يتعاملون مع حُثالة مخادعين مثلكم. لا يهمّكم سوى المال والنفوذ."

"هل ترغبين في قول شيء آخر؟"

فهزّت رأسها.

وانطلقت النار من المسدس.

الفصل الثاني والثمانون

فيينا

كان ثورفالدسن واقفاً مع غاري. وكان قد اتصل بجِسبر بعد أن غادرا الـ شمترلينغهاوس وطلب منه أن يرسل له سيارة وسائقاً. وبينما كانا يُعدّان العدّة للعودة إلى كوبنهاغن، أمر مساعده بإطلاق سراح مارغريت. ولم يكن مكترثاً جداً لملابسهما لأنه لم يكن يملك متّسعاً من الوقت لأخذها؛ وكان يحمل فقط كتاب الخرائط الذي حصل عليه من مكتبة هرمن والذي يحتوي على رسائل القديس جيروم والقديس أوغسطين.

كانت السيارات تعبر الطريق المشجَّر. المؤدّي إلى البوّابة الأمامية. ذهاباً وإيّاباً. ولم يبقَ كل أعضاء الجماعة في القصر. فقد اختار العديدون القيام بزيارات برفقة أصدقاء لهم أو قضاء أوقات ممتعة في فنادقهم المفضّلة في فيينا. وكان يعرف بعض أولئك القادمين، فتبادل معهم أطراف الحديث للحظات. وسمح له هذا الأمر بالوقوف على ما كان يدور في اجتماعات الجماعة، ولكنهما كانا مضطرين إلى المغادرة مع الرسائل قبل أن يستيقظ هرمن.

"هل نواجه مشكلة؟" سأل غاري.

"لست واثقاً من ذلك." ولكنه كان مُدركاً للمشكلة التي يواجهان.

"لقد وجّهتَ ضربات قاسية لأولئك الشخصَين."

ولاحظ مدى تأثّر الفتى. "لقد قمتُ بذلك حقاً، أليس كذلك؟"

"لا أريد أن أكون هنا عندما يستيقظان."

وهو أيضاً لا يريد ذلك. "يجب علينا الاحتفاظ بهذه الرسائل، وأخشى ألّا يسمح مضيفنا بذلك أبداً."

"ماذا عن ابنته؟ إنه لم يبدُ مهتمّاً بها."

"لا أعتقد أنه كان مهتماً بها في أي وقت من الأوقات. كان اختطافها أمراً غير متوقَّع فحسب، وقد جعله هذا الأمر يتردّد لمدة كانت كافية لنا للتصرّف." وفكّر بابنه المتوفّي. "أشخاص كالفرد لا يهتمّون إلّا قليلاً بعائلاتهم."

كم أن الأمر رهيب بالنسبة إليه! فهو يفتقد زوجته وابنه معاً. وإن رؤية غاري مالون يهرع للدفاع عنه أوقع الرعب والسرور في نفسه، في آن. فأخذ يربِّت على كتف الفتى.

"ما الأمر؟" سأل غاري.

"سيكون والدك فخوراً بك."

"آمل في أن يكون بخير."

"وأنا أيضاً."

فجأة سلكت ثلاث سيارات الطريق الخاص بالمنزل بسرعة وانعطفت عند الطريق المشجَّر المرصوف، ثم توقّفت عند باب القصر، وخرج من السيارتَين الأولى والثالثة رجال يرتدون بذلات قاتمة اللون. وبعد إلقاء نظرة متفحِّصة وسريعة على المحيط، فتح أحدهم الباب الخلفي للسيارة الوسطى وخرج منها نائب رئيس الولايات المتحدة وهو يرتدي ثياباً عادية هي كناية عن قميص تحت سترة كحلية فضفاضة، وكانت فترة بعد ظهر مُشمسة.

كان ثورفالدسن وغاري يقفان على بُعد عشرين متراً، ويراقبان رجال الأمن وهم يحيطون بنائب الرئيس، ويتجهون نحو المدخل الرئيسي للقصر. وفي منتصف الطريق، توقف نائب الرئيس وبدّل اتجاهه.

ثم سلك الوجهة المؤدِّية إليهما مباشَرةً.

ولاحظ ثورفالدسن مزيجاً من الغضب والاشمئزاز على وجهه. يبدو هذا الأحمق الطموح راغباً في القيام بأمر ما.

"لا تقُل أي كلمة أيها الفتى،" قال لغاري. "تنكّر، إفتح أُذُنَيك وأبقِ فمك مُطبَقاً."

"لقد فهمتُ ذلك."

"لا بدّ أنك هنريك ثورفالدسن،" قال نائب الرئيس وهو يقترب منها، معرّفاً عن نفسه.

"بنفسه. يُسعدني لقاؤك، يا سيدي."

"لا تدعُني سيدي، اتفقنا؟ أنت أحد أثرياء العالم وأنا لست سوى رجل سياسي."

"ماذا يقول المثل المأثور؟ لا يفصلنا عن منصب الرئاسة سوى نبضة واحدة؟"

فضحك الأميركي في سرّه. "أصبت، ولكن الأمور تسير ببطء شديد. وبالرغم من ذلك، أحب القيام بأسفار، وأستمتع بالقدوم إلى أماكن مماثلة لهذا المكان."

"وما الذي أتى بك إلى هنا اليوم؟"

"أنا وألفرد هرمن صديقان. جئتُ أقدّم تحياتي له."

وكان هناك سيارة أخرى تتقدم على الطريق الخاص بالمنزل؛ وكانت من نوع بي إم دبليو فاتحة اللون يقودها رجل يرتدي زِيّاً رسمياً. فأومأ ثورفالدسن له واتجهت السيارة نحوه.

"هل أنت مغادر؟" سأل نائب الرئيس.

"علينا الذهاب إلى المدينة."

وأشار الأميركي إلى غاري. "ومن هذا الشاب؟"

فعرّفهما ثورفالدسن إلى بعضهما البعض، مستخدِماً اسم غاري الحقيقي، وتصافحا.

"لم يسبق لي أن التقيتُ بنائب الرئيس،" قال غاري.

توقفت سيارة الـ بي إم دبليو وخرج السائق، واستدار حول السيارة وفتح الباب الخلفي لثورفالدسن.

"وأنا لم ألتقِ أبداً بابن كوتون مالون،" قال نائب الرئيس.

أدرك ثورفالدسن أنهما باتا في مأزق. وتأكد أمر ذلك بشكل مضاعَف عندما شاهد ألفرد هرمن يسير نحوهما متقدماً رئيس حراسه.

قال نائب الرئيس، "برنت غرين يرسل تحيّاته."

ورأى ثورفالدسن خيانة غرين في عينَي الرجل القاسيتَين.

"أخشى أنكما لن تذهبا إلى أي مكان،" قال نائب الرئيس بنبرة فظّة.

وصل هرمن ودفع الباب الخلفي للسيارة فأغلقه. "السيد ثورفالدسن لن يحتاج إلى السيارة. يمكنك الذهاب."

كان ثورفالدسن على وشك الاحتجاج والإصابة بنوبة انفعال، ولكنه لاحظ أن رئيس الحرس اتخذ موقعاً له بجانب غاري، وكان يصوّب مسدساً موضوعاً تحت سترته إلى الفتى مباشَرةً. كانت الرسالة واضحة.

فالتفت إلى السائق. "هذا صحيح، شكراً لحضورك."

وأخذ هرمن كتاب الخرائط منه. "خياراتك تتلاشى بسرعة، يا هنريك."

"بإمكاني قول ذلك أيضاً،" قال نائب الرئيس.

وبدا هرمن مُربَكاً. "لماذا أنت هنا؟ ماذا يحدث؟"

"أحضرهما إلى الداخل وسأُطلعك على كل ما يجري."

الفصل الثالث والثمانون

شبه جزيرة سيناء

انتظر مالون حتى بات جورج حدّاد في مكان آمن خلف حافة رف الكتب حيث افترض هو وبام أنه موقع دفاعي.

"هل عُدتَ من مثوى الأموات؟" قال مالون لحدّاد.

"قد تكون القيامة مجيدة."

"جورج، ذلك الرجل يريد قتلكم جميعاً."

"لقد استجمعتُ قواي. كم أنا محظوظ لكونك هنا."

"وماذا لو لم أتمكن من إيقافه؟"

"إذا فإن هذه المحاولة برمّتها تصبح تضييعاً للوقت."

كان بحاجة إلى أن يعرف، "ماذا يوجد وراء تلك الجدران هناك؟"

"ثلاث قاعات أخرى وغرفة المطالعة. كلها شبيهة بهذه القاعة. لا وجود لأماكن عديدة يمكن الاحتماء بها."

وتذكر قواعد المواجهة. "هل يُفترَض بي أن أتبادل إطلاق النار معه فحسب؟"

"لقد أتيتُ بك إلى هنا. لا تخذلني الآن."

واعتراه الغضب. "هناك طرق أبسط للقيام بذلك؛ كان بإمكانك أن تطلب تعزيزات."

"أشك في ذلك. ولكنني وضعتُ أشخاصاً في الخارج للمراقبة، مخافة قيام أحدهم بالتسلّل. أراهن على أنه بمفرده وسيبقى على هذه الحال."

"كيف تعرف ذلك؟ كان الإسرائيليون يطاردوننا في كل مكان."

"لقد قُتِلوا." وأشار حدّاد إلى ما وراء الجدار. "إنه كل ما تبقّى منهم."

نظر مالون إلى ماك كولوم فشاهده يندفع بسرعة عبر الممرّ المقنطَر متوارياً في عمق المكتبة. وما زالت هناك ثلاث قاعات أخرى قبل غرفة المطالعة. كان على وشك انتهاك مجموعة كبيرة من القواعد التي أبقته على قَيد الحياة طوال اثنتَي عشرة سنة قضاها في ماجيلان بيليت، وإحداها واضحة: لا تدخل أبداً ما لم تكن تعرف كيفية الخروج. ولكن أمراً آخر طرأ على ذهنه وكان قد تعلّمه في ما مضى: عندما تسوء الأمور، يمكن لأي شيء أن يُلحق بك الأذى بما في ذلك عدم القيام بأي شيء.

"إعلم ذلك،" قال حدّاد. "ذلك الرجل كان مسؤولاً عن اختطاف ابنك. وقد دمّر مكتبتك كذلك. إنه يُلام بقدر ما ألام على وضعك في هذه المواقف. كان بإمكانه قتل غاري إذا لزم الأمر، وسيقوم بقتلك بكل سرور."

"كيف عرفتَ بأمر غاري؟" سألت بام.

"يمكن للحرّاس الوصول إلى كمّ وافر من المعلومات."

"وكيف صرت أميناً للمكتبة؟" سأل مالون.

"إنها قضية معقّدة."

"أراهن على أنها كذلك. سيكون بيني وبينك حديث طويل عندما تنتهي هذه المسألة."

فابتسم حدّاد ابتسامة عريضة. "أجل يا صديقي القديم، سيكون لنا ذلك الحديث الطويل."

وأشار مالون إلى بام وكلّم حدّاد. "أبقِها هنا، فهي لا تتقيد بالأوامر أبداً."

"إذهب،" قالت. "سنكون بخير."

وقرّر الكفّ عن الجدال واندفع مسرعاً عبر الممشى. عند الباب، توقف بجانبه، وكانت هناك غرفة أخرى مفتوحة على بُعد عشرين قدَماً: مزيد من الجدران

المرتفعة، وصفوف من الرفوف الحجرية، ورسائل، وصور، وفسيفساء من الأرض إلى السقف. فانسلّ إلى الأمام ولكنه لازم الجوانب المصقولة للممّر. ودخل القاعة الثانية واحتمى مجدًّداً بطرف أحد الصفوف الحجرية. كانت الغرفة مربّعة أكثر من الأولى، ولاحظ وجود مزيج من اللفافات الورقية والمخطوطات.

لم يشعر بأي حركة، وهذا ما يعد ضرباً من ضروب الغباء. لقد تمّ استدراجه إلى العمق، وفي أي لحظة، قد يبدأ ماك كولوم بالقتال، ووفقاً لشروطه.

ولكن متى؟



كان حدّاد يراقب بام مالون. فعندما كان في لندن، حاول أن يقيّم شخصيّتها، متسائلاً عمّا كانت تفعله هناك. وكان الحراس قد جمعوا معلومات شخصية حول كوتون مالون لم يكن حدّاد مطّلعاً عليها كثيراً - إذ نادراً ما كان مالون يتحدث عن زوجته وعائلته. أما معلوماته عن مالون فلا تتعدّى إطار صداقة أكاديمية يحثّها حُب الكتب واحترام المعرفة. ولكن معلوماته كانت كافية، وقد حانَ الوقت لاستخدام تلك المعرفة.

"علينا أن نعود إلى هناك،" قال.

"طلب منا كوتون أن نلازم مكاننا."

وسمح لنظراته المحدّقة باختراقها في الصميم. "علينا العودة إلى هناك." ولإثبات وجهة نظره، أخرج مسدساً من تحت جبّته.

والأمر المثير للدهشة أنها لم تجفَل. "عرفتُ ذلك عندما نظرتَ إلى ماك كولوم،" قالت.

"هل هذا هو الاسم الذي أعطاكما إيّاه؟"

فأومأت برأسها.

"إسمه سابر وهو قاتل. وقد كنت أعني ما قلته في شقتي في لندن. عليّ تسديد دين ما، ولا أرغب في أن يقوم كوتون بتسديده."

"رأيت ذلك في عينَيك. أردتَ أن يقوم بإطلاق النار عليك، ولكنك علمت بأنه لن يفعل."

"الرجال الذين يشبهون سابر يبخلون بإبداء شجاعتهم. فهم يدّخرونها لاستخدامها عند الحاجة القصوى، كما هو الحال الآن."

"كنتَ تعلم أن كل هذه الأمور سوف تحدث؟"

فهزّ كتفَيه. "كنت أعلم، وافكر، وآمل. لست أدري. كنا نراقب سابر، وكنا نعرف أنه يخطط لأمر ما في كوبنهاغن. وعندما اختطف غاري، أدركنا أنه يحاول العثور عليّ. عندها قرّرت أن أتدخّل بشكل شخصي. وقد اكتشف جواسيس يعملون لصالح إسرائيل اتصالي الثاني الذي أجريته مع الضفة الغربية، وقد حثّهم هذا الأمر على التحرك. وبعد ذلك، في لِشبونة، تدبّرت أمر اقتيادكم أنتم الثلاثة إلى هنا بدون الإسرائيليين."

"هل قمتَ بكل هذه الأمور لتلقى حتفك؟"

"قمتُ بكل ذلك لحماية المكتبة. فسابر يعمل لصالح منظمة تريد الحصول بالتأكيد على هذه المعارف لغايات سياسية واقتصادية خاصة. هم يتحرّون عنّا منذ بعض الوقت. ولكنك سمعتِه، إنه موجود هنا لصالحه الخاص لا لصالح المنظمة، وإيقافه يعني إيقاف كل شيء."

"ماذا ستفعل؟"

"لست أنا الذي سيفعل. عليك القيام بالأمر أيضاً."

"أنا؟"

"كوتون بحاجة إليك. هل ستُديرين له ظهرك؟"

وراح يراقبها وهي تقلّب الفكرة في ذهنها. كان يعلم أنها ذكية، وسريعة الانفعال، ومندفعة، ولكن عُرضة للأذى أيضاً وميّالة لارتكاب أخطاء. كان قد أمضى عمره يقرأ أفكار الناس، وأمِل في أن يكون قد قرأ أفكار بام مالون بشكل صحيح.

"على الإطلاق،" قالت.



غادر سابر غرفة حقول الاختصاص ودخل إلى غرفة المطالعة التي تحتوي على

مزيد من الطاولات وعدد أقل من الرفوف. وعلِم من جولته القصيرة الأولى أن القاعة التالية، وهي قاعة الأبدية، تؤدّي إلى القاعة الأخيرة، لأن المكتبة مبنيّة على صورة انحناء مزدوج. وكانت النوافذ والنوافذ الزائفة المزيَّنة بلوحات لمناظر طبيعية مرئيّة عن بُعد وبإضاءة خاصة توحي بأجواء خارجية. كان عليه الاستمرار بتذكير نفسه بأنه ما زال تحت مستوى الأرض.

ثم توقف داخل غرفة المطالعة.

فقد حان الوقت للاستفادة ممّا لاحظه في وقت سابق.



تابع مالون تقدّمه ومسدسه في يده. كان قد بدّل مخزن الذخيرة الفارغ بمخزن آخر مليئ بطلقات نارية هي آخر ما تبقّى لديه، ولكنه كان يملك تسع رصاصات على الأقل، إضافةً إلى ثلاث رصاصات أخرى متبقّية في جَيبه؛ لذا فإن لديه اثنتَي عشرة فرصة لإيقاف ماك كولوم.

كانت نظراته المحدّقة تتحرك بسرعة من جدار إلى آخر ومن السقف إلى الأرض، وأحاسيسه متنبّهة. وكان صدره وعموده الفِقري مبلَّلَين بالعرَق، والهواء تحت الأرضي يشعره بالبرودة. فعبر القاعة الثانية وسلك الممرّ في اتجاه الغرفة التالية المضاءة التي تشكّل زاوية مع هذه الغرفة. لم يسمع شيئاً وقد أفقده السكون شجاعته. وما كان يحمله على الاستمرار بالتحرك قُدُماً هو ما قاله حدّاد ـ ماك كولوم هو أحد الذين اختطفوا غاري؛ هذا السافل ألحق الأذى بابنه من خلال اختطافه وحمل مالون على قتل رجل. لا يمكن التغاضي عن تلك الانتهاكات. لقد أراد ماك كولوم معركةً وهو على وشك الحصول عليها.

وبلغ مدخل القاعة الثالثة.

غرفة المطالعة.

كان هناك حوالي عشرون طاولة قاتمة اللون وبالية مصنوعة من ألواح خشبيّة سميكة مقصوصة بطريقة غير مستوية، ومبعثَرة في الغرفة وسط الرفوف.

واستطلع المخرج القائم في الجدار المقابل.

كانت الغرفة أكبر من الغرفتين الأُخريَين، وهي مستطيلة الشكل ويبلغ طولها

حوالى ستين قدماً. وكانت الجدران تحمل بلاطات وعتبات تعود للعصر البيزنطي، إضافةً إلى فسيفساء تصف مشاهد لنساء ذلك العصر، بعضهنّ تغزِلنَ وتحِكنَ، وأخريات تمارسنَ ألعاباً رياضية. فأشاح بنظره عن المهارات الفنّيّة وركّز على المشكلة. كان يتوقّع ظهور ماك كولوم في أية لحظة من بين الطاولات، وكان مستعدّاً لذلك. ولكن شيئاً لم يحدث.

ثم توقف.

هناك خَطْب ما.

عندئذٍ شاهد انعكاساً قاتماً على الغرانيت الأحمر المصقول أسفل الجدار البعيد. وتموّجت صورة طيفيّة عليه شبيهة بتلك التي نراها عندما ننظر عبر قنّينة صودا.

ومن خلال الأرض.

وتحت الطاولات.

أدرك ما يجري.

الفصل الرابع والثمانون

واشنطن، العاصمة

سمعت ستيفاني صوت إطلاق نار، ولكنها لم تصب بأي منها. ثم رأت الثُّقب في جانب رأس برنت غرين وأدركت ما حدث.

فاستدارت.

كانت هيذر ديكسون واقفة والمسدس في يدها.

سقطت جثة غرين على الأرض الخشبية، ولكنها استمرّت بمراقبة ديكسون التي أخفضت سلاحها. ثم سارت كاسيوبيا ووقفت وراء الإسرائيلية.

"هذه نهاية الأمر،" قالت ديكسون.

واسترعت كاسيوبيا انتباه ستيفاني. "ماذا حدث؟"

"عندما عدتِ وغرين إلى المكتب، ظهرت هيذر. لقد كنّا مُحِقّتَين. فقد اصطحب غرين معه عدداً قليلاً من الأصدقاء كانوا ينتظرون في الخارج في الناحية الخلفية من المنزل. ألقى رجال المخابرات القبض عليهم، وبعدها ـ وأشارت كاسيوبيا إلى ديكسون ـ "دخلت هيذر."

فهمت ستيفاني. "هل تعملين لصالح الرئيس؟"

"كان لا بد من القيام بذلك. فهذا الوغد كان على وشك خيانتنا جميعاً. كان بإمكانه مع نائب الرئيس أن يشعل حرباً عالمية بما كانا يخططان له."

وشعرت بشيء ما في نبرتها وأرادت أن تعرف، "ماذا عنكِ ودالي؟"

"أحببتُ لاري. لقد تقرّب منا لتقديم المساعدة، وأطلعنا على ما يجري، وقامت

بينه وبيني علاقة حميمة. صدّقا أم لا، كان يحاول اعتراض تنفيذ بعض الأمور. عليكما الإقرار له بذلك."

"كان من الأسهل للجميع لو قدمتما إليّ بما تحملانه من معلومات."

هزّت ديكسون رأسها. "هذه مشكلتك، يا ستيفاني. إنك تعيشين في هذا الوهم المثالي. كنت تكرهينِ لاري، ولم تحبّي غرين، وظننتِ أن البيت الأبيض لا يحبّك. كيف كنتِ ستتمكنين من القيام بأي شيء؟"

"ولكنها لعبت دور الطُّعم المثالي،" قالت كاسيوبيا. "أليس كذلك؟"

"كل صنّارة بحاجة إلى طُعم، وكنتما كليكما هذا الطُّعم."

كانت ستيفاني ما تزال تحمل الأسطوانة المدمجة التي زرعتها في مكتب دالي، وكانت فارغة. مجرد وسيلة لإثارة ردة فعل غرين. "هل سجّلوا كل شيء على الشريط هناك؟" وكان قد تمّ تزويدها بجهاز تنصّت قبل مغادرتهما كامب ديفيد.

فأومأت كسيوبيا برأسها. "كل الحديث."

"ماذا عن العرب؟" سألت ديكسون. "كنتِ تعملين لصالحهم عندما جرى الحديث الأول بيننا."

"عرب نموذجيون يدّعون الولاء للجانبَين في آن. لقد تحالفوا في بادئ الأمر مع نائب الرئيس، ظنًّا منهم بأنه سيساعدهم على إعاقة كل ما له علاقة بلغز الإسكندرية. ثم اكتشفوا أن الأمر كان هراء. لذلك، عادوا إلينا وعقدنا اتفاقاً. فعندما كنتما في مركز التسوّق في ذلك اليوم، كانوا هناك لحثّكما ليس إلّا. بالطبع، لم يكن أيّ منا مُدركاً أن لديك شريكا." وأشارت ديكسون بالمسدس إلى كاسيوبيا. "ما زلتِ مَدينة لي بسبب ذلك السهم."

"ربما سنحت لك الفرصة يوماً ما لتسديد دينك."

فابتسمت ديكسون. "ربما."

حدّقت ستيفاني بجثة غرين، وتذكرت طريقة إيحائه بأنه قد يكون مهتمّاً بها، وكيف أنها أحبّت للحظة من الزمن إمكانية حدوث ذلك. كان قد دافع عنها في الواقع، مُدّعياً استعداده لتقديم استقالته تأييداً لها، وكانت قد وجدت نفسها أمام تساؤلات حول شكوك مرتبطة به.

ولكن الأمر برمّته كان فصلاً مسرحياً.

"لقد أرسلني الرئيس لإنهاء هذا الأمر" قالت ديكسون، مقاطعةً أفكارها. "لا محاكمات، لا صحافة؛ المدعي العام كان رجلاً مضطرباً فحسب، فوضع حدّاً لحياته. سيتمّ إحراق جثّته في غضون ساعة، وستصدر شهادة وفاة عن الأطباء الشرعيين العسكريين: انتحار. سيحظى بجنازة لائقة وتبقى ذكراه خالية من أي شوائب. انتهت القصة."

"ولغز الإسكندرية؟" سألت.

"لقد اختفى جورج حدّاد. ونأمل في أن يكون مع مالون. اتصل حدّاد بفلسطين منذ شهر، واتصل ثانية منذ أيام قليلة. بعد اتصاله الأول، وبعد قيام لاري بإطلاعي على بعض الأمور، قمنا باستمالة بام مالون، وخطط الموساد لاختطاف غاري مالون. ولكن رئيس وزرائنا أحبط الأمر. وبعد ذلك، سبقتنا جماعة الجِزَّة الذهبية إلى عملية الاختطاف. وبعد أن وضعنا جهاز تعقب في بام مالون، لم يكن بإمكاننا سوى اقتفاء أثرها. ولكن ذلك الأمر لم ينجح كذلك. ثمّ حدثت كل تلك الأمور. لقد أكّد لنا دانيلز أنه لن تكون هناك أي عواقب، وحكومتي تثق به."

"هل سمع أي منكنّ عن كوتون شيئاً؟"

هزّت ديكسون رأسها. "آخر ما بلغنا عنه أنه هبط بالمظلة في مكان ما من سيناء، ولكن لا أهمية للأمر. إذا تمّ العثور على أي شيء، فالاتفاق يقضي بإنكار عِلمنا به."

"وبعد أن تنتهي ولاية دانيلز الرئاسية؟" سألت كاسيوبيا.

"يكون قد نُسي الأمر آنذاك، وإلّا فإن إسرائيل ستقوم بما قامت به طيلة قرون: القتال بكل ما أوتيت من قوة؛ لقد تدبّرنا أمرنا وسوف نستمرّ في ذلك."

كانت ستيفاني واثقة من ذلك. ولكن هناك نقطة أساسية أخرى. "ماذا عن نائب الرئيس؟"

"انطلاقاً من معلوماتنا، فإن غرين ونائب الرئيس والفرد هرمن يعرفون بالتحديد ما الذي سيحدث. عندما سمع غرين المحادثة التي سجّلها لاري لرئيس الأركان التابع لنائب الرئيس، أصيب بالذُعر وطلب من العرب التخلص من دالي. لم يذكروا لنا هذا الأمر كعادتهم وإلّا لكنا منعناهم من ذلك. ولكن لا يمكنكِ الوثوق

بهم." وتوقفت ديكسون. "وبظهوركما على مسرح الأحداث، والتقاء لاري، والتسبب بإصابة غرين بالذُّعر، أقنع العرب بالارتداد عليكما أيضاً. وبعد قيام دانيلز بإحباط الهجوم وقتل المأجورين، وبرحيل غرين الآن، زال كل أمل للعرب في تحقيق أي شيء."

وأشارت ستيفاني إلى غرين. "ماذا عنه؟"

"لدينا أشخاص ينتظرون لإعادة تلك القمامة إلى منزله حيث سيُعثَر على جثَّته اليوم في وقت لاحق. لن يُعزى موت لاري لأي هجوم إرهابي كما كان قد خطط غرين."

"قد يصعب تصديق ذلك. فقد انفجرت السيارة."

"ستُعتبر القضية غير محلولة، ولكن ستكون لها بعض الأصداء الخفيفة التي يمكن لدانيلز استغلالها كما كان قد خطط هؤلاء الأغبياء. أظن أن لاري كان ليُحبّ هذا الأمر؛ يمكنه تقديم المساعدة حتى من قبره."

"لم تشرحي لنا،" قالت كاسيوبيا، "كيف يمكن احتواء ما يجري مع بقاء نائب الرئيس حرّاً طليقاً؟"

فهزّت ديكسون كتفَيها. "هذه مشكلة دانيلز." ومن ثمّ، التقطت الإسرائيلية هاتفها النقّال، وضغطت على أحد الأزرار وقالت، "سيدي الرئيس، غرين لقي حَتفه كما أردتَ تماماً."

الفصل الخامس والثمانون

شبه جزيرة سيناء

أطلق سابر النار على بُعد أربعة عشر قدَماً من ساقَي مالون. لم تكن أمام أي من الطاولات كراسٍ، لذا فإن خط الرؤية كان واضحاً. كان يريد إصابة ساقَي خصمه من أسفل الطاولة لتسهيل عملية القتل النهائية.

ثم أطلق ثلاث رصاصات في اتجاه مالون.

ولكن الساقَين كانتا قد اختفتا.

تبّاً.

فتدحرج من تحت الطاولة إلى أسفل طاولة أخرى، واسترق النظر من حافّتها العليا للعثور على مالون، ولكنه لم يرَ أحداً.

عندئذٍ أدرك ما يجري.



كان مالون قد أدرك أن ماك كولوم يعتزم إطلاق النار على ساقَيه، فقفز إلى الطاولة الأقرب قبل أن ترتطم الرصاصات الثلاث بالجدار. وسقطت ثقّالات ورق مصنوعة من الكوارتز الذهبي على الأرض. فاستنتج ماك كولوم على الفَور ما قام به مالون، لذا قرّر قلب مسار الأمور لصالحه.

انتظر مالون برهة من الزمن، ومن ثمّ نزل ورأى ماك كولوم جاثماً وراء إحدى

الطاولات. فسدّد وأطلق رصاصتّين، ولكن ماك كولوم بدّل مكانه واستخدم إحدى الركائز العريضة للاحتماء وراءها.

كان مسرح إطلاق النار هذا مكشوفاً إلى حدّ كبير.

واندفع إلى وراء صفّ من الرفوف قائم إلى يساره.

"لا بأس، يا مالون،" قال عدوّه عبر الغرفة.

"إني أبذل قصارى جهدي."

"لن تخرج من هنا."

"سوف نرى."

"قتلتُ رجالاً أفضل منك."

وتساءل عمّا إذا كان الحديث تظاهراً بالشجاعة أم خِدَعاً ذهنيّة.

ولكنه لم يتأثّر في كلتا الحالَين.



اقتاد حدّاد بام مالون عبر المكتبة، متّبعاً الاتجاه المعاكس الذي سلكه سابر ومالون. كانا قد سمعا لتوهما الطلقات النارية، وكان لا بد من الاستعجال. فدخلا القاعة الخامسة المسمّاة غرفة الحياة والتي يُرمَز إليها بصليب من الفسيفساء وقد استُبدل القسم العمودي الأعلى بشكل بيضاوي.

ثم عبرا الغرفة وبلغا غرفة الأبديّة، متوقّفاً عند المدخل. كانت تُسمَع من هناك أصوات عبر الممرّ الذي يلي الانعطافة القائمة. من الواضح أن تصفية الحساب تجري في غرفة المطالعة: كثير من الطاولات، عدد أقل من الرفوف، ومساحة مفتوحة. كان سابر قد جال في أرجاء المكتبة في وقت سابق بهدف الاستطلاع، وقد لاحظ خصمه كل هذه الأمور. فقد قام حدّاد بالشيء نفسه لدى مقاتلة اليهود. 'إعرف على الدوام ساحة المعركة'.

وكان يعرف هذه الساحة عن كثب.

منذ خمس سنوات، كان قد أكمل ضالّة البطل سرّاً قبل اتصاله بكوتون مالون

مباشَرةً طلَباً للمساعدة. وعندما وصل في بادئ الأمر وأصبح على معرفة تامّة بمحتويات المكتبة، وعلِم أن كل شكوكه حيال الكتاب المقدّس حقيقية، شعر بإرباك. ولكن عندما طلب الحرّاس مساعدته، شعر بالإثارة. فقد تمّ اختيار العديد من الحرّاس من بين المدعوّين، واعتقد كل الحراس الموجودين هناك أنه سيكون أمين المكتبة. كانوا قد شرحوا له التهديدات التي يواجهونها، ووافق على حلّ مشكلتهم. ولكنه كان بحاجة إلى مساعدة أيضاً في النهاية، ولهذا السبب تمّ توريط مالون.

كان قد استفاد من الصبر والمعرفة إلى حدّ كبير.

وأمِل في ألّا يكون قد أخطأ في التقدير.

ووقف بلا حراك عند المدخل المؤدّي إلى غرفة الحياة، وكانت بام مالون خلفه.

"انتظري هنا،" قال هامساً.

ومشى الهوَيْنى في الممرّ، وانعطف عند الزاوية، واسترق النظر إلى داخل غرفة المطالعة. فشاهد حركة إلى اليسار واليمين؛ رجل وراء الرفوف والآخر يستخدم الطاولات غطاء له.

فانسلّ عائداً إلى بام مالون وسلّمها مسدسه.

"عليّ الدخول إلى هناك،" قال بصوت خفيض.

"ولن تخرج من هناك."

فهزّ رأسه. "هذه هي النهاية."

"وعدتَ كوتون بحديث طويل معه."

"لقد كذبت." وتوقف قليلاً. "وكنتِ تعرفين ذلك."

"إنه حدس المحامي الذي في داخلي."

"لا، إنه الإنسان القائم فيك. كلنا نرتكب أموراً نندم عليها. لقد أدّيتُ قسطي، ولكنني كنت قادراً على الأقل في آخر حياتي على المحافظة على المكتبة." ورأى شيئاً في عينَيها. "تعرفين ما الذي أعنيه، أليس كذلك؟"

فأومأت برأسها.

"إذن، تعرفين ماذا عليك القيام به."

فرأى ارتباكها وربّت على كتفها. "ستعرفين ذلك عندما يحين الوقت." وأشار إلى المسدس. "هل أطلقتِ النار يوماً من مسدس؟"

فهزّت رأسها بسرعة نافيةً الأمر.

"ليس عليك سوى التصويب والضغط على الزِناد. إنه يرتدّ إلى الوراء، لذا أمسكيه بثبات."

لم تقل شيئاً، ولكنه كان مسروراً لأنها فهمت.

"لتكن حياتك مزدهرة. أخبري كوتون بأنه كان دوماً محطّ احترام وتقدير مني."

واستدار ومشى في اتجاه غرفة المطالعة.



"يمكننا الجلوس هنا طوال اليوم،" صرخ مالون.

"إنك تتمتّع برباطة الجأش،" قال ماك كولوم. "ولكن تنقصك الخبرة قليلاً، أليس كذلك؟"

"يمكنني ركل مؤخّرتك."

فضحك ماك كولوم في سرّه. "سأخبرك بما سأفعله. أفكّر بالانكفاء وقتل زوجتك السابقة. ولكنت قتلتُ ابنك أيضاً لو لم تتخلّص من أولئك الأغبياء الذين استخدمتُهم. وبالمناسبة، هل كنتَ تظن أنك قمت بالأمر بمفردك؟ لقد أعددتُ كل شيء وقمتَ بتقفّي الأثر ككلب صيد يجري وراء ثعلب. كانت الخطة البديلة قتل الفتى. وفي كلا الحالتَين، كنت سأعثر على جورج حدّاد."

كان يعرف ما يقوم به ماك كولوم: محاولة إثارته وحمله على القيام بردة فعل. ولكنه تساءل حول أمر ما. "هل عثرتَ على حدّاد؟"

"لا. كنتَ هناك عندما قام الإسرائيليون بقتله. سمعتُ كل شيء."

سمعه؟ لم يكن لماك كولوم أي فكرة عن أمين المكتَبة، لذا سأل، "من أين حصلتَ على تلك الضالّة؟"

"أنا الذي أعطيتُه إيّاها."

كان الصوت الجديد صوت جورج حدّاد.

وشاهد مالون الفلسطيني واقفاً عند المدخل البعيد.

"سيد سابر، لقد تلاعبتُ بك كما تلاعبتَ بكوتون. تركتُ الشريط السمعي والمعلومات على حاسوبي لتكتشف ما ابتدعت، بما في ذلك الضالّة. أؤكد لك، لقد كانت الرحلة التي قمتُ أنا بها للعثور على هذا المكان أكثر صعوبة بكثير."

"أنت مليء بالمفاجآت،" قال ماك كولوم.

"كان عليّ أن أشكّل تحدّياً. لو كان الأمر سهلاً جداً لاعتقدتَ أنه فَخ، ولو كان صعباً جداً لما أقدمتَ على الأمر أبداً. ولكنك كنت قلقاً. حتى أنني تركت لك ذاكرة أصبعية صغيرة بجانب حاسوبي ولم تُعِرها انتباهك؛ طُعم إضافي لهذا الفَخ."

لاحظ مالون وجود خط رؤية واضح بين المكان الذي يقف فيه حدّاد وموقع ماك كولوم. ولكن يدَي حدّاد فارغتان، وهو أمر لا بد أن ماك كولوم قد لاحظه.

"جورج، ماذا تفعل؟" صرخ مالون.

"أنهي ما بدأتُه."

وخطا حدّاد في اتجاه ماك كولوم.

"ثِق بما أنتَ عالِم به، يا كوتون. لن تخذلك أبداً."

وأكمل صديقه سيره.



راقب سابر أمين المكتبة يسير في اتجاهه. كان هذا الرجل جورج حدّاد؟ كل ما حدث كان مخطَّطاً له؟ وقد استُدرج إلى هنا؟

ماذا دعا الرجل المُسِنّ ذلك؟ فَخ؟ أمر لا يمكنه تحمّله.

لذا، فقد أطلق طلقة واحدة.

على رأس أمين المكتبة.



صرخ مالون "لا" بينما كانت الرصاصة تخترق جورج حدّاد. كانت هناك أسئلة عديدة يريد طرحها عليه، كثير من الأمور التي لم يفهمها. كيف تمكّن الفلسطينيون من تعقّبه من الضفة الغربية، إلى لندن، إلى هنا؟ ما الذي كان يحدث؟ ما الذي كان يعرفه حدّاد ويستحق كل ما جرى؟

وانتابه غضب شديد، فأطلق رصاصتَين في اتجاه ماك كولوم ولكنهما لم تُلحقا ضرراً إلّا بالجدار البعيد.

كان حدّاد ملقىً بلا حراك، وقد تشكّلت حول رأسه بحيرة من الدماء.

"كان الرجل المُسنّ يتمتّع بشجاعة وتصميم،" صرخ ماك كولوم. "كنتُ سأقتله بأية حال. لعلّه كان يعرف ذلك؟"

"أنت في عداد الأموات". هذا كل ما قاله مالون كردة فعل له.

وسُمعت ضحكة خفيضة في الجانب الآخر من الجدار. "كما قلتَ عن نفسك، قد تجد صعوبة في إتمام الأمر."

كان يعلم أن عليه إنهاء هذا الأمر. فالحراس يتّكلون عليه، وكان حدّاد يتّكل عليه.

ثمّ رأى بام.

في المدخل المؤدّي إلى الخارج، قابعةً في الظلال وقد جعلتها الزاوية غير مرئيّة من قِبَل ماك كولوم.

وفي يدها مسدس.

'ثِق بما أنتَ عالِم به'.

تلك كانت كلمات حدّاد الأخيرة.

كان قد أمضى مع بام معظم حياتهما معاً، ولكنهما كرها بعضهما البعض في السنوات الخمس الأخيرة. كانت جزءاً منه مثلما كان جزءاً منها، وسيكونان مرتبطَين على الدوام إن لم يكن بسبب غاري فبسبب أمر ما لا يمكن لأي منهما شرحه؛ ليس الحب بالضرورة بل الرابط بينهما. ولن يسمح لأي شيء بأن يُصيبها، وعليه الوثوق بأنها لن تسمح لأي شيء بأن يصيبه كذلك.

'لن تخذلك أبداً'.

أخرج مالون مخزن الذخيرة من مسدسه، ومن ثمّ صوّب في اتجاه ماك

كولوم وضغط على الزِناد. فاخترقت الرصاصة الموجودة في خزانة المسدس إحدى الطاولات في ناحيتها العُلوية.

وضغط بعد ذلك مرّتَين على الزِناد.

وضغط مرة ثالثة ليؤكد خلوّ المسدس من الذخيرة.

"ها قد بلغنا خط النهاية، يا مالون،" قال ماك كولوم.

فوقف آملاً في أن يستمتع عدوّه بعملية قتله. فلو اختار ماك كولوم إطلاق النار من مخبئه، لكان هو وبام في عِداد الأموات. ولكنه يعرف عدوّه. وقف ماك كولوم شاهراً مسدسه، وتقدّم من وراء الطاولة سالكاً خطاً متلوياً إلى حيث يقف مالون، وقد أدار ظهره إلى المدخل، ولن يساعده موقعه على رؤية ما يحيط به.

كان مالون بحاجة إلى المماطلة. "هل إسمك سابر؟"

"إنه الإسم الذي أستخدمه هنا. إسمي الحقيقي ماك كولوم."

"ماذا ستفعل؟"

"قتل كل شخص موجود هنا والاحتفاظ بكل هذه الأشياء لنفسي بكل بساطة."

"ليس لديك أي تلميح يساعدك في معرفة ما هو موجود هنا. ماذا ستفعل بالمكتبة؟"

"سوف أستعين بأشخاص يملكون تلك المعرفة، وأراهن على وجود الكثيرين منهم. فالعهد القديم كافٍ لترك بصماتي في العالم."

لم تتحرك بام من مكانها. لقد سمعت بالتأكيد صوت الضغط على الزِناد دون انطلاق رصاصات، وعلمت أن مالون تحت رحمة ماك كولوم. كانت قد رأت أشخاصاً يموتون في الأيام القليلة الماضية. ولا بد أن الذُّعر يتملّكها الآن لأنه سيكون عليها قتل شخص آخر. كان مالون قد شعر بتلك الريبة بنفسه؛ فالضغط على الزِّناد لم يكن يوماً أمراً سهلاً. ولهذا الشعور بالخوف عواقب قد تصيب من يشعر به بالشلل. ولم يكن يأمل إلا في أن تتغلّب غرائزها على فزعها الشديد.

ورفع ماك كولوم مسدسه. "بلّغ تحياتي لحدّاد."

اندفعت بام من الممرّ المقنطَر، وقد ألهى وقع خطواتها ماك كولوم للحظة،

فأدار رأسه بسرعة إلى اليمين عندما شعر بما يبدو أنه حركة. واستغلّ مالون تلك اللحظة لركل المسدس من يد ماك كولوم، ثم سدّد لكمة بقبضة يده على وجهه فارتدّ إلى الوراء مترنّحاً. واندفع لضرب ذلك الحقير، ولكن ماك كولوم استعاد وعيَه ورمى بنفسه إلى الأمام، فاصطدما كلَيهما بإحدى الطاولات وتدحرجا إلى الجانب الآخر. وبدا له أن خصمه على وشك الانهيار فسدّد له ركلة بركبته على معدته.

ثم وقف، ورفع ماك كولوم عن الأرض ممسكاً إيّاه بإحكام ومتوقّعاً أن يكون قد بات عاجزاً عن القيام بأي أمر. ولكن بدلاً من ذلك، أخذ ماك كولوم يسدد بقبضتَيه لكمات إلى صدر مالون ووجهه.

فشعر بدوار وهزّ رأسه للتخلّص من الألم.

واستدار ورأى سكيناً في يد ماك كولوم.

السكين نفسه الذي رآه معه في لِشبونة.

فاستعدّ للمواجهة.

ولكنه لم يحظَ بفرصة القيام بأي شيء لأن دويّ طلق ناري قد سمع. وبدت على وجه ماك كولوم الدهشة، وأخذ الدم يتدفق من ثقب في جانبه الأيمن. وانطلقت رصاصة أخرى، فتخبّطت ذراعاه وتمايل إلى الوراء. وبعد طلق ناري ثالث ورابع، مال جسمه إلى الأمام، وانقلبت عيناه نحو الأعلى، وازداد الدم الخارج من دمه تدفقاً مع كل زَفرة، ومن ثمّ سقط جثة هامدة على وجهه.

فاستدار مالون.

وأخفضت بام المسدس من يدها.

"في الوقت المناسب،" قال لها.

لكنها لم تقل شيئاً وبقيت عيناها مفتوحتين بسبب ما فعلت. فخطا إلى جانبها وأخفض ذراعها. وحدّقت به بعينين خاليتين من أي تعبير.

وظهر أشخاص من ظُلمة المدخل.

واقترب تسعة رجال وامرأة منهما بسرعة.

كان آدم وصاحب قبعة القش من بين المجموعة. وكانت إيف تبكي وهي تركع بجانب جثة حدّاد.

وركع الآخرون معها.

ووقفت بام بلا حراك تراقب ما يجري.

ومالون كذلك.

في النهاية، كان عليه مقاطعة لحظة فجيعتهم. "افترض أن لديكم أجهزة اتصال؟"

فحدّق به آدم وأومأ برأسه مؤكّداً الأمر.

"إنّي بحاجة إليها."

الفصل السادس والثمانون

فيينا

عاد ثورفالدسن إلى المكتبة مع غاري - ولكن هذه المرة كان هرمن ونائب الرئيس يعرفان بوجوده هناك. كانوا بمفردهم والباب مُقفَل، ورجال الأمن في الخارج.

"لقد كانا هنا الليلة الماضية،" قال نائب الرئيس، والقلق بادٍ عليه. "لا بد أنه كان هناك في مكان ما." وأشار إلى الرفوف العُلويّة. "تبّاً لهذا المكان، فهو كقاعة للحفلات الموسيقية. لقد اتصل بالمدّعي العام وأطلعه على كل شيء."

"هل في ذلك مشكلة؟" سأل هرمن.

"لا، بفضل الله. سيكون برنت نائب الرئيس بعد أن أتسلّم منصب الرئاسة. لقد كان يعالج بعض الأمور في واشنطن أثناء غيابي. لذا، فكل شيء تحت السيطرة هناك."

"هذا الرجل،" قال هرمن، مشيراً إلى ثورفالدسن، "اختطف ابنتي يوم أمس. لقد قام بذلك قبل أن يسمع أي شيء الليلة الماضية."

وغدا نائب الرئيس أكثر قلقاً. "ممّا يطرح مجموعة كبيرة من التساؤلات. ألفرد، لم أسألك عمّا كنتَ تفعله هنا. أردتَ لغز الإسكندرية وحصلتَ عليه، وأنا الذي سهّل لك هذا الأمر. لا أعرف ما الذي فعلتَه بتلك المعلومات ولا أريد أن أعرف، ولكن من الواضح أن الوضع بات يطرح مشكلة."

كان هرمن يحكّ جانب رأسه. "هنريك، ستدفع غالياً ثمن تهجّمك عليّ. لم يسبق لأحد أن قام بهذا الأمر."

لم يتفاجأ ثورفالدسن. "ربما حان الوقت لذلك."

"وأنت، أيها الشاب."

شعر ثورفالدسن بغصّة في حَلقه. فلم يكن ينوي أبداً تعريض غاري للخطر.

"الفرد." قال نائب الرئيس، "الأمور تتحرّك بسرعة. سيكون عليك التعامل مع هذه القضيّة."

وتصبّب العرَق على جبين ثورفالدسن عندما أدرك معنى تلك الكلمات.

"هذان الشخصان لن يتفوّها بأي كلمة مما يعرفانه."

"هل ستقتل الفتى؟" سأل ثورفالدسن.

"وهل ستقتل ابنتي؟ وماذا في ذلك؟ أجل، سأقتل الفتى." واتَّسَعَ مِنخرا هرمن من شدة الغضب واتخذت عيناه مظهَراً يعبّر عن العدوانية.

"لستَ معتاداً على هذا الأمر، يا ألفرد، أليس كذلك؟"

"الاستهزاء بي لن يُجديك نَفعاً."

ولكنه قد يمنح ثورفالدسن بعض الوقت للقيام بالمناورة الوحيدة التي يعرف. فالتفت إلى نائب الرئيس. "برنت غرين كان رجلاً صالحاً. ماذا حلّ به؟"

"لستُ كاهنه، لذا لا أعرف. أفترض أنه يُدرك فوائد تسلّمي منصب الرئاسة. أميركا بحاجة إلى قيادة قوية، أشخاص يملكون القوة ولا يخافون من استعمالها. برنت يؤمن بهذا الأمر وأنا كذلك."

"ماذا عن الأشخاص ذوي الأخلاق الحميدة؟"

"هذا تعبير نسبي. أفضّل رؤية الولايات المتحدة تعقد شراكات مع مجتمع الأعمال العالمي لتحقيق أهداف ذات طبيعة مفيدة للفريقَين."

"أنت قاتل،" قال غاري.

سُمع قرع خفيف على الباب واتجه هرمن نحوه للاستفسار. وهمس أحد رجال الأمن التابعين لنائب الرئيس في أُذُن هرمن الذي ارتسمت على وجهه نظرة مُربكة، ومن ثمّ أومأ برأسه وغادر رجل الأمن.

"الرئيس على الخط،" قال هرمن.

واعترت الدهشة وجه نائب الرئيس. "ماذا يريد بحق الجحيم؟"

"لقد تتبّعك إلى هنا بواسطة جهاز المخابرات. أبلغتهم المفرزة التابعة لك بأنك هنا معي وشخصَين آخرَين، أحدهما الفتى. يريد الرئيس التحدّث إلينا كلّنا."

أدرك ثورفالدسن بأن لا خيار آخر أمامهما. فمن الواضح أن الرئيس يعرف الكثير ممّا يدور.

"أراد أن يعرف أيضاً إذا كان هاتفي مزوّداً بمكبّر للصوت ليتمكّن الجميع من سماع الحديث،" قال هرمن وهو يسير نحو مكتبه ويضغط على زرّين.

"طاب يومك، سيدي الرئيس،" قال هرمن.

"لا أعتقد أننا التقينا، أنت وأنا، قبل الآن. هنا داني دانيلز يتّصل من واشنطن."

"لا، يا سيدي. لم نلتقِ قبل الآن. إنه لشرف لي."

"هل نائب الرئيس موجود؟"

"أجل، أنا هنا، سيدي الرئيس."

"وثورفالدسن، هل أنت هناك؟ مع ابن مالون؟"

"إنه هنا معي،" قال ثورفالدسن.

"أولاً، عندي خبر مأساوي ما زلت أضطرب لمجرّد التفكير به. لقد مات برنت غرين."

لاحظ ثورفالدسن آثار الصدمة الفورية على وجه نائب الرئيس. حتى أن هرمن أصيب بالجفول.

"انتحار،" قال دانيلز. "لقد أطلق النار على رأسه. وقد عرفت الأمر منذ بضع دقائق. إنه لأمر فظيع. إننا نحضّر نشرة إعلامية قبل انتشار الخبر."

"كيف حدث ذلك؟" سأل نائب الرئيس.

"لا أعرف، ولكنه قام بالأمر وفارق الحياة. كما أن لاري دالي لقيَ حتفه أيضاً بانفجار سيارة، ولا نملك أي فكرة عن مُرتكبي الجريمة."

وبدا مزيد من الذُعر على وجه نائب الرئيس، وانحنى كتفه مقدار إنش واحد.

إليك الوضع. قال دانيلز. بسبب الظروف، لن أكون قادراً على السفر إلى أفغانستان في الأسبوع القادم. فأميركا بحاجة لي هنا، وأنا مضطر إلى أن يحلّ نائب الرئيس مكاني.

بقي نائب الرئيس صامتا.

هل يوجد أحد هناك؟" قال دانيلز بصوت عالٍ.

أجل. يا سيدي،" قال نائب الرئيس. "أنا هنا."

عظيم. عُد أدراجك إلى هنا اليوم وكن مستعدّاً للسفر في الأسبوع القادم. بالطبع. إذا لم تكن راغباً بالقيام بهذه الرحلة لتفقّد الجنود، يمكنك تقديم استقالتك. الخيار عائد إليك. ولكنني أفضّل أن تقوم فعلاً بالرحلة."

"ماذا تقول؟"

"ليس هذا الخط الهاتفي سرياً، وهو معرَّض للمراقبة، لذا أشك في أنك تريد منّي الإفصاح عن رأيي بك. دعني أشرح الأمر بقصة اعتاد والدي إخبارها. كان هناك عصفور يطير في اتجاه الجنوب لقضاء فصل الشتاء، فعلق في عاصفة ثلجية وسقط على الأرض وتجمّد. ولكن بقرة قيمت إليه وتغوّطت عليه فحمته من البرد، فشعر بالدِفء، وأعجبه الأمر وبدأ يغرّد. فاقترب هرّ للتحقّق من سبب هذا الهَرج والمَرج، وسأل إن كان بإمكانه تقديم المساعدة، ولكنه وجد وجبة في انتظاره والتهم العصفور. إليك العِبَرة من هذه القصة. ليس كل من يتغوّط عليك عدوّاً لك. وليس كل من يتقدم بالمساعدة صديقاً لك. لذلك فإذا كنتَ دافئاً وسعيداً وإن في كومة من الغائط فابقِ فمك مُطبَقاً. هل أصبحت فكرتي واضحة؟"

"تماماً، يا سيدي،" قال نائب الرئيس. "كيف تقترح أن تكون عملية تقديم استقالتي؟"

"من العسير استخدام الحجة الشعبية على الدوام: 'لقضاء مزيد من الوقت مع عائلتي'. لا أحد في منصبنا يستقيل لذلك السبب. لنقل إن نائب الرئيس الأسبق استقال لأنه كان يواجه تُهماً. لا يمكنك بالطبع استخدام تلك الحجة لأنه لا يمكنك إخبار الحقيقة المتمثّلة بانك أُخِذتَ على حين غرّة متلبّساً بارتكاب جرم الخيانة العُظمى. ما رأيك بالحجة التالية: '*يبدو أنني والرئيس لم نعد قادرَين على العمل معاً*'؟ فبصفتك سياسي محنّك، فإني واثق من أنه يمكنك اختيار كلماتك بحذر شديد لأنني إن سمعتُ أي كلمة لا تعجبني سأبوح بالحقيقة. تطرّق إلى المسائل العالقة،

ناقش نقاط الاختلاف في ما بيننا، أخبر الناس بأنني غبيّ. لا بأس بذلك، ولكنني لا أريدك أن تقول ما لا أريد سماعه."

كان ثورفالدسن يراقب نائب الرئيس. وكان الرجل يريد الاحتجاج ولكنه أدرك أن خطوته هذه لن تكون ذات جدوى.

"سيدي الرئيس،" قال ثورفالدسن. "هل ستيفاني وكاسيوبيا بخير؟"

"إنهما بخير، يا هنريك. هل يمكنني مناداتك بهذا الإسم؟"

"بكل تأكيد."

"كانتا فعّالتَين في بلوغ الأمور إلى هذا الحدّ."

"ماذا عن أبي وأمي؟" قال غاري.

"لا بد أنه ابن كوتون. سعدت بلقائك، يا غاري. أمك وأبوك بخير. تحدّثت إلى والدك منذ بضع دقائق، وهذا الاتصال هو الذي أوصلني إليك أيها السيد هرمن."

ولاحظ ثورفالدسن الازدراء في صوت الرئيس.

"لقد وجد رجلك مكتبة الإسكندرية. في الواقع، لقد قام كوتون بهذه المهمة عنه، ولكنه حاول سرقتها.

وقد مات سابر. ولذلك فأنت خاسر. لدينا المكتبة الآن، وأؤكد لك أن أحداً لن يعرف مكان وجودها. أما بالنسبة إليك، أيها السيد هرمن، فمن الأفضل لك ألّا يواجه هنريك والفتى أي مشاكل تحول دون مغادرتهم القصر، ولا أريد سماع أي كلمة منكما وإلّا أخبرت الإسرائيليين والعرب عمّن قام بتدبير كل ما جرى. عندها، لن يفهم أحد ما ستواجهانه من مشاكل. لن يكون هناك مكان آمن للاختباء فيه."

وسقط نائب الرئيس فجاةً على أحد الكراسي.

"أمر آخر، يا هرمن. لا تقل أي كلمة لبن لادن وجماعته. نريد أن نفاجئهم في الأسبوع القادم عندما يكونون في انتظار طائرتي. إن لم يكونوا هناك مع الصواريخ فسوف أرسل لك عناصر من وحدتي الخاصة للتخلّص منك."

لم يقل هرمن شيئاً.

"سأعتبر صمتك دلالة على أنك فهمتَ المطلوب. سوف تتحقق بنفسك ممّا

يمكن لقائد العالم الحر أن يفعله. هناك الكثير من الأشخاص الراغبين في تنفيذ رغباتي. أشخاص يتمتّعون بمجموعة متنوّعة من المهارات. أنت تملك المال، وأنا أملك النفوذ."

لم يسبق لثورفالدسن أن التقى الرئيس الأميركي أبداً، ولكنه كان يحبّه بالرغم من ذلك.

"غاري،" قال الرئيس. "سيعود والدك إلى كوبنهاغن بعد يومَين. وهنريك، شكراً لكل ما قمتَ به."

"لست واثقاً من أنني قدّمت المساعدة بالفعل."

"لقد فزنا، أليس كذلك؟ وهذا ما يهمّ في هذه الحالة."

وأُقفل الخط.

وبقي هرمن صامتاً.

أشار ثورفالدسن إلى كتاب الخرائط. "تلك الرسائل باتت غير مفيدة، يا ألفرد. لا يمكنك إثبات أي شيء."

"أخرج."

"بكل سرور."

كان دانيلز مُحِقاً.

لقد انتهى الأمر.

الفصل السابع والثمانون

واشنطن، العاصمة

الإثنين، 10 تشرين الأول/ أكتوبر

الساعة 8:30 صباحاً

كانت ستيفاني جالسة في المكتب البيضاوي. وكانت قد زارت هذا المكان عدة مرات، وشعرت فيه غالباً بعدم الارتياح، ولكن ليس اليوم. فقد قدمت هي وكاسيوبيا للقاء الرئيس دانيلز.

كان برنت غرين قد حصل على جنازة مشرّفة في اليوم السابق في فيرمونت، وقد أثنت وسائل الإعلام على خُلُقه وإنجازاته. وقال الديمقراطيون والجمهوريون إنهم سيفتقدونه، حتى إن دانيلز نفسه ألقى خطبة التقريظ، وكان تنويهاً مؤثّراً. وكان لاري دالي قد دُفن أيضاً في فلوريدا دون جلبة؛ لم يكن هناك سوى بعض أفراد العائلة والقليل من الأصدقاء. وكانت ستيفاني وكاسيوبيا قد حضرتا مراسم الدفن أيضاً.

ومن المثير للاهتمام كيف أنها قرأت شخصية الرجلَين بشكل خاطئ. فدالي لم يكن قديساً بأي شكل من الأشكال، ولكنه لم يكن قاتلاً أو خائناً. وقد حاول أن يضع حدّاً لكل ما كان يجري، ولكن لسوء الحظ، فما كان يجري قد وضع حدّاً لحياته.

"أريد منك أن تعودي إلى ماجيلان بيليت،" قال لها دانيلز.

"قد تجد صعوبة في شرح الأمر."

"لا أحتاج إلى شرح مواقفي. لم أكن أرغب أبداً في تخليك عن الوكالة، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر في ذلك الوقت."

كانت تريد استعادة عملها، فقد كانت تحب ما تقوم به. ولكن هناك مسألة أخرى. "ماذا عن رشوة الكونغرس؟"

"قلت لك، يا ستيفاني. لا أعرف شيئاً عن ذلك الأمر. فلينتهِ كل شيء هنا والآن. فكما حصل مع غرين تماماً، لن يستفيد البلد من هذا النوع من الفضائح. لننهِ الأمر ونواصل حياتنا."

لم تكن واثقة بالضرورة من عدم مشاركة دانيلز في عملية التواطؤ، ولكنها وافقت. فقد كانت الطريقة المثلى.

"ألن يعرف أحد شيئاً عمّا حدث؟" سألت كاسيوبيا.

كان دانيلز جالساً وراء مكتبه، مُسنداً قدمَيه إلى حافّته، ومتّكئاً بهامته الطويلة على الكرسي. "ولا أي كلمة."

وكان نائب الرئيس قد قدّم استقالته يوم السبت، ذاكراً نقاط الاختلاف مع الإدارة حول السياسة. وكانت وسائل الإعلام تسعى جاهدةً لوضعه أمام الكاميرا ولكن مساعيها باءت بالفشل.

"أتخيّل،" قال دانيلز، "أن نائب الرئيس السابق يحاول اكتساب شهرة لنفسه. فتجري بيننا مشاجرات علنيّة قليلة حول السياسة، وأموراً مشابهة، حتى أنه قد يسعى إلى ترشيح نفسه للانتخابات القادمة. ولكنني لست خائفاً من تلك المعركة. وبما أننا ذكرنا القتال، أحتاج إليك لمراقبة جماعة الجِزّة الذهبية. فهؤلاء الأشخاص يثيرون المشاكل. لقد قطعنا عليهم الطريق الآن، ولكنهم سيُعيدون الكرّة ثانيةً."

"وإسرائيل؟" سألت كاسيوبيا. "ماذا عنها؟"

"قطعتُ عليهم وعداً بأنه لن يتمّ الكشف عن أي من محتويات المكتبة. فكوتون وزوجته السابقة هما الوحيدان اللذان يعرفان مكانها، ولكنني لن أنكر ذلك لأي شخص. ليبقَ هذا الشيء اللعين مخبّأً." ونظر دانيلز إلى ستيفاني. "هل عقدتِ الصُلح مع هيذر؟"

"يوم أمس أثناء الجنازة. لقد أحبّت فعلاً دالي. أخبرتني ببعض الأمور عن دالي لم أكن على عِلم بها أبداً."

"أرأيتِ، لا يُفترَض بك أن تكوني ميّالة لإصدار أحكام اعتباطيّة. فقد أمر

غرين بقتل دالي بعد اطلاعه على الذاكرات الإصبعية التي أشارت إلى التسرّبات فسعى إلى سدّها. وهيِزِر عميلة جيدة، فهي تقوم بعملها على أكمل وجه، وكان بإمكان غرين ونائب الرئيس تدمير إسرائيل. وهما لم يكشفا أبداً عمّا يدور في خلدهما، وظننتِ أنت أنني المشكلة."

فابتسمت ستيفاني. "كنت مخططة في شأن ذلك أيضاً، سيدي الرئيس."

وأشار دانيلز إلى كاسيوبيا. "هل ستعودين لبناء قصرك في فرنسا؟"

"لقد تغيّبت مدة من الزمن، ومن المرجَّح أن موظَّفيّ يتساءلون عن سبب غيابي."

"إذا كان موظّفوك كموظّفيّ، فهم سعداء ما دامت شيكات أجورهم تصلهم." ووقف دانيلز. "شكراً لما قمتما به."

بقيت ستيفاني جالسة. كانت تشعر بشيء ما. "ما الذي لم تقله بعد؟"

فالتمعت عينا دانيلز. "أمور كثيرة على الأرجح."

"الأمر يتعلّق بالمكتبة. أبديتَ شهامة كبيرة حيالها منذ لحظة. لن تسمح ببقائها مخبَّأة، أليس كذلك؟"

"لا يعود القرار لي. فشخص آخر يتولى مسؤولية المكتبة، وكلنا نعرف من هو."



كان مالون يستمع إلى أجراس كوبنهاغن تُعلن بدقات مرتفعة حلول الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت ساحة هوبرو بلادس ناشطة بزحمة منتصف النهار، فيما كان يجلس مع بام وغاري إلى طاولة في الخارج وقد أنهوا لتوّهم تناول طعام الغداء. كان عاد مع بام جوّاً من مصر في اليوم السابق بعد قضاء يوم السبت مع الحراس بمناسبة تكريمهم لجورج حدّاد.

وأومأ بيده طالباً فاتورة المطعم.

كان ثورفالدسن واقفاً على بُعد خمسين متراً يُشرف على عملية ترميم متجر مالون، وكان قد بدأ العمل به في الأسبوع السابق عندما كانوا خارج البلد. وكانت

السّقالات تغطي الواجهة المؤلّفة من أربعة طوابق، والعمّال منهمكون بالعمل في الداخل والخارج.

"سأودّع هنريك،" قال غاري، واندفع الفتى من الطاولة عبر الحشد.

"كان يوم سبت حزين مع جورج،" قالت بام.

كان يعلم أنها ما زالت تحتفظ بذكريات أليمة، فهما لم يتكلّما كثيراً عمّا حدث في المكتبة.

"هل أنتِ بخير؟" سألها.

"لقد قتلتُ رجلاً. كان قطعة خردة يؤسَف لها، ولكنني قتلته مع ذلك."

لم يقل شيئاً.

"لقد وقفتَ وواجهتَه،" قالت، "عالماً بأنني هناك وراءه. كنت تعلم بأنني سأطلق النار."

"لم اكن واثقاً ممّا كنت ستفعلين. ولكنني كنت أعلم بأنك ستقومين بأمر ما، وهذا كل ما كنتُ بحاجة إليه."

"لم يسبق لي أن أطلقت النار من مسدس. عندما أعطاني حدّاد إيّاه، طلب مني التسديد والضغط على الزِناد فحسب. وكان يعلم كذلك أنني سأقوم بالأمر."

"لا يمكنك الشعور بالأسى. لقد قمتِ بما عليك القيام به."

"كما فعلتَ كل تلك السنوات." وتوقفت قليلاً. "أريد أن أقول شيئاً. وهذا ليس بالأمر السهل."

فانتظر.

"انّي آسفة، آسفة حقاً لكل شيء. لم أكن أعرف ما الذي كنت تكابده هنا. ظننت أن الأمر ضرب من ضروب الأنانية، طريقة لإثبات الرجولة. لم أفهم الأمر فحسب، ولكنني بتّ أفهمه الآن. كنت مخطئة في شأن كثير من الأمور."

"وهذا ما يجعلنا نحن الاثنين في عداد مرتكبي الأخطاء. أنا آسف أيضاً لكل ما جرى على نحو خاطئ طيلة تلك السنوات."

فرفعت يديها دلالة على الاستسلام. "حسناً، أظن أننا اكتفينا كلانا من إبداء العواطف."

فمدّ يده. "هل تصالحنا؟"

وقبلت الإيماءة. "تصالحنا."

ولكن عندئذٍ، انحنت لتقترب منه وقبّلت شفتَيه بلطف. لم يكن يتوقّع ذلك، وأثلجت هذه المشاعر صدره وحرّكت عواطفه.

"لِمَ قمتِ بذلك؟"

"لا تدع الأفكار تملأ رأسك. أظن أنه من الأفضل لنا أن نبقى مطلّقَين، ولكن هذا لا يعني أنني لا أتنكر."

"إذاً ماذا لو أن أحداً منا لا ينسى؟"

"طَرْح عادل،" قالت. وبعد توقف قصير، أضافت، "ماذا عن غاري؟ ماذا نفعل؟ إنه بحاجة إلى معرفة الحقيقة."

كان قد فكر بتلك المعضلة. "وسيعرفها. لنمنحه بعض الوقت، ومن ثمَ سيكون لنا الثلاثة حديث معاً. لست واثقاً من أن للأمر أهمية انطلاقاً من وجهات نظرنا، ولكنك مُحِقّة، فله الحق بمعرفة الحقيقة."

ثم سدّد الفاتورة وسارا في اتجاه ثورفالدسن وغاري.

"سأفتقد الفتى،" قال هنريك. "لقد شكلت وإياه فريقاً جيداً."

وكان مالون وبام قد سمعا كل ما حدث في النمسا.

"أظن أنه حصل على ما يكفي من الإثارة،" قالت بام.

ووافق مالون. "عليك العودة إلى المدرسة، يكفي ما تواجهه من مصاعب." وأدرك أن ثورفالدسن فهم ما يعنيه؛ فقد تحدثا عن الأمر في اليوم السابق. وبالرغم من انزعاجه من فكرة غاري ممسك برَجل يحمل مسدساً، فقد كان فخوراً به دون أن يُفصح عن ذلك. فدم مالون لا يسري في عروق الفتى، ولكن ما يهمّ أنه اكتسب ما يكفي من الأشياء من مالون ممّا يخوّله أن يكون الوالد. "لقد حان وقت ذهابكم."

وسار الثلاثة إلى نهاية الساحة حيث كان جِسبر ينتظر مع سيارة ثورفالدسن.

"أنت أيضاً حصلت على ما يكفي من الإثارة؟" سأل مالون جِسبر.

فابتسم الرجل وأومأ برأسه مؤكّداً الأمر. وكان ثورفالدسن قد أخبرهم في اليوم السابق بأن جِسبر لم يكن قادراً على قضاء أكثر من يومَين مع مارغريت هرمن. وكان قد أُطلق سراحها يوم السبت عندما عاد ثورفالدسن وغاري إلى الدانمارك جوّاً. ووفقاً لما قاله ثورفالدسن عن هرمن، فإن علاقة الأب بالإبنة لم تكن علاقة يُحسَدان عليها، إذ إن ما يقوم بينهما هو رابط الدم ليس أكثر.

فضمّ ابنه وقال، "أحبك. إعتنِ بوالدتك."

"ليست بحاجة إليّ لذلك."

"لا تكن واثقاً من ذلك."

والتفت إلى بام. "إذا ما احتجت إليّ يوماً، تعرفين أين تجدينني."

"وأنت كذلك. أقلّه أننا نعرف كيف نحمي ظهور بعضنا البعض."

لم يخبرا غاري عمّا حدث في سيناء، ولن يفعلا ذلك أبداً. وكان ثورفالدسن قد وافق على رعاية الحرّاس وتزويدهم بالاعتمادات المالية للحفاظ على الدَّير والمكتبة، وكانت الخطط جارية لأرشفة المخطوطات إلكترونياً. وسيتمّ ضمّ أعضاء جدد إلى الحرّاس ليصبح عددهم مناسباً للقيام بالمهام الموكَلة إليهم. واهتزّت مشاعر الدانماركي لفكرة تقديم المساعدة وكان ينتظر بشوق زيارة الموقع قريباً.

ولكن يجب التكتّم عن الأمر.

وقد أكد ثورفالدسن لإسرائيل بأنه تمّ احتواء المسألة، وبدا اليهود راضين عن الأمر بعد تقديم الولايات المتحدة ضمانات لهم.

صعدت بام وغاري إلى السيارة، وأخذ مالون يلوّح لهما بينما كانت العربة تتوارى في زحمة السير، متجهةً إلى المطار. وسار بعد ذلك بين الحشد وانضمّ إلى ثورفالدسن الذي كان يراقب العمال وهم يقومون برفع الركام من مبناه.

"هل عمّت الطمأنينة؟" سأل هنريك.

كان يعرف ما الذي يعنيه صديقه. "وضعنا حداً لتلك المخاوف."

"يمكن للماضي أن يكون مصدر كرب وغمّ لك."

فوافقه الرأي.

"أو أنه يكون أفضل صديق لك."

كان يعرف ماذا كان ثورفالدسن يعني بذلك. "من المدهش معرفة ما الذي يوجد في تلك المكتبة."

"من الواضح أن كنوزاً في انتظارنا."

وكان يراقب الرجال الواقفين على السّقالات وهم ينظفون بالأبخرة السُّخام الملتصق بالجهة الخارجية للمبنى الذي يعود إلى القرن السادس عشر.

"سوف يعود مثلما كان،" قال ثورفالدسن. "يعود لك أمر إعداد قائمة بالموجودات. هناك الكثير من الكتب للبيع."

كان مالون يتوق لاستئناف عمله في المكتبة. فتلك كانت مهنته: بائع كتب. ولكن هناك عِبرة يُفترَض استخلاصها من الدروس التي تعلّمها في الأيام القليلة الماضية. ففكّر ملياً بالتهديد الذي واجهه أفراد عائلة مالون الثلاثة، وما هو الأمر المهمّ حقاً، وأشار إلى المبنى.

"لا شيء أهم من ذلك."

وابتسم الدانماركي ابتسامة متفهّمة.

"لا شيء سوى العمل، يا هنريك. هذا كل شيء. لا شيء سوى العمل."

تعليق للكاتب

استلزم إعداد هذا الكتاب القيام بكثيرٍ من الأسفار إلى الدانمارك، وإنكلترا، وألمانيا، والنمسا، وواشنطن العاصمة، والبرتغال. وقد نشأت الفكرة الأساسية فيه أثناء عشاء في كامدن، جنوب كاليفورنيا، عندما سألني أحد المضيفين، واسمه كينيث هارفي، إن كنت قد سمعت يوماً بباحث لبناني يُدعى كمال الصليبي. وعندما أجبته بالنفي، قدّم لي أربعة كتب من مؤلفاته. وبعد عام تقريباً، تطوّرت فكرة هذه الرواية لدي، ولكن، وكما هو الأمر على الدوام، كل رواية هي مزيج من الواقع والخيال.

وقد حان الوقت في هذه المرحلة لتحديد النقاط الواجب التركيز عليها.

ففي ما يتعلّق بـ *"النكبة" التي وُصفت أولاً في المقدّمة، كانت تلك المأساة واقعيّة تماماً وهي لا تزال تلازم العلاقات في الشرق الأوسط.*

والأثر التاريخي الموصوف في الفصلَين 8 و34 مُستوحى من محور عجلة حقيقي من الرخام موجود في "شاغبورو هول" في إنكلترا. وقد تباحث مفكرون ينتمون إلى تيارات ثقافيّة حديثة ويؤمنون بنظرية المؤامرة بمعنى هذا الأثر التاريخي طيلة عقود من الزمن. أما المؤتمر الصحافي المذكور في الفصل الثامن فقد حدث في "شاغبورو هول" بالفعل، والتفسيرات المعطاة حول الأثر التاريخي هي تلك التي قدّم الخبراء الفعليّون شروحات عنها. ولكن المفهوم القائل إن الحروف الرومانيّة أتت على صورة خارطة فهو من ابتكاري الخاص.

وكما ذُكِر، فإن الفكرة القائلة إن العهد القديم دوّنه اليهود القدماء في مكان آخر غير فلسطين ليست فكرتي. فالفكرة القائلة إن الأرض التي وعد الله بها إبراهيم تقع في منطقة بعيدة جداً عمّا نعتبره الآن فلسطين هي فكرة مثيرة للجدل على أقل تقدير. أما تناقضات العهد القديم المُشار إليها في الفصول 20 و 23 و57 فهي

ليست جديدة. وقد ناقش الباحثون هذه النقاط طيلة قرون. وبالرغم من ذلك، فالتوراة هي مستند مرِن على الأقل، ويبدو أن كل جيل يترك علامةً فارقة في تفسيره له.

قصة دافيد بن ـ غوريون في الفصل 22 صحيحة. فقد بدّل مؤسس إسرائيل الحديثة سياساته بشكلٍ جذري بعد العام 1965، وأصبح ذا مَيلٍ تصالحي أكبر حيال العرب. وبعد ذلك، أوصِد في وجهه باب التعاطي بالسياسة الإسرائيلية حتى وفاته في العام 1973. وبالطبع، كانت زيارته للمكتبة من ابتكاري.

تاريخ نيكولاس بوسّان في الفصل 29 حقيقي. فقد تبدّلت حياته أيضاً جذري. أمّا مصير لوحته *"رعاة أركاديا" فهو معروض بشكلٍ صحيح، وكذلك المقطع المقتطَف من الرسالة التي تصف ما قد يكون بوسّان قد علم بشأنه سرًّا. إلاّ أن اللّغز المميّز هو سبب قيام بوسّان برسم لوحة رعاة أركاديا 2، وهي الصورة المعكوسة للّوحة الأولى (التي نُقِشت على الأثر التاريخي في "شاغبورو هول")*.

الحرّاس غير حقيقيين. ولو كانوا موجودين لكان بالإمكان ربما المحافظة على مكتبة الإسكندرية. والوصف المادّي للمكتبة في الفصل 21 هو أفضل وصف متوفر. وفي ما يتعلّق بكيفيّة اختفاء أكثر من نصف مليون مخطوط، فإن الشروحات الثلاثة الموجودة في الفصل 21 هي أفضل تخمين للخبراء. وكل الرجال المثقّفين الموصوفين في الفصل 23 عاشوا في الواقع، ولكن من المؤسف أن أيّاً من المخطوطات التي كانت موجودة في مكتبة الإسكندرية لم يُكتب له النجاة بسبب الدمار الذي لحق بها. ولا تزال خارطة بيري ريس (الفصل 32) موجودة وهي تقدّم لمحة خاطفة عمّا قد يكون فُقِد منها.

ضالة البطل شيء خيالي، وقد تمّ تعديلها بالارتكاز إلى مخطوط مُبهَم يُدعى *الأفعى الحمراء. وقد صادفتُه في رين ـ لو ـ شاتو عندما كنت أُجري بحثاً متعلّقاً بـ "إرث فارس الهيكل"*.

كانت طبقة البطانة الذهبية تشكل مجتمَعاً فرنسياً في القرون الوسطى، وترد تفاصيل نشوئه في الفصل 18. ولا تزال طبقة اجتماعية تحمل ذاك الاسم تزدهر في النمسا، ولكن لا علاقة لجماعتي الخياليّة بها. وقد استوحيت الملابس والزخرفة الخاصة بالطبقة من نماذج تعود للقرن الخامس عشر.

يقع دير بيليم للقديسة مريم في لشبونة. وقد زرته مرّتَين، وتاريخه وروعته ـ

كما هي موصوفة في الفصول 46 و48 و 51 و 53 و54 ـ دقيقة بالرغم من تبدّل بعض المعالم الجغرافية داخل المبنى. إنّه مكان تهافا بارز كما هي لشبونة.

المكان المقدس الذي يلعب دوراً محورياً في ضالة البطل يقع في دير بيليم. وطريقة قيام ضوء الشمس بتغيير لونه الخارجي الفضّي إلى ذهبي هي ظاهرة أُشير إليها منذ قرون. واليوم، تغمر الأضواء المسلطة اللون الفضّي لإبقاء هذا الأثر مستديماً. بالطبع، فقد حُذِفت هذه الأمور من القصة.

المتحف الوطني للفضاء هو أحد الأماكن المفضّلة لديّ، وكنت مسروراً لأنه وجد طريقه أخيراً إلى إحدى رواياتي. كرونبورغ سلوت (الفصل 9)، هلسنغور (الفصلان 11 و14)، بوميشترهوس في روثنبرغ (الفصل 22)، ووادي الراين والجسر الممتد فوق نهر موسل في ألمانيا الوسطى (الفصل 27) كلها حقيقية.

الرسائل المتبادَلة بين القديس جيروم والقديس أوغسطين (الفصلان 63 و65) هي من ابتكاري. فقد كان كلاهما رجلاً مثقفاً وناشطاً في السنوات الأولى من نشوء الكنيسة. وتُظهر الرسائل كيف أن ترجمة جيروم للعهد القديم من العبريّة إلى اللاتينيّة قد تكون عولجت لخدمة أهداف الكنيسة الناشئة. والتناقضات الشهيرة في ترجمة جيروم خاصة بالدكتور صليبي، لا بي أنا، ولكنها تطرح في الواقع أسئلة جذّابة.

لم أهبط أبداً بالمظلة من طائرة C130H، ولكن الكولونيل باري كينغ قام بالأمر وأطلعني على كل ما يتعلّق بهذا الموضوع.

الدير في سيناء (الفصل 72) هو أحد الأديار العديدة المنتشرة في تلك المنطقة المُقفِرة. وتحديد موقع مكتبة الإسكندرية المحفوظة هناك، تحت الأرض (الفصل 78)، ليس أمراً بعيد الاحتمال. فالمصريون القدماء بحثوا عن المعادن في تلك الجبال، ومن الممكن أن أنفاقهم كانت لا تزال موجودة بعد زمن المسيح.

حدثت قصة سيناء (الفصل 63) عرضها الكتاب المقدّس. والأبيبو كودكس (الفصل 23) الذي يعود تاريخه إلى عام 900 ميلادية يُعرَض في القدس ويبقى المخطوط الأقدم للعهد القديم. ومع ذلك، فمن شأن كتاب مقدّس يعود تاريخه إلى ما قبل المسيح ـ كذلك المذكور في الفصل 79 ـ تبديل كل ما يُعرَف عن العهد القديم.

يحتدم النزاع في الشرق الأوسط. ومن المدهش كيف أن الأديان الرئيسية الثلاثة في العالم ـ اليهودية، والإسلام، والمسيحية ـ اختارت تبجيل المكان نفسه

في القدس. وطوال ألفي عام، تقاتلت هذه الإيديولوجيات المتنازعة بهدف بسط سيادتها عليها، ولكن ذلك القتال في مستواه الجوهري ليس حول الأرض، أو الحرية، أو السياسة، كما هو مذكور في الفصل 7. وبدلاً من ذلك، فهو يركّز على أمرٍ أساسي إلى حدٍّ بعيد: كلمة الله.

ويملك كلّ من الأديان الثلاثة نسخته الخاصة. ويعتقد كلّ منها بشدّة أن النسختَين الأخرَيَين غير صحيحتَين. وهذا يشرح، أكثر من أي شيء آخر، سبب دوام الأزمة.

حوار مع ستيف بيري

س: عنوان روايتك الجديدة هو *لغز الإسكندرية*. *ماذا كانت بالتحديد مكتبة الإسكندرية؟*

ج: أعظم مجموعة من المعارف في العالم القديم: إنّها في الوقت نفسه جامعة، ومختبر، ومؤسسة أبحاث، وحديقة حيوانات. مجمّع مثير للإعجاب من المباني والحدائق (الموجودة في موقعين منفصلين) يشبه معبداً إغريقياً، ويحتوي كلّ منهما على قاعات مزخرفة للخطابة والولائم تربطها ببعضها البعض ممرّات يقوم على جوانبها صفوف من الأعمدة. أُسِست المكتبة في القرن الرابع قبل الميلاد وكان يرتادها العلماء، والفلاسفة، والفنانون، والكتّاب، والباحثون اليونانيّون، وتحتوي على مجموعة ضخمة اللفائف والمخطوطات المدونة على ورق البردي التي يزيد عددها على 700،000. فعندما يعثر على كتاب على متن سفينة تزور الإسكندرية، كان القانون يفرض أخذ الكتاب إلى المكتبة ونسخه، لأن التقليد يقضي بعدم خلو مكتبة الإسكندرية من أي مخطوط.

س: كيف كان يبدو *الإسكندر* نفسه؟

ج: معقّد على أقل تقدير. عاش حياة قصيرة، ثلاثاً وثلاثين عاماً، بين عامَي 356 و232 قبل الميلاد. كان الملك الأول لمقدونيا، ثم غزا قسماً كبيراً ممّا كان يعرف آنذاك العالم المتحضّر ـ اليونان، ومصر، وآسيا الصغرى، وآسيا حتى الهند الغربية. وقد تمّ رسمه بطرق منوّعة متعارضة يبدو أنها لا تضيف إلى شخصيته سوى الغموض. ونظراً إلى كونه مقاتلاً من الدرجة الأولى، فقد كان يملك حسّاً سياسياً حكيماً مكّنه من تحويل أعدائه اللدودين إلى أصدقاء دائمين. وكان

أيضا صاحب بصيرة: إغريقي أصبح فارسياً، رافضاً القومية التافهة التي كانت تشغل تفكيره السياسي في معظم الوقت. قبل الإسكندر ازدهرت الأفكار الشرقية. وبعده هيمنت الأفكار الغربية. بشّر باقتراب العصر الهليني للهيمنة الإغريقية التي أرست مع الرومان والمسيحية أسس ما يُعرف الآن بالحضارة الغربية. إنّه بالفعل إرث مُذهل.

س: *ماذا حلّ أخيراً بمكتبة الإسكندرية؟*

ج: تقول إحدى الروايات إنها احترقت عندما حارب يوليوس قيصر بطليموس الثامن في العام 48 ق.م. فقد أمر قيصر بإشعال الأسطول الملكي، ولكن النار امتدّت إلى كل مكان من المدينة ولعلها دمّرت المكتبة. وألقت رواية أخرى اللوم على المسيحيين الذين زُعِم أنهم دمّروا المكتبة الرئيسية في العام 272 بعد الميلاد والمكتبة الثانوية في السيرابيوم في العام 391 في إطار سعيهم لتخليص المدينة من كل التأثيرات الوثنيّة. ونسبت رواية أخرى تدمير المكتبة إلى العرب بعد فتح الإسكندرية في العام 642. وهكذا، يُزعَم أن لفافات الورق كانت وقوداً لحمّامات الإسكندرية طيلة ستة أشهر. ولكن لا أحد يعلم الرواية الصحيحة. والتفسير الأكثر واقعيّة هو أنه لدى مواجهة مصر حالة اضطراب متزايدة وعدواناً خارجياً، وقعت المكتبة ضحيّة الاضطهاد، وعنف الرّعاع، والاحتلال العسكري - من دون أن تتمتّع بعد ذلك بامتيازات خاصة. واختفى ببساطة كل ما جمعه ذلك الرجل.

س: *هل هناك أي أمل في أن تكون المكتبة لا تزال موجودة؟*

ج: ما أروع هذه اللُقية إذا وُجدت، ولكنها اختفت على الأرجح، للأسف. ومع ذلك، يمكننا أن نتخيّل أنها نجت.

س: *نظراً للحديث الأخير عن الجهود المبذولة لجمع كل المواد المكتوبة في مكتبة رقميّة شاملة، هل كانت مكتبة الإسكندرية تسبق عصرها في هذا المجال؟*

ج: بلا ريبٍ. حتى إن الأقدمين أدركوا المنطق من امتلاك معرفة مستوعَبة ومنظّمة في آن، ووجدوا الأمر مناسباً. ولسوء الحظ، كانت مكتبة الإسكندرية تمثّل إحدى المحاولات الأولى والأخيرة لذلك العصر لإنجاز المهمة. وبعد زوالها، لم يقم الإنسان بتكرار المحاولة إلا في العصور الوسطى، أي بعد ثمانمئة عام.

س: كيف أثار هذا الموضوع اهتمامك؟

ج: لقد أبديت اهتماماً بمكتبة الإسكندرية طيلة سنوات عدة، وكنت أعلم أنني ساضع كتاباً عنها في نهاية المطاف. فالمكتبات فاتنة وجذّابة. وأنا أتولّى حالياً منصب رئيس مجلس أمناء مكتبة مقاطعة كامدن، لذا فللمؤسسات منزلة حميمة وغالية في قلبي.

س: هل زرت يوماً المكتبة الجديدة في الإسكندرية التي افتُتحت قبل بضع سنوات، أم أنك تخطط لذلك؟

ج: سأقوم بزيارتها هذا العام، وأتطلّع إلى ذلك بشوق ولهفة.

س: ماذا عن لوحة بوسّان الغريبة، 'رعاة أركاديا 2'، والعلامات الغريبة في "باينبريدج هول" في إنكلترا والتي أثرتها في روايتك أيضاً؟ هل لديك أي فكرة عمّا تعنيه في الواقع؟

ج: يستحيل قول ذلك. الأمران ساحران. ولا يزال السبب الذي دفع بوسّان إلى رسم الصورة المعكوسة لعمله الفني الأول، يشكّل لغزاً محيّراً. ولكن ذلك الفضول، إضافةً إلى حياة بوسّان الواقعية، تلائم حبكة الرواية جيداً. فالعلامات (ولوحة بوسّان المعكوسة) في "بلينبريدج هول" الخيالي مبنية على النُّصْب التاريخي الفعلي القائم في "شاغبورو هول" في إنكلترا. وحاول الخبراء كثيراً حلّ رموز معناها، ولكن أيّاً منهم لم يقدّم شرحاً مُرضياً. أظن حالياً أن تفسيري مفهوم أكثر من غيره.

س: جرت أحداث مقدمة لغز الإسكندرية في فلسطين في العام 1948 - لدى تأسيس دولة إسرائيل. ومن الواضح أنها كانت فترة بالغة الأهميّة في تاريخ تلك المنطقة التي مزّقتها الحرب، ولكنه موضوع عسير يجدر التطرّق إليه. ما الذي حملك على الكتابة عنه؟ كيف بحثت في الزمان والمكان؟ وما هي التحدّيات التي واجهتك؟

ج: لقد بذلت جهداً كبيراً لوضع هذه المقدمة، متأملاً في ما إذا كان عليّ الارتكاز على الأزمنة القديمة أو البقاء في الزمن الحالي. ووقع اختياري على العام 1948 لأن ما حدث للعرب إبّان النكبة مطابق إلى حدّ كبير لما يحدث في العالم اليوم. هذا ما هو عليه الحال في أزمة الشرق الأوسط: التاريخ يلعب دوراً محورياً. وكان البحث في كل تلك الأحداث سهلاً. فهناك كتب لا تُعَدّ ولا

تُحصي. وقد تَمثّل التحدّي بالمقارنة بين العديد من الادّعاءات المتعارضة. صدقاً، ليس هناك جانبان لكل قصة بل مئة جانب وجانب.

س: للمرة الأولى في مهنتك، أعدت إلى الذاكرة شخصيات في هذه الرواية. فقد أعدت كوتون مالون وعدداً قليلاً من الشخصيات الأخرى في كتابك الأكثر مبيعاً *"إرث فارس الهيكل". هل كان من الأسهل أو من الأصعب العمل مع شخصيات سبق لك أن عرفتها؟*

ج: *قليل من الاثنين معاً. لا يمكنك أن تفترض أن قرّاء هذا الكتاب سبق لهم أن قرأوا "إرث فارس الهيكل"، لذلك هناك قدر معيَّن من تطوّر هذه الشخصية أو تلك الذي يجب أن تحتوي عليه كل قصة. وعلى أي حال، فإن ما يدعونا إلى اللجوء إلى هذه الشخصيات ثانيةً هي قدرتها على النموّ. يمكن للقراء معرفة المزيد عن هذه الشخصيات كلما واجهتْ أوضاعاً مختلفة. وكالأصدقاء القدامى، كلما رأيتَهم عرفت المزيد عنهم. وهذا الأمر مختلف عمّا هو الحال في رواياتي الثلاث الأولى، 'غرفة الكهرمان'، و'نبوءة رومانوف'، و'السر الثالث'، التي كانت بمجملها مستقلة عن بعضها البعض.*

س: أفترض أن كوتون والآخرين سيعودون. هل يمكنك إعطاء أي تلميحات عن المغامرة التي تنتظرهم؟

ج: كل واحد منهم سيعود في العامين 2008 و2009 في مغامرتين إضافيّتين. أقوم الآن بوضع كتاب العام 2008 الذي سيحمل كاسيوبيا وكوتون إلى آسيا الوسطى في بحث فني آخر من نتاج الإنسان، شيء ما لفت اهتمامي طيلة سنوات. أما حبكة العام 2009 فقد بدأت تدور في عقلي منذ الآن.